وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

موسوعة الثقافة الإسلامية

تأليف
أ.د/ محمد مختار جمعة
وزير الأوقاف
عضو مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف
رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

الطبعة الثالثة
١٤٤٥ هـ - ٢٠٢٣ م

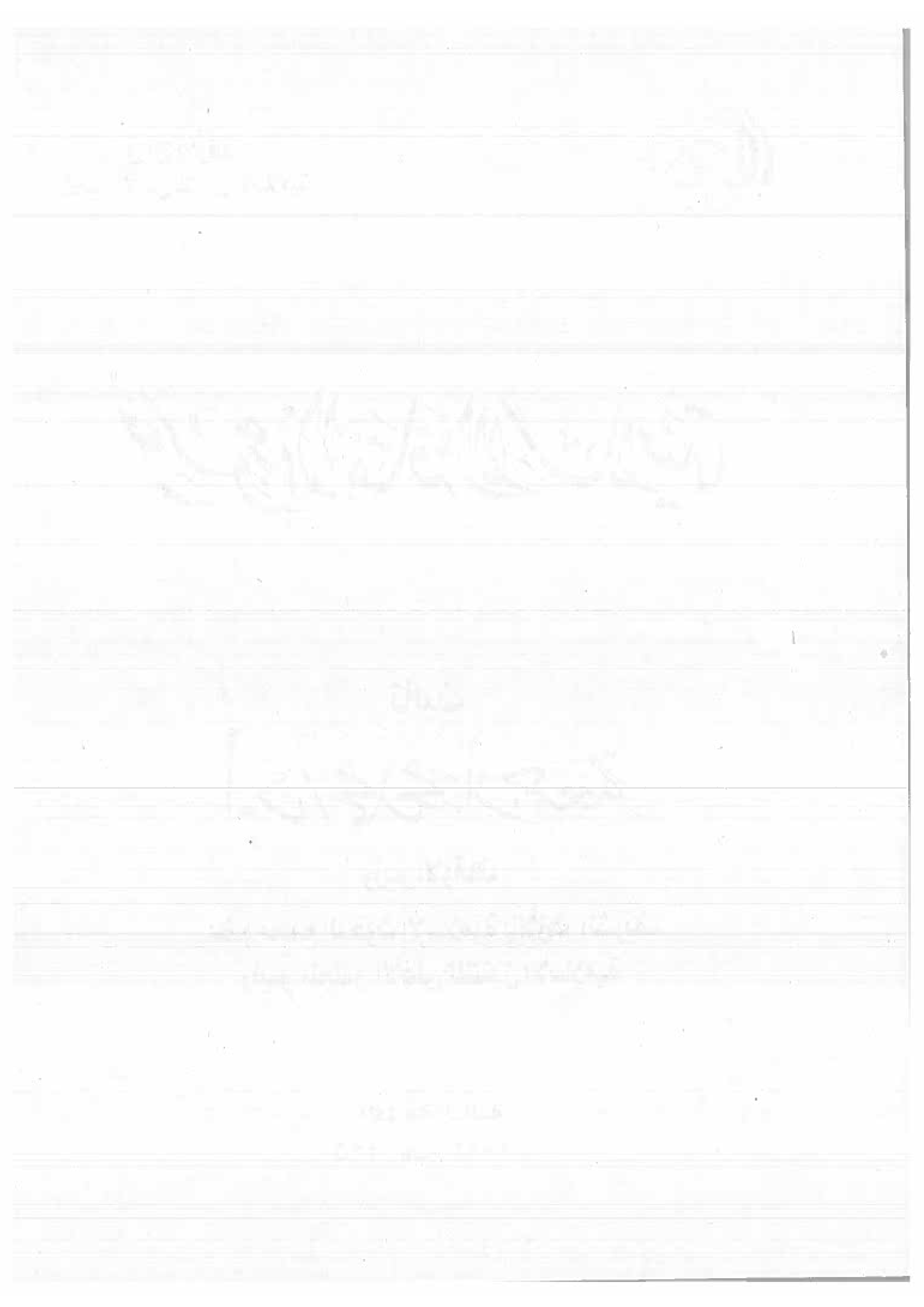


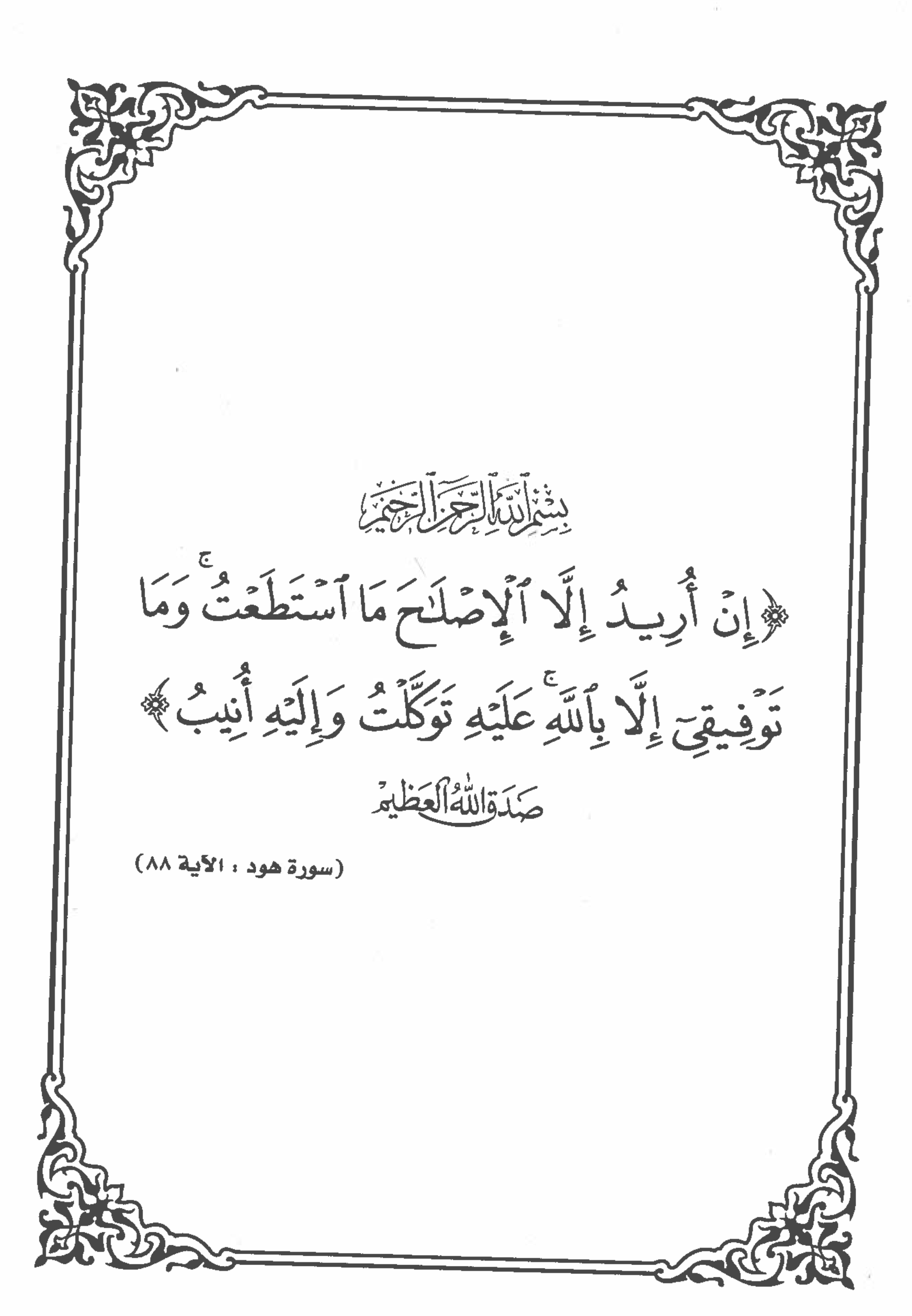
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

موسوعة الثقافة الإسلامية

تأليف
أ.د/ محمد مختار جمعة
وزير الأوقاف
عضو مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف
رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

الطبعة الثالثة
١٤٤٥ هـ - ٢٠٢٣ م



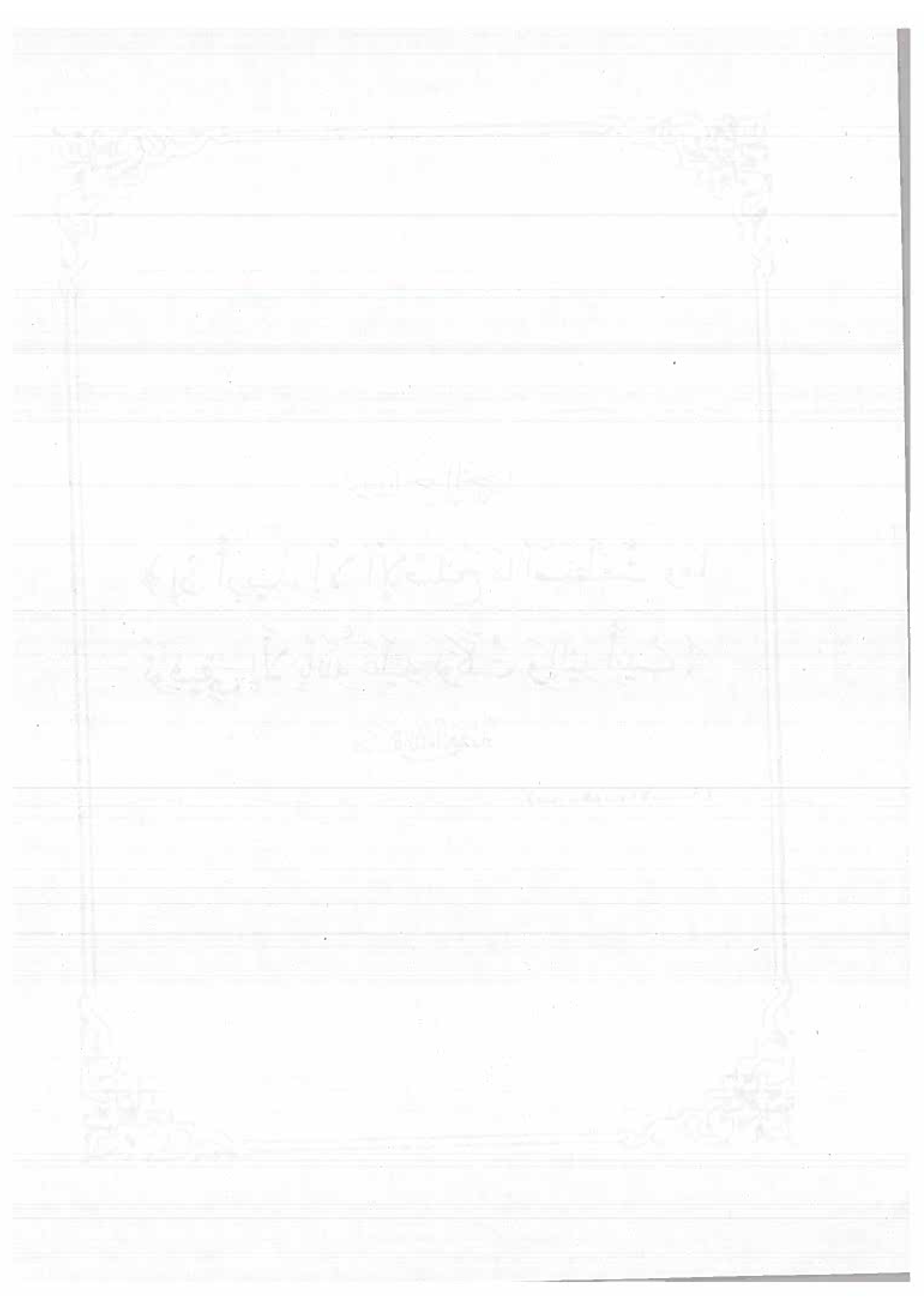


بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾

صدق الله العظيم

(سورة هود : الآية ٨٨)





المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ، وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه إلى يوم الدين.

وبعـــد:

فإن الثقافة الرشيدة من أهم مفاتيح الفكر الرشيد والتفكير السديد، وهي كما عرَّفها إدوارد تايلور ١٨٧١م: ذلك الكلّ المركَّب الذي يشمل المعرفة والعقيدة والفن والأخلاق والقانون والعادات، وكل المقومات الأخرى التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضوًا في المجتمع، فهي تشمل مجموع النشاط الفكري والفني بمعنيهما الواسع، وما يتصل بهما من المهارات وما يعين عليهما من الوسائل، وكلما اتسعت المدارك الثقافية للإنسان أهّلته للحكم الدقيق على الأشياء، إذ يقرر علماء النفس أن المعلومات الوافدة على الذهن تفسَّر في ضوء المخزون فيه، فكلما كان المخزون الثقافي كبيرًا سهل على العقل فهم واستيعاب وتفسير الوافد الفكري ورؤيته بمقياس أدق، ومن ثمَّ فإن النشاط الذهني الثقافي يوسع المدارك ويعين على الفهم الصحيح للأشياء وحسن التقدير للأمور.

ولعل من أيسر التعاريف لمفهوم الثقافة والمثقف هو أنه من يعرف كل شيء عن شيء وشيئًا عن كل شيء، وقد يتسع أو يضيق هذا الشيء على قدر قربه من التخصص الدقيق للإنسان ومدى الحاجة إليه في خدمة المجتمع والحياة العامة، مع تأكيدنا أن الثقافة ليست أمرًا هامشيًا أو ثانويًا في حياة الأمم والشعوب، إنما هي مكون رئيس في حياتها، وأن الثقافة التي ننشدها ونعض عليها بالنواجذ هي ثقافة النور في مواجهة ثقافة الظلام، هي الثقافة التي تبني ولا تهدم، وتعمر ولا تخرب، وهي أحد أهم عوامل مواجهة التحديات، وفك شفراتها، والتعامل بمنهجية معها، بل إن كثيرًا من المشكلات التي تعاني منها كثير من المجتمعات ترجع في بعض جوانبها إلى ضيق الأفق الثقافي، أو ضعفها أو محدوديته، أو انغلاقه، أو حتى انسداد شرايينه؛ فالثقافة قضية حياة.

وإذا كانت الثقافة أمرًا تراكميًا، وكلما كانت المعلومات المتراكمة عبر الزمن أكثر كانت الثقافة أغزر وأعمق؛ فإن الثقافة الإسلامية تتميز بأنها تجمع بين التأصيل الشرعي والوعي الواقعي بتاريخ الأمة وحاضرها ومستقبلها، وما يواجهها من تحديات وما يتاح لها من فرص، وعرض ذلك كله بما

يتسق وروح العصر، حيث عرَّفها بعض المفكرين والكتاب بأنها: معرفة مقومات الأمة الإسلامية العامة بتفاعلاتها في الماضي والحاضر.

والثقافة الإسلامية بوصفها مجموعة المعارف والمعلومات النظرية والخبرات العملية والتطبيقية المستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية المشرَّفة، هي الهوية الراسخة لتكوين الشخصية الإسلامية المتميزة في معارفها، المطَّلعة على ثقافة عصرها المتبنِّية لقضاياه، وهي التي يكتسبها الإنسان ويحدد في ضوئها طريقة تفكيره ومنهج سلوكه في الحياة.

ولا شك أن خطابًا ثقافيًا وسطيًّا سمحًا رشيدًا منضبطًا يسهم وبقوة في قضايا البناء والتعمير وتحقيق الأمن المجتمعي والأمن النفسي، كما يسهم في تحسين مناخ العلاقات الإنسانية في المجتمع، وتحقيق وسائل الاندماج وقبول الآخر وفقه العيش المشترك بين أبنائه، وهو مطلب ديني ووطني وإنساني.

ومن منطلق مسئوليتنا الشرعية في نشر صحيح الثقافة الإسلامية، ثقافة التسامح والسلام، وبيان أوجه الكمال والأدب والجمال فيها، وتأصيل فقه العيش المشترك، وتصحيح المفاهيم الخاطئة، ومواجهة التحديات نقدم تلك الموسوعة العصرية التجديدية في الثقافة الإسلامية؛ لتلقي الضوء على بعض الجوانب الرئيسة فيها، بدءًا من ثوابت الإيمان، وأوجه الكمال والجمال في القرآن الكريم، والأدب مع رسول الله ﷺ، مرورًا ببيان المقاصد الكلية للشريعة الإسلامية، وفلسفة الحرب والسلم والحكم في الإسلام، ومسئولية الكلمة وأمانتها، مع مقالات في بيان أهمية التجديد وحتميته في ضوء مستجدات الواقع والفهم الصحيح له في إطار الحفاظ على الثوابت الشرعية، مع إلقاء الضوء على فن الخطابة عبر العصور الإسلامية بوصفه من الوسائل الرئيسة التي لا غنى عنها في نشر الثقافة الإسلامية.

والله من وراء القصد، وهو الموفق والمستعان.

أ.د/ محمد مختار جمعة مبروك
وزير الأوقاف
رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
وعضو مجمع البحوث الإسلامية

المختصر الشافي في الإيمان الكافي

عقيدتنا أنّنا نؤمن بالله الواحد الأحد، خالق الخلق، ومالك الملك، وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عالم الغيب والشهادة، فلا يعزب عن علمه شيء في الأرض ولا في السماء، يحيط علمه بكل شيء، ولا يحيط به شيء، وأنه جَلَّ وَعَلَا هو الحق المبين، لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا، وليس له كفْءٌ ولا ندٌّ ولا نظيرٌ ولا شبيهٌ ولا شريك، وهو الأول بلا بداية والآخر بلا نهاية، وأنّه نور السماوات والأرض، وهو الحي الذي لا يموت، وأن أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون، وهو الحي القيوم، الرحمن الرحيم، له الأسماء الحسنى ندعوه بها.

عقيدتنا أنّ الله تعالى ملائكة خلقهم سبحانه من نور، وهم عباد مكرمون، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، وأن الله عَزَّوَجَلَّ يصطفي منهم رسلًا كما يصطفي من الناس، وأن منهم مَن ذُكر في القرآن الكريم أو السنة النبوية الشريفة بأسمائهم كجبريل وميكائيل عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، أو بصفاتهم كحملة العرش وكتبة الأعمال، وغيرهم.

عقيدتنا أنّنا نؤمن بأن الله عَزَّوَجَلَّ قد أرسل رسله وأنزل عليهم كتبه؛ حيث يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وأن جميع الكتب السماوية قد اتفقت على الدعوة إلى توحيد الله عَزَّوَجَلَّ وعبادته وحده لا شريك له.

عقيدتنا أنّنا نؤمن بأن القرآن الكريم هو كلام الله تعالى المنزَّل على رسوله محمد ﷺ، المتعبد بتلاوته، المتحدَّى بأقصر سورة منه، وأن السنة النبوية المشرَّفة شارحة ومفصلة ومبينة للقرآن الكريم، ومتممة لتشريعات ديننا الحنيف، كما نؤمن بجميع الكتب المذكورة تفصيلًا في القرآن الكريم.

عقيدتنا أنّنا نؤمن بأن الله عَزَّوَجَلَّ أرسل رسلًا كثيرة، منهم من ذُكر في القرآن الكريم

ومنهم من لم يُذكر؛ حيث يقول الحق سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨]، وقد بعث عَزَّوَجَلَّ جميع الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بالحق والعدل والقسط مبشرين ومنذرين؛ كي لا يكون للنَّاس على الله سبحانه حجة بعد الرسل.

عقيدتنا أن حبَّ سيدنا رسول الله ﷺ جزءٌ لا يتجزأ من إيماننا، ونترضَّى عن أصحابه أجمعين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وآل بيته الأكرمين، وأتباعه وأتباع أتباعه الطيبين الطاهرين، والصالحين أجمعين.

عقيدتنا أنّنا نؤمن باليوم الآخر، وأنه يوم يفصل الله عَزَّوَجَلَّ فيه بين الخلائق، فهو يوم الحساب ويوم الجزاء؛ حيث يقول سبحانه: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦]، ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ويقول الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، ويقول سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ [النبأ: ٣٩].

عقيدتنا أنّنا نؤمن بالقدر خيره وشره، حلوه ومره، وأن الله عَزَّوَجَلَّ قدَّر جميع الأشياء بمشيئته لها، وأن الأمور كلها بيده سبحانه، لا رادَّ لحكمه ولا معقب لقضائه، مع تأكيدنا أن الإيمان بالقدر لا يتنافى مع الأخذ بالأسباب.

وقد آثرت أن يكون هذا المبحث مبحثًا مختصرًا خاليًا من أي مسائل جدلية أو خلافية، شافيًا في تحقيق معنى الإيمان، متضمنًا ما لا يُستغنَى عنه من أصوله.

الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ

إنَّ الإيمان بالله تعالى هو الركن الركين للإيمان؛ حيث يقول الحق سبحانه: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].



فعقيدتنا أنّنا نؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، حلوه ومره، وأننا رضينا بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبسيدنا محمد ﷺ نبيًّا ورسولًا، ولما سأل جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ نبينا ﷺ عن الإيمان؛ أجابه ﷺ: «أَنْ تُؤْمِنَ بالله، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»(١).

خالق الخلق ومالك الملك:

عقيدتنا أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ هو خالق الخلق، ومالك الملك، وأنه تعالى قادر، له القدرة المطلقة؛ حيث يقول سبحانه: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦]، ويقول تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عالم الغيب والشهادة، فلا يعزب عن علمه شيء في الأرض ولا في السماء، قال تعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]، وأنه جَلَّ وَعَلَا هو الحق المبين، وأن سيدنا محمدًا عبده ورسوله الصادق الوعد الأمين، وأن القيامة حقٌّ، وأن الجنة حقٌّ، وأن النار حقٌّ؛ حيث يقول نبينا ﷺ: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَالجَنَّةَ حَقٌّ، وَالنَّارَ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ الله الجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ»(٢).

الواحد الأحد:

عقيدتنا أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ هو الواحد الأحد الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا، وليس له كفءٌ ولا ندٌّ ولا نظيرٌ ولا شريك؛ حيث يقول الله جل شأنه: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١-٤]، ويقول الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ [الإسراء: ١١١]، ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن: ٣]، ويقول تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا

﴿كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١]، ويقول الحق جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، ويقول سبحانه: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١]، ويقول تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۝٨٨ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ۝٨٩ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝٩١ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٨٨-٩٣].

الأول والآخر:

عقيدتنا أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ هو الأول بلا بداية والآخر بلا نهاية، يحيط علمه بكل شيء، ولا يحيط به شيء؛ حيث يقول سبحانه: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، وأن الله عَزَّوَجَلَّ هو نور السماوات والأرض، وهو الحي الذي لا يموت، وهو القاهر فوق عباده، وهو السميع البصير العليم، وأن أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون، وهو الحي القيوم، الرحمن الرحيم، له الأسماء الحسنى؛ حيث يقول الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٢٣ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤].

منزه عن الزمان والمكان والشبيه والمثيل:

عقيدتنا أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ مُنزَّهٌ عن الزمان والمكان، والنِّدِّ، والنظير، والشبيه، والضريب[٣]، يقول تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وقد قالوا: «كل ما خطر ببالك فالله عَزَّوَجَلَّ خلاف ذلك»[٤].

وهو وحده القادر على الإحياء والبعث، وأمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون، يقول الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ



﴿٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ٧٩ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ٨٠ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ٨١ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ٨٢ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٧٨-٨٣].

وقد جاء الأمر بالإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ صريحًا في مواضع عديدة من القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦]، وقوله سبحانه: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ٧ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الحديد: ٧-٨]، وقوله سبحانه: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ٨ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التغابن: ٨-٩].

أثر الإيمان وثوابه

الإيمان بالله تعالى مفتاح كل خير، وأمان من كل شر؛ حيث يقول الحق سبحانه: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]، ويقول الحق تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ [الجن: ١٣].

وقد وعد الله عَزَّوَجَلَّ من حقق الإيمان بالهداية إلى صراطه المستقيم، والثبات عليه، فصاحب الإيمان الحق في أمان من الضلال والإضلال؛ بل هو في رحمة الله تعالى وفضله،

له أجره ونوره؛ حيث يقول الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ١٧٥]، ويقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الحديد: ١٩]، ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١١].

كما وعد الله عَزَّوَجَلَّ من حقق الإيمان بالأجر العظيم والثواب الجزيل، يقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[النساء: ١٥٢]، ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٦٢].

وقد أعدَّ الله عَزَّوَجَلَّ للمؤمنين دار المُقامة في جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدًا، يقول سبحانه: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١]، ويقول الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦]، ويقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝ رَّسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ [الطلاق: ١٠-١١].

والإيمان بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو التجارة الرابحة، وهو سبب المغفرة والرحمة من الله عَزَّوَجَلَّ، وهو طريق الفوز بالجنة والعتق من النار، يقول سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ

أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١٠-١٣].

لوازم الإيمان وصفات المؤمنين

للإيمان لوازم لا يتم إلا بها، فلا إيمان لمن لا أمان له، ولا إيمان لمن لا أمانة له، ولا إيمان لمن لا عهد له، ولا إيمان لمن لم يأمن جاره بوائقه؛ حيث يقول نبينا ﷺ: «لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ»[٥]، ويقول ﷺ: «وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ» قِيلَ: وَمَنْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «الَّذِي لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَايِقَهُ»[٦]، ويقول ﷺ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ»[٧]، وفي رواية: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا بَوَائِقُهُ؟ قَالَ: «شَرُّهُ»[٨]، ويقول ﷺ:«مَا آمَنَ بِي مَنْ بَاتَ شَبْعَانَ وَجَارُهُ جَائِعٌ إِلَى جَنْبِهِ وَهُوَ يَعْلَمُ بِهِ»[٩].

والإيمان يقتضي الخشية من الله عَزَّوَجَلَّ، ووجل القلوب منه، واطمئنان القلوب بذكره، يقول سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢-٤]، ويقول تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ [الرعد: ٢٨-٢٩].

والإيمان يقتضي المسارعة إلى مرضاة الله عَزَّوَجَلَّ، والتسليم لحكمه وقضائه، يقول الحق سبحانه: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].

والإيمان يقتضي أن نقدم حبّ الله عَزَّوَجَلَّ وحب رسوله ﷺ على كل حبّ، وطاعة الله عَزَّوَجَلَّ وطاعة رسوله ﷺ على كل طاعة، يقول سبحانه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [النساء: ١٣]، ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ

وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النور: ٥٢]، ويقول الحق سبحانه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ١٧].

كما أكدت السنة النبوية المطهرة على وجوب تقديم طاعة الله عَزَّوَجَلَّ وطاعة رسوله ﷺ على كل طاعة؛ حيث يقول نبينا ﷺ: «ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ الله وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلَّا لله، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»[10]، ويقول ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ الله وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَحَتَّى يُقْذَفَ فِي النَّارِ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ بَعْدَ إِذْ نَجَّاهُ الله مِنْهُ، وَلَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»[11]، ويقول ﷺ: «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»[12].

والإيمان يقتضي أن نرضى بحكم الله عَزَّوَجَلَّ وحكم رسوله ﷺ، فنصدر بأمره ونقف عند نهيه؛ حيث يقول الحق سبحانه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، ويقول تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٦٢].

والإيمان يقتضي أن الله ندعوه تعالى وحده، ولا نشرك به شيئًا، يقول الحق جَلَّ وَعَلَا: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف: ١٣-١٤].

والإيمان يقتضي أن نأمر بالمعروف ونأتيه، وأن ننهى عن المنكر ولا نأتيه، يقول الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ



﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

والإيمان يقتضي أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك؛ حيث يقول نبينا ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»(١٣)، كما يقتضي الإيمان أن تحب المؤمن لإيمانه، وتنصح الفاسق لعصيانه، يقول تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

والإيمان يقتضي أن تقول الصدق مع ظنك أن الصدق قد يضرك، وألَّا تقول الكذب مع ظنك أن الكذب قد ينفعك؛ لأنك تدرك وتؤمن بأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، موقنًا بقول الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢]، ويقول نبينا ﷺ: «تَحَرَّوُا الصِّدْقَ وَإِنْ رَأَيْتُمْ أَنَّ فِيهِ الهَلَكَةَ؛ فَإِنَّ فِيهِ النَّجَاةَ، وَاجْتَنِبُوا الكَذِبَ وَإِنْ رَأَيْتُمْ أَنَّ فِيهِ النَّجَاةَ؛ فَإِنَّ فِيهِ الهَلَكَةَ»(١٤)، وعن عبادة بن الصامت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله كيف لي أن أعلم خير القدر وشره؟ قال: «تعلم أنَّ مَا أخطأك لم يَكن لِيُصيبك وَمَا أَصَابك لم يَكن لِيُخطِئك، فإنَّ مِت على غَير ذَلك دخلت النار»(١٥).

من صفات المؤمنين:

إنَّ المؤمنين هم مَنْ آمنوا بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ورسوله ﷺ فأزهر الإيمان في قلوبهم وأثمر؛ فأسلموا لأمر الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله ﷺ ولم يرتابوا؛ حيث يقول تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥]، ويقول سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ

زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]، ويقول الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].

والمؤمنون حقًّا من يترجمون الإيمان إلى عمل؛ حيث يقول سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ① ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ② وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ③ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ④ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ⑤ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ⑥ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ⑦ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ⑧ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ⑨ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ⑩ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١-١١]، فالإيمان الحقيقي هو ما وقر في القلب وصدّقه العمل.

والمؤمنون لا يقدمون بين يدي الله ورسوله، يقول الحق سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١]، ولا يرفعون أصواتهم فوق صوت النبي ﷺ؛ حيث يقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢].

والمؤمنون يعلمون أن الرسول ﷺ أولى بهم من أنفسهم، فلا خيار لهم في أمر بعد أن حكم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ورسوله ﷺ فيه، يقول سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

والمؤمنون هم مصابيح المساجد وعُمّارُها، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨].

الإيمان بالملائكة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ

الإيمان بالملائكة ركنٌ من أركان الإيمان الذي يقوم على الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقضاء خيره وشره



حلوه ومره، يقول الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

والإيمان بالملائكة ينتظم معاني عدة، منها: التصديق بوجودهم، وإنزالهم منزلتهم الكريمة اللائقة بهم، وإثبات أنهم عباد الله وخلقه، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وأن الله عَزَّوَجَلَّ يصطفي منهم رسلًا كما يصطفي من الناس؛ حيث يقول الحق جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٧٥]، ويلزم من الإيمان بالملائكة الإيمان بمن ذكر منهم تفصيلًا باسمه كجبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، أو بصفته كملك الموت، أو من ذكروا إجمالًا بصفاتهم كحملة العرش، وخزنة الجنة، وخزنة النار، وكتبة الأعمال.

لقد خلق الله عَزَّوَجَلَّ الملائكة من نور، وهم عباد مكرمون، يسبحون بحمد ربهم، ويستغفرون للذين آمنوا، يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥]، ويقول تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۖ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧]، ويقول الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشورى: ٥]، ويقول سبحانه: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ [فصلت: ٣٨]، ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

ومَن كان عدوًّا للملائكة فهو عدوٌّ لله عَزَّوَجَلَّ؛ حيث يقول الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨]، ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

والملائكة يسبحون الله عَزَّوَجَلَّ وله يسجدون؛ حيث يقول الحق سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٤٩-٥٠]، ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩-٢٠].

وهناك من الملائكة من ذكروا في القرآن الكريم أو السنة النبوية الشريفة بأسمائهم أو بصفاتهم، منهم: الروح الأمين جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، يقول تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٤]، ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٧].

ومنهم: ميكائيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الذي جاء ذكره في قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨].

ومنهم: إسرافيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الملك الموكل بالنفخ في الصور، فعَنْ أم المؤمنين عَائِشَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، أَنَّهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «اللهُمَّ رَبَّ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَرَبَّ إِسْرَافِيلَ أَعُوذُ بِكَ مِنْ حَرِّ النَّارِ، وَعَذَابِ القَبْرِ»(١٦).

ومنهم: مالك عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ خازن النار؛ حيث يقول الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧].

ومنهم: ملك الموت؛ حيث يقول الحق عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: ١١].

ومنهم: من ذكروا جماعات بصفاتهم كحملة العرش وغيرهم؛ حيث يقول الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧]، ويقول سبحانه:



﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١].

ومنهم: من ذكروا بأوصافهم وما أوكل إليهم من أعمال، ففي صدر سورة الصافات يقول سبحانه: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ① فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ② فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ [الصافات: ١-٣][١٧]، وفي سورة الذاريات يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ① فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ② فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ③ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾ [الذاريات: ١-٤][١٨]، وفي سورة المرسلات يقول تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ① فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ② وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ③ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ④ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا⑤ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ [المرسلات: ١-٦][١٩]، وفي سورة النازعات يقول تعالى: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ① وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ② وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ③ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ④ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ١-٥][٢٠].

كما تحدثت السنة النبوية عن الملائكة في كثير من المواضع، منها ما ورد عَنْ سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتَيَانِي قَالَا: الَّذِي يُوقِدُ النَّارَ مَالِكٌ خَازِنُ النَّارِ، وَأَنَا جِبْرِيلُ وَهَذَا مِيكَائِيلُ»[٢١].

وعَنْ عَبْدِ الله بنِ مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا إِذَا صَلَّيْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ قُلْنَا: السَّلَامُ عَلَى الله قَبْلَ عِبَادِهِ، السَّلَامُ عَلَى جِبْرِيلَ، السَّلَامُ عَلَى مِيكَائِيلَ، السَّلَامُ عَلَى فُلَانٍ وَفُلَانٍ، فَلَمَّا انْصَرَفَ النَّبِيُّ ﷺ، أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ، فَقَالَ: «إِنَّ الله هُوَ السَّلَامُ، فَإِذَا جَلَسَ أَحَدُكُمْ فِي الصَّلَاةِ فَلْيَقُلْ: التَّحِيَّاتُ لله، وَالصَّلَوَاتُ، وَالطَّيِّبَاتُ، السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ الله وَبَرَكَاتُهُ، السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ الله الصَّالِحِينَ، فَإِنَّهُ إِذَا قَالَ ذَلِكَ أَصَابَ كُلَّ عَبْدٍ صَالِحٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، ثُمَّ يَتَخَيَّرُ بَعْدُ مِنَ الكَلَامِ مَا شَاءَ»[٢٢].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِذَا قُبِرَ المَيِّتُ - أَوْ قَالَ: أَحَدُكُمْ - أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ، يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا: المُنْكَرُ، وَلِلْآخَرِ: النَّكِيرُ، فَيَقُولَانِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ: مَا كَانَ يَقُولُ، هُوَ عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَأَنَّ مُحَمَّدًا

عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولَانِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ هَذَا، ثُمَّ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا فِي سَبْعِينَ، ثُمَّ يُنَوَّرُ لَهُ فِيهِ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: نَمْ، فَيَقُولُ: أَرْجِعُ إِلَى أَهْلِي فَأُخْبِرُهُمْ، فَيَقُولَانِ: نَمْ كَنَوْمَةِ العَرُوسِ الَّذِي لَا يُوقِظُهُ إِلَّا أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ، حَتَّى يَبْعَثَهُ الله مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ»[٢٣].

الإيمان بالكتب السماوية

يُعد الإيمان بجميع الكتب السماوية التي أنزلها الله تعالى على رسله عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ركنًا من أركان الإيمان بالله تعالى، قال سبحانه: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٤]، ويقول ﷺ في تعريفه للإيمان: «الإيمان أنْ تُؤمن بالله، وملائكته، وكُتُبه، ورُسُلِه»[٢٤]، قال الإمام العيني: «الإيمان بالرسل مستلزم للإيمان بما أُنزل عليهم»[٢٥].

وقد اتفقت الكتب السماوية على الدعوة إلى التوحيد وعبادة الله عَزَّوَجَلَّ وحده لا شريك له، وتنوعت الشرائع في أحكامها العملية لكل أمة بما يناسب حالها وزمانها، قال تعالى: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾ [المائدة: ٤٨].

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: الشِّرْعةُ والشَّرِيعَةُ: الطَّرِيقَةُ الظَّاهِرَةُ الَّتِي يُتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى النَّجَاةِ، وَالشَّرِيعَةُ: مَا شَرَعَ الله لِعِبَادِهِ مِنَ أحكام الدِّينِ، وَالْمِنْهَاجُ: الطَّرِيقُ الثابت المسْتَمِرُّ، وَمَعْنَى الآيَةِ: أَنَّهُ جَعَلَ الشَّرَائِعِ وَالْعِبَادَاتِ مُتَنَوِّعة حَسَبَ حالِ كُلِّ أمة، وَالأَصْلُ التَّوْحِيدُ لَا اخْتِلَافَ فِيهِ لجميع الأمم[٢٦].

فيجب الإيمان إجمالًا بكل الكتب السماوية التي أنزلها الله عَزَّوَجَلَّ على الأنبياء والرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، سواء ما ذكر منها في القرآن الكريم وما لم يذكر؛ حيث يقول تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣]، ويقول سبحانه: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَ رُسُلٞ



﴿مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ [آل عمران: ١٨٤]، ومعنى ذلك أن الأنبياء والرسل السابقين أنزل الله عَزَّوَجَلَّ عليهم الكتب مبشرين بها ومنذرين للناس.

وقد أُنزلت الكتب السماوية كلها في شهر رمضان، فعن واثلة بن الأسقع الليثي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «أُنْزِلَتْ صُحُفُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوَّلَ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ، وَأُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ لِسِتٍّ مَضَيْنَ مِنْ رَمَضَانَ، والإِنْجِيلُ لِثَلَاث عَشْرَةَ خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ، وَأُنْزِلَ الفُرْقَانَ لِأَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ»[٢٧].

الإيمان بالكتب السماوية تفصيلًا:

أولًا: القرآن الكريم:

القرآن الكريم هو كلام الله تعالى المنزل على رسوله محمد ﷺ، المتعبد بتلاوته، المتحدّى بأقصر سورة منه، مَن قال به صدق، ومَن حكم به عدل، لا يشبع منه العلماء، ولا تنقضي عجائبه، ولا يَخْلَقُ عن كثرة الردّ، يقول الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإسراء: ٩-١٠]، ويقول سبحانه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

عقيدتنا أن القرآن الكريم كتاب الله تعالى المنزل على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد ﷺ، وأن هذا الكتاب العظيم محفوظ بحفظ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له، وأنه يهدي للتي هي أقوم، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

وهو كتاب هداية؛ حيث يقول الحق سبحانه: ﴿الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١-٢].

وهو كتاب رحمة وشفاء؛ حيث يقول سبحانه: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

وهو نور يهدي به الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من يشاء من عباده؛ حيث يقول تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَٰكِن

جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، ولم تلبث الجن إذ سمعته أن قالوا فيما قصّه القرآن الكريم: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ١-٢].

وقد وردت أحاديث كثيرة في فضل القرآن الكريم وتلاوته، فعند تلاوته تتنزل الملائكة بالرحمات، فعَنْ أُسَيْد بْنِ حُضَيْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَمَا هُوَ يَقْرَأُ مِنَ اللَّيْلِ سُورَةَ البَقَرَةِ، وَفَرَسُهُ مَرْبُوطَةٌ عِنْدَهُ، إِذْ جَالَتِ الفَرَسُ فَسَكَتَ فَسَكَتَتْ، فَقَرَأَ فَجَالَتِ الفَرَسُ، فَسَكَتَ وَسَكَتَتِ الفَرَسُ، ثُمَّ قَرَأَ فَجَالَتِ الفَرَسُ، فَانْصَرَفَ، وَكَانَ ابْنُهُ يَحْيَى قَرِيبًا مِنْهَا، فَأَشْفَقَ أَنْ تُصِيبَهُ، فَلَمَّا اجْتَرَّهُ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ، حَتَّى مَا يَرَاهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ حَدَّثَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «اقْرَأْ يَا بْنَ حُضَيْرٍ، اقْرَأْ يَا بْنَ حُضَيْرٍ»، قَالَ: فَأَشْفَقْتُ يَا رَسُولَ اللهِ أَنْ تَطَأَ يَحْيَى، وَكَانَ مِنْهَا قَرِيبًا، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَانْصَرَفْتُ إِلَيْهِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي إِلَى السَّمَاءِ، فَإِذَا مِثْلُ الظُّلَّةِ فِيهَا أَمْثَالُ المَصَابِيحِ، فَخَرَجَتْ حَتَّى لَا أَرَاهَا، قَالَ: «وَتَدْرِي مَا ذَاكَ؟»، قَالَ: لَا، قَالَ: «تِلْكَ المَلَائِكَةُ دَنَتْ لِصَوْتِكَ، وَلَوْ قَرَأْتَ لَأَصْبَحَتْ يَنْظُرُ النَّاسُ إِلَيْهَا، لا تَتَوَارَى مِنْهُمْ»[٢٨].

وعَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: «اقْرَأْ عَلَيَّ»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله آقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ، قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: فَقَرَأْتُ سُورَةَ النِّسَاءِ حَتَّى أَتَيْتُ إِلَى هَذِهِ الآيَةِ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، قَالَ: «حَسْبُكَ الآنَ»، فالتَفَتُّ إِلَيْهِ فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ»[٢٩]، وفي رواية: أَقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟ قَالَ: «إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي»[٣٠].

وعَنْ عُثْمَانَ بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»[٣١]، وعن عُمَر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ»[٣٢].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ القِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي



الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللهُ فِي عَوْنِ العَبْدِ مَا كَانَ العَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمِ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ المَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ»(٣٣).

وعن عَبْدِ اللهِ بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: «تَعَلَّمُوا سُورَةَ البَقَرَةِ؛ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ، وَلَا يَسْتَطِيعُهَا البَطَلَةُ»(٣٤)، قَالَ: ثُمَّ سَكَتَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: «تَعَلَّمُوا سُورَةَ البَقَرَةِ، وَآلَ عِمْرَانَ؛ فَإِنَّهُمَا الزَّهْرَاوَانِ يُظِلَّانِ صَاحِبَهُمَا يَوْمَ القِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ غَيَايَتَانِ أَوْ فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ، وَإِنَّ القُرْآنَ يَلْقَى صَاحِبَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ حِينَ يَنْشَقُّ عَنْهُ قَبْرُهُ كَالرَّجُلِ الشَّاحِبِ، فَيَقُولُ لَهُ: هَلْ تَعْرِفُنِي؟ فَيَقُولُ: مَا أَعْرِفُكَ، فَيَقُولُ: أَنَا صَاحِبُكَ القُرْآنُ الَّذِي أَظْمَأْتُكَ فِي الهَوَاجِرِ وَأَسْهَرْتُ لَيْلَكَ، وَإِنَّ كُلَّ تَاجِرٍ مِنْ وَرَاءِ تِجَارَتِهِ، وَإِنَّكَ اليَوْمَ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ تِجَارَةٍ؛ فَيُعْطَى المُلْكَ بِيَمِينِهِ، وَالخُلْدَ بِشِمَالِهِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الوَقَارِ، وَيُكْسَى وَالِدَاهُ حُلَّتَيْنِ لَا يَقُومُ لَهُمَا أَهْلُ الدُّنْيَا، فَيَقُولَانِ: بِمَ كُسِينَا هَذَا؟ فَيُقَالُ: بِأَخْذِ وَلَدِكُمَا القُرْآنَ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: اقْرَأْ وَاصْعَدْ فِي دَرَجِ الجَنَّةِ وَغُرَفِهَا، فَهُوَ فِي صُعُودٍ مَا دَامَ يَقْرَأُ، هَذًّا(٣٥) كَانَ أَوْ تَرْتِيلًا»(٣٦).

وعن أبي أُمَامَةَ البَاهِلِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «اقْرَءُوا القُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ القِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ، اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ البَقَرَةَ، وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ، فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ القِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ، تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا، اقْرَءُوا سُورَةَ البَقَرَةِ، فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا البَطَلَةُ»(٣٧).

وعن النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ الكِلَابِيِّ قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ القِيَامَةِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ، تَقْدُمُهُ سُورَةُ البَقَرَةِ، وَآلُ عِمْرَانَ، وَضَرَبَ لَهُمَا

رَسُولُ الله ﷺ ثَلَاثَةَ أَمْثَالٍ مَا نَسِيتُهُنَّ بَعْدُ، قَالَ: كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ ظُلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ بَيْنَهُمَا شَرْقٌ، أَوْ كَأَنَّهُمَا حِزْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ، تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا»[٣٨].

وعن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ خَطَبَ النَّاسَ فِي حَجَّةِ الوَدَاعِ، فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ فَلَنْ تَضِلُّوا أَبَدًا كِتَابَ الله وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ»[٣٩] ﷺ.

كما يجب الإيمان بأن القُرآن الكريم هو آخِرُ الكُتُبِ السَّمَاوِيَة التي أنزلها الله عَزَّوَجَلَّ، وهو المهيمن عليها، فلا كِتاب بعْده، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، وقال ﷺ: «كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الأَنْبِيَاءُ، كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ، وَإِنَّهُ لا نَبِيَّ بَعْدِي»[٤٠]، وإذا كان لا نبي بعده فلا رسول بعده بالطريق الأولى؛ لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة، ولا ينزل الكتاب إلا على رسول، فإذا انتفت الرسالةُ بعده انتفت الكتب السماوية بعده ﷺ.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «فُضِّلْتُ عَلَى الأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الغَنَائِمُ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الخَلْقِ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ»[٤١].

كذلك يجب الإيمان بأن الله تعالى قد تعهَّد وتكفَّل بحفظ القرآن الكريم من التَّحْرِيفِ وَالتَّغْيِير، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «قرر تعالى أنه هو الذي أنزل الذِكْر، وهو القرآن الكريم، وهو الحافظ له من التغيير والتبديل»[٤٢]، وقال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ ۝ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١-٤٢]، فلا يقربه شيطان من شياطين الإنس والجن لا بزيادة ولا نقص، فهو محفوظ في تنزيله، محفوظة ألفاظه ومعانيه، قد تكفل من أنزله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بحفظه.



أما إكرام الإسلام لأهل القرآن فحدِّث عنه ولا حرج، فهذا نبينا محمد ﷺ يضرب أعظم المثل مع أهل القرآن، فقد قال يومًا لسيدنا أُبيّ ابن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أُمِرْتُ أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ»، فَقُلْتُ: أَسَمَّانِي لَكَ رَبِّي أَوْ رَبُّكَ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، فَتَلَا: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨](٤٣).

وأهل القرآن هم أهل الله وخاصته؛ حيث يقول نبينا ﷺ: «إِنَّ للهِ أَهْلِينَ مِن النَّاسِ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، مَنْ هُمْ؟ قَالَ: «هُمْ أَهْلُ الْقُرْآنِ، أَهْلُ اللهِ وَخَاصَّتُهُ»(٤٤)، وهم يتسابقون في مضمار القرآن يحصلون الخير ويجمعون الثواب، فعن عَبْد الله بْن عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «لَا حَسَدَ إِلَّا عَلَى اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ الله الْكِتَابَ وَقَامَ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ، وَرَجُلٌ أَعْطَاهُ الله مَالًا فَهُوَ يَتَصَدَّقُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ»(٤٥).

وكان ﷺ يقول: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ غَضًّا كَمَا أُنزِلَ فَلْيَقْرَأْهُ عَلَى قِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ»(٤٦)، ولما ارتقى سيدنا عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شَجَرَةً بحضرة رسول الله ﷺ يَجْتَنِي سِوَاكًا مِنَ الأَرَاكِ، وَكَانَ دَقِيقَ السَّاقَيْنِ، فَجَعَلَتِ الرِّيحُ تَكْفَؤُهُ، فَضَحِكَ الْقَوْمُ مِنْهُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مِمَّ تَضْحَكُونَ؟» قَالُوا: يَا نَبِيَّ الله، مِنْ دِقَّةِ سَاقَيْهِ، فَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَهُمَا أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أُحُدٍ»(٤٧)، وقد طلب منه النبي ﷺ أن يقرأ عليه القرآن، فعَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: «اقْرَأْ عَلَيَّ»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، آقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟! قَالَ: «نَعَمْ»، فَقَرَأْتُ سُورَةَ النِّسَاءِ... الحديث»(٤٨).

على أن القرآن الكريم إما أن يكون حجة لنا أو حجة علينا، يقول نبينا ﷺ: «والْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ»(٤٩)، فالقرآن حجة لمن أعطاه حقه تلاوةً وتدبرًا، وعملًا بأوامره ونواهيه، والتزامًا بأخلاقه، وحجة على من ضيعه هجرًا له، أو هجرًا لأخلاقه وأوامره ونواهيه؛ لذا يُحتِّم علينا الوفاءُ بواجبنا تجاه هذا الكتاب إعطاءَه حقه تعلُّمًا، وتعليمًا، وفهمًا، وتأملًا، وتدبرًا، وعملًا.

وعقيدتنا راسخة بأن السنة النبوية المشرَّفة

شارحة ومفصلة ومبينة للقرآن الكريم، ومتممة لتشريعات ديننا الحنيف.

ثانياً: الكتب السماوية قبل القرآن الكريم:

١- صحف إبراهيم وموسى، يقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٨-١٩]، ويقول سبحانه: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ۝ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ﴾ [النجم: ٣٦-٣٧].

٢- التوراة: وهي الكتاب السماوي المنزل على نبي الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ حيث تلقاها من الله عَزَّوَجَلَّ بعد أن كتبها له، يقول تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥]، ويقول سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤].

٣- الزبور: وهو ما أُنزل على نبي الله داود عَلَيْهِ السَّلَامُ، يقول تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥].

٤- الإنجيل: وهو الكتاب الذي أنزله الله عَزَّوَجَلَّ على عيسى ابن مريم عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، يقول الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٤٦].

شرع من قبلنا هل هو شرع لنا؟

تحدث العلماء من الأصوليين والفقهاء عن شرع من قبلنا، وهل هو شرع لنا أو ليس شرعًا لنا؟ وخلاصة المعتمد عند جمهور العلماء من الأصوليين والفقهاء وغيرهم أن الحديث منحصر فيما ورد من ذلك في القرآن الكريم والسنة النبوية دون سواهما، وقسَّموا ذلك إلى ثلاثة أقسام:

الأول: ما ورد أنه لنا ولهم، مثل: الصيام (وإن اختلفت طبيعته) في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]، وكالأضحية في قوله تعالى: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٧]، وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: ذَبَحَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ الذَّبْحِ كَبْشَيْنِ أَقْرَنَيْنِ أَمْلَحَيْنِ مُوجَأَيْنِ، فَلَمَّا وَجَّهَهُمَا قَالَ: «إِنِّي وَجَّهْتُ



وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ عَلَى مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، اللَّهُمَّ مِنْكَ وَلَكَ، وَعَنْ مُحَمَّدٍ وَأُمَّتِهِ بِاسْمِ الله، والله أَكْبَرُ» ثُمَّ ذَبَحَ »(٥٠)، فذلك لنا ولهم.

الثاني: ما ورد أنه خاص بهم وليس لنا؛ فهو خاص بهم، مثل قوله تعالى على لسان سيدنا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]، ثم جاءت شريعتنا الغراء فنهت عن قتل النفس، وفتحت باب التوبة واسعًا بالاستغفار مع رد الحقوق إلى أصحابها.

الثالث: ما لم يرد أنه خاص بهم ولا أنه لنا ولهم، ومَثَّل بعضهم لذلك بقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [القصص: ٢٧]؛ حيث استدل به على جواز أن يكون المهر منفعة كما نص على ذلك بعض الفقهاء، وبقوله تعالى على لسان سيدنا يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٢]، أي: كفيل وضامن كدليل على جواز الكفالة.

والذي أميل إليه: أن ما لم يرد من هذا القسم الثالث في القرآن الكريم أو في السنة النبوية المطهرة ولم تظهر قرينة ظاهرة على أنه خاص بهم أو أنه لنا ولهم؛ أنه لا بأس بالأخذ به بشرط ألا يصادم أصلًا ثابتًا، وأن يكون متسقًا مع المقاصد العامة للتشريع، محققًا لها في جلب مصلحة أو درء مفسدة.

الإيمان بالرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ

الإيمان بالرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أحد أركان الإيمان التي لا يتم إيمان المرء إلا بها، فقد أرسل الله عَزَّوَجَلَّ رسله بالحق والعدل والقسط، مبشرين ومنذرين؛ كي لا يكون للنَّاس على الله حجة بعد الرسل، يقول الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، ويقول تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ

جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٩]، ويقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِۖ﴾ [الحديد: ٢٥]، ويقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، ويقول سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَاۚ﴾ [القصص: ٥٩].

وقد بلغ عدد الأنبياء والرسل الذين ورد ذكرهم تفصيلًا في القرآن الكريم خمسة وعشرين نبيًّا ورسولًا، ذكر ثمانية عشر نبيًّا ورسولًا منهم في موضع واحد، هو قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ كُلًّا هَدَيْنَاۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًاۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٣-٨٦].

والسبعة الآخرون ذكروا في مواضع أخرى، وهم: آدم، وإدريس، وهود، وصالح، وشعيب، وذو الكفل، وخاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد (عليهم جميعًا أفضل الصلاة وأتم التسليم)، وقد جمع بعضهم أسماء الأنبياء مفصلًا في نظم، فقال[١]:

مُحَمَّدٌ إِبْرَاهِيمُ مُوسَى وَصَالِحٌ
وَعِيسَى وَنُوحٌ ثُمَّ يَحْيَى وَآدَمُ
وَهُودٌ وَلُوطٌ ثُمَّ يَعْقُوبُ يُوسُفُ
وَأَيُّوبُ هَارُونُ شُعَيْبٌ مُكَرَّمُ
وَذُو الكِفْلِ دَاوُد وَإِلْيَاسُ وَالْيَسَعُ
وَإِدْرِيسُ إِسْمَاعِيلُ إِسْحَاقُ يُعْلَمُ
كَذَا زَكَرِيَّا مَعَ سُلَيْمَانَ يُونُسُ
نُبُوَّةُ كُلٍّ دُونَ خُلْفٍ تُسَلَّمُ

وقد قامت دعوات الرسل جميعًا عَلَيْهِمُ السَّلَامُ على الصلاح والإصلاح، يقول الحق سبحانه على لسان سيدنا شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، ويقول سبحانه على لسان سيدنا صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ يخاطب قومه: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: ٦١]، ويقول لهم



أيضًا: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ۝ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء: ١٥٠-١٥٢].

وقد اتفقت دعوة الرسل جميعًا على الحثّ على تقوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى والعمل بطاعته؛ حيث يقول الحق سبحانه على لسان سيدنا نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥-١٠٩].

وهي وصية سيدنا هود عَلَيْهِ السَّلَامُ حيث يقول الحق عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٣-١٢٧].

وهي وصية سيدنا صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ حيث يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٤١-١٤٥].

وهي وصية سيدنا لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ حيث يقول عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٠-١٦٤].

وهي وصية سيدنا شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ حيث يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لْـَٔيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٦-١٨٠].

وهو ما أكدته رسالة خاتم الأنبياء والمرسلين نبيّنا محمد ﷺ؛ حيث يقول الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ويقول سبحانه مخاطبًا نبيَّنا محمدًا ﷺ: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠]، ويقول تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٥٧]،

ويقول الحق سبحانه: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [سبأ: ٤٧]، ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦].

على أن أقوام الرسل منهم من آمن ومنهم من كفر، فكانت عاقبة المؤمنين نجاة وفلاحًا في الدنيا والآخرة، وعاقبة الكافرين المكذبين واحدة؛ وهي الخسران المبين في الدنيا والآخرة، ففي شأن قوم عاد الذين طغوا في البلاد وكان طغيانهم سبب هلاكهم، يقول الحق عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ۝ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٥- ١٦].

وفي شأن ثمود قوم سيدنا صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول الحق سبحانه: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧- ٧٨].

وفي شأن أصحاب الأيكة قوم سيدنا شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول رب العزة عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ۝ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: ٩٤-٩٥].

وهكذا كانت عاقبة من كذبوا الرسل؛ حيث يقول الحق سبحانه: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ [ص: ١٤]، ويقول تعالى: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق: ١٤]، ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

كما اتفقت الرسالات السماوية على جملة من القيم العقدية والأخلاقية والإنسانية؛ فحرَّمت الإشراك بالله تعالى، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، وإتيان الفاحشة، وأكل مال



اليتيم، وحثت على الصدق، والعدل، والوفاء بالحقوق؛ حيث يقول الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١-١٥٣]، وقد قال سيدنا عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن هذه الآيات: «إنها آياتٌ محكمات لم ينسخهن شيءٌ من جميع الكتب، وهي محرماتٌ على بني آدم جميعًا، وهنَّ أم الكتاب؛ أي: أصله وأساسه، من عمل بهن دخل الجنة، ومن تركهن دخل النار»[٥٢]، ويقول نبينا ﷺ: «أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ»[٥٣].

والإيمان واجبٌ بجميع الأنبياء والرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ الذين أرسلهم الله عَزَّ وَجَلَّ؛ ما ذُكر منهم إجمالًا أو تفصيلًا، قال الله سبحانه: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

وقد قرن الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ طاعته عَزَّ وَجَلَّ بطاعة رسوله محمد ﷺ، فقال سبحانه: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]، وجعل حبه ﷺ وسيلة لحب الله عَزَّ وَجَلَّ، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]، وجعل بيعته ﷺ بيعة الله عَزَّوَجَلَّ، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠]، وكان سيدنا عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يقول: ثَلَاثُ آيَاتٍ نَزَلَتْ مَقْرُونَةً بِثَلَاثِ آيَاتٍ لَا تُقْبَلُ وَاحِدَةٌ مِنْهَا بِغَيْرِ قَرِينَتِهَا؛ إِحْدَاهُمَا: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، الثَّانية: قَوْله تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤]، الثَّالِثة: قَوْله تَعَالَى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ [المائدة: ٩٢]، فَمَنْ أَطَاعَ اللهَ وَلَمْ يُطِعِ الرَّسُولَ لَمْ يُقْبَلْ مِنْهُ[١].

وقد حذر الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من مخالفة أمره ﷺ، فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، مؤكدًا أن الإيمان به ﷺ لا يكتمل إلا بالنزول على حكمه عن رضا وطيب نفس، فقال سبحانه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، ونهى عن رفع الصوت عنده، فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ٢- ٣].

ومن إكرام الله عَزَّوَجَلَّ له ﷺ أن جعل رسالته للناس عامة؛ حيث كان كل رسول يرسل إلى قومه خاصة، أما حبيبنا محمد ﷺ فقد أرسله ربه عَزَّوَجَلَّ إلى الناس عامة، فقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]، وختم برسالته الرسالات، وختم به ﷺ الأنبياء والرسل، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ۝ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب:٣٩-٤٠]، قال ابن كثير: «فهذه الآية نصٌّ في أنه لا نبيَّ بعده، وإذا كان لا نبي بعده فلا رسول بالطريق الأولى؛ لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة، فإن كل رسول نبي ولا ينعكس، وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ

من حديث جماعة من الصحابة»(٥٥).

الإيمان باليوم الآخر

تحدث القرآن الكريم عن اليوم الآخر وأحوال الناس فيه حديثًا كاشفًا لطبيعته، مفصلًا لكثير من أحداثه، وأوصافه، فتحدث عن يوم القيامة(٥٦)، ويوم البعث(٥٧)، ويوم النشور(٥٨)، ويوم الحساب(٥٩)، ويوم الفصل(٦٠)، ويوم الدين(٦١)، ويوم التلاقِ(٦٢)، ويوم الحسرة(٦٣)، ويوم الوعيد(٦٤)، ويوم الخروج(٦٥)، ويوم التغابن(٦٦)، ويوم الجمع(٦٧)، ويوم التناد(٦٨)، ويوم الآزفة(٦٩)، ويوم الخلود(٧٠)، واليوم الحق(٧١)، واليوم الموعود(٧٢)، والنبأ العظيم(٧٣)، كما ذكر من صفاته: أنه مشهود(٧٤)، وكونه على بعض الناس عسيرًا(٧٥) أو عبوسًا قمطريرًا(٧٦)، وغير ذلك.

كما تحدث القرآن الكريم عن بعض أسماء القيامة، وأحداثها، وصفاتها حديثًا ينم عن عِظَم شأنها وأهمية الاستعداد لها، فتحدث عن الآخرة(٧٧)، والساعة(٧٨)، والغاشية(٧٩)، والواقعة(٨٠)، والقارعة(٨١)، والحاقة(٨٢)، والطامة الكبرى(٨٣).

على أن أبرز هذه الأسماء وأكثرها ذكرًا في القرآن الكريم هو لفظ: القيامة، فقد ورد في القرآن الكريم سبعين مرة، وسميت باسمه إحدى سوره المشرَّفة، وهي سورة القيامة التي استهلها الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بقوله: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة: ١] تعظيمًا لشأنها، وأتبع هذا القسم بالقيامة قسمًا آخر بالنفس اللوامة، فقال سبحانه: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ [القيامة: ٢-٤]، مستنكرًا على من ينكرون البعث موقفهم وجحودهم، مبرهنًا على طلاقة القدرة بشيء محسوس ملموس، قال تعالى: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ [القيامة: ٤]، وخصَّ البنان دون سواه؛ لأن في تكوين البنان وبصمة الإصبع آية من آيات الله عَزَّوَجَلَّ في الخلق، في عدم تماثل تكوين البنان في أي شخصين منذ أن خلق الله سبحانه الأرض ومَن عليها إلى أن تقوم الساعة.

ويقول سبحانه: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، ويقول

عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [البقرة: ١١٣]، ويقول جَلَّوَعَلَا: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠]، ويقول الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٦].

ويوم القيامة هو يوم الحساب، ويوم الجزاء، ويوم العرض عليه؛ حيث يقول سبحانه: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨]، ويقول تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٤-١٠٨].

ويوم القيامة هو اليوم الحق؛ حيث يقول الحق سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ [النبأ: ٣٩]، فالعاقل من يعمل لهذا اليوم حق العمل، ويتقي الله حق تقاته؛ حيث يقول الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

وكما تحدث القرآن الكريم عن القيامة تحدث عن الساعة - التي غالبًا ما يأتي الحديث عنها في سياق بدء أحداث القيامة - قاصرًا علمها على الله عَزَّوَجَلَّ وحده؛ حيث يقول الحق سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا



﴿لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ [لقمان: ٣٤]، ويقول سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]، ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٧]، ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٢-٤٦].

وعندما سئل سيدنا رسول الله ﷺ عن الساعة فقيل له: يَا رَسُولَ الله مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: «مَا المَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ»[٨٤]، وبهذا حسم نبينا ﷺ قضية الإفتاء أو الفتوى في أمر الساعة أو محاولة التنبؤ بها، فإذا كان رسولنا الكريم ﷺ قَالَ: «مَا المَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ»، فمن ذا الذي يتجرأ على الله عَزَّوَجَلَّ بالخوض في أمرٍ توقَّفَ سيدنا رسول الله ﷺ عن الحديث فيه.

والسؤال الذي ينبغي أن نسأله جميعًا لأنفسنا: ماذا أعددنا لها؟ فقد سأل رجل النبي ﷺ: مَتَى السَّاعَةُ؟ فقال له النبي ﷺ: «مَا أَعْدَدْتَ لَهَا»؟ قَالَ: حُبُّ الله ورسولِهِ، قَالَ: «أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ»[٨٥].

فعلينا أن ننشغل بإعداد أنفسنا للقاء الله عَزَّوَجَلَّ، فمن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، وأن يكون حالنا مع الله عَزَّوَجَلَّ حال من سئل عنه: ما حال فلان؟ فقيل: لو قيل له: إن الساعة غدًا ما وجد مزيد عملٍ يعمله.

وردًّا على تساؤلات من تساءل عن البعث، وإفحام من أنكره؛ جاء النص القرآني مدعومًا بالدليل العقلي، والمنطقي، والكوني؛ حيث يقول الحق سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ

لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔاۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥]، وقد أكد العلم الحديث كل ما جاء في النص الكريم من تناولٍ لمراحل خلق الإنسان، وعملية اهتزاز جزيئات حبيبات التربة عند نزول الماء عليها، فمن الذي علَّم سيدنا محمدًا ﷺ ذلك قبل أكثر من ألف وأربعمائة عام؟ إنه رب العالمين، ولا أحد سواه.

بشرى المؤمنين:

المؤمنون لهم جنات النعيم، تأتيهم البشريات من ساعة الاحتضار إلى الاستقرار في الجنان، ففي لحظة الاحتضار تكون لهم البشرى؛ حيث يقول الحق سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝٣١ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢]، فَيُبَشَّرُ العبد المؤمن بالخير والجنة، ويُبَدَّل خوفه أمنًا، ففي الحديث يُقَالُ: «انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ أَبْدَلَكَ الله بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الجَنَّةِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا»[٨٦].

وعند السؤال يكون لهم التثبيت؛ حيث يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، فإذا كان يوم المحشر والمنشر تلقتهم الملائكة بالبشرى والطمأنينة؛ حيث يقول الحق سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ۝١٠١ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ۝١٠٢ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١-١٠٣].

والمؤمنون تأتيهم الملائكة بالبشرى في جنات النعيم، وحالهم في الجنة أمان وسلام وإكرام؛ حيث يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤]، ويقول عز وجل: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ

﴿فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]، ويقول تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ﴾ [الزخرف: ٧٠]، فلا غل فيها ولا حسد؛ حيث يقول سبحانه: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧]، ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ﴾ [الكهف: ٣١]، كما أن رب العزة يطّلع على أهل الجنة فيقول: «يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، قَالُوا: يَا رَبِّ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»(٨٧).

وهم في الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فهي كما يقول الحق سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۚ وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ [الرعد: ٣٥]، وحيث يقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ [محمد: ١٥]، ويقول سبحانه: ﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥].

ومن إكرام الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ للمؤمنين أنهم يشربون عند الحوض من يد الحبيب ﷺ شربة لا يظمأون بعدها أبدًا، فعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا أنه قال: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْرٍ، مَاؤُهُ أَبْيَضُ مِنَ اللَّبَنِ، وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ المِسْكِ، وَكِيزَانُهُ كَنُجُومِ السَّمَاءِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهَا فَلَا يَظْمَأُ أَبَدًا»(٨٨).

فدار المتقين ميراثهم، وجنات الفردوس مأواهم ومآلهم، حيث يقول الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا﴾ [مريم: ٦٣]، ويقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ١٠٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾ [الكهف: ١٠٧-١٠٨]، ويقول جَلَّ وَعَلَا:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠-١١].

الإيمان بالقدر

الإيمان بالقدر ركنٌ أساسٌ من أركان الإيمان، والقدر هو: تقدير الله عَزَّوَجَلَّ لجميع الأشياء، وعلمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بها، ومشيئته سبحانه لها، والإيمان بالقدر يعين على الصبر عند نزول المصائب، فالمؤمن بالقدر لا يجزع، ولا يفزع، ولا يتسخط، ولا يتشكّى؛ بل يستقبل القدر بصبرٍ وثبات، يقول الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١]، ويقول سبحانه: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ٢٢ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣]، ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، ويقول تعالى: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]، ويقول تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ٢١ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ٢٢ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ [المرسلات: ٢١-٢٣]، أي: جعلنا الماء في مقرٍّ يتمكن فيه، وهو الرحم، مؤجلًا إلى قدر معلوم قد علمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحكم به، فقدرنا على ذلك تقديرًا، فنعم القادرون نحن.

وقال الحق سبحانه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]، أي: بأجل، كحفظ أرزاق خلقه وآجالهم، وجعل لذلك أجلًا معلومًا، وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مالك كل شيء، وقد قرر تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أن كل شيءٍ سهل عليه، يسير لديه، وأن عنده خزائن الأشياء من جميع الصنوف، قال تعالى: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾، فيصرفها كما يشاء، وكما يريد على قدر حَاجَةِ الخَلْقِ إِلَيْها، ولما له في ذلك من الحكمة البالغة، والرحمة بعباده لا

على جهة الوجوب بل هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كتب على نفسه الرحمة، وغير ذلك من الآيات التي تدل على أن الله قدّر كل شيء[٨٩].

وكان رسول الله ﷺ يغرس في نفوس أفراد الأمة هذا الإيمان، ويرشدهم كيف يتعاملون مع المصائب والشدائد، فعَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَاللَّهُعَنْهُمَا، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ إِحْدَى بَنَاتِهِ تَدْعُوهُ، وَتُخْبِرُهُ أَنَّ صَبِيًّا لَهَا، أَو ابْنًا لَهَا فِي المَوْتِ، فَقَالَ ﷺ لِلرَّسُولِ: «ارْجِعْ إِلَيْهَا، فَأَخْبِرْهَا: أَنَّ للهِ مَا أَخَذَ وَلَهُ مَا أَعْطَى، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى، فَمُرْهَا فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ»[٩٠]، وقال ﷺ لسيدنا عبد الله بن عباس رَضِيَاللَّهُعَنْهُمَا: «يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»[٩١]، وفي رواية: «تَعَرَّفْ بِاللهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ، وَاعْلَمْ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَاعْلَمْ أَنَّ الخَلَائِقَ لَو اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يُعْطُوكَ شَيْئًا لَمْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يُعْطِيَكَ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، أَوْ يَصْرِفُوا عَنْكَ شَيْئًا أَرَادَ أَنْ يُصِيبَكَ بِهِ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى ذَلِكَ، فَإِذَا سَأَلْتَ فَسَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا، وَاعْلَمْ أَنَّ القَلَمَ قَدْ جَرَى بِمَا هُوَ كَائِنٌ»[٩٢].

والإيمان بالقدر يقتضي أن نؤمن بأن كل ما في الكون من خلق الله عَزَّوَجَلَّ وتكوينه، وأن كل ما يجري في الكون إنما هو بإرادته سبحانه، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، يقول الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢]، ويقول تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩].

قال القرطبي: الَّذِي عَلَيْهِ أَهْلُ السُّنَّةِ أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ قَدَّرَ الأَشْيَاءَ، أَيْ: عَلِمَ مَقَادِيرَهَا، وَأَحْوَالَهَا وَأَزْمَانَهَا قَبْلَ إِيجَادِهَا، ثُمَّ أَوْجَدَ مِنْهَا

مَا سَبَقَ فِي عِلْمِهِ أَنَّهُ يُوجِدُهُ عَلَى نَحْوِ مَا سَبَقَ فِي عِلْمِهِ، فَلَا يَحْدُثُ حَدَثٌ فِي العَالَمِ إِلَّا وَهُوَ صَادِرٌ عَنْ عِلْمِهِ تَعَالَى، وَقُدْرَتِهِ، وَإِرَادَتِهِ[٩٣].

على أن الإيمان بالقدر لا يتنافى مع الأخذ بالأسباب؛ بل يدعونا إلى الأخذ بكل الأسباب إن استطعنا، وكان سيدنا عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «لَا يَقْعُدُ أَحدُكم عَن طَلَب الرزقِ يقولُ: اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي، فَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ السَّمَاءَ لَا تمطرُ ذهبًا ولَا فضَّة»[٩٤]، ويقول نبينا ﷺ: «لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى الله حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرُزِقْتُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا»[٩٥]، قال أهل العلم وشراح الحديث: إن الطير تأخذ بالأسباب، فتغدو وتروح، ولا تقعد في مكانها وتقول: اللهم ارزقني.

ونقل بعض الرواة أن أحد الناس خرج في تجارة، فلجأ إلى حائط بستان للاستراحة فيه، فوجد طائرًا كسير الجناح، فقال: يا سبحان الله، ما لهذا الطائر الكسير كيف يأكل؟ وكيف يشرب؟ وبينما هو على هذه الحال إذا بطائر آخر يأتي بشيء من الطعام، فيضعه أمام الطائر كسير الجناح، فقال: يا سبحان الله، سيأتيني ما قسمه الله لي بلا سفر، ولا مشقة، ورجع من تجارته، فلما وصل إلى بلده قص ما رأى على صاحبه، فقال له صاحبه: كيف رضيت لنفسك أن تكون الطائر الكسير مهيض الجناح؟ ولم تسع لأن تكون الطائر الآخر القوي الذي يسعى على رزقه، ويساعد الآخرين من بني جنسه، وقد قال أحد الحكماء: لا تسأل الله أن يخفف حملك، ولكن اسأله سبحانه أن يقوي ظهرك.

فالإيمان بالقدر لا يعني التواكل؛ بل يعني صدق اعتماد القلب على الله عَزَّوَجَلَّ مع الأخذ بالأسباب. فالسعي والحركة واجبان لتنفيذ أمر الله تعالى؛ حيث يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥]، ولم يقل: اقعدوا وسيأتيكم الرزق حيث كنتم، ويقول نبينا ﷺ: «تَدَاوَوْا فَإِنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلَّا وَضَعَ لَهُ دَوَاءً غَيْرَ دَاءٍ وَاحِدٍ الهَرَمُ»[٩٦]، ولم يقل أحد على الإطلاق:



إن الدعاء بديل الدواء؛ إنما هو تضرع إلى الله عَزَّوَجَلَّ بإعمال الأسباب التي أمرنا الله تعالى بالأخذ بها لنتائجها.

ولم يقل أحد على الإطلاق من أهل العلم: إن الفقه بديل الطب؛ بل إن الفقه الصحيح يؤكد أن تعلم الطب من فروض الكفايات، وقد يرقى في بعض الأحوال إلى درجة فرض العين على البعض.

مع تأكيدنا على أن ثواب تعلم الطب لا يقل عن ثواب تعلم الفقه، وأن الأولوية لأحدهما ترتبط بمدى الحاجة الملحة إليه، فحيث تكون حاجة الأمة يكون الثواب أعلى وأفضل ما صدقت النية لله عَزَّوَجَلَّ.

فمع إيماننا العميق بالقدر خيره وشره، حلوه ومره، وبأن الله عَزَّوَجَلَّ خالق الأسباب والمسببات، فأمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون؛ علينا أن نسعى ونأخذ بأقصى الأسباب، فنجمع بين أسباب العلم وأسباب الإيمان معًا، مؤكدين أنه لا تناقض بينهما؛ بل الخير كل الخير والنجاء كل النجاء أن نحسن الجمع بينهما، والأخذ بهما معًا.

حسن الخاتمة

كان رسول الله ﷺ مع مكانته العظيمة، وعظيم فضل الله تعالى عليه بمغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر يسأل الله عَزَّوَجَلَّ حسن الخاتمة ويعمل لها؛ فالأعمال بخواتيمها، فعن سيدنا أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كانَ رسولُ الله ﷺ يُكثِرُ أن يقولَ: «يا مقلِّبَ القلوبِ ثبِّت قلبي على دينِك»، فقلتُ: يا رسول الله، آمنَّا بِكَ وبما جئتَ بِهِ فَهل تخافُ علَينا؟ قالَ: «نعَم، إنَّ القلوبَ بينَ إصبَعَينِ من أصابعِ الله يقلِّبُها كيفَ يشاءَ»[٩٧].

ويحذرنا نبينا ﷺ من الغفلة، أو الركون إلى ما مضى من العمل، والتقاعس عن الطاعة؛ لأن الإنسان لا يدري متى وكيف تكون خاتمته، فيقول نبينا ﷺ: «فَوَاللهِ إِنَّ أَحَدَكُمْ - أَوْ: الرَّجُلَ - يَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا غَيْرُ بَاعٍ أَوْ ذِرَاعٍ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ؛ فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا غَيْرُ ذِرَاعٍ أَوْ

ذِرَاعَيْنِ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ؛ فَيَدْخُلُهَا»(٩٨).

ويقولون: (من قُبض على شيءٍ بُعث عليه)؛ فليحرص كل منَّا على العمل الصالح في كل وقت وحين، فإنه لا يدري متى يُقبض، ولا على أي عمل يُقبض، ويقول نبينا ﷺ: «مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ دَخَلَ الجَنَّةَ»(٩٩).

* * *

الهوامش:

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان والإسلام والقدر وعلامة الساعة، حديث رقم: ٨، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٢) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾[النساء: ١٧١]، حديث رقم: ٣٤٣٥، واللفظ له، طبعة طوق النجاة، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب مَنْ لقي الله بالإيمان وهو غير شاكٍّ فيه دخل الجنّة وحُرِّم على النّار، حديث رقم: ٢٨.

(٣) الضريب: المثيل، يُقال: ضريب فلان: أي نظيره، وضريب الشيء: مثله وشكله. انظر: لسان العرب، مادة (ضرب).

(٤) حاشية ابن الأمير على إتحاف المريد شرح جوهرة التوحيد، لمحمد بن محمد الأمير، ص ١٠٧، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ -٢٠٠١م.

(٥) مسند أحمد، ١٩/ ٣٧٥، حديث رقم: ١٢٣٨٣، طبعة الرسالة.

(٦) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب إثم من لا يأمن جاره بوايقه، حديث رقم: ٦٠١٦.

(٧) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان تحريم إيذاء الجار، حديث رقم: ٤٦.

(٨) مسند أحمد، ١٣/ ٢٦١، حديث رقم: ٧٨٧٨.

(٩) الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير للسيوطي، ص٤٧٦، حديث رقم: ٧٧٧١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، وعزاه للطبراني في معجمه الكبير، انظر: المعجم الكبير للطبراني، ١/ ٢٥٩، حديث رقم: ٧٥١.

(١٠) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، حديث رقم: ١٦، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان خصالٍ من اتّصف بهنَّ وجد حلاوة الإيمان، حديث رقم: ٤٣.

(١١) مسند أحمد، ٢٠/ ٣٩٧، حديث رقم: ١٣١٥١.

(١٢) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب حب الرّسول ﷺ من الإيمان، حديث رقم: ١٥، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب محبّة رسول الله ﷺ أكثر من الأهل والولد والوالد والنّاس أجمعين، وإطلاق عدم الإيمان على مَنْ لم يحبّه هذه المحبّة، حديث رقم: ٤٤.

(١٣) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه حديث رقم: ١٣، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير، حديث رقم: ٤٥.

(١٤) مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا، ص ٥١، حديث رقم ١٣٧، طبعة مكتبة القرآن.

(١٥) مسند الربيع بن حبيب، باب في القدر والحذر، ص ٤٧، حديث رقم: ٧٢.

(١٦) سنن النسائي، كتاب الاستعاذة، باب الاستعاذة من حرِّ النار، حديث رقم: ٥٥١٩، طبعة المطبوعات الإسلامية، حلب.

(١٧) أقسم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بطوائف الملائكة أو بنفوسهم، فالصافات أقدامها في الصلاة، فالزاجرات السحاب سوقًا أو الزاجرات عن المعاصي، فالتاليات لكلام الله من الكتب المنزلة ذكرًا لله تعالى. انظر: تفسير القرطبي، ١٥/ ٦٢، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م، وتفسير النسفي، ٣/ ١١٦ بتصرف، دار الكلم الطيب، بيروت ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

(١٨) ﴿والذاريات﴾ الرياح؛ لأنها تذر التراب وغيره، ﴿ذَرْوًا﴾ مصدر والعامل فيه اسم الفاعل، ﴿فالحاملات﴾ السحاب؛ لأنها تحمل المطر، ﴿وِقْرًا﴾ مفعول الحاملات، والوِقْر: الثِّقل يحمَل على رأسٍ أو على ظهرٍ، ﴿فالجاريات﴾ الفُلْك، ﴿يسرًا﴾ جريًا ذا يسر أي ذا سهولة، ﴿فالمقسمات أمرًا﴾ الملائكة الموكلة بتنفيذ ما قسّمه الله تعالى من الأمور كالأمطار والأرزاق وغيرهما، ومعنى الفاء أنه أقسم بالرياح، فبالسحاب التي تسوقه، فبالفلك التي تجريها بهبوبها، فبالملائكة التي تنفذ: تقسم الأرزاق بإذن الله من الأمطار وتجارات البحر ومنافعها، إلى غير ذلك. انظر: إصلاح المنطق لابن السكيت، ص ١٢، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢ م، وتفسير النسفي، ٣/ ٣٧١، بتصرف.

(١٩) أقسم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بطوائف من الملائكة أرسلهن بأوامره فعصفن في مضيهن، وبطوائف منهن نشرن أجنحتهن في الجو عند نزولهن بالوحي، أو نشرن الشرائع في الأرض، أو نشرن النفوس الموتى بالكفر والجهل بما أوحين ففرقن بين الحق والباطل، فألقين ذكرًا إلى الأنبياء والمرسلين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ عذرًا للمحقين أو نذرًا للمبطلين. انظر: تفسير القرطبي، ١٩/ ١٥٥، وتفسير النسفي، ٣/ ٥٨٤، بتصرف.

(٢٠) أقسم الله سبحانه بطوائف الملائكة التي تنزع الأرواح من الأجساد، غرقًا، أي: إغراقًا في النزع، أي: تنزعها من أقاصي الأجساد، وبالطوائف التي تنشطها، أي: تخرجها، من نشط الدلو من البئر إذا أخرجها، وبالطوائف التي تسبح في مضيها، أي: تسرع فتسبق إلى ما أمروا به، فتدبر أمرًا من أمور العباد مما يصلحهم في دينهم ودنياهم. انظر: تفسير الزمخشري «الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل»، ٤/ ٦٩٣، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧ هـ وتفسير النسفي، ٣/ ٥٩٥ بتصرف.

(٢١) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم: آمين، والملائكة في السماء: آمين، فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدّم من ذنبه، حديث رقم: ٣٢٣٦.

(٢٢) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الاستئذان، باب السّلام اسم من أسماء الله تعالى، حديث رقم: ٦٢٣٠، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب التّشهّد في الصّلاة، حديث رقم: ٤٠٢.

(٢٣) سنن الترمذي، أبواب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر، حديث رقم: ١٠٧١، وقال الترمذي: حديث حسن غريب، طبعة الحلبي.

(٢٤) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤]، حديث رقم: ٤٧٧٧.

(٢٥) عمدة القاري شرح صحيح البخاري لبدر الدين العيني، ١/ ٢٩٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٢٦) تفسير القرطبي، ٦/ ٢١١، بتصرف.

(٢٧) مسند أحمد، ٢٨/ ١٩١، حديث رقم: ١٦٩٨٤.

(٢٨) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب نزول السّكينة والملائكة عند قراءة القرآن، حديث رقم: ٥٠١٨. ومعنى جالت الفرس: وجلت وتحركت، ومعنى فلمّا اجْتَرَّه: جذبه، وجرَّه، وسحبه.

(٢٩) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب قول المقرئ للقارئ: حسبك، حديث رقم: ٥٠٥٠.

(٣٠) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾[النساء: ٤١]، حديث رقم: ٤٥٨٣، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل استماع القرآن، وطلب القراءة من حافظه للاستماع والبكاء عند القراءة والتدبر، حيث رقم: ٨٠٠.

(٣١) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب خيركم مَنْ تَعَلَّمَ القرآن وَعَلَّمَه، حديث رقم: ٥٠٢٧.

(٣٢) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل مَنْ يقوم بالقرآن، وَيعَلِّمه، وفضل مَنْ تَعَلَّمَ حِكْمَةً من فقهٍ أو غيره فعمل بها وعلّمها، حديث رقم: ٨١٧.

(٣٣) صحيح مسلم، كتاب الذِّكرِ والدّعاء والتّوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذِّكر، حديث رقم: ٢٦٩٩.

(٣٤) البطلة: هم السحرة. انظر: لسان العرب، مادة (بطل).

(٣٥) الهَذّ: هو سرعة القراءة وسرعة القطع، يقال: هذّ القرآن يَهذّه هَذًّا: إذا أسرع في قراءته وسَرْدِه. لسان العرب، مادة (هذذ).

(٣٦) مسند أحمد، ٣٨/ ٤١، حديث رقم: ٢٢٩٥٠.

(٣٧) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة، حديث رقم: ٨٠٤.

(٣٨) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة، حديث رقم: ٨٠٥.

(٣٩) المستدرك للحاكم، كتاب العلم، حديث رقم: ٣١٨، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٤٠) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذُكِرَ عن بني إسرائيل، حديث رقم: ٣٤٥٥، وصحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب الأمر بالوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول، حديث رقم: ١٨٤٢.

(٤١) صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصّلاة، باب جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، حديث رقم: ٥٢٣.

(٤٢) تفسير ابن كثير، ٤/ ٥٢٧ بتصرف.

(٤٣) الحديث أخرجه الإمام البخاري في كتابه: خلق أفعال العباد، باب قراءة الفاتحة خلف الإمام في الصّلاة بالجهر، ص ١٠٧، دار المعارف السعودية، الرياض.

(٤٤) سنن ابن ماجه، كتاب الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب فضل مَنْ تَعَلَّمَ القرآن وَعَلَّمَه، حديث رقم: ٢١٥.

(٤٥) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب اغتباط صاحب القرآن، حديث رقم: ٥٠٢٥.

(٤٦) مسند أحمد، ١/ ٢١١، حديث رقم: ٣٥.

(٤٧) مسند أحمد، ٧/ ٩٨، حديث رقم: ٣٩٩١.

(٤٨) سبق تخريجه، هامش ٢٩.

(٤٩) صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، حديث رقم: ٢٢٣.

(٥٠) سنن أبي داود، كتاب الضحايا، باب ما يستحبّ من الضحايا، حديث رقم: ٢٧٩٥.

(٥١) حاشية البجيرمي «تحفة الحبيب على شرح الخطيب»، ١/ ٤٠، دار الفكر، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

(٥٢) تفسير الرازي، ١٤/ ١٨٥، وتفسير أبي السعود، ٣/ ٢٠٠.

(٥٣) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ [مريم: ١٦]، حديث رقم: ٣٤٤٣، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب الفَضَائِلِ، بَاب فَضَائِلِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، حديث رقم: ٢٣٦٥.

(٥٤) الكبائر للذهبي، ص٤٠.

(٥٥) تفسير ابن كثير، ٦/ ٤٢٨ بتصرف، دار الكتب العلمية.

(٥٦) سُمِّي بيوم القيامة؛ لأنّ النّاس يقومون فيه من قبورهم للحساب. انظر: تفسير القرطبي، ٥/ ٣٠٥، وتفسير الرازي، ١٠/ ١٦٧، بتصرف.

(٥٧) سُمِّي بيوم البعث؛ لأنه يوم يثار النّاس فيه من قبورهم ويبعثون لموقف الحساب، وأصله من بعثت النّاقة إذا أقمتها من مكانها. انظر: تفسير القرطبي، ١/ ٦٩١، وتفسير الرازي، ٧/ ٣٠، بتصرف.

(٥٨) سُمِّي بيوم النشور، أي: البعث، وهو: نشر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الأموات وإحياؤهم من قبورهم إلى الموقف؛ للحساب والجزاء، يقال: «أنشر الله الموتى فنشروا: إذا حيوا، وأنشره الله، أي: أحياه، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥]. انظر: تهذيب اللغة للأزهري، مادة (نشر)، ١١/ ٢٣٢، والنهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير، مادة (نشر)، ٥/ ٥٤، بتصرف.

(٥٩) سُمِّي بيوم الحساب؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ يحاسب فيه الخلائق على أعمالهم ويعرفهم بها وبما يستحقونه على ما قدموه، من ذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦]. انظر: لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية لشمس الدين أبي العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني، ٢/ ١٦٥ بتصرف، مؤسسة الخافقين ومكتبتها، دمشق، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م.

(٦٠) سمّي يوم الفصلِ؛ لِأَنَّ الله تعالى يَفْصِل فِيهِ بيْن خلْقِهِ. انظر: تفسير القرطبي، ١٩/ ١٧٥، وتفسير الجلالين، ص ٦٥٩، بتصرف.

(٦١) يقصد بالدِّين هنا: الجزاء، وسُمِّي بيوم الدِّين؛ لأنه اليوم الذي يجازي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيه عباده على ما قدّموا من أعمالٍ؛ فيثاب من فعل البرّ، ويعاقب من ارتكب الشرّ، قال تعالى عن نفسه: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]. انظر: تفسير القرطبي ١/ ١٤٣، وتفسير الرازي، ١/ ٢٠٤، بتصرف.

(٦٢) سُمِّي بيوم التّلاق (أي: التلاقي)؛ لأنّ الأرواح كانت متباينةً عن الأجساد فإذا جاء يوم القيامة صارت الأرواح ملاقيةً للأجساد؛ فكان ذلك اليوم يوم التّلاق، أو لأنّ أهل السّماء ينزلون على أهل الأرض؛ فيلتقي فيه أهل السّماء وأهل الأرض، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥]، أو لأنّ كلّ عاملٍ سيلقى ما عمل من خيرٍ أو شرٍّ. انظر: تفسير الرازي، ٢٧/ ٤٩٩، وتفسير ابن كثير، ٧/ ١٢٢، بتصرف.

(٦٣) الحسرة: النّدامة الشّديدة الدّاعية إلى التّلهف، وسُمِّي بيوم الحسرة لكثرة ما يحدث فيه من تحسّر المجرمين من أهل النّار على ما فرّطوا فيه من أسباب النّجاة، وقيل: يتحسّر أيضًا من في الجنّة إذا لم يكن من السّابقين الواصلين إلى الدّرجات العالية، والأوّل هو الصّحيح؛ لأنّ الحسرة غمّ؛ وذلك لا يليق بأهل الثّواب. انظر: تفسير الرازي، ٢١/ ٥٤١، والتحرير والتنوير، ١٦/ ١٠٩، بتصرف.

(٦٤) سُمِّي بيوم الوعيد؛ لأنه اليوم الذي أوعد الله به الكفّار، قال مقاتل: يعني بالوعيد العذاب في الآخرة، وخصّص الوعِيد مع كون اليوم هو يوم الوعد والوعيد جميعًا لتهويله. انظر: فتح القدير للشوكاني، ٥/ ٩٠ بتصرف.

(٦٥) سُمِّي بيوم الخروج؛ لأنه يوم خروج أهل القبور من قبورهم. انظر: تفسير الطبري، ٢١/ ٤٧٦، ولسان العرب، مادة (خرج)، بتصرف.

(٦٦) الغبن: ضعف الرأي، يقال في رأيه غبن، قال ابن عبّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: هو اسم من أسماء يوم القيامة، وذلك أنّ أهل الجنّة يغبنون أهل النّار، فلا غبن أعظم من أن يدخل هؤلاء إلى الجنّة، ويذهب بأولئك إلى النّار. انظر: تفسير ابن كثير، ٨/ ١٣٧، ولسان العرب، مادة (غبن)، بتصرف.

(٦٧) سُمِّي بيوم الجمع؛ لوجوه: الأوّل: أنّ الخلائق يجمعون فيه، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾ [التّغابن: ٩]، فيجتمع فيه أهل السماوات مع أهل الأرض. الثّاني: أنّه يجمع بين الأرواح والأجساد. الثّالث: يجمع بين كلّ عاملٍ وعمله. الرّابع: يجمع بين الظّالم والمظلوم. انظر: تفسير الرازي، ٢٧/ ٥٨٠، وتفسير أبي السعود «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم»، ٨/ ٢٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بتصرف.

(٦٨) سُمِّي بيوم التناد (أي: التنادي)؛ لمناداة النّاس بعضهم بعضًا، فينادي أصحاب الأعراف رجالًا يعرفونهم بسيماهم، وينادي أصحاب الجنّة أصحاب النّار: ﴿أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ [الأعراف: ٤٤]، وينادي أصحاب النّار أصحاب الجنّة: ﴿أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ [الأعراف: ٥٠]، أو لأنّ بعض الظالمين ينادي بعضًا بالويل والثبور، فيقولون فيما قصه القرآن الكريم: ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ [الأنبياء: ١٤]، أو لأن المؤمن ينادي: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩]، والكافر ينادي: ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٥]. انظر: تفسير الرازي، ٢٧/ ٥١٢، وتفسير القرطبي، ١٥/ ٣١٠، بتصرف.

(٦٩) وسُمّي بيوم الآزفة؛ لأنّه قريب، إذ كلّ ما هو آتٍ قريب، وأزف فلان، أي: قرب. انظر: تفسير القرطبي، ١٥/ ٣٠٢، وتفسير الجلالين، ص ٦٢٠، بتصرف.

(٧٠) سُمّي بيوم الخلود؛ لأنه يوم دخول الناس الجنة ماكثين فيها إلى غير نهاية، عن قتادة قال: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ [ق: ٣٤] خلدوا والله فلا يموتون، وأقاموا فلا يظعنون، ونعموا فلا ييأسون. انظر: تفسير الطبري، ٢٢/ ٣٦، وتفسير الجلالين، ص ٦٩١.

(٧١) سُمّي باليوم الحق، أي: الثابت المتحقق لا محالة من غير صارفٍ يلويه، ولا عاطفٍ يثنيه؛ ولأنه يحصل فيه كلّ الحق، ويندمغ كلّ باطلٍ، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾ [النبأ: ٣٩] يُفيد أنه هو اليوم الحق وما عداه باطل؛ لأن أيّام الدّنيا باطلها أكثر من حقّها. انظر: تفسير الرازي، ٣١/ ٢٦، وتفسير أبي السعود، ٩/ ٩٤.

(٧٢) سُمّي باليوم الموعود، أي: الموعود به، قال ابن عبّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «وعد أهل السّماء وأهل الأرض أن يجتمعوا فيه». انظر: تفسير القرطبي، ١٩/ ٢٨٣، والتحرير والتنوير، ٣٠/ ٢٣٩، بتصرف.

(٧٣) وُصِف بالنّبأ العظيم؛ لأنه الخبر الهائل الباهر، قال قتادة: النّبأ العظيم البعث بعد الموت. انظر: تفسير ابن كثير ٨/ ٣٠٧، وتفسير القرطبي، ١٩/ ١٧٠، بتصرف.

(٧٤) وُصِف يوم القيامة باليوم المشهود؛ لأنه يوم يجتمع فيه الخلق كلهم، ويشهده أهل السماء وأهل الأرض. انظر: تفسير الطبري، ١٥/ ٤٧٨، التحرير والتنوير ٣٠/ ٢٣٩، بتصرف.

(٧٥) وُصِف يوم القيامة بأنه يوم عسير، أي: شديد صعب. انظر: تفسير ابن كثير، ٦/ ٩٨ بتصرف.

(٧٦) وُصِف يوم القيامة بأنه يوم عبوس، أي: ضيّق، وقمْطرير، أي: طويل، والعبوس الشّرّ، والقمطرير الشّديد، والمراد: يوم صعب عسير وطويل على أهل الكفر والفجور. انظر: تفسير أبي السعود، ٩/ ٧٢، وتفسير ابن كثير، ٨/ ٢٩٦، بتصرف.

(٧٧) سُمّيت القيامة بالآخرة أو اليوم الآخر؛ لأنه بعد أيام الدنيا، وقيل: لأنه آخر يوم ليس بعده ليلة، والأيام إنما تتميز بالليالي، فإذا لم يكن بعده ليل لم يكن بعده يوم على الحقيقة. انظر: التّفسير البسيط للواحدي، ٢/ ١٢٨ بتصرف.

(٧٨) سُمّيت القيامة بالساعة؛ لسرعة الأمر فيها، أو لمجيئها في ساعة من يومها، أو كناية عن دنو وقتها وكأنها حاضرة وماثلة. انظر: تفسير الماوردي، ٥/ ٤٠٨، والتحرير والتنوير، ٣٠/ ٩٨، بتصرف.

(٧٩) سُمّيت بالغاشية؛ لأنّها تغشى الخلائق بأهوالها وأفزاعها، فهي تغشى جميع النّاس وتعمّهم. انظر: تفسير القرطبي ٢٠/ ٢٥، وتفسير ابن كثير، ٨/ ٣٧٦، بتصرف.

(٨٠) سُمّيت القيامة بالواقعة؛ لتحقق كونها ووجودها، ولأنّها تقع عن قربٍ، وقيل: لكثرة ما يقع فيه، ا من الشّدائد، والمراد النّفخة الأخيرة. انظر: تفسير القرطبي، ١٧/ ١٩٤، وتفسير ابن كثير، ٨/ ٤.

(٨١) سُمّيت القيامة بالقارعة؛ بسبب تلك الصّيحة التي تموت منها الخلائق؛ لأنّ في الصّيحة الأولى تذهب العقول، قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٨]، والقرْع هو: الضّرب بشدّةٍ واعتمادٍ، ثمّ سمّيت الحادثة العظيمة من حوادث الدّهر قارعةً، فالقيامة تقرع الخلائق بأهوالها وأفزاعها. انظر: تفسير الرازي، ٣٢/ ٢٦٥، وتفسير القرطبي، ٢٠/ ١٦٤، بتصرف.

(٨٢) سُمِّيتْ القيامة بالحاقّة؛ لأنّها تكون من غير شكٍّ، فهي الحالة الثابتة الوقوع الواجبة المجيء لا محالة، وقيل: سمِّيتْ بذلك؛ لأنّها أحقّتْ لأقوامٍ الجنّة، وأحقّت لأقوامٍ النّار. انظر: تفسير القرطبي، ١٨/ ٢٥٧، وتفسير أبي السعود، ٩/ ٢١، بتصرف.

(٨٣) سُمِّيت القيامة بالطّامّة؛ لأنّها تطمّ على كلّ أمرٍ هائلٍ، والطامة عند العرب هي: الدّاهية التي لا تستطاع، فالطّامّة اسم لكلّ داهيةٍ عظيمةٍ ينسى ما قبلها في جنبها. انظر: تفسير الرازي، ٣١/ ٤٨، وتفسير ابن كثير، ٨/ ٣١٩، بتصرف.

(٨٤) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤]، حديث رقم: ٤٧٧٧، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الإيمان ما هو وبيان خصاله، حديث رقم: ٩.

(٨٥) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب علامة حبّ الله عَزَّوَجَلَّ، حديث رقم: ٦١٧١، وصحيح مسلم، كتاب البرّ والصّلة والآداب، باب المرء مع من أحبّ، حديث رقم: ٢٦٣٩، واللفظ له.

(٨٦) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب الميّت يسمع خفْق النِّعالِ، حديث رقم: ١٣٣٨.

(٨٧) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب صفة الجنّة والنّار، حديث رقم: ٦٥٤٩، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب الجنّة وصفة نعيمها وأهلها، باب إحلال الرّضوان على أهل الجنّة، فلا يسخط عليهم أبدًا، حديث رقم: ٢٨٢٩.

(٨٨) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب في الحوض، حديث رقم: ٦٥٧٩.

(٨٩) تفسير ابن كثير، ٤/ ٤٥٥، بتصرف.

(٩٠) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]، حديث رقم: ٧٣٧٧، وصحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب البكاء على الميّت، حديث رقم: ٩٢٣، واللفظ له.

(٩١) سنن الترمذي، أبواب صفة القيامة والرّقائق والورع عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في صفة أواني الحوض، باب منه، حديث رقم: ٢٥١٦.

(٩٢) المعجم الكبير للطبراني، ١١/ ١٢٣، حديث رقم: ١١٢٤٣.

(٩٣) انظر: تفسير القرطبي، ١٧/ ١٤٨ بتصرف.

(٩٤) المصدر السابق، الموضع نفسه، وانظر: إحياء علوم الدين، ٢/ ٦٣.

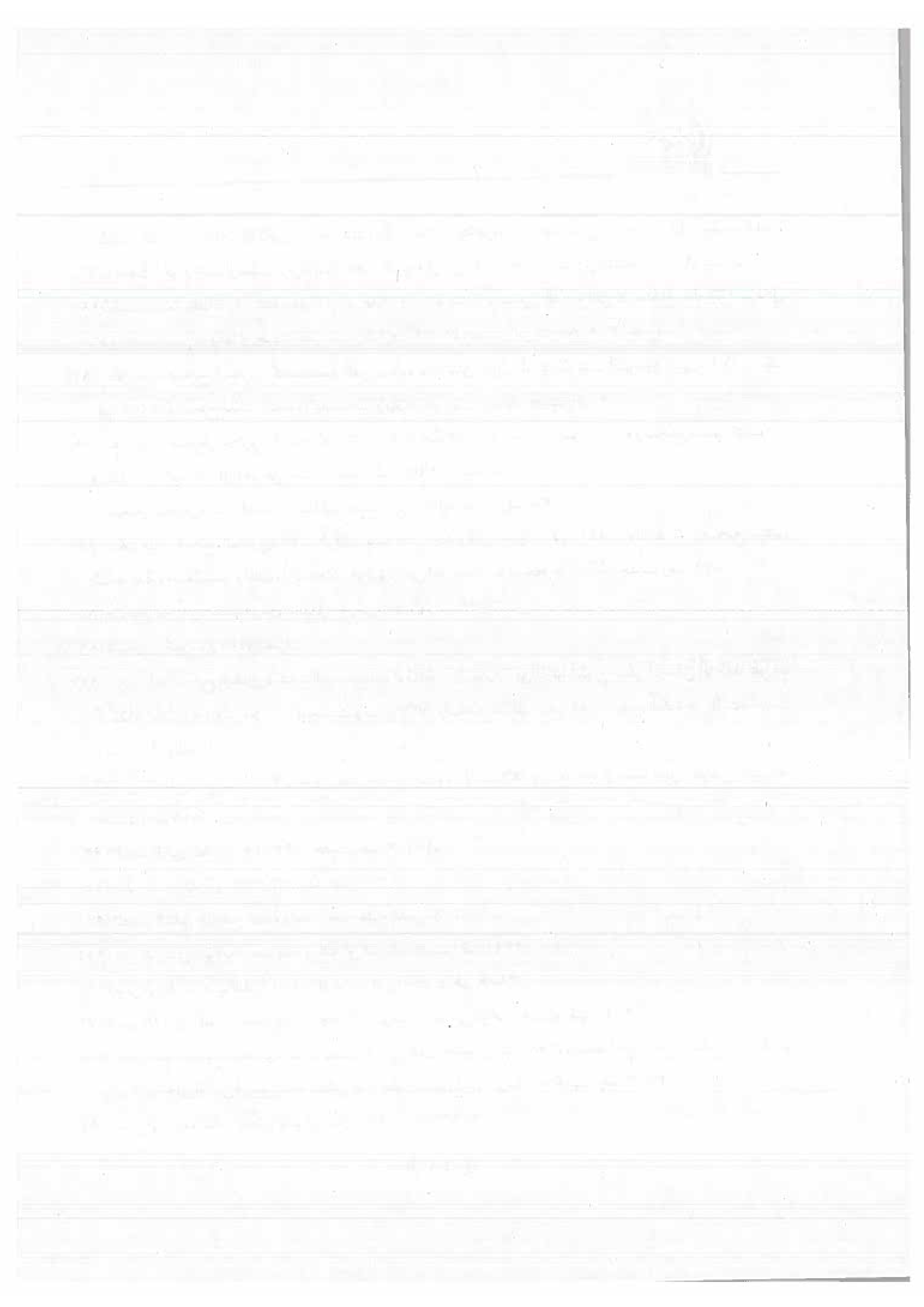
(٩٥) سنن الترمذي، أبواب الزهد، باب في التّوكّل على الله، حديث رقم: ٢٣٤٤.

(٩٦) سنن أبي داود، كتاب الطب، باب في الرجل يتداوى، حديث رقم: ٣٨٥٥.

(٩٧) سنن الترمذي، أبواب القدر، باب ما جاء أنّ القلوب بين أصبعي الرّحمن، حديث رقم: ٢١٤٠.

(٩٨) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب القدر، باب في القدر، حديث رقم: ٦٥٩٤، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب القدر، باب كيفيّة خلق الآدميّ في بطن أمّه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، حديث رقم: ٢٦٤٣.

(٩٩) سنن أبي داود، كتاب الجنائز، باب في التّلقين، حديث رقم: ٣١١٦.



الكمال والجمال في القرآن الكريم

القرآن الكريم كتاب نور، وكتاب هداية، وكتاب رحمة، من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن تمسك به هُدِيَ إلى صراط مستقيم؛ حيث يقول نبينا ﷺ: «تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ فَلَنْ تَضِلُّوا أَبَدًا: كِتَابَ الله وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ»(١).

وهو أعلى درجات البلاغة والفصاحة والبيان، يتدفق الإعجاز من جميع جوانبه تدفقًا لا شاطئ له، فهو الذي يهجم عليك الحُسْن منه دفعةً واحدةً، فلا تدري أجاءك الحُسْن من جهة لفظه أم من جهة معناه؛ إذ لا تكاد الألفاظ تصل إلى الآذان حتى تكون المعاني قد وصلت إلى القلوب.

فكل لفظة أو كلمة في القرآن الكريم قد وقعت موقعها حيث هي مقصودة لذاتها، لا يسدّ مسدّها سواها لا من المترادفات عند القدماء، ولا من حقول الاستبدال الرأسي أو الأفقي عند المحدثين، وما ذكر في القرآن الكريم كان مقصودًا لذاته لا يقوم الحذف مقامه، وما حُذف كان حذفه في موضعه أبلغ من الذكر.

وهو أحسن القصص؛ حيث يقول الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَى مخاطبًا نبيه ﷺ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف: ٣]، وهو أحسن الحديث؛ حيث يقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣].

هذا وقد رفع الله عَزَّوَجَلَّ أهل القرآن إلى أعلى المراتب، فهم أهل الله وخاصته، وتجارتهم لا تبور ولن تبور؛ حيث يقول سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٢٩-٣٠].

وفي هذا المبحث نحاول أن نقف على بعض وجوه الكمال والجمال المعنوي في القرآن الكريم، وعلى بعض وجوه البلاغة والبيان في

هذا الكتاب العظيم، مع إبراز دلالات أسماء بعض سوره، وذكر بعض الأحاديث النبوية الشريفة وأقوال بعض أهل العلم والذكر في فضائله وفضائل أهله وحفظته.

أهل القرآن

أهل القرآن هم أهل الله وخاصته، يقول نبينا ﷺ: «إِنَّ للهِ أَهْلِينَ مِنَ النَّاسِ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ مَنْ هُمْ؟ قَالَ: «هُمْ أَهْلُ القُرْآنِ، أَهْلُ اللهِ وَخَاصَّتُهُ»[1].

والقرآن هو كلام الله تعالى، المنزل على رسوله محمد ﷺ، المتعبد بتلاوته، المتحدَّى بأقصر سورة منه، من قال به صدق، ومن حكم به عدل، لا يشبع منه العلماء، ولا تنقضي عجائبه، ولا يخلَقُ عن كثرة الردّ، يقول تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۞ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإسراء: ٩-١٠]، ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

والقرآن الكريم كتاب هداية؛ حيث يقول الحق سبحانه: ﴿الٓمٓ ۞ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١-٢]، وهو كتاب رحمة وشفاء؛ حيث يقول سبحانه: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، وهو نور يهدي به الله من يشاء من عباده؛ حيث يقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾ [الشورى: ٥٢]، لم تلبث الجن إذ سمعته أن قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۞ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ١-٢].

وعندما سمع الأصمعي امرأة بليغة فصيحة فأُعجب ببلاغتها وفصاحتها، فقال لها: ما أفصحك وما أبلغك!! فأجابته: أي فصاحة وأي بلاغة إلى جانب فصاحة وبلاغة كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؟! لقد جمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين، وذلك حيث يقول الحق سبحانه: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ

﴿أَرْضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[القصص: ٧](٣).

وقد أكرم الإسلام أهل القرآن أيّما إكرام، كما سبقت الإشارة إلى ذلك في المبحث السابق(٤)، فهذا نبينا ﷺ يضرب أعظم المثل في بيان إكرام الله لأهل القرآن، فقد قال يومًا لسيدنا أُبيِّ بن كعب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أُقْرِئَكَ الْقُرْآنَ» قَالَ: آللهُ سَمَّانِي لَكَ؟ قَالَ: «نَعَمْ» قَالَ: وَقَدْ ذُكِرْتُ عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، فَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ(٥)، وفي رواية الطبراني: «قال أُبيٌّ: يا رَسُولَ الله، وَذُكِرْتُ هُنَاكَ؟، قَالَ ﷺ: «نَعَمْ بِاسْمِكَ ونَسَبِكَ فِي الْمَلَأِ الأَعْلَى»، قَالَ: فَاقْرَأْ إِذًا يَا رَسُولَ اللهِ»(٦).

ولما صعد سيدنا عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يومًا نخلة في حضرة رسول الله ﷺ وحضرة أصحابه، وكان نحيل الجسد والساق، فضحك بعض الحاضرين من شدة نحول ساقه، فقال نبينا ﷺ: «مِمَّ تَضْحَكُونَ؟» قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللهِ، مِنْ دِقَّةِ سَاقَيْهِ، فَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَهُمَا أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أُحُدٍ»(٧)، وكان ﷺ يقول: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ غَضًّا كَمَا أُنْزِلَ فَلْيَقْرَأْهُ عَلَى قِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ»(٨)، وقال له نبينا ﷺ يومًا: «اقْرَأْ عَلَيَّ الْقُرْآنَ»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، أَقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟! قَالَ: «إِنِّي أَشْتَهِي أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي» فَقَرَأْتُ النِّسَاءَ حَتَّى إِذَا بَلَغْتُ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء:٤١]، قَالَ لِي: «كُفَّ أَوْ أَمْسِكْ»، فَرَأَيْتُ عَيْنَيْهِ تَذْرِفَانِ(٩).

وكان سيدنا سالم مولى أبي حذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا من أهل القرآن الذين قال نبينا ﷺ فيهم: «خُذُوا الْقُرْآنَ مِنْ أَرْبَعَةٍ: مِنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، وَسَالِمٍ، وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، وَأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ»(١٠)، أَيْ: تَعَلَّمُوا مِنْهُمْ، وكان أبو حذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يقول: يا أهل القرآن، زيّنوا القرآن بأعمالكم. ولما حضرت سيدنا عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ الوفاة، وطُلِبَ مِنْهُ أن يستخلف، فقال: وَإِنِّي جَاعِلٌ هَذَا الأَمْرَ إِلَى هَؤُلَاءِ النَّفَرِ السِّتَّةِ الَّذِينَ مَاتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ عَنْهُمْ رَاضٍ، ثُمَّ قَالَ عُمَرُ: لَوْ أَدْرَكَنِي أَحَدُ رَجُلَيْنِ، ثُمَّ جَعَلْتُ هَذَا الأَمْرَ إِلَيْهِ لَوَثِقْتُ بِهِ: سَالِمٌ مَوْلَى

أَبِي حُذَيْفَةَ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاحِ[11].

ومن إكرام الله عَزَّوَجَلَّ لأهل القرآن أنْ جعله شفيعًا لأصحابه يوم القيامة، يقول نبينا ﷺ: «الصِّيَامُ وَالْقُرْآنُ يَشْفعَانِ لِلْعَبْدِ يَوْمَ القِيَامَةِ، يَقُولُ الصِّيَامُ: أَيْ رَبِّ، مَنَعْتُهُ الطَّعَامَ وَالشَّهَوَاتِ بِالنَّهَارِ، فَشَفِّعْنِي فِيهِ، وَيَقُولُ القُرْآنُ: مَنَعْتُهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ، فَشَفِّعْنِي فِيهِ، قَالَ: فَيُشَفَّعَانِ»[12]، ويقول نبينا ﷺ: «مَنْ قَرَأَ القُرْآنَ وَعَمِلَ بِمَا فِيهِ أُلْبِسَ وَالِدَاهُ تَاجًا يَوْمَ القِيَامَةِ ضَوْؤُهُ أَحْسَنُ مِنْ ضَوْءِ الشَّمْسِ فِي بُيُوتِ الدُّنْيَا لَوْ كَانَتْ فِيكُمْ، فَمَا ظَنُّكُمْ بِالَّذِي عَمِلَ بِهذا»[13].

ثلاثون حديثاً مختارة
في فضائل القرآن الكريم

١- عن عَبْدِ الله بْن عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «لا حَسَدَ إِلَّا عَلَى اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ الله الكِتَابَ، وَقَامَ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ، وَرَجُلٌ أَعْطَاهُ الله مَالًا، فَهُوَ يَتَصَدَّقُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ»[14].

٢- وعَنْ أَبِي مُوسَى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «تَعَاهَدُوا هَذَا القُرْآنَ، فَوَالَّذِي نَفْسُ محمدٍ بِيَدِهِ لَهُوَ أَشَدُّ تَفَلُّتًا مِنَ الإِبِلِ فِي عُقُلِهَا»[15].

٣- وعَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ القُرْآنَ كَالأُتْرُجَّةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَرِيحُهَا طَيِّبٌ، وَالَّذِي لا يَقْرَأُ القُرْآنَ: كَالتَّمْرَةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَلا رِيحَ لَهَا، وَمَثَلُ الفَاجِرِ الَّذِي يَقْرَأُ القُرْآنَ كَمَثَلِ الرَّيْحَانَةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ، وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الفَاجِرِ الَّذِي لا يَقْرَأُ القُرْآنَ كَمَثَلِ الحَنْظَلَةِ طَعْمُهَا مُرٌّ، وَلا رِيحَ لَهَا»[16].

٤ - وعَنْ أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَمَا هُوَ يَقْرَأُ مِنَ اللَّيْلِ سُورَةَ البَقَرَةِ، وَفَرَسُهُ مَرْبُوطَةٌ عِنْدَهُ، إِذْ جَالَتِ الفَرَسُ، فَسَكَتَ فَسَكَنَتْ، فَقَرَأَ، فَجَالَتِ الفَرَسُ، فَسَكَتَ وَسَكَنَتِ الفَرَسُ، ثُمَّ قَرَأَ، فَجَالَتِ الفَرَسُ فَانْصَرَفَ، وَكَانَ ابْنُهُ يَحْيَى قَرِيبًا مِنْهَا، فَأَشْفَقَ أَنْ تُصِيبَهُ، فَلَمَّا اجْتَرَّهُ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ، حَتَّى مَا يَرَاهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ حَدَّثَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «اقْرَأْ يَا بْنَ حُضَيْرٍ، اقْرَأْ يَا بْنَ حُضَيْرٍ»، قَالَ: فَأَشْفَقْتُ يَا رَسُولَ الله أَنْ تَطَأَ يَحْيَى، وَكَانَ



مِنْهَا قَرِيبًا، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَانْصَرَفْتُ إِلَيْهِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي إِلَى السَّمَاءِ، فَإِذَا مِثْلُ الظُّلَّةِ فِيهَا أَمْثَالُ الْمَصَابِيحِ، فَخَرَجَتْ حَتَّى لا أَرَاهَا، قَالَ: «وَتَدْرِي مَا ذَاكَ؟»، قَالَ: لا، قَالَ: «تِلْكَ الْمَلائِكَةُ دَنَتْ لِصَوْتِكَ، وَلَوْ قَرَأْتَ لَأَصْبَحَتْ يَنْظُرُ النَّاسُ إِلَيْهَا، لا تَتَوَارَى مِنْهُمْ»[١٧].

٥ - وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قال لأُبَيّ: «إِنَّ الله أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ» قَالَ أُبَيٌّ: آلله سَمَّانِي لَكَ؟ قَالَ: «الله سَمَّاكَ لِي»، قال: «فَجَعَلَ أُبَيٌّ يَبْكِي»[١٨].

٦ - وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَجْمَعُ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ مِنْ قَتْلَى أُحُدٍ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ يَقُولُ: «أَيُّهُمْ أَكْثَرُ أَخْذًا لِلْقُرْآنِ؟»، فَإِذَا أُشِيرَ لَهُ إِلَى أَحَدِهِمَا قَدَّمَهُ فِي اللَّحْدِ، وَقَالَ: «أَنَا شَهِيدٌ عَلَى هَؤُلاَءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، وَأَمَرَ بِدَفْنِهِمْ فِي دِمَائِهِمْ، وَلَمْ يُغَسَّلُوا، وَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْهِمْ[١٩].

٧ - وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَهُوَ حَافِظٌ لَهُ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ، وَمَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ وَهُوَ يَتَعَاهَدُهُ وَهُوَ عَلَيْهِ شَدِيدٌ فَلَهُ أَجْرَانِ»[٢٠].

٨ - وعَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ لِي النَّبِيُّ ﷺ: «اقْرَأْ عَلَيَّ»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله أَقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنزِلَ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: فَقَرَأْتُ سُورَةَ النِّسَاءِ حَتَّى أَتَيْتُ إِلَى هَذِهِ الآيَةِ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، قَالَ: «حَسْبُكَ الآنَ»[٢١]، وفي رواية: أَقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنزِلَ، قَالَ: «إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي»[٢٢].

٩ - وعَنْ عُثْمَانَ بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»[٢٣].

١٠ - وعن عُمَر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ»[٢٤].

١١ - وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا، نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ؛ يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا؛ سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ

عِلْمًا؛ سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الجَنَّةِ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمِ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ المَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ»[٢٥].

١٢- وعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الجُهَنِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَنَحْنُ فِي الصُّفَّةِ، فَقَالَ: «أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ إِلَى بُطْحَانَ أَوِ العَقِيقِ فَيَأْخُذَ نَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ[٢٦] بِغَيْرِ إِثْمٍ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَلَا قَطْعِ رَحِمٍ؟»، قَالُوا: كُلُّنَا يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «فَلَأَنْ يَغْدُوَ أَحَدُكُمْ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى المَسْجِدِ، فَيَتَعَلَّمَ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ، وَإِنْ ثَلَاثٌ فَثَلَاثٌ مِثْلُ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الإِبِلِ»[٢٧].

١٣- وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «المَاهِرُ بِالقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الكِرَامِ البَرَرَةِ، وَالَّذِي يَقْرَأُ القُرْآنَ وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ، وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ؛ لَهُ أَجْرَانِ»[٢٨].

١٤- وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يُقَالُ لِصَاحِبِ القُرْآنِ: اقْرَأْ وَارْتَقِ، وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا»[٢٩].

١٥- وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يَجِيءُ القُرْآنُ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ حَلِّهِ، فَيُلْبَسُ تَاجَ الكَرَامَةِ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ زِدْهُ، فَيُلْبَسُ حُلَّةَ الكَرَامَةِ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا رَبِّ ارْضَ عَنْهُ، فَيَرْضَى عَنْهُ، فَيُقَالُ لَهُ: اقْرَأْ وَارْقَ، وَيُزَادُ بِكُلِّ آيَةٍ حَسَنَةً»[٣٠].

١٦- وعن عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ: (الم) حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلَامٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ»[٣١].

١٧- وعَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ المُسْلِمِ، وَحَامِلِ القُرْآنِ غَيْرِ الغَالِي فِيهِ وَالجَافِي عَنْهُ، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ المُقْسِطِ»[٣٢].

١٨- وعَنْ سَهْلِ بْنِ مُعَاذٍ الجُهَنِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَرَأَ القُرْآنَ

وَعمِلَ بِمَا فِيهِ أُلْبِسَ وَالِدَاهُ تَاجًا يَوْمَ القِيَامَةِ ضَوْؤُهُ أَحْسَنُ مِنْ ضَوْءِ الشَّمْسِ فِي بُيُوتِ الدُّنْيَا لَوْ كَانَتْ فِيكُمْ، فَمَا ظَنُّكُمْ بِالَّذِي عَمِلَ بِهَذَا؟»[٣٣].

١٩- وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ لله أَهْلِينَ مِنَ النَّاسِ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، مَنْ هُمْ؟ قَالَ: «هُمْ أَهْلُ القُرْآنِ، أَهْلُ الله وَخَاصَّتُهُ»[٣٤].

٢٠- وَعَنْ بُرَيْدَةَ الأَسْلَمِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ القُرْآنَ يَلْقَى صَاحِبَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ حِينَ يَنْشَقُّ عَنْهُ القَبرُ كَالرَّجُلِ الشَّاحِبِ، فَيَقُولُ لَهُ: هَلْ تَعرِفُنِي؟، فَيَقُولُ: مَا أَعْرِفُكَ، فَيَقُولُ لَهُ: أَنَا صَاحِبُكَ القُرْآنُ، الَّذِي أَظْمَأْتُكَ فِي الهواجر، وَأَسْهَرْتُ لَيْلَكَ، وَإِنَّ كُلَّ تَاجِرٍ مِنْ وَرَاءِ تِجَارَتِهِ، وَإِنَّكَ اليَوْمَ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ تِجَارَةٍ، قَالَ: فَيُعْطَى المُلْكَ بِيَمِينِهِ، وَالخُلْدَ بِشِمَالِهِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأسِهِ تَاجُ الوَقَارِ، وَيُكْسَى وَالِدَاهُ حُلَّتَيْنِ لَا يقومُ لَهُمَا أهلُ الدُّنْيَا، فَيَقُولَانِ: بِمَ كُسِينَا هذا؟، فَيُقَالُ لَهُمَا: بِأَخْذِ وَلَدِكُمَا القُرْآنَ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: اقْرَأْ وَاصْعَدْ فِي دَرَجِ الجَنَّةِ وَغُرَفِهَا، فَهو فِي صُعُودٍ مَا دَامَ يَقْرَأُ هذًّا كَانَ أَوْ تَرْتِيلًا»[٣٥].

٢١- وعَن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: بَيْنَمَا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ سَمِعَ نَقِيضًا مِن فَوْقِهِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: «هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ اليَوْمَ لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلَّا اليَوْمَ، فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ، فَقَالَ: هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الأَرْضِ لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلَّا اليَوْمَ، فَسَلَّمَ، وَقَالَ: أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةُ الكِتَابِ، وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ البَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُعْطِيتَهُ»[٣٦].

٢٢- وعن النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ القِيَامَةِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ تَقْدُمُهُ سُورَةُ البَقَرَةِ، وَآلُ عِمْرَانَ»، وَضَرَبَ لَهُمَا رَسُولُ الله ﷺ ثَلَاثَةَ أَمْثَالٍ مَا نَسِيتُهُنَّ بَعْدُ، قَالَ: «كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ ظُلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ بَيْنَهُمَا شَرْقٌ، أَوْ كَأَنَّهُمَا حِزْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ، تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا»[٣٧].

٢٣- وعن أبي أُمَامَةَ البَاهِلِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «اقْرَءُوا القُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ القِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ، اقْرَءُوا

الزَّهْرَاوَيْنِ البَقَرَةَ، وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ، فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ القِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ، تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا، اقْرَءُوا سُورَةَ البَقَرَةِ، فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا البَطَلَةُ»[٣٨].

٢٤- وعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الكَهْفِ عُصِمَ مِنَ الدَّجَّالِ»[٣٩].

٢٥- وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَنفِرُ مِنَ البَيْتِ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ البَقَرَةِ»[٤٠].

٢٦- وعَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ يَسِيرُ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، وَعُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَسِيرُ مَعَهُ لَيْلًا، فَسَأَلَهُ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ عَنْ شَيْءٍ فَلَمْ يُجِبْهُ رَسُولُ الله ﷺ، ثُمَّ سَأَلَهُ فَلَمْ يُجِبْهُ، ثُمَّ سَأَلَهُ فَلَمْ يُجِبْهُ، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ: ثَكِلَتْ أُمُّ عُمَرَ، نَزَرْتَ رَسُولَ الله ﷺ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، كُلَّ ذَلِكَ لَا يُجِيبُكَ، قَالَ عُمَرُ: فَحَرَّكْتُ بَعِيرِي، ثُمَّ تَقَدَّمْتُ أَمَامَ النَّاسِ، وَخَشِيتُ أَنْ يُنْزَلَ فِيَّ قُرْآنٌ، فَمَا نَشِبْتُ أَنْ سَمِعْتُ صَارِخًا يَصْرُخُ بِي، قَالَ: فَقُلْتُ: لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ نَزَلَ فِيَّ قُرْآنٌ، وَجِئْتُ رَسُولَ الله ﷺ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: «لَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ سُورَةٌ لَهِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح: ١][٤١].

٢٧- وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ سُورَةً فِي القُرْآنِ ثَلَاثُونَ آيَةً شَفَعَتْ لِصَاحِبِهَا حَتَّى غُفِرَ لَهُ، وَهِيَ سُورَةُ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ المُلْكُ»[٤٢].

٢٨- وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ خَطَبَ النَّاسَ فِي حَجَّةِ الوَدَاعِ، فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ فَلَنْ تَضِلُّوا أَبَدًا، كِتَابَ الله وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ»[٤٣].

٢٩- وعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ فِي لَيْلَةٍ ثُلُثَ القُرْآنِ؟»، قَالُوا: وَكَيْفَ يَقْرَأُ ثُلُثَ القُرْآنِ؟ قَالَ: «﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ تَعْدِلُ ثُلُثَ القُرْآنِ»[٤٤].

٣٠- وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعَثَ رَجُلًا عَلَى سَرِيَّةٍ، وَكَانَ يَقْرَأُ لِأَصْحَابِهِ فِي صَلَاتِهِمْ، فَيَخْتِمُ بِـ ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾، فَلَمَّا رَجَعُوا ذُكِرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «سَلُوهُ لِأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ؟» فَسَأَلُوهُ، فَقَالَ: لِأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ، فَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللهَ يُحِبُّهُ»[٤٥].

قالوا عن القرآن الكريم

١- ذكر أبو عمرو الداني في كتابه «البيان» بإسناده عن عثمان وابن مسعود وأُبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: أن رسول الله ﷺ كان يقرئهم العشر، فلا يجاوزونها إلى عشرٍ أخرى حتى يتعلموا ما فيها من العمل؛ فيعلمنا القرآن والعمل جميعًا[٤٦].

وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مخاطبًا حفظة القرآن وأهله: يا معشر القراء: ارفعوا رءوسكم، فقد وضح لكم الطريق، فاستبقوا الخيرات، لا تكونوا عيالًا على الناس[٤٧].

٢- وقال سيدنا عثمان بن عفان، وحذيفة ابن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لو طهرت القلوب لم تشبع من قراءة القرآن[٤٨].

٣- وقال سيدنا عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إن هذه القلوب أوعية فاشغلوها بالقرآن ولا تشغلوها بغيره[٤٩].

وقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أيضًا: إذا أردتم العلم فعليكم بالقرآن، فإن فيه علم الأولين والآخرين[٥٠].

وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: ينبغي لقارئ القرآن أن يُعْرَف بليله إذا الناس نائمون، وبنهاره إذا الناس مفطرون، وببكائه إذا الناس يضحكون، وبورعه إذا الناس يخلطون، وبصمته إذا الناس يخوضون، وبخشوعه إذا الناس يختالون[٥١].

٤- وقال عَبْدُ الله بْن عَمْرو بْن العَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «مَنْ قَرَأَ القُرْآنَ فَقَدِ اسْتَدْرَجَ النُّبُوَّةَ بَيْنَ جَنْبَيْهِ غَيْرَ أَنَّهُ لا يُوحَى إِلَيْهِ، لا يَنْبَغِي لِصَاحِبِ القُرْآنِ أَنْ يَجِدَّ مَعَ مَنْ جَدَّ، وَلا يَجْهَلَ مَعَ مَنْ جَهِلَ وَفِي جَوْفِهِ كَلَامُ الله تَعَالَى»[٥٢].

٥- وقال سيدنا عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «جمع الله في هذا الكتاب علم الأولين والآخرين، وعلم ما كان وعلم ما يكون، والعلم بالخالق جَلَّ جَلَالُهُ»[٥٣].

٦- وقال سيدنا عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «وَعَلَيْكُمْ بِالْقُرْآنِ فَإِنَّهُ عَنْهُ تُسْأَلُونَ، وَبِهِ تُجْزَوْنَ، وَكَفَى بِهِ وَاعِظًا لِمَنْ عَقِلَ»[٥٤].

٧- وقال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «حَامِلُ القُرْآنِ حَامِلُ رَايَةِ الإِسْلَامِ لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَلْغُوَ مَعَ مَنْ يَلْغُو، وَلَا أَنْ يَلْهُوَ مَعَ مَنْ يَلْهُو، وَلَا يَسْهُوُ مَعَ مَنْ يَسْهُو، وَيَنْبَغِي لِحَامِلِ القُرْآنِ أَنْ لَا يَكُونَ لَهُ إِلَى الخَلْقِ حَاجَةٌ، لَا إِلَى الخُلَفَاءِ فَمَنْ دُونَهُمْ، وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ حَوَايِجُ الخَلْقِ إِلَيْهِ»[٥٥].

٨- وقال الوليد بن المغيرة بعد أن سمع القرآن الكريم: «والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو ولا يُعلَى عليه»[٥٦]، والفضل ما شهدت به الأعداء.

٩- وقال الإمام السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإن كتابنا القرآن لهو مفجر العلوم ومنبعها، ودائرة شمسها ومطلعها، أودع فيه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علم كل شيء، وأبان فيه كل هدي وغي، فترى كل ذي فن منه يستمد، وعليه يعتمد، فالفقيه يستنبط منه الأحكام، ويستخرج حكم الحلال والحرام والنحوي يبني منه قواعد إعرابه»[٥٧].

سور القرآن الكريم بين الزمان والمكان (أسماء ودلالات)

لا شك أن القرآن الكريم إنما هو كلام رب العالمين، معجز كله، وفي جميع جوانبه، كل شيء فيه بحكمة ولحكمة، فهو كما قال الحق سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١-٤٢].

وهنا نحاول أن نلقي الضوء على دلالات أسماء بعض السور وما تحمله من معانٍ وإشاراتٍ في ألفاظه، وفي تراكيبه، وفي أساليبه، وفي معانيه، وفي أسماء سوره.

فمنها ما يرتبط بالزمن، تأكيدًا على أهميته، وبيانًا لقيمته؛ حيث سَمّى القرآن الكريم ست سور بأسماء تحمل دلالات زمنية، هي: سورة الجمعة؛ حيث يقول الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾



[الجمعة: ٩-١٠]، بما تحمله هذه الآيات من ضرورة التوازن بين عمل الدنيا وعمل الآخرة، وكان سيدنا عراك بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا صلَّى الجمعة انطلق فوقف على باب المسجد، ثم قال: اللهم إني قد أجبت دعوتك، وأديت فريضتك، وانتشرت كما أمرتني، فارزقني من فضلك وأنت خير الرازقين[٥٨].

وسورة الفجر التي يقول الله عَزَّ وَجَلَّ في مفتتحها: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ [الفجر: ١-٥]، فمع أن القَسَم استهل بوقت الفجر الذي سميت السورة باسمه فإنه قد تضمن وحدات زمنية أخرى: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾، ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾، ثم يختتم القسم بقوله تعالى: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ أي لذي عقل أو لبّ يدرك معنى هذا القَسَم، ثم أتبع القَسَم بما يدعو إلى التأمل العميق في أحوال من مضى من الأمم السابقة؛ من عاد وثمود وفرعون، فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝ وَفِرْعَوْنَ ذِي ٱلْأَوْتَادِ ۝ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ [الفجر: ٦-١٣].

ويأتي بعد «سورة الفجر» من حيث ترتيب سور القرآن الكريم - من السور التي سُمِّيت بأسماء ذات دلالات زمنية - «سورة الليل» التي استهلت بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ١-٧]، ثم تأتي بعدها «سورة الضحى»، مستهلة بقوله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ١-٣]، ثم «سورة القدر»؛ حيث يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِي لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ [القدر: ١-٥]، ثم سورة العصر؛ حيث يقول الحق سبحانه: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣].

ولا شك أن تسمية ست سور من سور القرآن الكريم بأسماء أوقات أزمنة: الجمعة، والفجر، والليل، والضحى، والقدر، والعصر، لهو دليل على أهمية الزمن، ولفتٌ واضحٌ للنظر إلى ضرورة استثماره الاستثمار النافع والأمثل؛ حيث يقول نبينا ﷺ: «نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ»[٥٩]، ويقول ﷺ: «لا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلاهُ؟»[٦٠].

وإذا تحدثنا عن السور التي سميت بأسماءِ ذات دلالاتٍ زمنيةٍ؛ فمن المنطق أن نتبع بالسور التي سميت بأسماء ذات دلالات مكانية مما هو معروف في دنيا الناس متصل بحياتهم، وهي على الترتيب: الحجر، والكهف، والأحقاف، والحجرات، والطور، والبلد، ولكلٍّ دلالتها، غير أن أول ما يلفت النظر هو هذا التكافؤ الزماني المكاني؛ حيث إن السور التي سميت بأسماء ذات دلالات زمانية ست سور؛ وفي مقابلها ست سور أخرى مسماة بأسماء ذات دلالات مكانية؛ للتأكيد على أهمية المكان، وأهمية الجغرافيا، وهو ما جعل العلماء والفقهاء يؤكدون على أهمية مراعاة طبيعة وخصوصية الزمان والمكان، فقرروا أن الفتوى قد تتغيَّر أو تتطلب تغييرًا باختلاف الزمانِ أو المكان، مراعاة لخصوصيتهما أو خصوصية أي منهما.

ثم إنَّ لكل سورة دلالتها والعبرة المستقاة منها، وأول هذه السور في ترتيب المصحف «سورة الحجر» حيث يقول الحق سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [الحجر: ٨٠-٨٤]، وأصحاب الحِجْر هم قوم سيدنا صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ثم تأتي «سورة الكهف» وتتناول أمورًا عديدة أبرزها قصة أصحاب الكهف، هؤلاء الفتية الذين آمنوا بربهم؛ حيث يقول الحق سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ

هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف: ١٣-١٤]، ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ [الكهف: ٢٥]، ونلاحظ هنا أن النص القرآني عبر بقوله تعالى: ﴿وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾، ولم يقل تعالى: ثلاثمائة وتسع سنين، ففرق كبير بين التعبيرين، إذ إن النص القرآني يحمل معنىً وإشارةً لا يمكن أن يحملها تعبير آخر، ذلك أن كل مائة سنة شمسية تعادل مائة وثلاث سنوات قمرية، فهي ثلاثمائة سنة شمسية، تزاد تسعًا بالحساب القمري.

ثم تأتي «سورة الأحقاف» لتذكِّر بمصير ومآل أصحاب الأحقاف قوم عادٍ؛ حيث يقول الحق عَزَّ وَجَلَّ فيها: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢١-٢٥]؛ إذ في ذلك متَّعظٌ لمن كان له أدنى مسحة أو تدبر في أحوال الأمم التي طغت وتجبرت وظلمت وعتت عن أمر ربها فأخذها أخذ عزيز مقتدر، في سُنَّةٍ لا تتخلف في سوء عقبى الظالمين، وحسن عقبى المتقين، أفرادًا أو جماعاتٍ أو أممًا.

ثم تأتي «سورة الحجرات»، حجرات أزواج النبي ﷺ؛ حيث يقول الحق سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ٤-٥]، بيانًا لمكانة النبي ﷺ والأدب معه.

ولما ناظر أبو جعفر المنصور الإمام مالكًا في مسجد رسول الله ﷺ، قال له مالك: يا أمير المؤمنين، لا ترفع صوتك في مسجد رسول الله ﷺ، فإن الله عَزَّ وَجَلَّ امتدح أقوامًا فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ٣]، وذم آخرين،

فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات: ٤]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢]، وإن حرمته ميتًا كحرمته حيًّا؛ فاستكان لها أبو جعفر[١١].

ثم تأتي «سورة الطور»، طور سيناء؛ حيث يقول الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ۝٥ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ [الطور: ١-٨]، وتأكيدًا على قدسية هذا المكان ولفتًا للأنظار إليه قدم القسم بالطور على غيره من المُقسَم به من: الكتاب المسطور، والبيت المعمور، والسقف المرفوع، والبحر المسجور، وقد استمد هذا الطور هذه المكانة من نداء الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنده لكليمه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ حيث يقول سبحانه: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٢ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ۝١٣ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ۝١٤ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ۝١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [طه: ١١-١٦]، ويقول سبحانه: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٠ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾ [القصص: ٣٠-٣١]، ويقول الله جَلَّ وَعَلَا: لنبينا ﷺ: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٦].

وفي هذا كله ما يؤكد أهمية هذه البقعة المباركة من أرض سيناء المباركة بما حباها الله عَزَّوَجَلَّ به من خير وبركة، وهو ما يستحق منا الاهتمام بها وبأهلها وبمقدساتها والحفاظ عليها، والدفاع عنها، وعن كل حبة رمل من ثراها الطيب الطاهر العطر.

ثم يأتي الختام «بسورة البلد»، البلد الأمين،



مكة المكرمة، بلد الله الحرام الآمن؛ حيث يقول الحق سبحانه: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ① وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ② وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ③ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ١-٤]، فالبلد مُكرَّم لذاته، ولنبيه، ولبيت الله الحرام؛ حيث يقول الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مخاطبًا حبيبنا محمدًا ﷺ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

ثم إن هذا القسم بهذا البلد الحرام ينصبُّ على حقيقة مهمة يجب أن نعيها جيدًا، وهي طبيعة هذه الدنيا التي بنيت على الكد والنصب والتعب، حتى قال أحد العارفين: من طلب الراحة في الدنيا طلب ما لم يخلق ومات ولم يرزق؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ قد قال في كتابه العزيز: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤]، فالدنيا دار عمل وتعب ونصب، والعاقل من أخذ منها ما يتزود به لغده، وما يجب أن يلقى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ به؛ في توازن بين عمارة الكون والتزود للآخرة.

فإذا ما تجاوزنا دلالات الزمان والمكان وجدنا القرآن الكريم يلفت الأنظار إلى الظواهر الكونية، من الشمس، والقمر، والنجم، والرعد، والتكوير، والانفطار، والزلزلة، والبروج، والطارق، والفلق، في تأكيدٍ واضحٍ على أهمية هذه الظواهر، ولفتًا للأنظار إليها، والتأمل فيها، والإفادة منها، وأخذ العبرة والعظة بما ورد في شأنها؛ حيث يقول الحق سبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ⑲٠ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١]، ويقول الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

وهكذا في سائر الدلالات ما يستحق دراسة علمية أكاديمية متخصصة وافية تجلي أسرار ودلالات هذه السور؛ بما فيها من فيض وإعجاز علمي وبلاغي وبياني، وتعطي الموضوع حقه من البحث والدرس والنظر، إذ في كل هذا ما يؤكد أن عطاء القرآن الكريم

متجدد في كل زمان ومكان، لا تنقضي عجائبه، ولا يشبع منه العلماء، ولا يَخْلَقُ عن كثرة الرَّد، وهذا أحد أسرار حفظه وبقائه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وصدق الحق سبحانه إذ يقول في محكم التنزيل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وحيث يقول سبحانه: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٥-٧٧].

من مواطن الكمال والجمال المعنوي في القرآن الكريم

الكمال لله عَزَّوَجَلَّ وحده، ولكلامه، ولكتابه العزيز، فهو كتاب الكمال والجمال ومحاسن الأخلاق ومكارمها، فقد تحدث هذا الكتاب العظيم عن الصبر الجميل، فقال سبحانه: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]، والصبر الجميل هو الذي لا شكوى معه، وهو الذي يُوفَّى فيه الصابرون أجرهم بغير حساب، بل قد يتبعه إحسان، قال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وهو صبر الرضا بقضاء الله وقدره، ومنه: ما كان من التابعي الجليل عروة بن الزبير بن العوام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حين فقد ابنه وابتلي بقطع ساقه، فقال راضيًا محتسبًا: اللهم إنك إن كنت قد ابتليت فقد عافيت، وإن كنت قد أخذت فقد أعطيت، لقد أعطيتني أربعة من الولد فأخذت مني واحدًا وأبقيت لي ثلاثة، وأعطيتني أربعة أطراف فأخذت مني واحدًا وأبقيت لي ثلاثة، ودخل عليه إبراهيم بن محمد ابن طلحة، فكان أحسن من عزاه؛ قائلًا له: أبشر يا أبا عبد الله، فقد سبقك ابن من أبنائك وعضو من أعضائك إلى الجنة[١٢].

وتحدث القرآن الكريم عن الصفح الجميل؛ حيث يقول تعالى لنبينا ﷺ: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥]، وهو الذي لا منَّ معه، وهو ما كان من رسول الله ﷺ يوم فتح مكة؛ حيث قال لهم: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»[١٣]، وما كان منه ﷺ عندما سلط عليه أهل الطائف عبيدهم وصبيانهم يرمونه



بالحجارة حتى سال الدم من قدميه الشريفتين، وأرسل الله عَزَّوَجَلَّ إليه ملك الجبال يناديه: يا محمد لو شئت لأُطْبِقَنَّ عليهم الأخشبين، فقال النبي ﷺ: «لا، ولكني أقول: اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون، إني لأرجو أن يخرج من أصلابهم من يقول: لا إله إلا الله»، وهنا قال له جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «صدق من سمَّاك الرءوف الرحيم»(٦٤).

وتحدث القرآن الكريم عن الهجر الجميل حتى مع الأعداء؛ حيث يقول سبحانه: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠]، والهجر الجميل هو الذي لا أذى معه، وليس فيه لدد أو فجور في الخصومة، وهو أحد جوانب سماحة الإسلام، أما اللدد في الخصومة فمن علامات النفاق؛ حيث يقول نبينا ﷺ: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»(٦٥).

وتحدث القرآن الكريم عن السَّراح الجميل، وهو الذي لا عضل فيه للمرأة، ولا ظلم لها، ولا هضم لحقوقها؛ حيث يقول الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٩]، ويقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَإِمْسَاكُۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، فينبغي على كلا الزوجين أن يتذكرا ما كان بينهما من فضل ومن حياة تستدعي حفظ العهد لا الانتقام ولا التشفي ولا العضل، يقول الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، ولو طبقنا هذه القيم بين الزوجين ما وجدنا هذا الكم الهائل من القضايا والمشاكل الأسرية في المجتمعات المختلفة.

وتحدث القرآن الكريم – أيضًا – عن الخُلُق العظيم في وصف سيدنا محمد ﷺ، فقال الحق تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]؛ حيث كان نبينا ﷺ يصل من قطعه، ويعطي من حرمه، ويعفو عمن ظلمه، ويحسن إلى من أساء إليه.

وتحدث القرآن الكريم عن القول الحسن الجميل لكل الناس في قوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]، سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين، موحدين أم غير

موحدين، بل طالبنا القرآن الكريم أن نقول ما هو أحسن لا ما هو حسن فحسب؛ حيث يقول الحق سبحانه: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٥٣]، كما أن الحديث بالتي هي أحسن نعمة ومنّة وهداية وتوفيق من الله عَزَّوَجَلَّ؛ حيث يقول سبحانه: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ [الحج: ٢٤].

كما جعل القرآن الكريم الكلمة الطيبة من صفات المؤمنين؛ حيث يقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ [النور: ٢٦]، فقد فسر كثير من أهل العلم ذلك بقولهم: الكلمة الطيبة للرجل الطيب وللمرأة الطيبة، فالطيب لا يقول إلا طيبًا، وهذا فضل من الله تعالى ومنة، وقد كان الصحابة (رضوان الله تعالى عليهم) دائمًا ما يتخيرون الألفاظ والكلمات الطيبة؛ حيث مرَّ سيدنا عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على قوم يوقدون النار بالليل، فقال: «السلام عليكم يا أهل الضوء»(٦٦)، ولم يناداهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأهل النار كراهية إدخالهم تحت لفظ أهل النار ولو شكلًا، كما جعل الإسلام الكلمة الطيبة سبيلًا إلى الصلح بين الناس؛ حيث يقول الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

كما تحدث القرآن الكريم عن الدفع الحسن الجميل، وهو مقابلة السيئة بالحسنة، وليس مقابلتها بالسيئة، فمنزلة الصفح والعفو منزلة عظيمة وعالية، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤-٣٥]، ويقول الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

وتحدث القرآن الكريم عن اللباس الجميل، فقال سبحانه: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦].



ويقول الشاعر[٦٧]:

إذا المرءُ لم يَدْنس مِنَ اللُّوْمِ عِرضُهُ
فَكُلُّ رِداءٍ يرتَديهِ جميــــلُ

فَنحنُ كَماءِ المُزنِ ما في نِصابِنـــا
كَهامٌ وَلا فينا يُعَدُّ بَخيـــلُ

وَما أُخمِدَت نارٌ لَنا دونَ طـــارِقٍ
وَلا ذَمَّنـــا في النازِلينَ نَزيـــلُ

كما تحدث القرآن الكريم عن الوجه الجميل، فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨-٣٩]، وقال سبحانه: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤]، ويقول نبينا ﷺ: «إِنَّ الله لا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»[٦٨]، فالعبرة بالمخبَر والجوهر وليس بالشكل والمظهر، ولما مرَّ رجل من أغنياء المسلمين عَلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: «مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا؟»، قَالُوا: حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ يُسْتَمَعَ، قَالَ: ثُمَّ سَكَتَ، فَمَرَّ رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ: «مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا؟» قَالُوا: حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ لا يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لا يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ لا يُسْتَمَعَ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الأَرْضِ مِثْلَ هَذَا»[٦٩]، ويقول ﷺ: «كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ، لا يُؤْبَهُ لَه، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى الله لَأَبَرَّه، مِنْهُم البراءُ بنُ مَالِك»[٧٠].

وتحدث القرآن الكريم عن العيشة الجميلة الطيبة، عيشة أهل الجنة، فقال سبحانه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ۝ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ۝ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۝ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ١٩-٢٤]، والمعيشة أمر معنوي، والأصل أن تكون مرضية راضيًا عنها صاحبها، لكن القرآن الكريم عبَّر باسم الفاعل (راضِيَةٍ) ولم يعبر باسم المفعول (مرضية) تأكيدًا على منتهى الرضا لأصحاب هذه المعيشة عنها، حتى إن العيشة نفسها صارت راضية عن أصحابها، وكيف لا! وهو في جنة عالية، قطوفها دانية.

كما تحدث القرآن الكريم عما يوصل لهذه المعيشة الجميلة من خلال السعي الجميل

المشكور، فقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩].

وتحدث القرآن الكريم عن الجزاء الحسن الجميل، فقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٢].

وتحدث عن التحية الجميلة، فقال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٨٦]، والتحية الجميلة هي القول الجميل، هي تحية الإسلام، التي هي السلام، فالإسلام دين السلام، ونبينا ﷺ نبي السلام، وتحيتنا السلام، وتحية أهل الجنة السلام، قال الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌۚ﴾ [الأحزاب: ٤٤]، وقال سبحانه: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤]، فهذه هي تحية الإسلام، ويجب أن نرد بمثلها أو بأحسن منها، ولا نكون ممن يبتغون الدنيا بعمل الآخرة؛ تحكمهم المصالح الدنيوية، فيفرقون في ردّ السلام بين أناس وآخرين.

يقول القائل:

يُحَيّي الناسُ كلَّ غنيٍّ قَوْمٍ
ويُبْخَلُ بالسَّلامِ عَلَى الفَقِيرِ
ويوسع لِلْغَنِيِّ إذا رأوه
ويُحْيى بالتَّحِيَّةِ كالأَميرِ[٧١]

كما أنه ينبغي رد السلام بالتي هي أحسن، بل إن الإنسان لو قصد من خلال السلام جبر خاطر الفقير أو المسكين كان الثواب أعلى وأعظم، قَالَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «البِرُّ شَيْءٌ هَيِّنٌ، وَجْهٌ طَلِيقٌ، وَكَلَامٌ لَيِّنٌ»[٧٢]، ويقول نبينا ﷺ: «لا تَحْقِرَنَّ مِنَ المَعْرُوف شَيْئًا، وَلَو أنْ تَلْقَى أخَاكَ بوجهٍ طَلْقٍ»[٧٣].

يقول القائل:

وإذا طلبت إلى كريم حاجة
فَلِقَاؤُه يَكْفِيكَ وَالتَّسليمُ[٧٤]

وتحدث القرآن الكريم عن «العطاء الجميل» الذي لا مَنّ فيه ولا أذى معه، يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٢]؛ حيث شرط القرآن الكريم عدم المَنّ



والأذى لقبول الصدقة، ويقول سبحانه: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٣]، ويقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن رسول الله ﷺ قَالَ: «مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ قَطُّ، وَمَا مَدَّ عَبْدٌ يَدَهُ بِصَدَقَةٍ إِلا أُلْقِيَتْ بِيَدِ الله قَبْلَ أَنْ تَقَعَ فِي يَدِ السَّائِلِ، وَلا فَتَحَ عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ لَهُ عَنْهَا غِنًى إِلا فَتَحَ الله عَلَيْهِ بَابَ فَقْرٍ»(٧٥).

وجاءت عجوز إلى الإمام الليث بن سعد رَحِمَهُ اللَّهُ تطلب كأسًا من العسل، فأمر لها بزقٍّ (وعاء كبير)، فقال له كاتبه: إنما سألتك كأسًا، فأمرتَ لها بزقٍّ، فقال: إنها سألت على قدر حاجتها ونحن نعطي على قدر نعم الله عَزَّ وَجَلَّ علينا(٧٦).

وقد بين الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذا المعنى في كتابه الكريم؛ حيث قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، فنسب سبحانه الإخراج إلى نفسه تعالى، يقول الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣-٧٠].

والقرآن الكريم ربط زيادة النعم بشكرها، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]، وشُكر النعمة يكون من جنسها، فشُكر المال يكون بالإنفاق وبإخراج حق الله تعالى فيه، فيعطي مما أعطاه الله له عطاءً جميلًا، ولا يتعمد الخبيث من المال (الرديء من الطعام، أو البالي من الثياب) فيتصدق به، يقول عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧]، فينبغي على المعطي أن يضع نفسه مكان المتصدَّق عليه، فإن من حكمة الله تعالى أن جعل بعض الناس متصدقين وبعضهم آخذين، وهو القادر سبحانه أن يقلب الأحوال متى شاء؛ فيجعل الآخذ معطيًا والمعطي آخذًا، فيوم لك ويوم

عليك، قال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

ولله درُّ القائل(٧٧):

النَّاسُ للنَّاسِ ما دامَ الوَفَـاءُ بِهِـم
والعُسْرُ واليُسْرُ أَوْقَـاتٌ وساعاتُ
وأَكْرَمُ النَّاسِ ما بَيْنَ الوَرَى رَجُـلٌ
تُقْضَى عَلَى يَدِهِ لِلنَّـاسِ حـاجـاتُ
لا تَقْطعن يَد المَعْـرُوفِ عَن أَحَـدٍ
ما دُمْتَ تَقْدِر والأَيَّـام تَـارَاتُ
واذْكُر صَنِيعة فَضْلِ الله إذْ جُعِلَـت
إِلَيْكَ لا لَكَ عِنْدَ النَّاسِ حَاجَـاتُ
كَمْ مَاتَ قَوْمٌ وَمَا مَاتَتْ فَضَائِلُهُـم
وَعَاشَ قَوْمٌ وَهُم فِي النَّاسِ أَمْـوَاتُ

ويقول نبينا ﷺ: «ثَلَاثَةٌ أُقْسِمُ عَلَيْهِنَّ وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ، قَالَ: مَا نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ، وَلا ظُلِمَ عَبْدٌ مَظْلَمَةً فَصَبَرَ عَلَيْهَا إِلَّا زَادَهُ الله عِزًّا، وَلا فَتَحَ عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ إِلَّا فَتَحَ الله عَلَيْهِ بَابَ فَقْرٍ»(٧٨)، فالمنة والفضل من الله تعالى وحده.

على أن العطاء والإنفاق ينبغي أن يكون لوجه الله تعالى، يقول سبحانه: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، قال بعض أهل العلم: (عَلَىٰ حُبِّهِۦ) أي على حبه للمال وتمسكه به إلا أنه آثر ما عند الله تعالى على ما عند نفسه، يقول تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل:٩٦]، وقال بعضهم: الضمير في (حبه) يعود لله جَلَّ جَلَالُهُ، أي أعطى المال لليتامى والمساكين وابن السبيل حُبًّا في الله تعالى وابتغاء مرضاته، قال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان: ٨-١٢]، ويقول سبحانه: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨].

وتحدث القرآن الكريم عن «اللقاء الجميل» عندما تتلقى ملائكة الرحمن عباد الله المخلصين؛ حيث يقول سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ١٠١ لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ ١٠٢ لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١-١٠٣].

وتحدث القرآن الكريم عن «الخاتمة الجميلة»، خاتمة أهل الاستقامة؛ حيث يقول الحق جل شأنه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]، تتنزل عليهم لحظة الاحتضار، مع أن نزول الملائكة عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ يكون للأنبياء والمرسلين (عليهم الصلاة والسلام)، لكن هذه الآية الكريمة تحدثت عن نزول الملائكة على أهل الاستقامة وعباد الله المخلصين مطمئنة لهم، تقول للعبد الصالح: لا تخف يا عبد الله ولا تحزن، وأبشر بالجنة التي كنت توعد، انظر إلى مقعدك في النار قد أبدلك الله به مقعدًا في الجنة، لا تحزن على ما تركت من الأهل والأولاد؛ فهم في كنف الله ورعايته وأمنه، ولا تخف من الآتي؛ فأنت في عفو الله وستره وعطائه وفيض كرمه، وهو وليّك في الدنيا والآخرة، فَمِمَّ تخاف إذا كان الله تعالى هو وليُّك ووليّ أهلك في الدنيا والآخرة؟، يقول الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ٣١ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ﴾ [فصلت: ٣١-٣٢].

ومن الختام الجميل: تثبيت الله لعباده المؤمنين، والختام لهم بخاتمة السعادة؛ حيث يقول الحق سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، قال بعض أهل العلم: يثبتهم بالقول الثابت وبالطمأنينة في الدنيا وعند سؤال القبر، ويقول نبينا ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ قَبْلَ مَوْتِهِ»، فَسَأَلَهُ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: مَا اسْتَعْمَلَهُ؟ قَالَ: «يَهْدِيهِ اللهُ عَزَّوَجَلَّ إِلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ قَبْلَ مَوْتِهِ، ثُمَّ يَقْبِضُهُ عَلَى ذَلِكَ»[٧٧]، وكان رسول الله ﷺ دائمًا ما يسأل ربه

حسن الخاتمة، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ وَطَاعَتِكَ»، فَقَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ: يَا رَسُولَ اللهِ: إِنَّكَ تُكْثِرُ أَنْ تَقُولَ: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ وَطَاعَتِكَ»، قَالَ: «وَمَا يُؤْمِنِّي، وَإِنَّمَا قُلُوبُ العِبَادِ بَيْنَ أُصْبُعَيِ الرَّحْمَنِ، إِنَّهُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُقَلِّبَ قَلْبَ عَبْدٍ قَلَّبَهُ»، قَالَ عَفَّانُ: «بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الله عَزَّوَجَلَّ»[80]، وقالوا: من قُبِض على شيء بُعِث عليه، لا سيما الشهداء؛ حيث يقول نبينا محمد ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لا يُكْلَمُ أَحَدٌ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِهِ، إلا جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَاللَّوْنُ لَوْنُ الدَّمِ وَالرِّيحُ رِيحُ المِسْكِ»[81]، وما أحسنها وأجملها من خاتمة!.

جمال الأدب مع الله عَزَّوَجَلَّ في القرآن الكريم:

ما أجمل الأدب مع الله تعالى! وما أجمل الأدب مع سيدنا رسول الله ﷺ! وما أجمل الأدب مع الخلق! والقرآن الكريم مليءٌ بمواطن الأدب مع الله تعالى، والأدب مع سيدنا رسول الله ﷺ، والأدب مع الخلق، ومن النماذج السامية في الأدب مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في القرآن الكريم ما يلي:

- ما كان من سيدنا عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ حيث يقول سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾ [المائدة: ١١٦]، فلم يقل سيدنا عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: لم أقله، وإنما قال: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾، تنزيهًا لله تعالى، ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ١١٦ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٦-١١٧]، إن كانوا قد غيروا وبدلوا من بعدي فيما بلغتهم؛ فأمرهم إليك، وأنت أعلم بهم، ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، وهذا من كمال الأدب في الخطاب مع الله تعالى.

- وكذلك من الأدب الرفيع مع الله تعالى

ما كان من قول سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ حيث يقول الحق سبحانه عنه على لسانه: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨]، فنسب عملية الخلق للخالق عَزَّوَجَلَّ، ﴿وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ﴾ [الشعراء: ٧٩]، فنسب عملية الرزق لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠]، فلم ينسب ما أصابه من مرض لله عَزَّوَجَلَّ تأدبًا مع الله تعالى، مع أن الصحة والمرض بيد الله تعالى وحده، إلا أن أبا الأنبياء عَلَيْهِ السَّلَامُ تأدبًا مع الله تعالى لم ينسب ما أصابه من مرض له، ونسب الجوانب الحسنة لله سبحانه، فلما جاء إلى الحديث عن المرض قال: ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ﴾، ولم يقل: وإذا أمرضني؛ تأدبًا مع الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

- كما أن الجن عرفت الأدب مع الله تعالى؛ حيث قالوا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾ [الجن: ١٠]، فنسبوا الرشد والصلاح لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ﴿أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾، ولم ينسبوا الشر له عَزَّوَجَلَّ؛ حيث قالوا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، بالبناء للمجهول، تأدبًا مع الله سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

- كما ذكر القرآن الكريم تأدب الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ مع الله تعالى في قصة السفينة والغلام؛ حيث قال الحق سبحانه: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩]، فنسب عيب السفينة لنفسه، وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا ۝٨٠ فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا﴾ [الكهف: ٨٠-٨١]، نسب عملية الاجتهاد في قتل الغلام إلى نفسه، أما قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا﴾ [الكهف: ٨٢]، فنسب الخير والرحمة إلى الله تعالى، وهذا من كمال الأدب مع الله عَزَّوَجَلَّ.

- ومن الأدب السامي ما كان من سيدنا أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ مع الله تعالى، حينما مسّه الضر،

فقال سبحانه: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، لم يقل: اشفني، وكأنه يقول: يكفيني يا رب علمك بحالي، ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

ويقول ﷺ: «خَيْرُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لا إِلَهَ إِلا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَـهُ، لَـهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْـدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»[٨٢]، وقد سُئِل سفيان بن عيينة عن أفضل الدعاء يوم عرفة، فقال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد بيده الخير وهو على كل شيء قدير»، فقيل له: هذا ثناء وليس بدعاء، فقال: يقول الله عَزَّوَجَلَّ في الحديث القدسي: «مَنْ شَغَلَهُ الْقُرْآنُ عَنْ ذِكْرِي وَمَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ»[٨٣]، ثم ذكر قول أمية ابن أبي الصلت:

أَأَذْكُرُ حَاجَتِي أَمْ قَدْ كَفَانِي
حَيَـاؤُكَ إِنَّ شِيمَتَـكَ الْحَيَـاء
وَعِلْمُكَ بِالْحُقُوقِ وَأَنْتَ فَـرْعٌ
لَكَ النَّسَـبُ الْمُعَلَّى وَالثَّنَـاء
إِذَا أَثْنَى عَلَيْـكَ الْمَـرْءُ يَوْمًـا
كَفَـاهُ مِن تَعَـرضِـهِ الثَّنَـاء[٨٤]

فإذا كان هذا مع الخلق، فكيف بأكرم الأكرمين ورب العالمين وخالق الخلق أجمعين؟

لا كما فعل قارون حين قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص: ٧٨]، فكانت النتيجة ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [القصص: ٨١]، وسُئِل أحدهم عن السيئة التي لا تنفع معها حسنة؟، فقال: الكبر[٨٥].

تَوَاضَع تَكُنْ كَالنَّجْمِ لَاحَ لِنَاظِـرِه
عَلَى صَفحَاتِ الْمَاءِ وَهو رَفِيــع
وَلَا تَكُنْ كَالدُّخَانِ يَعْلُــو بِنَفْسِهِ
إِلَى طَبَقَاتِ الْجَوِّ وَهُو وَضِيــع[٨٦]

ويقول الآخـر:

وَلَا تَمْشِ فَوْقَ الْأَرْضِ إِلَّا تَوَاضُعًـا
فَكَمْ تَحْتَهَـا قَوْمٌ هُـمْ مِنْكَ أَرْفَـعُ
فَإِنْ كُنْتَ فِـي عِزٍّ وَخَيْرٍ وَمَنْعَـةٍ
فَكَمْ مَاتَ مِنْ قَوْمٍ هُمْ مِنْكَ أَمْنَعُ[٨٧]

فإذا كانت مراعاة الأدب مع الخلق واجبة، فما بالنا بالأدب مع الخالق، فنحن في حاجة



ماسة للأدب مع الله عَزَّوَجَلَّ، والأدب مع سيدنا رسول الله ﷺ، وأن نتأدب مع كتاب الله تعالى، فحسن الأدب مع الله عَزَّوَجَلَّ هو أحد أهم مفاتيح الفرج، فما أجمل الأدب، وما أجمل الأدب مع رسول الله ﷺ، وما أجمل الأدب من الخلق!، وقَبَّحَ الله من لا أدب له.

أدب الاستئذان في سورة النور:

تحدثت سورة النور عن كثير من الآداب الإنسانية السامية، منها أدب الاستئذان، واحترام خصوصية الناس؛ فمن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٢٧ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢٧-٢٨]، فالإسلام دين الأدب، ودين الرقي، ودين القيم الإنسانية الجميلة، وكان سيدنا رسول الله ﷺ إذا زار أحدًا لا يأتي من قِبَل الباب، فعَنْ عَبْدِ الله بْنِ بُسْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا أَتَى بَابَ قَوْمٍ لَمْ يَسْتَقْبِلِ البَابَ مِنْ تِلْقَاءِ وَجْهِهِ، وَلَكِنْ مِنْ رُكْنِهِ الأَيْمَنِ أَوِ الأَيْسَرِ وَيَقُولُ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، السَّلَامُ عَلَيْكُمْ»، وَذَلِكَ أَنَّ الدُّورَ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهَا يَوْمَئِذٍ سُتُورٌ»(٨٨)؛ ذلك حتى لا يقع بصره على أهل البيت، فإذا دخلْتَ بيت أحدٍ فاحفظ حرمته، واحفظ سر البيت.

كما أن من الأدب إذا دخلْتَ بيت أحدٍ أن لا تجلس وعينك أمام مدخل البيت أو غرفة النوم أو الطعام، وأن تغض بصرك عن حرمات البيت، وألا تجلس على تَكْرِمَةِ أحدٍ إلا بإذنه، يقول نبينا ﷺ: «وَلَا يَؤُمَّنَّ الرَّجُلُ الرَّجُلَ فِي سُلْطَانِهِ، وَلَا يَقْعُدْ فِي بَيْتِهِ عَلَى تَكْرِمَتِهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ»(٨٩)، وحتى لو كنت الأحفظ أو الأعلم فلا تكن إمامًا لأحد في بيته ولا في مكان عمله إلا بإذنه، أنزلوا الناس منازلهم، وأكرموهم حيث تحبون أن تكرموا، حتى لو كان رئيسًا وجاء ليفتش على مرءوسه فلا يليق أن يؤمه أمام مرءوسيه، ولا أن يجلس على مكتبه إلا بإذنه، كما لا يليق بالإنسان أن يستخدم أداة أحد إلا بإذنه، فلا يستخدم حاسوب أحد إلا بإذنه، ولا قلم أحد

إلا بإذنه، ولا مسبحة أحد إلا بإذنه، ولا كتاب أحد إلا بإذنه، هذا هو الأدب، وتلك هي القيم السامية، والآداب الفاضلة التي يجب أن نتخلق بها في حياتنا، وأن نُعلمها أطفالنا وأولادنا؛ حيث يقول الحق سبحانه: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٩]، أي:علموهم القيم ونشّئوهم على الأخلاق، ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ٥٩].

في رحاب سورة الحجرات:

لقد عُنيت سورة الحجرات بالقيم الأخلاقية والمعاني الإنسانية الراقية، والتي منها: الأدب مع الله تعالى، والأدب مع سيدنا رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١]، فلا تقدموا آراءكم وأهواءكم على ما أمركم به الله تعالى، أو على ما نهاكم عنه سبحانه، أو على ما أمركم به الرسول ﷺ، أو على ما نهاكم عنه، ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١].

ثم ينتقل الحديث إلى الأدب مع سيدنا رسول الله ﷺ، فيقول الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢]، وكان الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: إن الله عَزَّوَجَلَّ امتدح أقوامًا فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ٣]، وذم آخرين فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الحجرات: ٤]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢]، وإن حرمته ﷺ ميتًا كحرمته حيًّا.

وتلفت سورة الحجرات أنظارنا إلى أمر في غاية الأهمية، وهو ضرورة أن نتثبت وأن نتحرى، وأن نتبين فيما ينقل إلينا؛ حيث يقول الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن

جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

ويقول نبينا ﷺ: «كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ»[٩٠]، يقول الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فَإِنَّهُ يَسْمَعُ فِي الْعَادَةِ الصِّدْقَ وَالْكَذِبَ، فَإِذَا حَدَّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ فَقَدْ كَذَبَ لِإِخْبَارِهِ بِمَا لَمْ يَكُنْ، والْكَذِبُ: الإِخْبَارُ عَنِ الشَّيْءِ بِخِلَافِ مَا هُوَ عليه، وَلَا يُشْتَرَطُ فِيهِ التَّعَمُّدُ لَكِنَّ التَّعَمُّدَ شَرْطٌ فِي كَوْنِهِ إِثْمًا»[٩١].

ودخل أحد الناس على سيدنا عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ فذكر له عن رجل شيئًا، «فقال له سيدنا عمر بن عبد العزيز: يا هذا إنْ شئتَ نظرنا في أمرك، فإن كنت كاذبًا فأنت من أهل هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦]، وإن كنت صادقًا فأنت من أهل هذه الآية: ﴿هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ﴾ [القلم: ١١]، وإن شئت عفونا عنك، فقال: العفو يا أمير المؤمنين، لا أعود إليه أبدًا»[٩٢]، وقد قالوا: من نَمّ لك نَمّ عليك.

وصدق من قال:

احفَـظْ لِسانَكَ أيُّها الإنْسَـانُ
لَا يَلْدَغَنَّـكَ إِنَّهُ ثُعْبَـانُ
كَمْ فِي المَقَابِرِ مِنْ قَتِيـلِ لِسَانِهِ
كَانَتْ تَهَابُ لِقَاءَهُ الشجْعَانُ[٩٣]

على أن بعض الناس يظن أن التثبت يكون في الكلام المنقول فقط، مع أن التعامل مع مواقع التواصل الإلكتروني أشد خطورة، فعلينا أن نتحرى، وأن نتثبت، وأن نتبين؛ فلا نقوم بمشاركة منشور، أو إعجاب به حتى ندقق ونفكر فيه؛ لأن الكلمة المقروءة والمشَرَّة ربما كانت أوسع مدى من الكلمة المسموعة، يقول نبينا ﷺ: «إِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ الله تَعَالى مَا يُلقِي لَهَا بَالًا يَرْفَعُهُ الله بها دَرَجاتٍ، وَإِنَّ العبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ الله تَعالى لا يُلْقِي لَهَا بَالًا يهوي بها في جَهَنَّم»[٩٤]، ويقول ﷺ: «وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»[٩٥]، وبعض الناس يظن أن الصمت يكون في الكلام فقط، مع أن الصمت قد يكون عن الكتابة الخاطئة.

وقد قال قائل:

وَمَـا مِـنْ كَاتِبٍ إِلَّا سَيَفْنَى
وَيُبْقِي الدهرُ مَا كَتَبَتْ يَـدَاهُ
فَلَا تَكْتُبْ بِخَطِّـكَ غَيْرَ شَيْءٍ
يَسُـرُّكَ فِي القِيَامَةِ أَنْ تَرَاهُ(٩٦)

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى النهي والتحذير من الاستهزاء بالناس، والسخرية منهم، يقول سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١]، فعلى الإنسان أن يضع غيره مكان نفسه، لا يؤمن حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ويكره لأخيه ما يكره لنفسه، ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَـٰبِ﴾ [الحجرات: ١١]؛ أي: لا تُنادوا أحدًا بلقب يكرهه، ثم نهت السورة الكريمة عن الغيبة في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢]، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا الغِيبَةُ؟» قَالُوا: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ»، قِيلَ: أَفَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟ قَالَ: «إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ»(٩٧)، أي افتريت وكذبت عليه، وعَنْ سَعْدٍ مَوْلَى رَسُولِ الله ﷺ؛ أَنَّهُمْ أُمِرُوا بِصِيَامِ يَوْمٍ، فَجَاءَ رَجُلٌ فِي بَعْضِ النَّهَارِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ فُلانَةَ وَفُلانَةَ قَدْ بَلَغَهُمَا الجَهْدُ، فَأَعْرَضَ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاثًا، فَقَالَ: «ادْعُهُمَا»، فَجَاءَتَا فَدَعَا بِعُسٍّ أَوْ بِقَدَحٍ، فَقَالَ لإِحْدَاهُمَا: «قِيئِي»، فَقَاءَتْ إِحْدَاهُمَا لَحْمًا وَقَيْحًا وَدَمًا، وَقَالَ لِلأُخْرَى مِثْلَ ذَلِكَ، وَقَالَ: «إِنَّ هَاتَيْنِ صَامَتَا عَنْ مَا أَحَلَّ الله لَهُمَا، وَأَفْطَرَتَا عَلَى مَا حَرَّمَ الله عَلَيْهِمَا، أَتَتْ إِحْدَاهُمَا لِلأُخْرَى، فَلَمْ تَزَالا يَأْكُلانِ لُحُومَ النَّاسِ، حَتَّى امْـتَلأَتْ أَجْوَافُهُمَا»(٩٨)، ويقول تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

وتبين السورة الكريمة الهدف الأسمى من كون الناس شعوبًا وقبائل؛ حيث يقول الله الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ



لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات: ١٣]، أي: لا لتتقاتلوا، ولا لتباغضوا، وإنما ليعرف بعضكم بعضًا.

يقول الشاعر:

النَّاسُ مِن جِهَـةِ الآبـاء أَكفـاءُ
أَبـوهُمُ آدَمُ وَالأُمُّ حَـــوّاءُ
نَفسٌ كَنَفسٍ وَأَرواحٌ مُشـــاكَلَةٌ
وَأَعظُمٍ خُلِقَت فيها وَأَعضـاءُ
فَإِن يَكُن لَهُمُ مِن أَصلِهِم شَـرَفٌ
يُفاخِرونَ بِهِ فَالطينُ وَالمـاءُ(١١)

ويقول شوقي مخاطبًا نبينا ﷺ:

فَرَسمتَ بَعدَكَ لِلعِبـادِ حُكومَةً
لا سُـوقَةٌ فيهـا وَلا أُمَـراءُ
اللهُ فَـوقَ الخَلـقِ فيهـا وَحـدَهُ
وَالناسُ تَحتَ لِوائِهـا أَكفـاءُ(١٢)

من مواطن الكمال والجمال اللغوي في القرآن الكريم

أولًا: المفردة القرآنية:

تتميز لغة القرآن الكريم بأن كل لفظة أو مفردة من مفرداتها قد وقعت موقعها؛ حيث يقتضي المقام ذكرها دون سواها أو مرادفها، فإذا جاءت الكلمة معرفة أو نكرة كان لاقتضاء المقام ذلك، وإذا جاءت مفردة أو جمعًا كان ذلك لغرض يقتضيه السياق، وقد يُؤْثِرُ النص القرآني كلمة على أخرى وهما بمعنى واحد، ويختار كلمة ويترك مرادفها الذي يشترك معها في أصل الدلالة، وما كان للمتروك أن يقوم مقام المذكور أو يدانيه بلاغة لو ذكر مكانه، ومن نماذج ذلك:

١. كلمة «إصلاح» في قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

فلو تأملنا هذه الآية جيدًا، ونظرنا - على وجه التحديد - في موقع كلمة «إِصْلَاحٌ»، ثم فكرنا في بدائلها اللغوية ومشتقاتها وما يرادفها، وحاولنا أن نضع أي بديل لغوي رأسيًّا أو أفقيًّا في موضعها لوجدنا أن العربية على عمقها واتساعها عاجزة عن أن توافينا أو تمدنا بكلمة يمكن أن تقوم مقام كلمة «إِصْلَاحٌ» في هذا الموضع.

فالإصلاح أمر جامع لما يحتاج إليه اليتيم،

فقد يحتاج إلى المال فيكون الإصلاح برًّا وعطاءً ماديًّا، وقد يحتاج إلى من يتاجر له في ماله أو من يقوم على زراعته أو صناعته فيكون الإصلاح هو القيام بذلك، وقد لا يحتاج اليتيم إلى المال، وإنما يحتاج إلى التقويم والتربية، فيكون الإصلاح هنا رعاية وتربية، وقد لا ينقصه هذا ولا ذلك، وإنما تكون حاجته أشد ما تكون إلى العطف والحنو والإحساس بالأبوة، فيكون الإصلاح إشباع ذلك عنده، وقد يكون الإصلاح في تقويم زيغه أو اعوجاجه، فعَنْ جَابِرٍ، أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ مِمَّ أَضْرِبُ مِنْهُ يَتِيمِي؟ قَالَ: «مِمَّا كُنْتَ ضَارِبًا مِنْهُ وَلَدَكَ غَيْرَ وَاقٍ مَالَكَ بِمَالِهِ»[١٠١]، فالنبي ﷺ يطلب من السائل أن يعامل اليتيم معاملة ولده، فينظر إلى ما يصلحه ويقوّمه ويشد عضده، ومن هنا تلتقي البلاغة النبوية في إيجازها ووفائها بالمراد مع النص القرآني، وإن كان الحديث النبوي قد ركز على جانب واحد من جوانب الإصلاح، وهو التأديب والتقويم، فإن الإصلاح في النص القرآني هو الكلمة الجامعة لما يحتاج إليه اليتيم وما يصلحه.

٢. كلمة «حَنِيذٍ» في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود: ٦٩].

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ﴾ يفيد اعتناء إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بضيوفه وإسراعه في إعداد الطعام وتقديمه لهم، وقوله تعالى: ﴿جَآءَ بِعِجْلٍ﴾، مع أن ضيوفه كانوا على ما قال ابن عباس وابن جبير: ثلاثة فقط، أو كانوا اثني عشر على أقصى عدد ذكره المفسرون، فجاء إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لهم بعجل مع علمه أنهم لا يأكلون ربعه أو عشره، زيادةً في إكرام الضيف، إذ يستحب أن يقدم للضيف فوق ما يأكل عادة حتى لا يكون في حرج من نفاد ما يقدم له من طعام.

ووصف العجل هنا بأنه «حَنِيذٍ»، وفي سورة الذاريات بأنه «سمين» في قول الحق سبحانه: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات: ٢٦]، من باب التنويع الأسلوبي، والجمع بين الوصف العام والوصف الخاص، فبين كلمتي «سَمِينٍ» و«حَنِيذٍ» عموم وخصوص مطلق، فكل حنيذ سمين، وليس كل سمين

حنيذًا، فالحنيذ هو: السمين الذي يَقْطُر وَدْكه، (أي: شحمه ودهنه)، وقيل: السمين المشوي بالرضف، (أي: الحجارة المحماة في أخدود أو نحوه)، وكل ذلك إنما يدل على شدة كرم أبي الأنبياء إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

٣. كلمة «قائمة» في قوله تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾ [هود: ٧١].

والمراد بقوله تعالى: «قائمة» كما ذكره أكثر المفسرين وأخرجه ابن أبي حاتم عن مجاهد أنها كانت قائمة في الخدمة، أي في خدمة ضيوف إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وذلك مع تقدم سنها؛ حيث ذكر بعض المفسرين أنها كانت في التاسعة والتسعين، وذلك يدل على علو همة آل بيت إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ جميعًا في كرم الضيافة والاعتناء بأمر الضيوف، ونذكر هنا قول حاتم الطائي[١٠٢]:

وإنّي لعَبْدُ الضّيفِ، ما دام ثاويًـا
وما فيَّ إلاّ تلكَ من شيمةِ العَبْـدِ

وذكر بعض المفسرين: أن قيامها كان من وراء ستار، وذكر بعضهم: أن نساءهم كانت لا تحتجب ولا سيما العجائز، وقد كانت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عجوزًا، وغنيٌّ عن الذكر أنها كانت في زي المؤمنات الصالحات.

أما ضحكها فقيل: إنه كان سرورًا بإهلاك أهل الفساد من قوم لوط، وقيل: من غفلة قوم لوط مع قرب عذابهم، وقيل: تعجبًا من إمساك الأضياف عن الأكل؛ حيث قالت: عجبًا لأضيافنا نخدمهم بأنفسنا ولا يأكلون طعامنا.

٤. كلمة «فَاسْتَعْصَمَ» في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ﴾ [يوسف: ٣٢].

فكلمة «استعصم» هي المعادل اللغوي الأدق لتصوير عفة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، ووقوفه كالجبل الشامخ الأشم في مواجهة إغراء امرأة العزيز له، فهو لم يعتصم بحبل الله عَزَّوَجَلَّ فحسب، لكنه استعصم.

وإذا كانت زيادة المبنى زيادة في المعنى، فإنه قد قابل زيادة إغرائها تارة وتهديدها أخرى بمزيد من الاستعصام بحبل الله المتين.

يقول الزمخشري: إن الاستعصام بناء مبالغة تدل على الامتناع البليغ والتحفظ الشديد، كأنه في عصمة، وهو مجتهد في

الاستزادة منها، بل إن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ قد قابل تهديدها له بالسجن بدعائه ربه عَزَّوَجَلَّ أن يصرف عنه كيدهن حتى لو كان ذلك بإلقائه في السجن؛ حيث قال كما تحدث القرآن الكريم على لسانه: ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾ [يوسف: ٣٣][١٠٣].

فقد طلب يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ العصمة واستمسك بها في صلابة ورباطة جأش حتى استجاب له ربه، وهو ما يصوره قول تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [يوسف: ٣٤].

٥. كلمة «فَانتبَذَتْ» وكلمة «فَأَجَاءَهَا» في قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سورة مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ: ﴿فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا﴾ [مريم: ٢٢-٢٦].

في هذه الآيات فوائد ونكات علمية وبلاغية كثيرة، منها ما يلي:

أ- التعبير بلفظ «انتبَذَتْ»، ولم يقل قصدت أو طلبت، وإنما اختار النص القرآني لفظًا يُعادل الحالة التي كانت بينها وبين قومها، وهي حالة النبذ لها، والرفض لما بدا عليها من علامات الحمل، وهو ما تجلّى في قولهم لها: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾ [مريم: ٢٨].

ب- التعبير بلفظ «فأجاءها» في قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ [مريم: ٢٣]؛ حيث جاء التعبير بلفظ «فأجاءها» بمعنى ألجأها إلجاءً واضطرها اضطرارًا؛ إذ كانت تريد أن تتوارى عن أعين القوم، ثم إن المخاض وهو إرهاصات الولادة يكون من أصعب لحظاتها، فكأنها تتحرك حركة عفوية لا إرادية من الألم النفسي من جانب، والألم الجسدي من جانب آخر، وكان الإلجاء أو اللجوء إلى جذع النخلة؛ حيث

كانت وحيدة فريدة تحتاج إلى شيء قائم صُلب تُمسك به أو تستند إليه؛ حيث فقدت من تستند إليه أو من يحنو عليها من عالم البشر، فقالت: ﴿يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٣].

٦. كلمة «الحية» في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ۝ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه: ١٩-٢٠]، والثعبان في قوله عَزَّوَجَلَّ في سورة الأعراف: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٠٧].

والفارق بين الحية والثعبان واضحٌ، ومشاهدٌ، ومعروفٌ؛ فإن الحية ضئيلة الحجم قوية السم، يقول النابغة الذبياني:

فَبِتُّ كَأَنِّي سَاوَرَتْنِي ضَئِيلَةٌ
مِنَ الرُّقْشِ فِي أَنْيَابِهَا السُّم نَاقِعٌ(١٠٠)

أمّا الثعبان فمعروف بضخامته، غير أنّ الحية مع شدة سمها القاتل قد يُستخف بها لصغر حجمها، حتى إن من رأى حية صغيرة ظن أنه قادر على الفتك بها، أمّا الثعبان الضخم فإنه مخيف بطبعه لأول وهلة، لكن قد يخطر ببال من يراه أنه قادر على الهروب والإفلات منه لبطء حركته؛ لأن الشيء كلما ضخُم حجمه قلَّت حركته، وعندما جاء السحرة بسحرهم أمر الله تعالى سيدنا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يرمي العصا، فصارت ثعبانًا في ضخامتها كأضخم ما يكون من الثعابين التي لم يشهدها أحد من قبل، ومع هذه الضخامة كانت حية في حركتها وخفتها ونشاطها وسرعتها، فلو كانت ثعبانًا ضخمًا بطيء الحركة ما استطاع أن يلقف حبالهم وعِصِيّهم في لحظات يسيرة، وكذلك لو كانت حية صغيرة ربما استهان بها السحرة، فلما رأى السحرة هذه العصا في سرعتها وضخامتها علموا أن هذا ليس سحرًا، ولا يمكن أن يقع هذا في باب السحر، ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾[طه: ٧٠].

ولهذا لمّا نظر النص القرآني العظيم إلى جانب الضخامة، قال عنها: ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٠٧]، ولما نظر إلى جانب الخفة والسرعة والحركة، قال عنها: ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٢٠]، أما قوله تعالى: ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ٢١]، أي: سنردها مرة ثانية عصا كما كانت.

٧. كلمة «القانتين» في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في قصة مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ: ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢].

يقول النّحويون: إنّ جمع المذكر السالم قد يطلق على جمع المؤنث على سبيل التغليب، لكنّ النحويين والأصوليين يتفقون على أنّ ما جاء على أصله لا يُسأل عن علّته، وما جاء على خلاف الأصل فلا بد لخروجه على هذا الأصل من علّة.

ونؤكد أن هذه الآية واختيار هذا اللفظ نكتة علمية بلاغية في العدول عن صيغة جمع المؤنث «القانتات» إلى صيغة المُذكّر «القانتين»، وذلك أنّ خدمة دور العبادة لم تكن تُعهد إلى النساء قط، ولذا عندما وضعت امرأة عمران ابنتها مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ قالت: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦]، فلمّا قامت مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ بخدمة بيت الرب خير قيام، وقامت مقام خيرة الرجال في هذه الخدمة، راعى النص القرآني البعد الدلالي المعنوي للكلمة، للتأكيد على أنها أدت دورًا مهمًّا لا يقوم به إلا الرجال الأقوياء المخلصون، بل قد لا يقوى عليه كثير من الرجال؛ حيث يقول الحق سبحانه: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾؛ أي: وليس الذكر الذي كنت تتمنين كالأنثى التي رزقك الله تعالى بها، فهي خيرٌ من كثير من الرجال في برّها وتقواها وخدمتها لبيت الله جَلَّ وَعَلَا، ومن هنا استحقت مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ أن تكون في عداد «القانتين»؛ لأنها قامت بما يقوم به الرجال، ولم يعهد في زمانهم أن تقوم به النساء.

ثانيًا: بلاغة التراكيب:

إذا كانت لغة القرآن الكريم قد تميزت ببلاغة المفردة اللغوية التي لا نستطيع أن نأتي مكانها بأي كلمة أخرى فقد تميزت ببلاغة التراكيب أيضًا، ومنها:

١ - قوله تعالى على لسان إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦]، و ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ [إبراهيم: ٣٥].

ففي الآية الأولى الكلام عن واقع معين، حين زار إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ المكان قبل أن يصبح بلدًا، فدعا عَلَيْهِ السَّلَامُ لهذا المكان أن

يكون بلدًا وأن يكون آمنًا، فـ «بلدًا» مفعول ثانٍ لـ «اجعل»، و «آمنًا» صفة لـ «بَلَدًا».

أما في الآية الثانية فقد دعا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ للبلد أن يكون آمنًا، وذلك بعد أن صار «بلدًا»، فكلمة «البلد» بالألف واللام بدل من اسم الإشارة، و «آمنًا» هي المفعول الثاني لـــ «اجعل».

ففي سورة البقرة دعا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ للمكان بدعوتين؛ الأولى: أن يكون بلدًا، والأخرى: أن يكون آمنًا، أما في سورة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ فقد دعا للمكان بعد أن صار بلدًا أن يكون آمنًا، تأكيدًا منه على مطلب الأمن لأهل هذا البلد، وهو ما استجاب له رب العزة، فقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [القصص: ٥٧].

٢- في قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

ففي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ﴾ قدم الصغير على الكبير؛ للاهتمام به، ولتسامح الناس فيه غالبًا، وعدم انشغالهم بكتابته، فإذا جاء الأمر بكتابة الدين القليل أو الصغير والنهي عن السآمة من كتابته أولًا كانت العناية بكتابة الكثير أَوْلى، وذلك حتى لا يضجر أحد أو يضيق بكتابة الدين دائنًا كان أم مدينًا، صغيرًا كان هذا الدين أم كبيرًا.

﴿ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ﴾ أي: أعدل وأقوم للشهادة، وأدعى إلى عدم الشك والريبة في قيمة الدين، أو في نية المدين للسداد، أو في الأجل المحدد لسداد الدين، فهو أقطع لكل أوجه الخلاف، وأدعى لطمأنينة القلب لدى الطرفين، وقد حملت الإشارة بـ «ذَٰلِكُمْ» كل هذه المعاني.

والعاقل من يتجنب الدَّيْن إلا للضرورة القصوى، يقول نبينا ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ أَنَّ رَجُلًا قُتِلَ فِي سَبِيلِ الله، ثُمَّ عَاشَ، ثُمَّ قُتِلَ فِي سَبِيلِ الله، ثُمَّ عَاشَ، وَعَلَيْهِ دَيْنٌ، مَا دَخَلَ الجَنَّةَ حَتَّى يَقْضِيَ دَيْنَهُ»[١٠٠].

٣- قوله تعالى على لسان زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [آل عمران: ٤١]، وفي

الآية العاشرة من سورة مريم: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٠].

ذلك أن أيام العرب وشهورهم وسنيّهم قمرية، فالليل في حسابهم يسبق النهار، ففي التاسع والعشرين من شعبان نترقب هلال رمضان، فإذا ظهر هلال رمضان كانت أول ليلة من ليالي رمضان، ثم يعقبها أول يوم منه، وهكذا في هلال شوال وسائر الشهور.

وسورة «مريم» التي جاء فيها ذكر الليالي مكية، وسورة «آل عمران» مدنية، وسورة «مريم» سابقة في نزولها لسورة «آل عمران»، فجعل السابق للسابق واللاحق للاحق.

٤- قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٠]، ففي تقديم كلمة «شركاء» على كلمة «الجن» في هذه الآية فائدة جليلة ومعنى مقصود لذاته لا سبيل إليه مع التأخير، يقول الإمام عبد القاهر: وبيان ذلك أننا وإن كُنا نرى جملة المعنى ومحصوله أنهم جعلوا الجن شركاء وعبدوهم مع الله تعالى، وكان هذا المعنى يحصل مع التأخير حصوله مع التقديم، فإن تقديم الشركاء يفيد هذا المعنى ويفيد معنى آخر، وهو أنه ما كان ينبغي أن يكون لله شريك لا من الجن ولا من غير الجن، وإذا أخر فقيل: جعلوا الجن شركاء لله لم يفدْ ذلك، ولم يكُن فيه شيء أكثر من الإخبار عنهم بأنهم عبدوا الجن مع الله تعالى، وأما إنكار أن يعبد مع الله غيره، وأن يكون له شريك من الجن وغير الجن، فلا يكون في اللفظ مع تأخير الشركاء دليل عليه"[١٠٦].

ففي حالة تقديم الجن على شركاء يتوجه الإنكار إلى كون الجن شركاء لله، فيكون خاصًا بذلك، دون التعرض إلى وجود شركاء غير الجن لا بالإثبات ولا بالنفي، أما في حالة تقديم شركاء على الجن فيكون الإنكار متوجهًا إلى مطلق اتخاذ شريك لله سواء من الجن أم من غيرهم، ويدخل اتخاذ شريك لله سواء من الجن أم من غيرهم في هذا الإنكار، ثم يأتي ذكر الجن



بعد كلمة «شركاء» ليتوجه إليه الإنكار مرةً أُخرى على سبيل الخصوص، فيكون النص القرآني قد أنكر عليهم اتخاذهم لله عَزَّوَجَلَّ شركاء من دونه سواء من الجن أم من غيرهم، ثم زادهم إنكارًا أو توبيخًا على خصوصية اتخاذهم الجن شركاء لله، تعالى الله عن إفكهم وشركهم علوًّا كبيرًا.

وفي هذا كله تأكيد على تنزيه الله عَزَّوَجَلَّ عن أن يكون له أي شريك، وتأكيد على الاعتماد عليه وحده، وحسن التوكل عليه، والاستعانة به وحده دون أحد من الخلق.

وفي قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾ ليس بخافٍ أن لتقديم الشركاء حُسنًا وروعةً ومأخذًا من القلوب لا تجد شيئًا منه إن أخّرت فقلت: وجعلوا الجنَّ شركاء لله، وذلك لأنك لو قدمت فقلت: وجعلوا الجنَّ شركاء لله، لكان الإنكار منصبًّا على أن يكون الجن شركاء لله، أمّا لو قلت: وجعلوا لله شركاء الجن، لكان الإنكار مؤكدًا مرتين:

الأولى: إنكار اتخاذ أي شريك مع الله عَزَّوَجَلَّ من الجن أو من غيرهم.

والأخرى: إنكار أن يكون الجنُّ شركاء لله من باب ذكر الخاص بعد العام، لشدة تعلقهم بالجنِّ ورهبتهم منه.

وهذا المعنى أقوى وأبلغ وأقطع في نفي أي شريك لله عَزَّوَجَلَّ سواء من الجن أم من غيرهم.

وإذا تيقن الإنسان أنه لا شريك لله عَزَّوَجَلَّ لا من الجنِّ ولا من غيره اتجه قلبه وعقله إلى الله وحده، فلا يخاف إلا من الله عَزَّوَجَلَّ، ولا يعتمد إلا عليه، فلا يغش، ولا يكذب، ولا يخادع؛ لثقته أن الأمور كلها بيد الله وحده، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، يقول تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

٥- وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَاۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦]، تأكيد على أن مسألة الرزق مردها إلى الله عَزَّوَجَلَّ وحده، لا تجري على قدر العقول والأفهام، يقول أبو تمام الطائي(١٠٧):

لَوْ كَانَتِ الْأَرْزَاقُ تَجْرِي عَلَى الحجَا
هَلَكْن إِذَنْ مِنْ جَهْلِهِنَّ البَهَائِمُ

ويقول الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وَمِنَ الدليل عَلَى القَضَاءِ وحكْمِـهِ

بؤسُ اللبيبِ وطيبُ عيشِ الأحمقِ(١٠٨)

ومع أن السعي والأخذ بالأسباب مطلوب ومشروع فإن الأمر كله في ضمانة رب العالمين وحده، وجاء لفظ «دابة» نكرة لإفادة العموم، والنكرة في سياق النفي تعم، واستخدم النص القرآني أسلوب التوكيد بطريق النفي والاستثناء وهو أعلى طرق القصر في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [هود: ٦]، تأكيدًا على أنه ما من دابة في البر، ولا في البحر، ولا في الأرض، ولا في السماء فيما نعلم وفيما لا نعلم إلا على الله رزقها، وهذا يطمئننا إليه أيضًا نبينا محمد ﷺ حيث يقول: «وَإِنَّ الرُّوحَ الأَمِينَ قَدْ نَفَثَ فِي رَوْعِي أَنَّهُ لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا فَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ»(١٠٩)، وفى التتميم بقوله تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ﴾ فائدة أخرى، يقول سيدنا ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا: إن مستقرها حيث تأوي ومستودعها حيث تموت، وعليه يكون المعنى: يعلم مستقرها حيث تكون ليسوق إليها رزقها حيث كانت في البر، أم في البحر، أم في الجو، ويعلم مستودعها أي مكان موتها، فالموت مقدر زمانًا ومكانًا، ولن تموت نفس حتى تستوفي أجلها، ويكون ذلك في المكان والزمان الذي علمه وحدده رب الخلائق كلها.

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ أنه قال: مستقرها الأرحام ومستودعها حيث تموت، أي أن الله عَزَّ وَجَلَّ يعلم مكانها ومستقرها أول ما تحتاج إلى الرزق وهي لا تزال في الرحم، ومستودعها حيث تموت؛ حيث يساق إليها قبل موتها آخر ما تحتاج إليه من الرزق(١١٠).

وتنوين «كلٌّ» في قوله تعالى: ﴿كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [هود: ٦]، للعوض، والتقدير: كل ذلك من رزق كل دابة، وعلم مستقرها، وسوق رزقها إليها فيه، وعلم مستودعها؛ حيث تموت، كل ذلك في كتاب مبين، ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢].



٦- في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود: ٩-١١].

أ- عبّر النّص القرآني في جانب الرحمة والنعماء بلفظ الإذاقة للتأكيد على أنّ النعمة قد وصلت إلى الإنسان، وذاق حلاوتها، واستمتع بها، طال الزمن في ذلك أم قصر، أما في جانب الضراء فقد عبر الحق سبحانه بكلمة «مسّته» للإشعار بأنّ الضرّاء كانت في أدنى درجاتها، فقد مسّته مجرد مس، وهو أدنى درجات الالتقاء أو الملاقاة، وفي ذلك من اللطف الإلهي ما لا يخفى، وتأكيد على أنّ الإنسان خلق ضعيفًا، وأنه ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ [المعارج: ٢٠-٢٣].

ب- في إسناد الإذاقة إلى الله عَزَّوَجَلَّ تأكيد على أنها فضل نعمة مساقة من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ إلى عباده وخلقه، أما المس فقد أسند إلى الإنسان؛ لأن العقاب بإزالة النعم والحرمان منها إنما يكون لتقصير الإنسان في شكرها، يقول الحق سبحانه: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]، وقد يكون ذلك ابتلاءً واختبارًا، فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط، وهذا ما يشير إليه حديث نبينا ﷺ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»(١١١).

ج- في التعبير بقوله تعالى: «نزعناها» دون غيره، كنحو: سلبناها أو أزلناها أو أخذناها، ما يدل على شدّة تعلق الإنسان بالنعمة وحرصه عليها كما هو الحال في شأن الملك، وهو ما يبينه قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦]، فالإتيان فيه سهولة ويسر، وفي النزع دلالة على شدة تعلق المنزوع منه بالمنزوع.

د – استخدم النص القرآني صيغ المبالغة: «يئوس»، «كفور»، «فرِح»، «فخور» للدلالة على شدة اليأس وكفران النعمة عند هذا النوع من البشر في الحالة الأولى التي هي زوال النعمة عنه، وشدّة الفرح وهو هنا بمعنى البطر والأشر والاستعلاء على الناس في الحالة الثانية التي هي سوق النعمة إليه، إلا من استثناه الله عَزَّوَجَلَّ، وهم الذين صبروا في الضراء وشكروا في النعماء.

٧- في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٢-٤٣].

فقد قال سبحانه على لسان نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ﴾، ولم يقل لا عاصم اليوم من الماء، تأكيدًا على أن الله عَزَّوَجَلَّ إذا أراد أمرًا أيّ أمر فلا معقب لحكمه ولا راد لأمره أو قضائه: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، فليس الأمر أمر الماء والجبل فقط، إنما هو مشيئة الله بإهلاك الظالمين والخارجين على منهجه وشرعته، فأراد نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن ينبه ابنه على خطئه في تسميته ماءً، وتوهمه أنه كسائر المياه التي يمكن أن يتخلص الإنسان منها بالهرب أو اللجوء إلى قمة جبل أو نحوه، وذكر كلمة «اليوم» للتنبيه على أنه ليس كسائر الأيام التي تقع فيها الوقائع، وتلم الملمات المعتادة التي ربما يتخلص منها بالالتجاء إلى الأسباب العادية أو البشرية، إنما هو يوم خاص فيه عذاب غير مردود عن الكافرين والظالمين، ولا نجاة فيه بأي سبب إلا بسبب واحد؛ هو التعلق بحبل الله المتين والاعتصام برحمته عَزَّوَجَلَّ ووعده لعباده المؤمنين.

٨- في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود: ٦٩].

قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ﴾ تعبير بالجملة الفعلية أي: سلمنا سلامًا أو نسلم سلامًا، أما قوله تعالى: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ ۖ﴾ فمقول



القول جملة اسمية، والتقدير: سلام عليكم أو عليكم سلام، والتعبير بالجملة الاسمية يفيد الثبات والاستقرار، فإذا قلت: قام محمد، فقد يكون قام ثم جلس، أما إذا قلت: محمد قائمٌ فهذا يعني أنه قائمٌ ومستقرٌ في قيامه مستمر فيه، فردُّ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بالجملة الاسمية يفيد أنه حيّاهم بتحية أحسن من تحيتهم؛ لما في ذلك من الثبات، وهو حق للضيف، واستجابة لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٨٦].

٩- في قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ على لسان إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [إبراهيم: ٣٦].

لم يستخدم النص القرآني طباق السلب فلم يقابل ﴿فَمَن تَبِعَنِي﴾ بمن لم يتبعني، واستخدم طباق الإيجاب في قوله: ﴿وَمَنۡ عَصَانِي﴾؛ لأنه لو قال: ومن لم يتبعني؛ لشمل الحكم من بلغته دعوته عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ومن لم تبلغه هذه الدعوة، أما حين قال: ﴿وَمَنۡ عَصَانِي﴾؛ فقد اقتصر الأمر على من بلغته الدعوة وعصى، وهذا من رحمة الله بعباده؛ حيث يقول سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء: ١٥]، غير أنه تبقى مسئولية كبيرة على الدعاة في البلاغ المبين وتوصيل رسالة خاتم الأنبياء محمد ﷺ إلى العالمين.

١٠- في قوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ٢٤ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا﴾ [مريم: ٢٤-٢٦].

فالعطف بالفاء في قوله تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾ [مريم: ٢٤] للتأكيد على لُطف الله عَزَّوَجَلَّ ورحمته بعباده، ففي اللحظة التي وصل فيها الأسى عندها إلى مداه، وضاقت عليها الأرض بما رحبت، كان اللطف والرحمة ﴿قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾، وهُزّي هذه النخلة التي كانت جافة يابسة تساقط عليك رطبًا جنيًّا.

وفي الحديث عن وجود الماء والتمر جاء

ذكر الماء أولًا: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾، أي نهرًا أو جدولًا عذبًا، ثم جاء ذكر التمر ثانيًا في قوله تعالى: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [مريم: ٢٥]، أما في الحديث عن ترتيب تناول الطعام والشراب، فقد جاء ذكر الطعام أولًا والشراب ثانيًا: ﴿فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا﴾، فما سر تقديم الماء في الأولى وتأخيره في الثانية؟

جاء ذكر الماء أولًا في الأولى؛ لأنّ حاجة النفساء إليه أعم وأهم، فهي تحتاجه للتطهير والغُسْل والشراب، وحاجتها إليه للتطهير أشد، كما أن من يأكل الرُّطَب يحتاج في الغالب إلى الماء جانبه، فكان وجود الماء أولًا؛ لتأكل وهي مطمئنة إلى وجود حاجتها من الماء.

أما الثانية: فقدم الأكل جريًا على النسق العربي في نحو قولهم: كل واشرب، يقول الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ [الأعراف: ٣١]، وفيه أيضًا تأكيد على أهمية التمر بالنسبة للنفساء؛ لسهولته على المعدة في الهضم وفوائد أخرى عديدة.

وذكر بعض أهل العلم نكتة علمية في لفت النظر إلى الأخذ بالأسباب في قصة مريم عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ، فقالوا: إن من أوجد لها جدول الماء وأثمر لها جذع النخلة بالرُّطَب الجني كان قادرًا على أن يُرسل إليها التمر على طبق من ذهب أو فضة، لكنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قال لها: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾، تأكيدًا على أهمية العمل وضرورة الأخذ بالأسباب، فقال الشاعر:

أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ اللهَ قَــالَ لِمَرْيَـــمَ
وهُزِّي إِلَيْكِ الجِذْعَ تسَاقِطِ الرطَبُ
وَلَـوْ شَـاءَ أَنْ تجنيـهُ مِنْ غَيْرِ هزِّةٍ
جَنَتْـه وَلَكِــن كُلّ شَيءٍ لهُ سببُ"[١٢]

كما علّق بعض أهل العلم على حديث رسول الله ﷺ: «لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُم تَوَكَّلون عَلَى الله حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرُزِقْتُم كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا»[١٣]، فقالوا: إنّ الطير تأخذ بالأسباب فتغدو جوعى وتروح وقد رزقت لسعيها، ولم تمكث وتبقَ في أوكارها أو أعشاشها، فليتنا نتعلم من الطير سعيها وتبكيرها، والغدو

هو السير في أول النهار، والرواح هو العودة في آخره، وقد حثنا الإسلام كتابًا وسنةً على السعي والعمل، فقال الحق سبحانه: ﴿فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥]، وقال ﷺ: «مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ، خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ الله دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ»[١١٤].

١١- في قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣].

ففي قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾ يقف الكسائي على ﴿فَعَلَهُۥ﴾، ويجعل الفاعل مقدرًا، أي فعله من فعله، وعليه يكون المعنى: فعله من فعله فلا تنشغلوا بالفاعل إنما عليكم أن تفكروا في عجز أصنامكم التي لم تستطع أن تدفع عن نفسها، ثم استأنف فقال: ﴿كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾، وقال بعض المفسرين: إنما علّق النص القرآني فعل كبيرهم على نطقهم، أي فعله كبيرهم إن كانوا ينطقون فاسألوهم، وجعل جملة ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ﴾ جملة اعتراضية.

وقال بعض المفسرين: إن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ سلك في هذه الآية مسلكًا تعريفيًّا يؤدي إلى مقصده الذي هو إلزامهم الحجة على ألطف وجه وأحسنه، بإسناد الفعل إلى كبيرهم إن كان ينطق؛ لينتهي من هذه المحاجة إلى تسليمهم بعجز آلهتهم ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٥].

١٢- في قوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣]، لم يقل: فاسألوهم إن كانوا يسمعون؛ لأن المعاند هنا يمكن أن يجادل في قضية السماع، فيقول لك: إن هذه الآلهة تسمع بل ترى، لكنها لا تريد أن تجيب الآن، لكنه لا يستطيع أن يحاجك فيقول: إنها تنطق، ومن هنا طلب منهم إبراهيم دليلًا لا سبيل إلى وصولهم إليه، وهو نطق هذه الآلهة إن كانت تنفع أو تضر، وبما أنها لا تستطيع أن تنطق، ولا يستطيع أحد أن يماري في ذلك، فإن عجزها صار بينا وصار حمقهم في عبادتها أبين منه.

١٣- في قوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾

﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩-٩٠].

ففي قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ﴾ قدَّم هبة الولد لزكريا عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ على إصلاح زوجه، على أن النظر في ترتيب الأسباب والمسببات العادية يقتضي أن يتقدم إصلاح الزوج على إنجاب الولد، لكن النص القرآني جاء على خلاف ذلك؛ لأن قدرة الله عَزَّوَجَلَّ ومشيئته لا تحدّها أسباب ولا مسببات: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، فكأنه عَزَّوَجَلَّ يقول: نحن قادرون على أن نهب لزكريا عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ أو غيره الولد؛ سواء أصلحنا له الزوج أم لم نصلحها، فما هو عجيب مستغرب عندكم إنما هو سهل يسير في جانب قدرة الله عَزَّوَجَلَّ، وهو ما أجابت به الملائكة زوج إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ عندما أبدت دهشتها وتعجبها في مثل هذا الموقف.

وهو ما يصوره القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ۝٧١ قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ۝٧٢ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ﴾ [هود: ٧١- ٧٣].

إضافة إلى أن تقديم الهبة على الإصلاح تقديم للبشرى، وهي الأهم في مثل هذا الموقف، إذ تأتي البشرى أولًا للمتلهف لها، ثم يأتي بعد ذلك تفصيل الكلام أو ذكر الأسباب وبيان الحال، وقد أمَرَنا ديننا الحنيف بالبشر، وإدخال السرور على النفس البشرية، يقول نبينا ﷺ: «يسِّروا ولا تعسِّروا، وبشِّروا ولا تنفِّروا»[١١٠].

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، بيان وتعليل لسرعة استجابة الدعاء، ولما ينبغي أن يكون عليه حال من يرجو إجابة دعائه من حسن الصلة بالله عَزَّوَجَلَّ، والمسارعة في الخيرات، والدعاء سرًّا وعلنًا، رغبًا ورهبًا، في قنوت، وخشوع،



وتضرع، واستكانة لله رب العالمين، فزكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ وآله لم يكونوا يفعلون الخيرات فحسب، إنها كانوا يسارعون فيها مع ملازمتهم الدعاء سرًّا وعلانية، رغبًا ورهبًا، وكانوا لله الأحد خاشعين.

١٤- في قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۝ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ۝ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور: ٣٦-٣٨].

أولًا: في قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ﴾ جاء ذكر البيع بعد ذكر التجارة من باب ذكر الخاص بعد العام، فما قيمة هذا التخصيص؟

لا شك في أن التجارة بيعٌ وشراء، وأن الربح عند البيع متحقق ناجز، وعند الشراء متوقع أو مظنون لا يتم ولا يتحقق إلا عند البيع، وقد يعرض للسلعة تلف أو كساد سوق أو تغير أحوال ونحو ذلك، فلا يلزم من نفي إلهاء الشراء الذي هو قسيم البيع نفي إلهاء البيع، في حين أن من ترك المكسب المتيقن كان ترك المظنون عليه أيسر، فالتعبير القرآني بذكر البيع بعد التجارة يفيد شدة إقبالهم على الله عَزَّوَجَلَّ، بحيث لا يشغلهم عنه شيء ولو كان ربحًا متحققًا في أيديهم.

ثانيًا: في قوله تعالى: ﴿وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ آثر النص القرآني التعبير بلفظ القيام دون الوقوف لأمرين:

أحدهما: أن القيام يقتضي الثبات والتمهل، أو الإقامة ونحوها، يقال: أقام فلان بالمكان إذا لبث فيه واتخذه وطنًا، وهذا يعني أن القائم للصلاة أو المقيم لها ينبغي أن يعطيها حقها من السكينة والطمأنينة.

الآخر: أن القيام من معانيه العزم، والمحافظة، والاهتمام بالأمر، يقال: قام فلان للأمر إذا تهيَّأ له واستعد، وشمَّر عن ساعد الجد لقضائه، والإسلام لا يريدها مجرد ركعات خاطفة، إنما يريدها عبادة تنبع من عقيدة صادقة، فتؤتي ثمرتها في إصلاح صاحبها، فتقوّم سلوكه، وتنهاه عن الفحشاء والمنكر، وهذا لا يتأتى إلا

ممن تهيأ واستعد وأخذ الأمر بجد وعزيمة.

وهنا يتوافق سياق النص مع سياقه القرآني الذي آثر لفظ القيام ومشتقاته دون لفظ الوقوف في جميع المواضع أو الآيات التي تحدثت عن الصلاة وإقامتها، فقال سبحانه: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٢٧٧]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٣]، وقال تعالى: ﴿لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، وقال جل شأنه: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ﴾ [المزمل: ٢]، وقال تعالى: ﴿سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٤]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [النساء: ١٦٢]، إلى غير ذلك من المواضع.

ثالثًا: أكدت هذه الآية أن الذين يعمرون بيوت الله ويذكرونه ويسبحونه هم رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وهو ما أكدته - أيضًا - آية التوبة بأسلوب القصر: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨]، وهو ما يؤكد التئام النسق القرآني، وانسجام بعضه مع بعض، وتفسير بعضه لبعض، وتقوية هذا المعنى لذلك، وارتباطه به، وإن تباعدت مواضع السور أو الآيات.

رابعًا: لما كان فعل هؤلاء الرجال متميزًا في إخلاصهم لله عَزَّوَجَلَّ، وتركهم المكاسب الدنيوية ابتغاء رضوانه، كان عطاء الله لهم خاصًّا ومتميزًا، فإنه سيجزيهم أحسن ما عملوا، ويزيدهم من فضله، وفي التذييل بقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور: ٣٨] ما يوحي بأن الله سيعطيهم عطاء لا حدود له، وسيرزقهم بما لم يكن في حسابهم، بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

١٥- في قول الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ۝٧٠ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ [الشعراء: ٦٩-٧١].

في جوابهم على قوله: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ كان



يكفي أن يقولوا: ﴿نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا﴾ لكنهم أطنبوا في الحديث فزادوا ﴿فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾، وهذا دليل على تبجحهم في ضلالهم، فهم لا يعبدون فقط هذه الأصنام، إنما يعكفون على عبادتها، وكان ذلك إمعانًا منهم في التعنت وإشعارًا لإبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بعدم نيتهم الاستجابة له أو الانصراف عن عبادة هذه الأصنام.

١٦- في قول الحق جَلَّجَلَالُهُ على لسان إبراهيم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ٧٨ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ٧٩ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ٨٠ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ٨١ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٧٨-٨٢].

فقد جاءت التراكيب ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي﴾، ﴿وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي﴾، ﴿وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي﴾ بدون ضمير الفصل «هُوَ»، في حين جاءت التراكيب: ﴿فَهُوَ يَهۡدِينِ﴾، ﴿هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ﴾، ﴿فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾، مشتملة على ضمير الفصل «هُوَ»، وذلك لأن الأفعال الأولى المتمثلة في الخلق والإماتة والإحياء ومغفرة الذنوب لا يجادل فيها أحد، بل إن أكثر الناس على التسليم المطلق فيها لله عَزَّوَجَلَّ، أما جانب الرزق المعبَّر عنه بالإطعام والسقيا، وجانب الشفاء، وجانب الهداية إلى الصراط المستقيم فهو مما يغفل كثير من الخلق عن الاعتماد على خالقهم فيه، وتهتز عند بعضهم فيه قضية التسليم المطلق، فتجد منهم من يخادع أو ينافق أو يغش؛ ظنًّا منه أن ذلك قد يجلب له نفعًا في الرزق أو يدفع عنه ضررًا، ناسيًا أنه لن تموت نفس حتى تستوفي أجلها ورزقها، كما أن بعض الناس قد يذهب في مسألة التداوي إلى بعض الدجالين والعرافين والمشعوذين، فلما كان الحال عند بعض الناس في هذه الأمور ينقصه اليقين المطلق في الله عَزَّوَجَلَّ جاءت هذه الأفعال مؤكدة بضمير الفصل؛ ليؤكد النص القرآني أن رب الخلق ورب الإحياء والإماتة هو رب الهداية، هو رب الإطعام، ورب السقيا، ورب الشفاء.

فكما أنه لن تموت نفس حتى تستوفي أجلها ورزقها، فليس من الإيمان واليقين أن نفوِّض الأمر لله عَزَّوَجَلَّ في الأمور الأولى ولا نفوِّضه

إليه في الأمور الأخرى، فهو وحده القادر على هذا وذاك، والأمر كله له تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

١٧- في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧١]، حيث جاءت كلمة «فتحت» غير مسبوقة ولا مقرونة بالواو، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧٣]؛ حيث جاءت كلمة «وَفُتِحَتْ» مسبوقة بالواو، فهذه الواو التي جاءت في قوله تعالى: «وَفُتِحَتْ» في الحديث عن أهل الجنة، قال بعض العلماء والمفسرين: إنها واو الحال، والمعنى: جاءوها والحال أنها مفتوحة، وذلك من زيادة إكرام الله عز وجل لعباده المؤمنين أنْ جعل الجنة مفتحة الأبواب، مهيأة لاستقبالهم قبل قدومهم إليها، والحال ليس كذلك مع أهل النار، بل إن النار تأخذهم بغتة.

وقال بعض المفسرين واللغويين: إن هذه الواو واو الثمانية، ذلك أن بعض القبائل العربية كانت تعد، فتقول: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة، سبعة، وثمانية، فتأتي بالواو مع العدد الثامن، وذكروا لذلك شواهد منها قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف: ٢٢]؛ حيث ذكرت الواو مع العدد الثامن، وقوله تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ١١٢]؛ حيث ذُكرت الواو مع العدد الثامن، وقوله سبحانه: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم: ٥]؛ حيث ذكرت الواو أيضًا مع العدد الثامن، مع أن الواو في هذه الآية لها معنى آخر وهو إفادة التنويع، ولا مانع أن يتضمن الحرف أكثر من معنى.

وقد ذكرت واو الثمانية في قوله تعالى: «وَفُتِحَتْ» في الحديث عن أهل الجنة دون قوله تعالى: «فُتِحَتْ» في الحديث عن أهل النار؛ لأنّ



أبواب النار سبعة لقوله تعالى في الحديث عنها: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٤]، أما أبواب الجنة فثمانية لقول نبينا ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُبْلِغُ - أَوْ فَيُسْبِغُ - الْوُضُوءَ، ثُمَّ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةُ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ»(١١٦).

فلما كانت أبواب الجنة ثمانية أُتي معها بالواو، ولما كانت أبواب جهنم سبعة لم يُؤْتَ معها بالواو، وفي كون أبواب الجنة ثمانية وأبواب جهنم سبعة ما يدل على أن رحمة الله عَزَّوَجَلَّ أوسع من غضبه، يقول تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

* * *

الهوامش:

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب العلم، حديث رقم: ٣١٨، وقال الذهبي: له أصل في الصحيح.

(٢) سنن ابن ماجه، المقدمة، باب فضل من تَعَلَّمَ القرآن وعلَّمه، حديث رقم: ٢١٥، واللفظ له، ومسند أحمد، ٢١/ ١٧٥، حديث رقم: ١٣٥٤٢.

(٣) إثبات نبوة محمد ﷺ للإمام أبي العباس ضياء الدين أحمد بن عمر الأنصاري الأندلسي القرطبي، ص١١٣، تحقيق: أحمد آيات بلعيد، دار الكتب العلمية.

(٤) انظر: مبحث المختصر الشافي، ص ٢٥.

(٥) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب تفسير سورة {لم يكن}، حديث رقم: ٤٩٥٩، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، باب من فضائل أبي بن كعب وجماعة من الأنصار، حديث رقم: ٧٩٩.

(٦) المعجم الكبير للطبراني، ١/ ٢٠٠، حديث رقم: ٥٣٩.

(٧) مسند أحمد، ٧/ ٩٨، حديث رقم: ٣٩٩١.

(٨) سنن ابن ماجه، افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة، باب فضل عبد الله بن مسعود، حديث رقم: ١٣٨.

(٩) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب البكاء عند قراءة القرآن، حديث رقم: ٥٠٥٥.

(١٠) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي ﷺ، حديث رقم: ٤٩٩٩.

(١١) مسند أحمد، ١/ ٢٨٠، حديث رقم: ١٢٩.

(١٢) مسند أحمد، ١١/ ١٩٩، حديث رقم: ٦٦٢٦.

(١٣) سنن أبي داود، كتاب الوتر، باب في ثواب قراءة القرآن، حديث رقم: ١٤٥٥.

(١٤) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب اغتباط صاحب القرآن، حديث رقم: ٤٧٣٧، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه وفضل من تعلم حكمة من فقه أو غيره فعمل بها وعلَّمها، حديث رقم: ٨١٥.

(١٥) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب استذكار القرآن وتعاهده، حديث رقم: ٤٧٤٦، وصحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الأمر بتعهد القرآن وكراهة قول: نسيتُ آية كذا، وجواز قول: أنسيتها، حديث رقم: ٧٩١، واللفظ له.

(١٦) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب فضل القرآن على سائر الكلام، حديث رقم: ٥٠٢٠، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضيلة حافظ القرآن، حديث رقم: ١٨٩٦.

(١٧) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب نزول السّكينة والملائكة عند قراءة القرآن، حديث رقم: ٤٧٣٠، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب نزول السكينة لقراءة القرآن، حديث رقم: ١٨٩٥.



(١٨) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب تفسير سورة {لم يكن}، حديث رقم: ٤٦٧٦، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب استحباب قراءة القرآن على أهل الفضل والحُذَّاق فيه، وإن كان القارئ أفضل من المقروء عليه، حديث رقم: ٧٩٩.

(١٩) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب الصلاة على الشهيد، حديث رقم: ١٢٧٨.

(٢٠) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب تفسير ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [عبس: ١]، حديث رقم: ٤٩٣٧، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل الماهر بالقرآن والذي يتتعتع فيه، حديث رقم: ٧٩٨.

(٢١) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب قول المقرئ للقارئ: حسبك، حديث رقم: ٥٠٥٠.

(٢٢) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب فضل استماع القرآن وطلب القراءة من حافظه للاستماع والبكاء عند القراءة والتدبر، حديث رقم: ٨٠٠.

(٢٣) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه، حديث رقم: ٤٧٣٩.

(٢٤) صحيح مسلم: كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلّمه وفضل من تعلم حكمة من فقه أو غيره فعمل بها وعلّمها، حديث رقم: ٨١٧.

(٢٥) صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذّكر، حديث رقم: ٢٦٩٩.

(٢٦) الكوماء من الإبل: العظيم السنام. انظر: غريب الحديث للقاسم بن سلام، ٣/ ٨٤، تحقيق: محمد خان، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن، الطبعة الأولى، ١٣٨٤هـ - ١٩٩٦م.

(٢٧) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة القرآن في الصلاة وتعلمه، وسنن أبي داود، كتاب الوتر، باب في ثواب قراءة القرآن في الصّلاة وتعلّمه، حديث رقم: ١٤٥٨، واللفظ له.

(٢٨) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب فضل الماهر في القرآن، والّذي يتتعتع فيه، حديث رقم: ٧٩٨.

(٢٩) سنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب استحباب التّرتيل في القراءة، حديث رقم: ١٤٦٤، واللفظ له، وسنن الترمذي، أبواب فضائل القرآن عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء فيمن قرأ حرفًا من القرآن ما له من الأجر، حديث رقم: ٢٩١٤، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٣٠) سنن الترمذي، أبواب فضائل القرآن عن رسول الله ﷺ، بابٌ منه، حديث رقم: ٢٩١٥، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٣١) سنن الترمذي، أبواب فضائل القرآن عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء فيمن قرأ حرفًا من القرآن ما له من الأجر، حديث رقم: ٢٩١٠، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب.

(٣٢) سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في تنزيل النّاس منازلهم، حديث رقم: ٤٨٤٣.

(٣٣) سنن أبي داود، كتاب الوتر، باب في ثواب قراءة القرآن، حديث رقم: ١٤٥٣.

(٣٤) سنن ابن ماجه، المقدمة، باب فضل من تعلّم القرآن وعلّمه، حديث رقم: ٢١٥.

(٣٥) سنن الدارمي، كتاب فضائل القرآن، باب في فضل سورة البقرة وآل عمران، حديث رقم: ٣٤٣٤.

(٣٦) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة والحثّ على قراءة الآيتين من آخر البقرة، حديث رقم: ٨٠٦.

(٣٧) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة، حديث رقم: ٨٠٥.

(٣٨) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة، حديث رقم: ٨٠٤.

(٣٩) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي، حديث رقم: ٨٠٩.

(٤٠) صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب استحباب صلاة النافلة في بيته وجوازها في المسجد، حديث رقم: ٧٨٠.

(٤١) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحُدَيبية، حديث رقم: ٤١٧٧.

(٤٢) سنن الترمذي، كتب فضائل القرآن، باب فضل سورة الملك، حديث رقم: ٢٨٩١، وقال: حديث حسن.

(٤٣) السنن الكبرى للبيهقي، كِتَابُ آدَابِ القاضي، باب ما يَقْضِي به القاضي وَيُفْتِي به المفتي، حديث رقم: ٢٠٣٣٦.

(٤٤) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب فَضْلِ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، حديث رقم: ٥٠١٥، وصحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، حديث رقم: ٨١١، واللفظ له.

(٤٥) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، حديث رقم: ٧٣٧٥، وصحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، حديث رقم: ٨١٣، واللفظ له.

(٤٦) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، ١/ ٣٩، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، ٢٠٠٣م.

(٤٧) التبيان في آداب حملة القرآن للإمام النووي، ص٥٤، تحقيق: محمد الحجار، دار ابن حزم.

(٤٨) إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي، كتاب آداب تلاوة القرآن، ١/ ٢٧٨، دار المعرفة، بيروت.

(٤٩) مصنف ابن أبي شيبة، ٦/ ١٢٦، حديث رقم: ٣٠٠١١، وانظر: غريب الحديث للقاسم بن سلام الهروي، ٤/ ٤٨، دار الكتاب العربي، بيروت.

(٥٠) الزهد لعبد الله بن المبارك، ص ٢٨٠، حديث رقم: ٨١٤، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، دار الكتب العلمية، بيروت، والمعجم الكبير للطبراني ٩/ ١٤٦، حديث رقم: ٨٦٦٥.

(٥١) مصنف ابن أبي شيبة، كتاب الزُّهْدِ، ما قالوا في البكاء من خشية الله، حديث رقم: ٣٦٧٣٤.

(٥٢) مصنف ابن أبي شيبة، كتاب فضائل القرآن، باب في فضل من قرأ القرآن، حديث رقم: ٣٠٥٧٣.

(٥٣) جامع الأصول في أحاديث الرسول لمجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري ابن الأثير، المتوفى سنة ٦٠٦هـ كتاب الفضائل والمناقب، باب فضل القرآن مطلقًا، حديث رقم: ٦٢٣٣، تحقيق: عبد القادر الأرنوط، مكتبة الحلواني، مطبعة الملاح، ومكتبة دار البيان.

(٥٤) شعب الإيمان للبيهقي، باب في حفظ اللسان عما لا يحتاج إليه، حديث رقم: ٤٨٣٤، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض.



(٥٥) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم الأصبهاني، باب ذكر طوائف من جماهير النُّسَّاك والعُبَّاد، ٨/ ٩٢، دار الكتب العلمية.

(٥٦) دلائل النبوة للإمام البيهقي، جماع أبواب المبعث، ٢/ ١٩٩، تحقيق: د/ عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، ودار الريان للتراث.

(٥٧) الإتقان في علوم القرآن للإمام السيوطي، ١/ ١٨.

(٥٨) تفسير ابن أبي حاتم، ١٠/ ٣٣٥٦، حديث رقم: ١٨٨٩٧، تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، السعودية، الطبعة الثالثة، ١٤١٩هـ وانظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، تفسير سورة الجمعة، ١٨/ ١٠٩، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية.

(٥٩) صحيح البخاري، كتاب الرقائق، باب ما جاء في الرّقاق وأن لا عيش إلّا عيش الآخرة، حديث رقم: ٦٤١٢.

(٦٠) سنن الترمذي، أبواب صفة القيامة والرّقائق والورع عن رسول الله ﷺ، باب في القيامة، حديث رقم: ٢٤١٦، وقال: حديث غريب.

(٦١) الخصائص الكبرى المسمى «كفاية الطالب اللبيب في خصائص الحبيب» للحافظ السيوطي، باب اختصاصه ﷺ بحرمة التقديم بين يديه ورفع الصوت فوق صوته والجهر له بالقول، ص ٤٤٤، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٦٢) البداية والنهاية لابن كثير، ٩/ ١٠٢، ١٠٣ بتصرف، دار الفكر، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٦م، وانظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لأبي عباس بن أبي بكر بن خلكان، المتوفى سنة ٦٨١ هـ، ٣/ ٢٢٤ بتصرف، دار الكتاب العلمية، بيروت.

(٦٣) السنن الكبرى للبيهقي، كتاب السير، باب فتح مَكَّةَ حرسها الله تعالى، حديث رقم: ١٨٧٣٩.

(٦٤) أخبار مكة للفاكهي، باب ذكر منى وحدوده، حديث رقم: ٢٦٢٤.

(٦٥) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، حديث رقم: ٣٤، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، حديث رقم: ٢١٩.

(٦٦) مفاتيح الجنان ليعقوب بن سيد علي البروسوي، المتوفى سنة ٩٣١هـ في شرح شرعة الإسلام لمحمد بن أبي بكر المعروف بإمام زاده الحنفي، المتوفى سنة ٥٧٣هـ ص ٤١٨، كتاب – ناشرون، بيروت.

(٦٧) أبيات من ديوان السموأل، المتوفى سنة ٦٢ قبل الهجرة، أبو عبد الله نفطويه، ص ٦٦، ٧٥، ٧٩، تحقيق: د/ واضح الصمد، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م، وهو: السموأل بن غريض بن عادياء بن رفاعة بن الحارث الأزدي، شاعر جاهلي يهودي عربي، ذو بيان وبلاغة، كان واحدًا من أكثر الشعراء شهرة في وقته، وكان يملك حصنًا في شمال الجزيرة، وقد ضُرِب بالسموأل المثل في الوفاء لإسلامِه ابنه للقتل على أن يُفَرِّط في دروعٍ أُودِعها أمانةً، في خبرٍ طويل، وقصّة مشهورةٍ، تُطْوَى في قولهم: إنّ امرأ القيس صاحب (قِفا نَبْكِ) استودع السموأل دروعًا، كانت ملوك كندة يتوارثونها ملكًا عن ملك، فطلبها ملك الحيرة الحارث بن أبي شمر الغسّانيّ وألحّ في تطلابها، فلمّا حجبت عنه سار إلى السموأل، فلمّا دَهَم الجيشُ السموأل أغلق الحصن دون من دهمه، فأخذ له ابنٌ كان خارج الحصن في متصيدٍ له، فخيّر الحارث السموأل بين دفع الدروع التي في حرزه وقتل ابنه، فاختار السموأل الوفاء بالذِّمّة. انظر: الكامل في التاريخ لابن الأثير، ١/ ٤٦٩، تحقيق: عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م، والمثل السائل في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير، ص١٧٧، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٠هـ.

(٦٨) صحيح مسلم، كتاب البرِّ والصّلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم، وخذله، واحتقاره، ودمه، وعرضه، وماله، حديث رقم: ٢٥٦٤.

(٦٩) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدِّين، حديث رقم: ٥٠٩١.

(٧٠) سنن الترمذي، أبواب المناقب، باب مناقب البراء بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حديث رقم: ٣٨٥٤، وقال: حديث حسن غريب.

(٧١) لسان العرب لابن منظور، ٣/ ١٥٨، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ ونسبه لهانئ بن توبة الشيباني، الملقب بالشويعر الحنفي، وأنشد البيتين له أبو العبّاس ثعلب.

(٧٢) شعب الإيمان للبيهقي، السابع والخمسون من شعب الإيمان، باب في حسن الخلق، حديث رقم: ٧٧٠٢، وأدب الدنيا والدين لأبي الحسن الماوردي، ص ٢٠١ ونسبه لسفيان بن عيينة.

(٧٣) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والأدب، باب استحباب طلاقة الوجه عند اللّقاء، حديث رقم: ٦٨٥٧.

(٧٤) انظر: الفصول المفيدة في الواو المزيدة لصلاح الدين أبي سعيد خليل بن كيلكلدي بن عبد الله العلائي الدمشقي الشافعي، ص٢١٢، تحقيق: د/ حسن موسى الشاعر، دار البشير، عمان.

(٧٥) المعجم الكبير للطبراني، ١٠/ ٩٨، حديث رقم: ١١٩٨٢، وكتاب الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام، المتوفى سنة ٢٢٤ هـ عن أبي هريرة وابن مسعود، كتاب الصدقة وأحكامها باب فضائل الصدقة والثواب في إعطائها، حديث رقم: ٩٠٠، ٩٠١، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٧٦) تاريخ دمشق لابن عساكر، ٥٠/ ٣٧٠ بتصرف.

(٧٧) تنسب الأبيات للإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ. انظر: سحر الكلام من روائع أشعار أهل الإسلام، ص١٠١، وبوابة الشعراء، https://www.Poetsgate.com

(٧٨) سنن الترمذي، أبواب الزهد، باب ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر، حديث رقم: ٢٣٢٥، وقال: حسن صحيح.

(٧٩) مسند أحمد، ٢٨/ ٤٥٢، حديث رقم: ١٧٢١٧.

(٨٠) مسند أحمد، ٤٣/ ٢٣٠، حديث رقم: ٢٦١٣٣.

(٨١) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الجهاد، باب مَنْ يُجْرَحُ في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، حديث رقم: ٢٨٠٣، وصحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله، حديث رقم: ١٨٦٧.

(٨٢) سنن الترمذي، أبواب الدعوات، باب منه، حديث رقم: ٣٥٨٥، وقال: حسن غريب.

(٨٣) سنن الترمذي، أبواب القرآن، باب منه، حديث رقم: ٢٩٢٦، وقال: حسن غريب.

(٨٤) انظر: ربيع الأبرار ونصوص الأخيار للزمخشري، ٤/ ٣٨٧، مؤسسة الأعلمي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢ هـ.

(٨٥) إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد الغزالي، ٣/ ٣٣٩.

(٨٦) انظر: موقع الديوان aldiwan.net.، وتنسب إلى فرنسيس بن فتح الله، من سوريا.

(٨٧) انظر: روضة العقلاء، للحافظ أبي حاتم البستي، صاحب صحيح ابن حبان، ص ٦١.

(٨٨) سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب كم مرّة يسلّم الرّجل في الاستئذان، حديث رقم: ٥١٨٦.

(٨٩) صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصّلاة، باب من أحق بالإمامة، حديث رقم: ١٠٧٨.

(٩٠) سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في التّشديد في الكذب، حديث رقم: ٤٩٩٢.

(٩١) شرح النووي على صحيح مسلم، المقدمة، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع، حديث رقم: ٥، بتصرف.

(٩٢) إحياء علوم الدين للغزالي، ٣/ ١٥٦، دار المعرفة، بيروت.

(٩٣) ديوان الإمام الشافعي، ص ١٠٥.

(٩٤) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب حفظ اللّسان، حديث رقم: ٦٤٧٨.

(٩٥) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يُؤْذِ جاره، حديث رقم: ٦٠١٨، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد وينقص، حديث رقم: ٤٧.

(٩٦) انظر: الحجة للقراء السبعة للحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسيّ أبو علي، المتوفَّى سنة ٣٧٧هـ ٧/ ٣، تحقيق: بدر الدين قهوجي، وبشير جويجابي، مراجعة وتدقيق: عبد العزيز رباح، وأحمد يوسف الدقاق، دار المأمون للتراث، دمشق، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

(٩٧) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الغيبة، حديث رقم: ٢٥٨٩.

(٩٨) مسند أحمد، ٣٩/ ٥٩، حديث رقم: ٢٣٦٥٣، ٣٩/ ٦٠، حديث رقم: ٢٣٦٥٦، وانظر: معجم الصحابة لعبد الباقي بن قانع، أحاديث سعد مولى النبي ﷺ، ١/ ٢٥٧، حديث رقم: ٢٩٤؛ تحقيق: صلاح بن سالم المصراتي، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

(٩٩) انظر: صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال، ص٧٨، وديوان سيدنا الإمام علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ص ٣٤.

(١٠٠) ديوان أمير الشعراء أحمد شوقي، قصيدة الهمزية النبوية، ص ٣٢.

(١٠١) شعب الإيمان للبيهقي، الخامس والثلاثون، باب الأمانات وما يجب من أدائها، حديث رقم: ٤٨٨٢.

(١٠٢) ديوان حاتم الطائي، ص ١٩.

(١٠٣) تفسير الكشاف للزمخشري، ٢/ ٤٦٧ بتصرف، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة.

(١٠٤) ديوان النابغة الذبياني، ص ٣٣، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، وهو: زياد بن معاوية بن ضباب بن جابر بن يربوع بن مرّة بن عوف بن سعد، الذبياني، الغطفاني، المتوفى سنة ٦٠٥ م.

(١٠٥) مسند أحمد، ٣٧/ ١٦٣، حديث رقم: ٢٢٤٩٣.

(١٠٦) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، ١/ ٢٨٦، ٢٨٧، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

(١٠٧) شرح ديوان أبي تمام، للخطيب التبريزي، ٢/ ٨٧، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

(١٠٨) ديوان الإمام الشافعي، ص ٧٥.

(١٠٩) شعب الإيمان، الثالث عشر، باب التوكل بالله عز وجل، والتسليم لأمره تعالى، حديث رقم: ١١٤١.

(١١٠) جامع البيان في تأويل آي القرآن لابن جرير الطبري، ١٥/ ٢٤١، حديث رقم: ١٧٩٦٢، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.

(١١١) صحيح مسلم، كتاب الزّهد والرّقائق، باب المؤمن أمره كلّه خيرٌ، حديث رقم: ٢٩٩٩.

(١١٢) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب لأبي منصور الثعالبي، ص ٥٩٠، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٦٥م.

(١١٣) سنن الترمذي، أبواب الزهد، باب في التوكل على الله، حديث رقم: ٢٣٤٤، وقال: حسن صحيح.

(١١٤) صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب كسب الرّجل وعمله بيده، حديث رقم: ٢٠٧٢.

(١١٥) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب العلم، باب ما كان النبيّ ﷺ يَتَخَوَّلُهُم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا، حديث رقم: ٦٩، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير، حديث رقم: ١٧٣٤.

(١١٦) صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب ذكر المستحب عقب الوضوء، حديث رقم: ٢٣٤.



الأدب مع سيدنا رسول الله ﷺ

زكّى الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لسان نبينا ﷺ، فقال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [النجم: ٣]، وزكّى فُؤاده ﷺ، فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النجم: ١١]، وزكّى بصره ﷺ فقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧]، وزكّى عقله ﷺ، فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ٢]، وزكّى معلمه ﷺ، فقال سبحانه: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥]، وزكّى خُلُقه ﷺ، فقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

وشرح ربّه عَزَّوَجَلَّ صدره ﷺ، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١]، ورفع ذكره ﷺ، فقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ١ - ٢]، وزكّاه كلّه، فقال سبحانه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]، وأكرم أمته لأجله ﷺ، فقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣]، وصلى ربُّه عَزَّوَجَلَّ وملائكته عليه، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

أرسله ربّه عَزَّوَجَلَّ رحمة للعالمين، فقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وأمرنا الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ باتباعه ﷺ فقال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ [الحشر: ٧]، وحذّرنا من مخالفة أمره ﷺ، فقال سبحانه: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ

﴿أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، ونهانا أن نجعل دعاءه ﷺ كدعاء بعضنا بعضًا، فقال سبحانه: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]، وربط إيماننا بالتسليم لحكمه ﷺ، فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

وجعل ربنا عَزَّوَجَلَّ طاعة الرسول ﷺ من طاعته سبحانه، ومعصيته ﷺ من معصيته عَزَّوَجَلَّ، فقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠]، وقال جل شأنه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧١]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

ومن ثمة لزم التحلي بأعلى درجات الأدب مع الرسول ﷺ ومع سنته المطهرة وحرمه الشريف، فحرمته ﷺ ميتًا كحرمته ﷺ حيًا.

والأدب مع سيدنا رسول الله ﷺ يقتضي عدم ذكر اسمه ﷺ مجردًا عما يليق به من الوصف بالنبوة أو الرسالة أو الصلاة والسلام عليه، سواء عند ذكره ﷺ، أو عند سماع اسمه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، أو كتابة اسمه المبارك ﷺ، بالغًا ما بلغ عدد مرات الكتابة أو الذكر.

كما نؤكد وندين لله عَزَّوَجَلَّ بأن حب سيدنا رسول الله ﷺ جزء لا يتجزأ من عقيدتنا، وأنه شرط من شروط صحة الإيمان؛ حيث يقول ﷺ: «لا يُؤْمِنُ أحدُكم حتى أكونَ أحبَّ إليه من ولدِه، ووالدِه، والناسِ أجمعينَ»[1].

حديث القرآن عن الرسول ﷺ

تحدث القرآن الكريم عن النبي ﷺ حديثًا كاشفًا عن مكانته وأخلاقه وكثير من جوانب حياته، فهو نبي الرحمة، حيث يقول الحق سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ويقول سبحانه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ



﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ويقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، ويقول سبحانه: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧].

وقرأ ﷺ قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، وقول الله عَزَّوَجَلَّ على لسان عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]؛ فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي، وَبَكَى، فَقَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: «يَا جِبْرِيلُ! اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ - وَرَبُّكَ أَعْلَمُ - فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فَسَأَلَهُ، فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَا قَالَ، وَهُوَ أَعْلَمُ، فَقَالَ اللهُ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلَا نَسُوءُكَ»[٢].

وقد زكّاه الله عَزَّوَجَلَّ في القرآن الكريم؛ فزكّى لسانه وفؤاده وبصره وعقله ومعلمه وخُلُقه، وشرح صدره، ورفع ذكره، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر[٣].

وقد أكرمه ربُّه حتى في مخاطبته وندائه، فحيث نادى رب العزة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ سائر الأنبياء بأسمائهم، قال تعالى: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة:٣٥]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ﴾ [هود: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠٤- ١٠٥]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ [ص: ٢٦]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾ [مريم: ٧]، وقال تعالى: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢]، وقال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه: ١١- ١٢]، وقال

تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾ [المائدة: ١١٠]؛ خاطب نبينا ﷺ خطابًا مقرونًا بشرف الرسالة أو النبوة، أو صفة إكرام وتفضل وملاطفة، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ① قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١-٢]، وقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ① قُمْ فَأَنذِرْ ② وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ [المدثر: ١-٣].

وعندما شرَّفَهُ الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بذكر اسمه في القرآن الكريم ذكره مقرونًا بعزِّ الرسالة، فقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وأخذ العهد على الأنبياء والرسل ليؤمنن به ولينصرنه، فقال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

وصلَّى ربُّه جَلَّ وَعَلَا بنفسه عليه، وأمر ملائكته والمؤمنين بالصلاة عليه، فقال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]، وجعل صلاته على المؤمنين رحمة وسكينة لهم، فقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣].

فعلينا بالإكثار من الصلاة والسلام على الحبيب ﷺ؛ لأن من صلَّى على النبي ﷺ صلاة صلى الله عليه بها عشرًا، كما أن صلاتنا معروضة عليه ﷺ، وكان ﷺ يقول: «إذا سمِعْتُمُ النِّداءَ فَقولُوا مِثْلَ ما يَقولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ، فإنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلاةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِها



عشرًا، ثُمَّ سلُوا اللهَ لي الوسِيلَة، فَإِنَّهَا مَنزِلَةٌ في الجنَّةِ لا تَنبَغِي إلا لعَبْدٍ من عِباد الله وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُو، فَمنْ سَأَل لِيَ الوسِيلَة حَلَّتْ لَهُ الشَّفاعَةُ»[1].

حجية السنة المشرفة ومكانتها في التشريع

عندما نتحدث عن السنة النبوية المشرفة إنما نتحدث عن المصدر الثاني للتشريع، فقد أجمع علماء الأمة وفقهاؤها وأصوليوها على حجية السنة النبوية، وأن طاعة الرسول ﷺ من طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، حيث يقول الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٞ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، ويقول تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢]، ويقول تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢]، ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، ويقول تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [المائدة: ٩٢]، ويقول تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤]، ويقول سبحانه: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظٗا﴾ [النساء: ٨٠]، ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقٗا ۝٦٩ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا﴾ [النساء: ٦٩-٧٠]، ويقول تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧١]، ويقول تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [النساء: ١٣]، ويقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٞۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٖ تَجْرِي مِن

﴿تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ١٧]، ويقول تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النور: ٥١-٥٢]، ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤]، ويقول سبحانه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

ويؤكد القرآن الكريم على ضرورة النزول على حكم النبي ﷺ في حياته، وعلى مقتضى سنته الشريفة في حياته وبعد وفاته ﷺ، حيث يقول الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، ويقول الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وقد نهى الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وحذَّر من مخالفة أمر النبي ﷺ، فقال سبحانه: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣]، ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٠- ٢٣]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء: ١٤]،



وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣].

وبيّن لنا الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أن كل توجيه يصدر عن النبي ﷺ إنما هو وحي يوحى، حيث يقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ١-٤]، وأنه ﷺ إنما يدعونا لما يحيينا، حيث يقول الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وقد جعل الحقُّ سبحانه طاعة رسول الله ﷺ واتباع سنته ﷺ سببًا لمرضاته عَزَّوَجَلَّ وحبه، وبابًا لمغفرة الذنوب، فقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

ويقول نبينا ﷺ: «أَلَا هَلْ عَسَى رَجُلٌ يَبْلُغُهُ الحَدِيثُ عَنِّي وَهُوَ مُتَّكِئٌ عَلَى أَرِيكَتِهِ، فَيَقُولُ: بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابُ الله، فَمَا وَجَدْنَا فِيهِ حَلَالًا اسْتَحْلَلْنَاهُ، وَمَا وَجَدْنَا فِيهِ حَرَامًا حَرَّمْنَاهُ، وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ الله كَمَا حَرَّمَ الله»[٥]، ويقول ﷺ: «دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»[٦]، ويقول نبينا ﷺ: «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى، قِيلَ: وَمَنْ يَأْبَى يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى»[٧].

وعن عبد الله بن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ قال: «يا أيها الناس، إنِّي تركتُ فيكم ما إنِ اعتصمتم به فلن تضلُّوا أبدًا: كتاب الله، وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ»[٨]، وعن العرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى الله، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا؛ فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ المَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَة، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»[٩]، ويقول ﷺ: «فَمَنْ رَغِبَ عَنْ

سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»[10]، ويقول ﷺ: «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ الله، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصى الله»[11].

ونقل ابن رجب الحنبلي[12] عن الإمام أحمد ابن حنبل[13] رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: أُصُولُ الإِسْلَامِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَحَادِيثَ؛ حَدِيث عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»، وَحَدِيث عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»، وَحَدِيث النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الحَلَالُ بَيِّنٌ وَالحَرَامُ بَيِّنٌ»[14].

وعن أبي داود السِّجستاني[15] أنه قال: الفِقْهُ يَدُورُ عَلَى خَمْسَةِ أَحَادِيثَ؛ قوله ﷺ: «الحَلَالُ بَيِّنٌ وَالحَرَامُ بَيِّنٌ»، وَقَوْله ﷺ: «لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ»، وَقَوْله ﷺ: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»، وَقَوْله ﷺ: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ»، وَقَوْله ﷺ: «مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ، وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»[16].

ولا يجادل في مكانة السنة النبوية المشرفة وحجيتها وعظيم منزلتها إلا جاحد أو معاند لا يُعتَد بقوله، فقد أجمع أهل العلم على أن السنة النبوية المطهرة هي المصدر الثاني للتشريع، ومن ثمة كانت العناية الفائقة بها، حفظًا، وروايةً، وتدوينًا، وتخريجًا، وشرحًا، واستنباطًا للأحكام، غير أن وقوف بعض قاصري الفهم عند ظواهر النصوص دون فهم مقاصدها قد أدى إلى الجمود والانغلاق في كثير من القضايا، وهو ما يجعل الحديث عن الفهم المقاصدي للسنة النبوية أمرًا ضروريًا وملحًا لكسر دوائر الجمود والانغلاق والتحجر الفكري.

ولا شك أن السنة النبوية المطهرة جاءت شارحة ومبينة ومتممة للقرآن الكريم، يقول الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]، ويقول عَزَّ وَجَلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢]، ويقول



تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: ٢٣١]، ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٤].

فقد ذكر الحسن البصري[١٧] والإمام الشافعي[١٨] (رحمهما الله تعالى)، وغيرهما من أهل العلم، وكثير من المفسرين أن الحكمة هنا هي سنة رسول الله ﷺ[١٩].

وقد تحدث العلماء والفقهاء والأصوليون عن حجية السنة حديثًا مستفيضًا، يقول الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وضع الله عَزَّوَجَلَّ رسولَه ﷺ من دينه وفرضِه وكتابِه الموضعَ الذي أبان سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنه جعله علمًا لدينه بما افترض من طاعته، وحرَّم من معصيته، وأبان من فضيلته بما قرن بالإيمان برسوله ﷺ مع الإيمان به، فقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥]، فجعل كمال ابتداء الإيمان الذي ما سواه تبعٌ له الإيمان بالله ورسوله، فلو آمن عبد به ولم يؤمن برسوله لم يقع عليه اسم كمال الإيمان أبدًا حتى يؤمن برسوله معه[٢٠].

ويقول الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضًا: لَمْ أَسْمَعْ أَحَدًا نَسَبَهُ النَّاسُ أَوْ نَسَبَ نَفْسَهُ إِلَى عِلْمٍ يُخَالِفُ فِي أَنْ فَرَضَ الله عَزَّوَجَلَّ اتِّبَاعَ أَمْرِ رسول الله ﷺ والتسليمَ لحكمه؛ بأن الله عَزَّوَجَلَّ لم يجعل لأحد بعده إلا اتباعه، وأنه لا يلزم قولٌ بكل حال إلا بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ أو سنة رسوله ﷺ وأن ما سواهما تبع لهما، وأنَّ فَرْضَ الله تعالى علينا وعلى من بعدنا وقبلنا في قبول الخبر عن رسول الله ﷺ واحد[٢١].

ويقول ابن حزم[٢٢] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: في أيِّ قرآن وُجِد أن الظهر أربع ركعات، وأن المغرب ثلاث رَكَعَات، وأن الركوع على صفة كذا، والسجود على صفة كذا، وصفة القراءة فيها والسلام، وبيان ما يُجْتَنَب في الصوم، وبيان كيفية زكاة الذهب والفضة، والغنم والإبل والبقر، ومقدار الأعداد المأخوذ منها الزكاة،

ومقدار الزكاة المأخوذة، وبيان أعمال الحج من وقت الوقوف بعرفة، وصفة الصلاة بها وبمزدلِفة، ورمي الجمار، وصفة الإحرام، وما يُجْتَنَب فيه، وقطع السارق، وصفة الرَّضاع المحرم، وما يحرم من المآكل، وصفة الذبائح والضحايا، وأحكام الحدود، وصفة وقوع الطلاق، وأحكام البيوع، وبيان الربا، والأقضية، والتداعي، والأيمان، والأحباس، والعُمْرَى، والصدقات، وسائر أنواع الفقه؟ وإنما في القرآن جُمَل لو تُركنا وإياها لم نَدْرِ كيف نعمل بها؟ وإنما المرجوع إليه في كل ذلك النقلُ عن النبي ﷺ[٢٣].

ويقول الشوكاني[٢٤] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: اعلم أنه قد اتفق من يعتد به من أهل العلم على أن السنة المطهرة مستقلة بتشريع الأحكام، وأنها كالقرآن في تحليل الحلال وتحريم الحرام، وقد ثبت عنه ﷺ أنه قال: «أَلا وَإِنِّي أُوتِيتُ القُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ»[٢٥]؛ أي: أوتيت القرآن، وأوتيت مثله من السنة التي لم ينطق بها القرآن، وذلك كتحريم لحوم الحُمر الأهلية، وتحريم كل ذي ناب من السباع ومخلب من الطير، وغير ذلك مما لا يأتي عليه الحصر[٢٦].

ويقول أيضًا: والحاصل أن ثبوت حجية السنة المطهرة واستقلالها بتشريع الأحكام ضرورة دينية، ولا يخالف في ذلك إلا من لا حظَّ له في دين الإسلام[٢٧].

ويقول الألوسي[٢٨] رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ [المائدة: ٩٢]: ﴿أَطِيعُواْ الله﴾ أي: الزموا طاعته فيما أمركم به ونهاكم عنه، ﴿وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ﴾، المبعوث لتبليغ أحكامه إليكم في كل ما يأمركم به وينهاكم عنه أيضًا، وأعاد الفعل ﴿وَأَطِيعُواْ﴾ - وإن كانت طاعة الرسول مقترنة بطاعة الله تعالى - اعتناء بشأنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وقطعًا لتوهم أنه لا يجب امتثال ما ليس في القرآن، وإيذانًا بأن له ﷺ استقلالًا بالطاعة لم يثبت لغيره[٢٩].

ويقول الأستاذ/ عبد الوهاب خلاف[٣٠] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: السنة إما أن تكون سنة مفصِّلة ومفسِّرة لما جاء في القرآن مجملًا، أو مقيِّدة ما جاء فيه



مطلقًا، أو مخصِّصَة ما جاء فيه عامًّا، فيكون هذا التفسير أو التقييد أو التخصيص الذي وردت به السنة تبيينًا للمراد من الذي جاء في القرآن؛ لأن الله سبحانه منح رسوله حق التبيين لنصوص القرآن بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، ومن هذا: السنن التي فصَّلت إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت؛ لأن القرآن أمر بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، ولم يفصِّل عدد ركعات الصلاة، ولا مقادير الزكاة، ولا مناسك الحج، والسنن العملية والقولية هي التي بَيَّنت هذا الإجمال، وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، السنة هي التي بَيَّنَت صحيح البيع وفاسده، وأنواع الربا المحرم، والله حرم الميتة، والسنة هي التي بينت المراد منها - ما عدا ميتة البحر - وغير ذلك من السنن التي بينت المراد من مجمل القرآن الكريم ومطلقه وعامه، وتعتبر مكملة له وملحقة به[٣١].

وتأسيسًا على كل ما سبق من نصوص القرآن الكريم وسنة الحبيب محمد ﷺ، وأقوال أهل العلم، يتضح لنا إجماع أهل العلم على عظيم مكانة السنة النبوية، وعلى حجيتها شارحةً ومفسرةً ومبينةً ومتممةً، لا يجادل في ذلك إلا جاحدٌ أو معاندٌ، أو شخص لا حظَّ له في العلم، ولا يعتد برأيه عند أهل الاعتبار والنظر.

رسول الإنسانية ﷺ

نبينا محمد ﷺ نبي الإنسانية ورسولها، سواء من حيث كون رسالته جاءت رحمة للعالمين، أو من حيث كونها للناس كافة، حيث يقول الحق سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]، وحيث يقول نبينا ﷺ: «وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً»[٣٢]، أو كان ذلك من جهة ما تضمنته الرسالة من جوانب الرحمة والإنسانية وتكريم الإنسان لكونه إنسانًا بغض النظر عن دينه أو لونه أو جنسه أو لغته، حيث يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]، أو من

حيث مراعاته ﷺ للأبعاد الإنسانية في جميع معاملاته وسائر تصرفاته.

ويتجلى البعد الإنساني في حياة سيدنا رسول الله ﷺ في معاملته لأزواجه وأحفاده وأصحابه والناس أجمعين، فكان خير الناس لأهله، وهو القائل عن أم المؤمنين خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «آمَنَتْ بِي إِذْ كَفَرَ بِي النَّاسُ، وَصَدَّقَتْنِي إِذْ كَذَّبَنِي النَّاسُ، وَوَاسَتْنِي بِمَالِهَا إِذْ حَرَمَنِي النَّاسُ، وَرَزَقَنِي الله عَزَّوَجَلَّ وَلَدَهَا إِذْ حَرَمَنِي أَوْلَادَ النِّسَاءِ»[٣٣]، وظل وفيًّا لها طوال حياتها حتى بعد وفاتها، فكان يكرم صديقاتها ومن كُنَّ يَأْتِينَه على عهدها، فقد جاءت عجوز إلى بيته ﷺ فقال لها: «مَنْ أَنْتِ؟» قَالَتْ: أَنَا جَثَّامَةُ الْمُزَنِيَّةُ، فَقَالَ: «بَلْ أَنْتِ حَسَّانَةُ الْمُزَنِيَّةُ، كَيْفَ أَنْتُمْ؟ كَيْفَ حَالُكُمْ؟ كَيْفَ كُنْتُمْ بَعْدَنَا؟» قَالَتْ: بِخَيْرٍ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ الله، فَلَمَّا خَرَجَتْ؛ قالت عائشة: يَا رَسُولَ الله، تُقْبِلُ عَلَى هَذِهِ الْعَجُوزِ هَذَا الإِقْبَالَ؟ فَقَالَ: «إِنَّهَا كَانَتْ تَأْتِينَا زَمَنَ خَدِيجَةَ، وَإِنَّ حُسْنَ الْعَهْدِ مِنَ الإِيمَانِ»[٣٤].

وكان شديد الحب لأحفاده، شديد الحفاوة والعناية بهم، فعن أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ وَالْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ إِلَى جَنْبِهِ، وَهُوَ يُقْبِلُ عَلَى النَّاسِ مَرَّةً، وَعَلَيْهِ أُخْرَى، وَيَقُولُ: «إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ الله أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ»[٣٥]، ولما رآه الأقرع بن حابس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقبل الحسن والحسين، قَالَ: إِنَّ لِي عَشَرَةً مِنَ الوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ مِنْهُمْ أَحَدًا، فَنَظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ الله ﷺ ثُمَّ قَالَ: «مَنْ لاَ يَرْحَمُ لاَ يُرْحَمُ»[٣٦]، وفي رواية: «أَوَ أَمْلِكُ لَكَ أَنْ نَزَعَ الله مِنْ قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ؟!»[٣٧].

وكان ﷺ أرحم الناس بالناس وبخاصة الأطفال والضعفاء، حيث يقول ﷺ: «إِنِّي لَأَقُومُ فِي الصَّلَاةِ أُرِيدُ أَنْ أُطَوِّلَ فِيهَا، فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ، فَأَتَجَوَّزُ فِي صَلَاتِي كَرَاهِيَةَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمِّهِ»[٣٨]، ويقول ﷺ: «فَمَنْ صَلَّى بِالنَّاسِ فَلْيُخَفِّفْ، فَإِنَّ فِيهِمُ الْمَرِيضَ وَالضَّعِيفَ وَذَا الْحَاجَةِ»[٣٩].

وها هو ﷺ تدمع عيناه عند وفاة ابنه



إبراهيم، فقال له سيدنا عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وأنت يا رسول الله؟! فيقول ﷺ: «يا بن عوف إنها رحمة»، ثم قال: «إِنَّ العَيْنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلاَ نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَي رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ»[١٠].

وسجد ﷺ يومًا فأطال السجود، فلما قضى الصلاة، قال الناس: يَا رَسُولَ الله، إِنَّكَ سَجَدْتَ بَيْنَ ظَهْرَانَي صَلاَتِكَ هَذِهِ سَجْدَةً قَدْ أَطَلْتَهَا، فَظَنَنَّا أَنَّهُ قَدْ حَدَثَ أَمْرٌ، أَوْ أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْكَ، قَالَ: «كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ، وَلَكِنَّ ابْنِي ارْتَحَلَنِي فَكَرِهْتُ أَنْ أُعَجِّلَهُ حَتَّى يَقْضِي حَاجَتَهُ»[١١].

وعن أبي قتادة الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رسول الله ﷺ «كَانَ يُصَلِّي وَهُوَ حَامِلٌ أُمَامَةَ بِنْتَ زَيْنَب بِنْت رَسُولِ الله ﷺ، فَإِذَا سَجَدَ وَضَعَهَا، وَإِذَا قَامَ حَمَلَهَا»[١٢].

وعندما كان ﷺ يخطب على المنبر وجد الحسن والحسين يتعثران، فنزل من على المنبر واستلمهما وقبّلهما، فعن عَبْد الله بْن بُرَيْدَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبِي بُرَيْدَةَ يَقُولُ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَخْطُبُنَا إِذْ جَاءَ الحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ عَلَيْهِمَا قَمِيصَانِ أَحْمَرَانِ يَمْشِيَانِ وَيَعْثُرَانِ، فَنَزَلَ رَسُولُ الله ﷺ مِنَ المِنْبَرِ فَحَمَلَهُمَا وَوَضَعَهُمَا بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «صَدَقَ الله: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]، نَظَرْتُ إِلَى هَذَيْنِ الصَّبِيَّيْنِ يَمْشِيَانِ وَيَعْثُرَانِ فَلَمْ أَصْبِرْ حَتَّى قَطَعْتُ حَدِيثِي وَرَفَعْتُهُمَا»[١٣].

وكان ﷺ يقول عن سيدنا أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ أَمَنَّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبُو بَكْرٍ»[١٤]، وفي رواية أنه ﷺ قَالَ: «إِنَّ الله بَعَثَنِي إِلَيكُمْ فَقُلْتُمْ: كَذَبْتَ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقَ، وَوَاسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُو لِي صَاحِبِي»[١٥]، وكان يقول عن سيدنا سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «سَلْمَانُ مِنَّا أَهْلَ البَيْتِ»[١٦]، ولما عاد سيدنا جعفر بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من فتح خيبر، قبّله رسول الله ﷺ بين عينيه والتزمه، وقال ﷺ: «مَا أَدْرِي بِأَيِّهِمَا أَنَا أَفْرَحُ، بِفَتْحِ خَيْبَرَ أَمْ بِقُدُومِ جَعْفَرٍ؟»[١٧].

وعلّمنا ﷺ الجود الإنساني والذوق الراقي

في آنٍ واحدٍ، فقال ﷺ: «لاَ تَحْقِرَنَّ مِنَ المَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ»(٨٨)، وقال ﷺ: «لاَ تَحْقِرَنَّ جَارَةٌ لِجَارَتِهَا، وَلَوْ فِرْسِنَ شَاةٍ»(٨٩)، سواء من جهة المعطية المنفقة التي لا ينبغي أن تستحي من قلة ما تملك فتحجم عن العطاء، فرب درهم سبق ألف درهم، يقول النبي ﷺ: «مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ - وَلاَ يَقْبَلُ اللهُ إِلَّا الطَّيِّبَ - وَإِنَّ اللهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الجَبَلِ»(٩٠)، أو كان ذلك من جهة الآخذة أو الآخذ؛ إذ لا ينبغي أن نُحرج المعطي أو المهدي وإن كان ما يهديه قليلًا، بل علينا أن نشكر له صنيعه وإن كان يسيرًا، حيث يقول نبينا ﷺ: «مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللهَ»(٩١)، وهو ما أكده سيدنا عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في حديثه عن الوصايا العشر في سورة الأنعام.

ومن هنا فإن إعلاءنا للقيم الإنسانية ليس أمرًا ثانويًا أو مجرد أمر إنساني، إنما هو عقيدة وشريعة ودين ندين به لله عَزَّ وَجَلَّ، فبدل أن تتناحر الأمم والشعوب وتتقاتل، ويعمل بعضهم على إفناء أو إضعاف أو إنهاك أو تفتيت بعض، فليتعاون الجميع لصالح البشرية جمعاء؛ حيث يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات: ١٣]، ولو أن البشرية أنفقت على معالجة قضايا الجوع والفقر والمرض والتنمية معشار ما تنفق على القتال والحروب والتخريب والتدمير؛ لتحول حال البشرية إلى ما يصلح شئون دينها ودنياها.

حب رسول الله ﷺ

جزء لا يتجزأ من الإيمان

حبُّ رسول الله ﷺ جزء لا يتجزأ من الإيمان؛ يقول سيدنا عبد الله بن هشام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَإِنَّهُ الْآنَ وَاللهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ



النَّبِيُّ ﷺ: «الْآنَ يَا عُمَرُ»(٥٢)، أي الآن كمل إيمانك وتم.

ويقول ﷺ: «ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإِيمانِ، أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِواهُما، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلاّ للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَما يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»(٥٣)، وجاء رجل يسأل النبي ﷺ فَقالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ فقال له ﷺ: «وَمَاذَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟»، فقال الرجل: لَا شَيْءَ، إِلَّا أَنِّي أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ ﷺ، فقال له النبي ﷺ: «أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ»(٥٤).

ويُنسَب للإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ أنه كان يقول(٥٥):

أُحِبُّ الصَّالِحِينَ وَلَسْتُ مِنْهُمْ
لَعَلِّي أَنْ أَنَالَ بِهِمْ شَفَاعَهْ
وَأَكْرَهُ مَنْ تِجَارَتُهُ المَعَاصِي
وَإِنْ كُنَّا سَوَاءً فِي البِضَاعَهْ

فإذا كان هذا هو حب الصالحين، فما بالكم بحب سيد المرسلين وخير خلق الله أجمعين ﷺ؟!

ثم كيف لا نحبه ﷺ، ونذوب في حبه، وهو الذي أخرجنا الله عَزَّوَجَلَّ به من الظلمات إلى النور، وهدانا به إلى صراطه المستقيم، وهو الذي رفع الله عَزَّوَجَلَّ ذكره، وشرح صدره، وزكّى خُلقَه، وجعله خير شافع وخير مشفع، وهو الذي يصلي عليه رب العزة عَزَّوَجَلَّ، ويأمرنا بدوام الصلاة والسلام عليه، فيقول سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]، ويقول سبحانه على لسانه ﷺ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]، ويقول تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤]، ويقول ﷺ: «إِذَا سَمِعْتُمُ المُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللهَ لِيَ الوَسِيلَةَ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الجَنَّةِ، لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِيَ الوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ»(٥٦).

ويقول سيدنا حسان بن ثابت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[٥٧]:

وضمَّ الإلهُ اسمَ النبيِّ إلـى اسمهِ
إذا قــالَ في الخَمسِ المُؤذِّنُ أشهَدُ
وشـقّ لـهُ مــنِ اسمهِ ليُجلّـــهُ
فذو العرشِ محمودٌ، وهذا محمدُ

ونؤكد على أمرين؛ الأول: أن العلماء وشراح الحديث قد نظر بعضهم إلى قوله ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»[٥٨] على أنه شرط من شروط كمال الإيمان، أي: لا يكمل إيمان المرء إلا به، ونظر بعضهم إليه على أنه شرط من شروط صحة الإيمان، أي لا يصح إيمان المرء إلا به، وهو ما يترجح عندنا.

الآخر: أن الحب لا يمكن أن يكون مجرد كلام، إنما هو حسن اقتداء، وحسن اتِّباع، وتخلُّق بأخلاق الحبيب ﷺ، واقتداء بهديه، يقول الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ[٥٩]:

تَعْصِي الإله وَأَنْتَ تُظهِرُ حُبَّهُ
هذا محالٌ في القياس بديعُ
لَوْ كانَ حُبُّكَ صَادِقًا لأَطَعْتَهُ
إنَّ المُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ

إن من يحب رسول الله ﷺ لا يمكن أن يكون كذَّابًا، ولا غشاشًا، ولا خائنًا، ولا جشعًا، ولا متكبرًا، ولا سبَّابًا، ولا مبتدعًا، بل يكون كما قالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا عن الحبيب ﷺ: «كَانَ خُلُقُهُ القُرْآنَ»[٦٠]، وكان ﷺ قرآنًا يمشي على الأرض، أو كما قالت السيدة خديجة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «كَلا والله مَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الدهر»[٦١].

التأدُّب مع سيدنا رسول الله ﷺ

الأدب مع سيدنا رسول الله ﷺ يقتضي أمورًا كثيرة، منها:

١- عدم ذكر اسمه ﷺ مجردًا عما يليق به من الوصف بالنبوة أو الرسالة أو الصلاة والسلام عليه، سواء عند ذكره ﷺ، أو عند سماع اسمه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أو كتابة اسمه المبارك ﷺ، بالغًا ما بلغ عدد مرات الكتابة أو الذكر، فذلك من أخص علامات حب سيدنا رسول الله ﷺ، وهذا ما يعلمنا إياه القرآن



الكريم؛ حيث جاء الخطاب الإلهي له ﷺ مقرونًا بشرف الرسالة أو النبوة، أو صفة إكرام وتفضل وملاطفة على نحو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ [المائدة: ٤١]، وقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤٥]، وقوله جل شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٠].

٢- الإكثار من الصلاة والسلام عليه ﷺ؛ حيث يقول سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

ويقول ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذِهِ الآيَةِ: أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ أَخْبَرَ عِبَادَهُ بِمَنْزِلَةِ عَبْدِهِ وَنَبِيِّهِ عِنْدَهُ فِي الْمَلَأِ الأَعْلَى، بِأَنَّهُ يُثْنِي عَلَيْهِ عِنْدَ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ، وَأَنَّ الْمَلَائِكَةَ تُصَلِّي عَلَيْهِ، ثُمَّ أَمَرَ تَعَالَى أَهْلَ الْعَالَمِ السُّفْلِيِّ بِالصَّلَاةِ وَالتَّسْلِيمِ عَلَيْهِ، لِيَجْتَمِعَ الثَّنَاءُ عَلَيْهِ مِنْ أَهْلِ الْعَالَمَيْنَ الْعُلْوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ جَمِيعًا(٦٢).

وعن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بن أَبِي لَيْلَى رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «لَقِيَنِي كَعْبُ بْنُ عُجْرَةَ، فَقَالَ: أَلَا أُهْدِي لَكَ هَدِيَّةً؟ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ عَلَيْنَا، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ الله، قَدْ عَلِمْنَا كَيْفَ نُسَلِّمُ عَلَيْكَ فَكَيْفَ نُصَلِّي عَلَيْكَ؟ قَالَ: فَقُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ»(٦٣).

ومن لزوم الأدب معه ﷺ عدم اختصار صيغة الصلاة والسلام عليه ﷺ عند الكتابة إلى (ص) أو (صلعم)؛ إذ ينبغي لنا كتابتها كاملة؛ حتى لا يحرم كاتبها من ثوابها الوفير وفضائلها العظيمة(٦٤).

٣- عدم التعامل معه ﷺ كما يتعامل بعضنا مع بعض؛ حيث يقول الحق سبحانه: ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ﴾ [النور: ٦٣]، وهو ما يقتضي أيضًا ألا نتعامل مع سنته كما نتعامل مع كلام بعضنا البعض، وهو ما أكد عليه كبار الفقهاء

والعلماء؛ حيث يقول الإمام أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إذا قلتُ قولًا يخالف كتابَ الله تعالى، وخبرَ الرسول ﷺ؛ فاتركوا قولي[65].

ويقول ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: ليس أحد بعد النبي ﷺ إلا ويؤخذ من قوله ويترك إلا النبي ﷺ[66]، ويقول الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنما أنا بشر أخطئ وأصيب، فانظروا في رأيي؛ فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوه، وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه[67].

ويقول الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما من أحد إلا وتذهب عليه سنة لرسول الله ﷺ وتعزُب عنه، فمهما قلتُ من قول أو أصّلت من أصل فيه عن رسول الله ﷺ خلاف ما قلت؛ فالقول ما قال رسول الله ﷺ، وهو قولي»[68]، ويقول أيضًا: «إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله ﷺ؛ فقولوا بسنة رسول الله ﷺ، ودعوا ما قلت[69].

ويقول الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا تقلّدني، ولا تقلد مالكًا، ولا الشافعي، ولا الأوزاعي، ولا الثوري، وخُذ من حيث أخذوا[70].

٤ - التزام أقصى درجات الأدب والوقار في مسجده ﷺ، ولا شك أن حرمة جوار رسول الله ﷺ ميتًا كحرمة جواره حيًّا، وقد سمع الإمام مالك بن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا رجلًا يرفع صوته في مسجد رسول الله ﷺ، فقال: يا هذا، الزم الأدب في حضرة رسول الله ﷺ، فإن الله عَزَّوَجَلَّ قد مدح أقوامًا، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات: ٣]، وذم أقوامًا، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢]، وإن حرمة رسول الله ميتًا كحرمته حيًّا، فتأدب في مسجد رسول الله ﷺ.

من فضائل الصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ﷺ

للصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ﷺ فضائل عظيمة ومِنَح جليلة، منها:



١- نَيلُ رحمة الله عَزَّوَجَلَّ وعميم فضله بكثرةِ الصَّلاة والسَّلام على نبيِّنا ﷺ، فإذا كانت الصلاة من الله عَزَّوَجَلَّ تعني الرحمة، فإنه ﷺ قال: «من صلَّى عليَّ واحدةً صلَّى الله عليهِ عشرًا»[٧١]، وقال ﷺ أيضًا: «من ذُكِرْتُ عنده فَلْيُصَلِّ عليَّ، ومن صلَّى عليّ مرةً صَلّى الله عليه عشرًا»[٧٢].

٢- استغفارُ الملائكة؛ حيث يقول ﷺ: «ما مِن مُسلِمٍ يصلِّي عليَّ إلَّا صلَّت عليهِ الملائِكةُ ما صلَّى عليَّ، فليُقِلَّ العَبدُ من ذلِكَ أو ليُكثِرْ»[٧٣].

٣- نيل شفاعته ﷺ: فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللهَ لِي الْوَسِيلَةَ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لا تَنْبَغِي إلا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ الله، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ»[٧٤]، وقال ﷺ: «أولى النَّاسِ بي يومَ القيامةِ أكثرُهم عليَّ صلاةً»[٧٥].

٤- رفع الدرجات وحطّ الخطايا والسيئات: يقول ﷺ: «من صلَّى عليَّ صلاةً واحدةً صلَّى الله عليهِ عشرَ صلواتٍ، وحُطَّت عنهُ عَشرُ خطيئاتٍ، ورُفِعَت لَهُ عشرُ درجاتٍ»[٧٦]، وعن أبي طلحة الأنصاريّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أَصْبَحَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا طَيِّبَ النَّفْسِ يُرَى فِي وَجْهِهِ الْبِشْرُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، أَصْبَحْتَ الْيَوْمَ طَيِّبَ النَّفْسِ، يُرَى فِي وَجْهِكَ الْبِشْرُ، قَالَ: «أَجَلْ، أَتَانِي آتٍ مِنْ رَبِّي عَزَّوَجَلَّ فَقَالَ: مَنْ صَلَّى عَلَيْكَ مِنْ أُمَّتِكَ صَلَاةً كَتَبَ الله لَهُ بِهَا عَشْرَ حَسَنَاتٍ، وَمَحَا عَنْهُ عَشْرَ سَيِّئَاتٍ، وَرَفَعَ لَهُ عَشْرَ دَرَجَاتٍ، وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَهَا»[٧٧].

٥- كفاية الهموم ومغفرة الذنوب: فعن أُبَيّ بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: يا رسولَ الله إِنِّي أُكثِرُ الصلاةَ عليْكَ، فكم أجعَلُ لكَ من صلاتِي؟ فقال: «ما شِئْتَ»، قال: قلتُ: الربعَ، قال: «ما شئْتَ فإِنْ زدت فهو خيرٌ لكَ»، قلتُ: النصفَ، قال: «ما شئتَ فإِنْ زدت فهو خيرٌ لكَ»، قال: قلْتُ: فالثلثينِ، قال: «ما شئْتَ فإِنْ زدت فهو خيرٌ لكَ»، قلتُ: أجعلُ

لكَ صلاتي كلَّها؟، قال: «إذًا تُكفَى همَّكَ، ويغفرُ لكَ ذنبُكَ»(٧٨).

٦- تشريف المصلِّي على النبي ﷺ بإبلاغِ سلامِهِ الرسولَ ﷺ، وردّ الرسول ﷺ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ حيث يقول ﷺ: «إنَّ لله ملائكةً سيَّاحينَ في الأرضِ يبلِّغوني عن أمتي السَّلامَ»(٧٩)، وقال ﷺ: «مَا مِنْ أَحَدٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ إِلَّا رَدَّ اللهُ عَلَيَّ رُوحِي حَتَّى أَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ»(٨٠).

على أن فضائل الصلاة والسلام على سيد الأنام سيدنا محمد ﷺ لا تُحصى ولا تُعد، فمنها ما ظهر، ومنها ما يجل عن العد والحصر؛ إذ لا يدرك كنهها ولا عميم بركتها إلا من ذاق، فمن ذاق عرف، ومن عرف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ويكفي ملازمها راحة النفس والبال، وطمأنينة القلب، وانشراح الصدر، وتذوق حلاوة الإيمان؛ حيث يقول نبينا ﷺ: «ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا وَبِالإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ ﷺ رَسُولًا»(٨١).

نماذج تطبيقية من الفهم المقاصدي للسنة النبوية

(١) فهم أحاديث السواك:

- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي أَوْ عَلَى النَّاسِ لَأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ مَعَ كُلِّ صَلَاةٍ»(٨٢).

- وعن زيد بن خالد الجُهنيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لولا أن أَشُقَّ على أُمَّتي لأمَرتُهم بالسِّواكِ عند كُلِّ صلاةٍ»(٨٣).

- وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قال: «لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لَأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ عِنْدَ كُلِّ وُضُوءٍ»(٨٤).

- وعَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَشُوصُ فَاهُ بِالسِّوَاكِ»(٨٥).

- وعَنِ الْمِقْدَامِ بْنِ شُرَيْحٍ، عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قلت: بِأَيِّ شَيْءٍ كَانَ يَبْدَأُ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا دَخَلَ بَيْتَهُ؟ قَالَتْ: «بِالسِّوَاكِ»(٨٦).

- وعَنْ عَامِرِ بْنِ رَبِيعَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ:



«رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَسْتَاكُ وَهُوَ صَائِمٌ»(٨٧).

- وقد بين النبي ﷺ الحكمة من استخدام السواك والمواظبة عليه؛ حيث قال ﷺ: «السِّوَاكُ مَطْهَرَةٌ لِلْفَمِ، مَرْضَاةٌ لِلرَّبِّ»(٨٨).

وإذا كان القصد من السواك هو طهارة الفم والحفاظ على صحته، وعلى رائحته الطيبة، وإزالة أي آثار لأي رائحة كريهة مع حماية الأسنان وتقوية اللثة؛ فإن هذا المقصد كما يتحقق بعود السواك المأخوذ من شجر الأراك يتحقق بكل ما يحقق هذه الغاية، فلا حرج مِن فِعْلِ ذلك بعود الأراك أو غيره، كالمعجون وفرشاة الأسنان ونحوهما، أما أن نتمسك بظاهر النص ونحصر الأمر حصرًا ونقصره قصرًا على عود السواك دون سواه، ونجعل من هذا العود علامة للتقى والصلاح؛ بوضع عود أو عودين أو ثلاثة منه في الجيب الأصغر الأعلى للثوب، مع احتمال تعرضه للغبار والأتربة والتأثيرات الجوية، ونظن أننا بذلك فقط دون سواه إنما نصيب عين السنة، ومن يقوم بغير ذلك غير مستنٍّ بها؛ فهذا عين الجمود والتحجر وضيق الأفق لمن يجمد عند ظاهر النص دون فهم أبعاده ومراميه ومقاصده، فقد استخدم رسولنا ﷺ وأصحابه (رضوان الله عليهم) ما كان متيسرًا في زمانهم، ولو عاشوا إلى زماننا لاستخدموا أفضل وأنفع وأحدث ما توصل إليه العلم في سائر المجالات.

(٢) فهم أحاديث نظافة الفراش:

- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ، قَالَ: «إِذَا أَوَى أَحَدُكُمْ إِلَى فِرَاشِهِ، فَلْيَأْخُذْ دَاخِلَةَ إِزَارِهِ، فَلْيَنْفُضْ بِهَا فِرَاشَهُ، وَلْيُسَمِّ اللهَ، فَإِنَّهُ لَا يَعْلَمُ مَا خَلَفَهُ بَعْدَهُ عَلَى فِرَاشِهِ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَضْطَجِعَ، فَلْيَضْطَجِعْ عَلَى شِقِّهِ الأَيْمَنِ، وَلْيَقُلْ: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبِّي بِكَ وَضَعْتُ جَنْبِي، وَبِكَ أَرْفَعُهُ، إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي، فَاغْفِرْ لَهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ»(٨٩).

- وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ عَنْ فِرَاشِهِ ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهِ فَلْيَنْفُضْهُ بِصَنِفَةِ إِزَارِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَإِنَّهُ لا يَدْرِي مَا خَلَفَهُ عَلَيْهِ بَعْدُ، فَإِذَا اضْطَجَعَ فَلْيَقُلْ: بِاسْمِكَ رَبِّي وَضَعْتُ جَنْبِي، وَبِكَ

أَرْفَعُهُ، فَإِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ، فَإِذَا اسْتَيْقَظَ فَلْيَقُلْ: الحَمْدُ لله الَّذِي عَافَانِي فِي جَسَدِي، وَرَدَّ عَلَيَّ رُوحِي وَأَذِنَ لِي بِذِكْرِهِ»[١٠].

- وعَن أَبِي هُرَيرة رَضِيَ اللهُ عَنهُ عَن النَّبِيِّ ﷺ قال: «إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ مِنَ الليلِ عَنْ فِرَاشِهِ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهِ فَإِنَّهُ لا يَدْرِي مَا خلفَ فِيهِ بَعْدَهُ فَلينفضْهُ بِإِزَارِهِ، أَوْ بِبَعْضِ إِزَارِهِ، فَإِذَا اضْطَجَعَ فَلْيَقُلْ: بِاسمِكَ وَضَعْتُ جَنْبِي وَبِكَ أَرْفَعُهُ، فَإِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَاغْفِرْ لَهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ»[١١].

والمراد بـ «دَاخِلَة الإِزَار»: طَرَفه، وبـ «صنفة الإزار»: حاشيته، وهي جانبه الذي لا هُدْبَ له[١٢]، فيُسْتَحَبّ أَنْ يَنْفُض الإنسان فِرَاشه قَبْل أَنْ يأوي إليه بطرف ثوبه لِئَلَّا يَحْصُل فِي يَده مَكْرُوه.

ولـو وقفنا عند ظاهر النص فماذا يصنع من يلبس ثوبًا يصعب الأخذ بطرفه وإماطة الأذى عن مكان النوم به؟! كأن يرتدي لباسًا عصريًا لا يُمكّنه من ذلك.

ولو نظرنا إلى المقصد الأسمى وهو تنظيف مكان النوم والتأكد من خُلوِّهِ مما يمكن أن يسبب للإنسان أي أذى من حشرة أو نحوها؛ لأدركنا أن الإنسان يمكن أن يفعل ذلك بأي آلة عصرية تحقق المقصد وتفي بالغرض من منفضة أو مكنسة أو نحوهما، فالعبرة ليست بإمساك طرف الثوب، وإنما بما يتحقق به نظافة المكان والتأكد من خُلوِّهِ مما يمكن أن يسبب الأذى للإنسان؛ بل إن ذلك قد يتحقق بمنفضة أو نحوها أكثر مما يتحقق بطرف الثوب، لكن النبي ﷺ خاطب قومه بما هو من عاداتهم وما هو متيسر في أيامهم؛ حتى لا يشق عليهم في ضوء معطيات ومقومات حياتهم البسيطة، وكأنه ﷺ يقول لهم: نظِّفوا أماكن نومكم قبل أن تأووا إليها بما تيسر ولو بطرف ثيابكم.

وقد علَّل بعض شرَّاح الحديث التوجيه بالأخذ بطرف الثوب بأنه ﷺ وجَّه بذلك حتى لا تصاب اليد بأذى من آلة حادة أو



طرف خشبة مدببة، أو تراب أو قذاة أو هوام، أو حية أو عقرب أو غيرهما من المؤذيات، أو عود صغير يؤذي النائم وهو لا يشعر، أو نحو ذلك لو عمد الإنسان إلى نظافة مكان نومه بيده [٩٣]، وهو ما يؤكد المعنى الذي ذهبنا إليه.

ومع ذلك فمن شابهت حياته حياتهم فلا حرج عليه إن أخذ بظاهر النص فنظف مكان نومه بطرف ثوبه، غير أن محاولة حمل الناس جميعًا على الأخذ بظاهر النص دون سواه يعد من باب ضيق الأفق في فهم مقصد النص والتعسير على الناس في شئون حياتهم.

كما أن اعتبار من يريد حمل الناس على ظاهر النص بأن فهمه وحده هو الفهم الموافق لسنة الحبيب ﷺ وما سواه غير موافق لها - مع كل تطورات حياتنا العصرية - فهو ظلمٌ بيّنٌ لسنة الحبيب ﷺ، وفهمٌ خاطئٌ لا يتسق والمقاصد العليا للتشريع من الحرص على أعلى درجات النظافة والجمال والأخذ بكل سبل التحضر والرقي؛ ما دامت في إطار المباح الذي لا حرمة فيه، من منطلق قاعدة أن الأصل في الأمور الإباحة ما لم يرد نصٌّ بالتحريم، فعَنْ أَبِي ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ الله عَزَّوَجَلَّ فَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا، وَحَرَّمَ حُرُمَاتٍ فَلَا تَنْتَهِكُوهَا، وَحَدَّ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ غَيْرِ نِسْيَانٍ فَلَا تَبْحَثُوا عَنْهَا» [٩٤]، وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: «كَانَ أَهْلُ الجَاهِلِيَّةِ يَأْكُلُونَ أَشْيَاءَ وَيَتْرُكُونَ أَشْيَاءَ تَقَذُّرًا، فَبَعَثَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ نَبِيَّهُ ﷺ وَأَنْزَلَ كِتَابَهُ، وَأَحَلَّ حَلالَهُ، وَحَرَّمَ حَرَامَهُ، فَمَا أَحَلَّ فَهُوَ حَلالٌ، وَمَا حَرَّمَ فَهُوَ حَرَامٌ، وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ عَفْوٌ، وتَلَا هَذِهِ الآيَةَ: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ﴾ [الأنعام: ١٤٥]» [٩٥].

(٣) **فهم أحاديث إسبال الثوب**:

- عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «لا يَنْظُرُ الله إِلَى مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلَاءَ» [٩٦].

- وعن عَبْدِ الله بْن عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ مَخِيلَةً لَمْ يَنْظُرِ الله إِلَيْهِ يَوْمَ القِيَامَةِ»، فَقُلْتُ لِمُحَارِبٍ: أَذَكَرَ

إِزَارَهُ؟ قَالَ: مَا خَصَّ إِزَارًا وَلاَ قَمِيصًا»[97].

- وعَنْ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلاَءَ، لَمْ يَنظُرِ الله إِلَيْهِ يَوْمَ القِيَامَةِ»، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّ أَحَدَ شِقَّيْ ثَوْبِي يَسْتَرْخِي، إِلَّا أَنْ أَتَعَاهَدَ ذَلِكَ مِنْهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّكَ لَسْتَ تَصْنَعُ ذَلِكَ خُيَلاَءَ»، قَالَ مُوسَى: فَقُلْتُ لِسَالِمٍ: أَذَكَرَ عَبْدُ الله: «مَنْ جَرَّ إِزَارَهُ؟» قَالَ: لَمْ أَسْمَعْهُ ذَكَرَ إِلَّا ثَوْبَهُ»[98].

- وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا يَجُرُّ إِزَارَهُ، فَقَالَ: مِمَّنْ أَنْتَ؟ فَانْتَسَبَ لَهُ، فَإِذَا رَجُلٌ مِنْ بَنِي لَيْثٍ، فَعَرَفَهُ ابْنُ عُمَرَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ بِأُذُنَيَّ هَاتَيْنِ، يَقُولُ: «مَنْ جَرَّ إِزَارَهُ لَا يُرِيدُ بِذَلِكَ إِلَّا المَخِيلَةَ، فَإِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَيْهِ يَوْمَ القِيَامَةِ»[99].

- وعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»، قَالَ: فَقَرَأَهَا رَسُولُ الله ﷺ ثَلَاثَ مِرَارًا، قَالَ أَبُو ذَرٍّ: خَابُوا وَخَسِرُوا، مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «المُسْبِلُ، وَالمَنَّانُ، وَالمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالحَلِفِ الكَاذِبِ»[100].

- وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا أَسْفَلَ مِنَ الكَعْبَيْنِ مِنَ الإِزَارِ فَفِي النَّارِ»[101].

وبالنظر في الأحاديث سالفة الذكر نؤكد أن العلة التي بُني عليها النهي عن طول الثياب هي الخيلاء، التي تعني: الكبر والبطر والاستعلاء والتكبر على خلق الله عَزَّوَجَلَّ مباهاة ومفاخرة بطول الثياب الذي كان يُعَدُّ آنذاك مظهرًا من مظاهر الثراء والسعة، بل إن رواية «لا يريد بذلك إلا المخيلة» قد حصرت النهي في الكبر والبطر، فمتى وجدت الخيلاء كان النهي والتحريم، ومتى زالت الخيلاء زالت علة النهي والتحريم، وقد ذكرت هذه العلة صراحة في الأحاديث: الأول والثاني والثالث والرابع.

أما حديث «مَا أَسْفَلَ مِنَ الكَعْبَيْنِ مِنَ الإِزَارِ فَفِي النَّارِ»، وحديث ذكر المسبل في الثلاثة الذين لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم



يوم القيامة، فكل منهما حديث مطلق، وإذا اجتمع المطلق مع المقيد يحمل المطلق على المقيد، وما دام التقييد قد ورد في أحاديث أخرى تؤكد أن النهي عن الإسبال متعلق بالخيلاء؛ كانت هذه هي علة النهي والإثم، لا مجرد طول الثياب.

وذكر الإمام النووي[102] رَحِمَهُ اللَّهُ أن التَّقييد بالجرِّ خيلاء: يخصِّص عموم المسبل إزاره، ويدلُّ على أنَّ المراد بالوعيد مَن جرّه خيلاء، وقد رخَّص النَّبيُّ ﷺ في ذلك لأبي بكر الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقال: لست منهم يا أبا بكر؛ إذ كان جرّه لغير الخيلاء[103].

وقال ابن حجر[104] رَحِمَهُ اللَّهُ: استدل بالتقييد في هذه الأحاديث بالخيلاء على أن الإطلاق في الزجر الوارد في ذم الإسبال محمول على المقيد هنا، فلا حرم الجر والإسبال إذا سلم من الخيلاء[105].

وقال الحافظ العراقي[106] رَحِمَهُ اللَّهُ: وأما الأحاديث المطلقة بأن ما تحت الكعبين في النار فالمراد به ما كان للخيلاء؛ لأنه مطلق، فوجب حمله على المقيد[107].

وقال الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ: فلا بد من حمل قوله: «فإنها المخيلة» في حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على أنه خرج مخرج الغالب، فيكون الوعيد المذكور في حديث الباب متوجهًا إلى من فعل ذلك اختيالًا، والقول بأن كل إسبال من المخيلة أخذًا بظاهر حديث جابر تردُّه الضرورة، ويردُّه قوله ﷺ لأبي بكر: «إِنَّكَ لَسْتَ مِمَّنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ خُيَلَاءَ»[108].

وروي أن أبا حنيفة[109] رَحِمَهُ اللَّهُ ارتدى رداءً ثمينًا قيمته أربعمائة دينار، وكان يجره على الأرض فقيل له: أو لسنا نُهينا عن هذا؟ فقال: إنما ذلك لذوي الخيلاء، ولسنا منهم[110].

وبما أننا أكدنا وما زلنا نؤكد أن أمر اللباس من قبيل العادات وليس من قبيل العبادات، فالعلة في النهي مبنية على الكبر والبطر والخيلاء، فمتى وجد أي منها كان النهي منصبًّا عليه، ومتى زالت هذه العلل زال النهي، مع تأكيدنا على ضرورة مراعاة ما يقتضيه الذوق العام، والحفاظ على نظافة

الثوب من أن يؤدي جرُّه إلى حمل النجاسات ونحوها.

(٤) فهم أحاديث صدقة الفطر:

- عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «فَرَضَ رَسُولُ الله ﷺ زَكَاةَ الفِطْرِ صَاعًا مِنْ تَمْرٍ، أَوْ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ عَلَى العَبْدِ وَالحُرِّ، وَالذَّكَرِ وَالأُنْثَى، وَالصَّغِيرِ وَالكَبِيرِ مِنَ المُسْلِمِينَ، وَأَمَرَ بِهَا أَنْ تُؤَدَّى قَبْلَ خُرُوجِ النَّاسِ إِلَى الصَّلَاةِ»[111].

- وعن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كُنَّا نُخْرِجُ زَكَاةَ الفِطْرِ صَاعًا مِنْ طَعَامٍ، أَوْ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ، أَوْ صَاعًا مِنْ تَمْرٍ، أَوْ صَاعًا مِنْ أَقِطٍ، أَوْ صَاعًا مِنْ زَبِيبٍ»[112].

- وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ مُنَادِيًا فِي فِجَاجِ مَكَّةَ: أَلَا إِنَّ صَدَقَةَ الفِطْرِ وَاجِبَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى، حُرٍّ أَوْ عَبْدٍ، صَغِيرٍ أَوْ كَبِيرٍ، مُدَّانِ مِنْ قَمْحٍ، أَوْ سِوَاهُ صَاعٌ مِنْ طَعَامٍ»، وفي نسخة: «مُدَّان من البـر»[113].

- وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «فَرَضَ رَسُولُ الله ﷺ زَكَاةَ الفِطْرِ طُهْرَةً لِلصَّائِمِ مِنَ اللَّغْوِ وَالرَّفَثِ، وَطُعْمَةً لِلْمَسَاكِينِ، فَمَنْ أَدَّاهَا قَبْلَ الصَّلَاةِ فَهِيَ زَكَاةٌ مَقْبُولَةٌ، وَمَنْ أَدَّاهَا بَعْدَ الصَّلَاةِ فَهِيَ صَدَقَةٌ مِنَ الصَّدَقَاتِ»[114].

- وعَنْ نَافِعٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: فَرَضَ النَّبِيُّ ﷺ صَدَقَةَ الفِطْرِ - أَوْ قَالَ: رَمَضَانَ - عَلَى الذَّكَرِ وَالأُنْثَى، وَالحُرِّ وَالمَمْلُوكِ صَاعًا مِنْ تَمْرٍ، أَوْ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ، فَعَدَلَ النَّاسُ بِهِ نِصْفَ صَاعٍ مِنْ بُرٍّ، فَكَانَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، يُعْطِي التَّمْرَ، فَأَعْوَزَ أَهْلُ المَدِينَةِ مِنَ التَّمْرِ، فَأَعْطَى شَعِيرًا، فَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يُعْطِي عَنِ الصَّغِيرِ وَالكَبِيرِ، حَتَّى إِنْ كَانَ لِيُعْطِي عَنْ بَنِيَّ، وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يُعْطِيهَا الَّذِينَ يَقْبَلُونَهَا، وَكَانُوا يُعْطُونَ قَبْلَ الفِطْرِ بِيَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ[115].

- وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا نُعْطِيهَا فِي زَمَانِ النَّبِيِّ ﷺ صَاعًا مِنْ طَعَامٍ، أَوْ صَاعًا مِنْ تَمْرٍ، أَوْ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ، أَوْ صَاعًا مِنْ زَبِيبٍ، فَلَمَّا جَاءَ مُعَاوِيَةُ وَجَاءَتِ السَّمْرَاءُ، قَالَ: أُرَى مُدًّا مِنْ هَذَا يَعْدِلُ مُدَّيْنِ، والسمراء الحنطة[116].



- وفي رواية مسلم عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كُنَّا نُخْرِجُ إِذْ كَانَ فِينَا رَسُولُ الله ﷺ زَكَاةَ الفِطْرِ، عَنْ كُلِّ صَغِيرٍ، وَكَبِيرٍ، حُرٍّ أَوْ مَمْلُوكٍ، صَاعًا مِنْ طَعَامٍ، أَوْ صَاعًا مِنْ أَقِطٍ، أَوْ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ، أَوْ صَاعًا مِنْ تَمْرٍ، أَوْ صَاعًا مِنْ زَبِيبٍ، فَلَمْ نَزَلْ نُخْرِجُهُ حَتَّى قَدِمَ عَلَيْنَا مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ حَاجًّا أَوْ مُعْتَمِرًا، فَكَلَّمَ النَّاسَ عَلَى المِنْبَرِ، فَكَانَ فِيمَا كَلَّمَ بِهِ النَّاسَ أَنْ قَالَ: «إِنِّي أَرَى أَنَّ مُدَّيْنِ مِنْ سَمْرَاءِ الشَّامِ، تَعْدِلُ صَاعًا مِنْ تَمْرٍ»، فَأَخَذَ النَّاسُ بِذَلِكَ»(١١٧).

وفي لفظ: «كُنَّا نُخْرِجُ زَكَاةَ الفِطْرِ وَرَسُولُ الله ﷺ فِينَا، عَنْ كُلِّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ، حُرٍّ وَمَمْلُوكٍ، مِنْ ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ: صَاعًا مِنْ تَمْرٍ، صَاعًا مِنْ أَقِطٍ، صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ»، فَلَمْ نَزَلْ نُخْرِجُهُ كَذَلِكَ، حَتَّى كَانَ مُعَاوِيَةُ: «فَرَأَى أَنَّ مُدَّيْنِ مِنْ بُرٍّ تَعْدِلُ صَاعًا مِنْ تَمْرٍ»(١١٨).

- وروى الإمام البخاري في صحيحه عن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال لأهل اليمن: «ائْتُونِي بِعَرْضٍ ثِيَابٍ خَمِيصٍ - أَوْ لَبِيسٍ - فِي الصَّدَقَةِ مَكَانَ الشَّعِيرِ وَالذُّرَةِ أَهْوَنُ عَلَيْكُمْ وَخَيْرٌ لِأَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ بِالمَدِينَةِ»(١١٩).

والأصل في الصدقة إغناء الفقير وتحقيق صالحه، وإذا كان أهل العلم يؤكدون أنه حيث تكون المصلحة فثمة شرع الله، فقياسًا عليه حيث تكون مصلحة الفقير في صدقة الفطر تكون الأفضلية، فلو كان حال الآخذ وظروف الزمان تجعل الأولوية للطعام فذاك، وإن كان حال الفقير وظروف الزمان تجعل المصلحة في القيمة أو النقد فذلك.

وهذا سيدنا معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يجعل نصف صاع «مُدَّيْن» من الحنطة عدل صاع من التمر، فيجعل القيمة أساسًا في إخراج الصدقة، ولو لم تكن القيمة معتبرة عنده لما جعل نصف صاع الحنطة عدل صاع التمر ومقابلًا له وكافيًا عنه.

وهذا سيدنا معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يراعي مصلحة المعطي والآخذ معًا، فيقبل من أهل اليمن الثياب بدل الذرة والشعير، ويعقب بقوله: ذلك أيسر لكم وأنفع لأصحاب رسول الله ﷺ بالمدينة، فراعى المصلحة

المعتبرة والمقصد الأسمى، وهو مَنْ هو بين الصحابة (رضوان الله تعالى عليهم) في الرأي والعلم والاجتهاد والنظر.

وكان أبو يوسف[120] صاحب أبي حنيفة (رحمهما الله) يقول: الدقيق أحب إليَّ من الحنطة، والدرهم أحب إليّ من الدقيق والحنطة؛ لأن ذلك أقرب إلى دفع حاجة الفقير[121].

وقد نصَّ الفقهاء على إخراج زكاة الفطر من غالب قوت البلد، وقد يكون غالب قوت البلد من غير الأصناف المنصوص عليها في الحديث، فبعض البلاد غالب قوتها القمح، وبعضها غالب قوتها الذرة، وبعضها غالب قوتها الأرز، فإقرار الفقهاء لغالب قوت البلد إنما هو للتيسير على مخرج الزكاة ومراعاة مصلحة الفقير في آنٍ واحد، على نحو قول سيدنا معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لأهل اليمن: ذلك أيسر لكم وأنفع لأصحاب رسول الله ﷺ بالمدينة.

ومن يتأمَّل الواقع في زماننا ومكاننا وعصرنا يرى أن إخراج القيمة في الغالب الأعم هو الأكثر نفعًا للفقير؛ من حيث سعة التصرف في النقد، وهو أدرى الناس باحتياجه ومتطلباته، كما أن الزكاة إذا جمعها الفقير حَبًّا - أرزًا أو برًّا أو شعيرًا - غالبًا ما يلجأ إلى بيع هذه السلع بنصف قيمتها أو أقل أحيانًا، وهو ما ينعكس سلبًا على مصلحة الفقير، ورؤيتنا أن القيمة أنفع للفقير في زماننا هذا، وعلى ذلك فإننا لا ننكر على من أخرج زكاة فطره من الأصناف المنصوص عليها في حديث النبي ﷺ، وعلى من أخرج أنواعًا أخرى من الطعام أو الحبوب قياسًا على فعل سيدنا معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وإقرار جمهور الصحابة له، ولا على من أخرج القيمة، فالأمر على السعة، فلا إنكار في المختلف فيه بين أهل العلم المعتبرين، والقاعدة: «إنما يُنكَر المتفق عليه ولا ينكر المختلف فيه».

(٥) فهم أحاديث الأضحية:

- عن سلمة بن الأكوع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «مَنْ ضَحَّى مِنْكُمْ فَلاَ يُصْبِحَنَّ بَعْدَ ثَالِثَةٍ وَبَقِيَ فِي بَيْتِهِ مِنْهُ شَيْءٌ»، فَلَمَّا كَانَ العَامُ المُقْبِلُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، نَفْعَلُ كَمَا فَعَلْنَا

عَامَ المَاضِي؟ قَالَ: «كُلُوا وَأَطْعِمُوا وَادَّخِرُوا، فَإِنَّ ذَلِكَ العَامَ كَانَ بِالنَّاسِ جَهْدٌ، فَأَرَدْتُ أَنْ تُعِينُوا فِيهَا»[122].

- وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا تَأْكُلُوا لُحُومَ الأَضَاحِيِّ فَوْقَ ثَلَاثٍ»، فَشَكَوْا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّ لَهُمْ عِيَالًا، وَحَشَمًا، وَخَدَمًا، فَقَالَ: «كُلُوا، وَأَطْعِمُوا، وَاحْبِسُوا، أَوْ ادَّخِرُوا»[123].

- وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ وَاقِدٍ قَالَ: «نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ أَكْلِ لُحُومِ الضَّحَايَا بَعْدَ ثَلَاثٍ»، قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ: فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعَمْرَةَ، فَقَالَتْ: صَدَقَ، سَمِعْتُ عَائِشَةَ تَقُولُ: دَفَّ[124] أَهْلُ أَبْيَاتٍ مِنْ أَهْلِ البَادِيَةِ حَضْرَةَ الأَضْحَى زَمَنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ادَّخِرُوا ثَلَاثًا، ثُمَّ تَصَدَّقُوا بِمَا بَقِيَ»، فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ النَّاسَ يَتَّخِذُونَ الأَسْقِيَةَ مِنْ ضَحَايَاهُمْ، وَيَجْمُلُونَ[125] مِنْهَا الوَدَكَ[126]، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَمَا ذَاكَ؟»، قَالُوا: نَهَيْتَ أَنْ تُؤْكَلَ لُحُومُ الضَّحَايَا بَعْدَ ثَلَاثٍ، فَقَالَ: «إِنَّمَا نَهَيْتُكُمْ مِنْ أَجْلِ الدَّافَّةِ الَّتِي دَفَّتْ، فَكُلُوا وَادَّخِرُوا وَتَصَدَّقُوا»[127].

- وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ قال: «لَا يَأْكُلُ أَحَدُكُمْ مِنْ لَحْمِ أُضْحِيَتِهِ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ»[128].

ومن خلال قراءتنا لسياق هذه الأحاديث ومناسبة كل منها يتضح لنا أن حديث «كُلُوا وتصدَّقوا وَادَّخِرُوا»، وحديث «لا تَأْكُلُوا لُحُومَ الأَضَاحِي فَوْقَ ثَلَاثٍ»؛ لم ينسخ أي منهما الآخر، إنما كان كل منهما في حال معين؛ فحيث يكون الرخاء والسعة يكون العمل بقوله ﷺ: «كُلُوا وَتَصَدَّقُوا وَادَّخِرُوا»، وحيث يكون بالناس جهد وحاجة، أو شدة وفاقة؛ يكون العمل بقوله ﷺ: «لَا يَأْكُلْ أَحَدُكُمْ مِنْ أُضْحِيتِهِ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ»؛ ذلك أنه لما نهاهم ﷺ عن الأكل فوق ثلاث سألوه في العام الذي يليه، يا رسول الله، كنت نهيتنا أن نأكل من الأضحية فوق ثلاث، فقال ﷺ: «كُلُوا وَأَطْعِمُوا وَادَّخِرُوا، فَإِنَّ ذَلِكَ العَامَ كَانَ بِالنَّاسِ جهدٌ فأردتُ أَنْ تعينُوا فِيها».

وأكثر الناس إنما يحفظون أو يفهمون أو يقفون عند قوله ﷺ: «كُلُوا وَأَطْعِمُوا وادَّخِرُوا»، وينظرون بما يشبه التقديس إلى أقوال بعض الفقهاء بتقسيم الأضحية إلى ثلاثة أقسام: ثلث للفقراء، وثلث للإهداء، وثلث للإنسان وأهله، على أن هذا التقسيم هو عملية تقريبية للتصرف، وكان القصد منه ألا يجور المضحي على نصيب الفقراء، وأن يخصهم ولو بالثلث في أضحيته، فمن زاد زاده الله فضلًا.

ويغفل كثير من الناس عن أن نبينا ﷺ لما رأى بالناس فاقة قال لهم: «مَنْ ضَحَّى مِنْكُمْ فلا يُصْبِحَنَّ بعدَ ثالثةٍ وفي بيتِهِ منهُ شيءٌ، فلمَّا كانَ العامُ المُقْبِلُ قالوا: يا رسولَ الله، نفعَلُ كما فَعَلْنا العامَ الماضيَ؟ قالَ: كُلوا، وأَطْعِموا، وادَّخِروا؛ فإِنَّ ذلكَ العامَ كانَ بالنَّاسِ جَهْدٌ، فأَرَدْتُ أنْ تُعينوا فيها»، فحيث يكون الرخاء والسعة يكون العمل بقوله ﷺ: «كُلُوا وتَصَدَّقُوا وَادَّخِرُوا»، وحيث يكون بالناس جهد وحاجة أو شدة وفاقة يكون العمل بقوله ﷺ: «مَنْ ضَحَّى مِنكُمْ فَلَا يُصْبِحَنَّ بَعْدَ ثالثةٍ وَفِي بَيْتِهِ مِنْهُ شَيءٌ».

على أننا نؤكد على أهمية التوسعة على الفقراء والمحتاجين وإكرامهم بالنصيب الأوفر من الأضحية، فعندما سأل نبيُّنا ﷺ السيدةَ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حين ذبحوا شاة، فقال لها: «مَا بَقِيَ مِنْهَا؟»، قالت: مَا بَقِيَ مِنْهَا إِلَّا كَتِفُها، قَالَ ﷺ: «بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرَ كَتِفِهَا»[129]، فالذي يُعطى ويُتصدَّق به هو الذي يُدخر للإنسان ويجده؛ حيث يقول الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦].

وقد حثنا نبينا ﷺ على التوسعة على الفقراء والمساكين في أيام العيد، فقال ﷺ: «أغنوهم في هذا اليوم»[130]، أي: أعطوهم ووسعوا عليهم ولا تضطروا أحدًا منهم أو تحوجوه إلى السؤال في هذا اليوم، فالنعم تزيد بالشكر، وتزول بالجحود والكفران؛ حيث يقول الحق سبحانه: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]، ويقول تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨]، ويقول نبينا ﷺ: «مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ العِبَادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللهمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الآخَرُ: اللهمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا»(١٣١)، ويقول ﷺ: «إِنَّ لله عِنْدَ أَقْوَامٍ نِعَمًا يُقِرُّهَا عِنْدَهُمْ مَا كَانُوا فِي حَوَائِجِ النَّاسِ، مَا لَمْ يَمَلُّوهُمْ، فَإِذَا مَلُّوهُمْ نَقَلَهَا مِنْ عِنْدِهِمْ إِلَى غَيْرِهِمْ»(١٣٢).

(٦) **فهم أحاديث القيام**:

- عن معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «مَنْ أَحَبَّ أن يَمْثُلَ له الرِّجَالُ قِيامًا، فَلْيَتَبَوَّأْ مقعدَه مِن النَّارِ»(١٣٣).

- وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَمْثُلَ لَهُ عِبَادُ الله قِيَامًا فَلْيَتَبَوَّأْ بَيْتًا مِنَ النَّارِ»(١٣٤).

- وعن أبي أُمامةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خَرَجَ علينا رسولُ الله ﷺ متوكئًا على عَصًا، فَقُمْنَا إليه، فقال: «لا تَقُومُوا كما تَقُومُ الأعَاجِمُ، يُعَظِّمُ بعضُها بعضًا»(١٣٥).

- وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ أَهْلَ قُرَيْظَةَ نَزَلُوا عَلَى حُكْمِ سَعْدِ بن معاذ، فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِ فَجَاءَ، فَقَالَ: «قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ، أَوْ قَالَ: خَيْرِكُمْ، فقعد عند النبي ﷺ، فقال: هؤلاء نزلوا على حكمك، قال: فإني أحكم أن تقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم، فقال: لقد حكمت بما حكم به الملك»(١٣٦).

- وعَنِ أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ كَانُوا إِذَا تلاقوا تَصَافَحُوا، وَإِذَا قَدِمُوا مِنْ سَفَرٍ تَعَانَقُوا»(١٣٧).

والذي نفهمه من هذه الأحاديث أن النهي عن القيام ليس مطلقًا، وإنما هو مقيد بالقيام تعظيمًا كما كانت تفعل الأعاجم، فالمنع حيث ورد يُحمل على القيام تعظيمًا، وهو ما صرحت به رواية «لَا تَقُومُوا كَمَا يَقُومُ الأَعاجِمُ يُعظِّمُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا»، وقد ترجم له الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه الأدب المفرد بقوله: «باب قيام الرجل للرجل تعظيمًا»، ومعروف أن تراجم البخاري فقه، وهو ما ترجم له أبو داود

أيضًا في سننه بقوله: باب الرجل يقوم للرجل يعظّمه بذلك.

ومما يؤكد أن القيام المنهي عنه هو قيام التعظيم وليس مطلق القيام قول النبي ﷺ: «قُومُوا إِلَى سَيِّدِكم»، يعني سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فلو كان القيام منهيًا عنه على إطلاقه لما قال النبي ﷺ: «قُومُوا إِلَى سَيِّدِكم»، ثم إن التعبير بقوله ﷺ: «مَنْ أَحبَّ أَنْ يَمْثُلَ لَهُ النَاسُ»، وقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ومن سره أن يمثل له الناس»، يشير إلى من كان يرى في نفسه من العظمة ما يستوجب قيام الناس له تعظيمًا وإجلالًا، لكن إن جاء قيام الناس له حبًّا وتقديرًا يقابله تواضع وخشوع وانكسار لله عَزَّوَجَلَّ فلا حرج فيه.

(٧) فهم حقيقة الزهد:

- عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ قَالَ: أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ إِذَا أَنَا عَمِلْتُهُ أَحَبَّنِي اللهُ وَأَحَبَّنِي النَّاسُ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللهُ، وَازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاس يُحِبُّوكَ»[١٣٨].

- وعَـنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ اللهُ بِمَا آتَاهُ»[١٣٩].

- وعَنْ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ الله ﷺ بِمَنْكِبِي، فَقَالَ: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ»، وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ: «إِذَا أَمْسَيْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ المَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ»[١٤٠].

- وعن عَبْد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «نَامَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى حَصِيرٍ فَقَامَ وَقَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ الله، لَوِ اتَّخَذْنَا لَكَ وِطَاءً؟ فَقَالَ: مَا لِي وَلِلدُّنْيَا، مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا»[١٤١].

فالزهد أمرٌ قلبيٌّ وليس أمرًا شكليًّا، وهو لا يعني أبدًا الانعزال عن الحياة، ولا ترك الأخذ بالأسباب والتقاعس عن عمارة الكون وصناعة الحياة، غير أن بعض الناس قد



يفهمون الزهد على غير وجهه الحقيقي؛ حيث يرتبط الزهد في أذهان بعضهم بجوانب شكلية لا علاقة لها بحقيقته، فيتوهمون خطأً أن الزهد رديف الفقر أو حتى الفقر المدقع، فالزاهد في تصور البعض شخص بالضرورة قليل المال، وربما قليل الحيلة، وربما رثّ الثياب أو مخرقها، صوته لا يكاد يبين، ويده لا تكاد تلامس مُصافحها، ثم تطور الأمر إلى سلبية أشد بهجر العمل، وربما ترك الدراسة العلمية أو عدم الاكتراث بها، والخروج من الدنيا بالكلية إلى عالم أقرب ما يكون إلى الخيالات الخاطئة منه إلى دنيا الواقع، في تعطيل مقيت وغريب وعجيب وشاذ للأسباب، مع أن ذلك كله شيء والزهد شيء آخر.

وقد قال أهل العلم: ليس الزاهد من لا مال عنده، إنما الزاهد من لم تشغل الدنيا قلبه ولو ملك مثل ما ملك قارون، وسئل الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أيكون الرجل زاهدًا وعنده ألف دينار؟ قال: نعم، إذا كان لا يفرح إذا زادت ولا يحزن إذا نقصت، ولذا كان من دعاء الصالحين: اللهم اجعل الدنيا في أيدينا لا في قلوبنا، وعن أبي ذر الغفاري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن ناسًا من أصحاب النبي ﷺ قالوا: يَا رَسُولَ الله ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالْأُجُورِ، يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ، قَالَ: أَوَ لَيْسَ قَدْ جَعَلَ الله لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ به؟ إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةً، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ، وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله: أَيَأتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ، قَالَ: أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ، فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجر»(١٤٢)، فلما سابقهم الأغنياء في التسبيح والتهليل والتكبير، وكلموا رسول الله ﷺ في ذلك قال لهم ﷺ: «ذَلِكَ فَضْلُ الله يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ»(١٤٣).

ما أجمل الدينَ وَالدُّنيا إذا اجتَمَعا
وَأَقبحَ الكُفرَ وَالإفلاسَ بِالرَّجُلِ(١٤٤)

ولا شك أن النظرة الخاطئة للزهد جرّت إلى السلبية والاتكالية والبطالة والكسل والتواكل والتخلف عن ركب الأمم، مع أن

ديننا هو دين العمل والإنتاج والإتقان والأخذ بالأسباب، يقول نبينا ﷺ: «لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى الله حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا»(١٤٥)، فهي تغدو وتروح ضربًا في الأرض وأخذًا بالأسباب.

وقد جمع القرآن الكريم بين من يضربون في الأرض أخذًا بالأسباب ومن يجاهدون في سبيله سبحانه، فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ [المزمل: ٢٠]، ويقول نبينا ﷺ: «السَّاعِي عَلَى الأَرْمَلَةِ وَالمِسْكِينِ، كَالمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ الله، أَوِ القَائِمِ اللَّيْلَ الصَّائِمِ النَّهَارَ»(١٤٦)، ولما رأى أصحاب النبي ﷺ رجلًا قويًّا جلدًا، ورأوا من جلده ونشاطه ما أعجبهم، فقالوا: يَا رَسُولَ الله، لَوْ كَانَ هَذَا فِي سَبِيلِ الله، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنْ كَانَ يَسْعَى عَلَى وَلَدِهِ صِغَارًا فَهُوَ فِي سَبِيلِ الله، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى أَبَوَيْنِ شَيْخَيْنِ كَبِيرَيْنِ فَفِي سَبِيلِ الله، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى نَفْسِهِ لِيُعِفَّهَا فَفِي سَبِيلِ الله، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى أَهْلِهِ فَفِي سَبِيلِ الله، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى تَفَاخُرًا وَتَكَاثُرًا فَفِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ»(١٤٧).

فالإسلام قائمٌ على التوازن بين حاجة الروح وحاجة الجسد؛ حيث يقول الحق سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الجمعة: ٩]، وَكَانَ سيدنا عِرَاكُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِذَا صَلَّى الْجُمُعَةَ انْصَرَفَ فَوَقَفَ عَلَى بَابِ المَسْجِدِ، فَقَالَ: «اللهمَّ إِنِّي أَجَبْتُ دَعْوَتَكَ، وَصَلَّيْتُ فَرِيضَتَكَ، وَانْتَشَرْتُ كَمَا أَمَرْتَنِي، فَارْزُقْنِي مِنْ فَضْلِكَ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ»(١٤٨).

فالزهد الصحيح ليس قرينًا للفقر، بل قد يكون قرين الغنى، ليملك الإنسان ثم يزهد، فهو زهد الغني، وليس زهد المعدم، كما أن



الزهد لا يتنافى مع الأخذ بالأسباب، فالأخذ بالأسباب شيء والزهد شيء آخر، فهما يتكاملان ولا يتناقضان، وعندما قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ»، قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً، فقَالَ ﷺ: «إِنَّ الله جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ، الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ»(١٤٩).

(٨) فهم بعض أحاديث النكاح والنسل:

- يقول نبينا ﷺ: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ البَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ؛ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ؛ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ»(١٥٠).

- ويقول ﷺ: «تَزَوَّجُوا الوَلُودَ الوَدُودَ فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمْ»(١٥١).

ففي قوله ﷺ: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ البَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ...» نلحظ أن النبي ﷺ اشترط الباءة التي تشمل القدرة على الإنفاق وتحمل تبعات بناء الأسرة كشرط للزواج، ومن باب أولى فهي شرط للإنجاب، فما بالكم بالإنجاب المتعدد؟! ألم يقل النبي ﷺ: «كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يقوت»(١٥٢).

ولو لم تكن الباءة المقصودة متضمنة القدرة على القيام بجميع تبعات الزواج المالية والاجتماعية، لما قال ﷺ: «وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ»؛ إذ لو كان الاعتبار بالقوة الجسدية وحدها لاكتفى بقوله ﷺ: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ البَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ»، ولما كان هناك حاجة إلى التكميل والتتميم بقوله ﷺ: «وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ».

أما قوله ﷺ: «تَزَوَّجُوا الوَلُودَ الوَدُودَ فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمْ»؛ فيتوجه المعنى إلى الكثرة النافعة المنتجة القوية التي يقول فيها سيدنا رسول الله ﷺ: «الْمُؤْمِنُ القَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى الله مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ»(١٥٣)، وهذه القوة التي تشمل سائر جوانب القوة - في الفكر، والثقافة، والمستوى الإيماني، والتعليمي، والاقتصادي، والعسكري، مع الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ في القول والعمل - هي مناط وموضع المباهاة.

أما الكثرة التي تورث الضعف، أو الجهل، أو التخلف عن ركب الحضارة، والتي تكون عبئًا ثقيلًا لا تحتمله ولا يمكن أن تحتمله أو تفي بمتطلباته موارد الدولة وإمكاناتها، فهي الكثرة التي وصفها نبينا ﷺ بأنها كثرة كغثاء السيل، لا غناء منها ولا نفع فيها، فهي كثرة تضر ولا تنفع.

وهذا كله إضافة إلى حقوق الطفل في الرعاية والإرضاع؛ حيث يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، وهذا الإرضاع حقٌّ للطفل، لدرجة أن بعض الفقهاء أطلقوا على اللبن الذي يرضعه الطفل من أم حامل «لبن الغِيلَة»، وكأن أحد الطفلين اغتال حق أخيه أو أن كلًّا منهما قد اغتال جزءًا من حق أخيه.

وكذلك حقه في التربية السوية، وفي المطعم والملبس والصحة والتعليم، أما التقصير في حق الأبناء وعدم الوفاء بواجباتهم في التربية فيعدُّ ظلمًا لهم، والنبي ﷺ يوضح لنا أننا مسئولون عن أبنائنا الذين هم أمانة في أعناقنا، فيقول تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: «كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَعُولُ»(١٠٠)، ويقول ﷺ: «كُلُّكُمْ راعٍ، وكُلُّكُمْ مسئولٌ عَنْ رعِيَّتِهِ، والأَمِيرُ رَاعٍ، والرَّجُلُ راعٍ علَى أَهْلِ بَيْتِهِ، والمرْأَةُ راعِيةٌ عَلَى بيْتِ زَوْجِها وولَدِهِ، فَكُلُّكُمْ راعٍ، وكُلُّكُمْ مسئولٌ عنْ رعِيَّتِهِ»(١٠١).

ولا يجب أن يقتصر تناولنا لهذه القضية على الجوانب الاقتصادية، إنما يجب أن يبرز إلى جانب هذه الآثار الاقتصادية كل الآثار الصحية والنفسية والأسرية والمجتمعية التي يمكن أن تنعكس على حياة الأطفال والأبوين والأسرة كلها، ثم المجتمع، فالدولة، فالزيادة السكانية غير المنضبطة لا ينعكس أثرها على الفرد أو الأسرة فحسب، إنما قد تشكل ضررًا بالغًا للدول التي لا تأخذ بأسباب العلم في معالجة قضاياها السكانية، مع تأكيدنا على أن السعة والضيق في هذه القضية لا تقاس بمقاييس الأفراد بمعزل عن أحوال الدول، وإمكاناتها، وما تستطيع أن توفره من خدمات



لا غنى عنها في مجالات الصحة والتعليم والإسكان والطرق والمرافق العامة التي تفي باحتياجات الزيادة السكانية المطردة.

على أن الأحكام في هذه القضية يجب أن تراعي طبيعة الزمان والمكان والحال وظروف كل دولة أو مجتمع على حدة، فلا نطلق أحكامًا عامة، ففي الوقت الذي قد تحتاج فيه بعض الدول إلى أيدٍ عاملة ولديها من فرص العمل ومن المقومات والإمكانات وامتداد المساحة وسعة الموارد الكثير، يكون الإنجاب مطلبًا، وتكون الكثرة كثرة نافعة ومدعاة للتفاخر والمباهاة، أما في الظروف التي تمر بها بعض الدول في ظل أوضاع لا تمكنها من توفير المقومات الأساسية من الصحة والتعليم والبنى التحتية في حالة الكثرة غير المنضبطة، وبما يؤدي إلى أن تكون كثرة كغثاء السيل، فإن أي عاقل يدرك أنه إذا تعارض الكيف والكم فإن العبرة تكون بالكيف لا بالكم، وهنا تكون القلة القوية خيرًا ألف مرة ومرة من الكثرة الضعيفة.

(٩) فهم حديث: «مَنْ سلكَ طَرِيقا يَطلُبُ فيهِ عِلماً سلكَ اللهُ بِهِ طَرِيقا مِنْ طُرُقِ الجنةِ»:

- يقول نبينا ﷺ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ الله بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَالْحِيتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ، كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ»[١٠٦].

فالمراد بالعلم مطلق العلم النافع، وليس التفقه في العلوم الشرعية فحسب، فقد جاءت كلمة «علمًا» نكرة لإفادة العموم والشمول.

والمراد بالعلم النافع كل ما يحمل نفعًا للناس في شئون دينهم، وشئون دنياهم، في العلوم الشرعية أو العربية، أو علم الطب، أو الصيدلة، أو الفيزياء، أو الكيمياء، أو الفلك، أو الهندسة، أو الميكانيكا، أو الطاقة، وسائر

العلوم والمعارف، وأرى أن قوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩]، وقوله جلّ وعلا: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، أعم من أن نحصر أيًا منهما أو نقتصره على علم الشريعة وحده، فالأمر متسعٌ لكل علم نافع، والمراد بأهل الذكر أهل الاختصاص، كلٌّ في مجاله وميدانه.

فقيمة العلم إنما تشمل التفوق في كل العلوم التي تنفع الناس في شئون دينهم أو شئون دنياهم، ولذا نرى أن قول الله جل شأنه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، جاء في معرض الحديث عن العلوم الكونية؛ حيث يقول سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٧- ٢٨]، ويقول تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠- ١٩١].

ويقول الحق تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]، فإذا كان المطلوب هو أن ينفر نفرٌ أو جماعةٌ من كل فرقة ليتفقهوا في علوم الدين، ويبينوا لقومهم حكمه وأحكامه، مبشرين لهم ومنذرين لعلهم يحذرون ويتقون؛ فإن على الباقين من أهل هذه الفرقة أن ينفروا أيضًا فيما ينفع البلاد والعباد، فتنفر جماعة لطلب الطب، وأخرى لطلب الهندسة، وثالثة للعمل بالزراعة، ورابعة للعمل في الصناعة، وخامسة للاشتغال بالتجارة، وهكذا في سائر الفنون والحرف والصناعات.

ومما لا شك فيه أننا في حاجة إلى جميع العلوم التي نعمِّر بها دنيانا، ونحقق بها



اكتفاءنا الذاتي في جميع جوانب حياتنا، ونؤدي من خلالها رسالتنا في عمارة الكون وبناء الحضارات، كما أننا في حاجة إلى العلوم التي يستقيم بها أمر ديننا، ونخلصه بها من أباطيل وضلالات الأفكار الضالة والمنحرفة.

من مهارات التواصل الدعوي في السنة النبوية المشرفة

لقد ضرب لنا نبينا ﷺ أعظم المثل في استخدام مهارات التواصل الدعوي بمختلف أنواعها، حتى وإن لم يسمها بذلك، أو لم تعرف في زمانه ﷺ بهذا الاسم، فقد أداها بما آتاه الله عَزَّوَجَلَّ وعلمه إياه من البلاغة والفصاحة والبيان، وما آتاه من جوامع الكلم وأدواته ووسائله، ومع ذلك كله حرص ﷺ على التنوع في الأسلوب واستخدام سائر مهارات التواصل الدعوي للنفاذ إلى عقل المتلقي وقلبه، وإثارة اهتمامه وانتباهه، وإيقاظ مشاعره، ومن هذه المهارات ما يلي:

١- مهارات لغة الجسد الرصينة المتزنة، كتغيير وضع الجسد لإثارة الانتباه، ومن ذلك قوله ﷺ: «أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ؟»، قُلْنَا: بَلَى يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «الإِشْرَاكُ بِالله، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ»، وَكَانَ مُتَّكِئًا فَجَلَسَ، فَقَالَ: «أَلا وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ، أَلا وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ»، فَمَا زَالَ يَقُولُهَا حَتَّى قُلْتُ: لا يَسْكُتُ(١٠٧).

فلا شك أن تغيير النبي ﷺ وضعه من الاتكاء إلى الجلوس كان على سبيل إثارة انتباه السامع والمتلقي إلى أهمية ما سيلقي من الكلام، وأن له خصوصية اقتضت تغيير النبي ﷺ لوضع جسده الشريف من الاتكاء إلى الجلوس، تأكيدًا على خطورة وأهمية ما سيذكر بعده من النهي عن قول الزور؛ لما يترتب عليه من الظلم وضياع الحقوق، والتحذير من خطورة الوقوع فيه ومغبته وسوء عاقبته.

ومنها: الإشارة إلى القلب؛ حيث يقول ﷺ: «إِنَّ الله لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ، وَلَا إِلَى صُوَرِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ»، وَأَشَارَ بِأَصَابِعِهِ إِلَى صَدْرِهِ(١٠٨)، ويقول ﷺ: «لا تَحَاسَدُوا،

وَلا تَنَاجَشُوا، وَلا تَبَاغَضُوا، وَلا تَدَابَرُوا، وَلا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ الله إِخْوَانًا، المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ، لا يَظْلِمُهُ وَلا يَخْذُلُهُ وَلا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَا هُنَا»، وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، «بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ المُسْلِمَ، كُلُّ المُسْلِمِ عَلَى المُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ»(١٥٩).

ومنها: الإشارة ببعض أصابعه كالإشارة بالسبابة والوسطى؛ حيث يقول نبينا ﷺ: «أَنَا وَكَافِلُ اليَتِيمِ فِي الجَنَّةِ هَكَذَا»، وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالوُسْطَى، وَفَرَّجَ بَيْنَهُمَا شَيْئًا(١٦٠)»، وعن جابر ابن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَقُولُ: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ»، وَيَقْرُنُ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ والوُسْطَى(١٦١)، ويقول ﷺ: «مَنْ عَالَ جَارِيَتَيْنِ حَتَّى تَبْلُغَا جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ أَنَا وَهُوَ»، وَضَمَّ أَصَابِعَهُ(١٦٢).

ومنها: الإشارة إلى اللسان؛ حيث يقول ﷺ لأصحابه: «أَلا تَسْمَعُونَ إِنَّ الله لا يُعَذِّبُ بِدَمْعِ العَيْنِ وَلا بِحُزْنِ القَلْبِ وَلَكِنْ يُعَذِّبُ بِهَذَا - وَأَشَارَ إِلَى لِسَانِهِ - أَوْ يَرْحَمُ»(١٦٣).

وقد حرص نبينا ﷺ على تنويع أساليبه الدعوية، واستخدام سائر مهارات التواصل الدعوي، للنفاذ إلى عقل المتلقي وقلبه، وإثارة اهتمامه وانتباهه.

٢- استخدام لغة الأرقام للتحديد والحصر، أو التقريب الذهني، على حد قوله ﷺ: «ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلَّا لله، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»(١٦٤).

وقوله ﷺ: «آيَةُ المُنَافِقِ ثَلاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ»(١٦٥)، وقوله ﷺ: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْ نِفَاقٍ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»(١٦٦).

وقوله ﷺ: «بُنِيَ الإِسْلامُ عَلَى خَمْسٍ، شَهَادَةِ أَنْ لا إِلَهَ إِلا الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، وَإِقَامِ الصَّلاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، والحَجِّ، وَصَوْمِ

رَمَضَانَ»[١٦٧].

وقوله ﷺ: «اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ، شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغلكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ»[١٦٨].

وقوله ﷺ: «حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ»، قِيلَ: مَا هُنَّ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «إِذَا لَقِيتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، وَإِذَا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ، وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ، وَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ اللهَ فَشَمِّتْهُ، وَإِذَا مَرِضَ فَعُدْهُ، وَإِذَا مَاتَ فَاتَّبِعْهُ»[١٦٩].

وقوله ﷺ: «بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعًا، هَلْ تَنْظُرُونَ إِلَّا إِلَى فَقْرٍ مُنْسٍ، أَوْ غِنًى مُطْغٍ، أَوْ مَرَضٍ مُفْسِدٍ، أَوْ هَرَمٍ مُفَنِّدٍ، أَوْ مَوْتٍ مُجْهِزٍ، أَوِ الدَّجَّالِ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَوِ السَّاعَةِ، فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ»[١٧٠].

وقوله ﷺ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا هُنَّ؟ «قَالَ: الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ»[١٧١].

٣- استخدامه ﷺ للرسم التوضيحي كمهارة من مهارات التواصل، فعن ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَطَّ النَّبِيُّ ﷺ خَطًّا مُرَبَّعًا، وخَطَّ خَطًّا فِي الوَسَطِ خَارِجًا مِنْهُ، وَخَطَّ خُططًا صِغَارًا إِلَى هَذَا الَّذِي فِي الوَسَطِ مِنْ جَانِبِهِ الَّذِي فِي الوَسَطِ، فَقَالَ: هَذَا الإِنسَانُ، وَهَذَا أَجَلُهُ مُحِيطٌ بِهِ - أَوْ: قَد أَحَاطَ بِهِ - وَهَذَا الَّذِي هُوَ خَارِجٌ أَمَلُهُ، وَهَذِهِ الْخُطَطُ الصِّغَارُ الأَعْرَاضُ، فَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذا، وَإِنْ أَخْطَأَهُ هذا نَهَشَهُ هَذا»[١٧٢].

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أيضًا - قال: «خطَّ رسولُ الله ﷺ خطًّا بيدِه ثم قال: هذا سبيلُ الله مستقيمًا، وخطَّ خطوطًا عن يمينِه وشمالِه، ثم قال: هذه السبلُ ليس منها سبيلٌ إلا عليه شيطانٌ يدعو إليه»، ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣]»[١٧٣].

فالسنة النبوية المطهرة أنموذج في مهارات

التواصل الدعوي التي حرص النبي ﷺ على تنويعها لإثارة اهتمام وانتباه السامعين، ولتحقيق أكبر فائدة للتواصل الدعوي.

٤- استخدام ضرب الأمثلة التوضيحية، ومنها: ما روي عن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوْءِ كَحَامِلِ المِسْكِ وَنَافِخِ الكِيرِ، فَحَامِلُ المِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً»(١٧٤).

ومنها أيضًا ما روي عن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «تَرَى المُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى عُضْوًا تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالحُمَّى»(١٧٥).

٥- استخدام أسلوب الاستفهام في الخطاب الدعوي؛ يقول نبينا ﷺ: «أَتَدْرُونَ مَا المُفْلِسُ»، قَالُوا: المُفْلِسُ فِينَا مَنْ لا دِرْهَمَ لَهُ وَلا مَتَاعَ، فَقَالَ: «إِنَّ المُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ القِيَامَةِ بِصَلاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا؛ فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ، أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»(١٧٦).

واستخدام أسلوب الاستفهام أيضًا في الإلغاز لتنشيط أذهان المستمعين، ومنه ما روي عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لا يَسْقُطُ وَرَقُهَا، وَإِنَّهَا مَثَلُ المُسْلِمِ، حَدِّثُونِي مَا هِيَ؟، قَالَ: فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ البَوَادِي، قَالَ عَبْدُ اللهِ: فَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، ثُمَّ قَالُوا: حَدِّثْنَا مَا هِيَ يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «هِيَ النَّخْلَةُ»(١٧٧).

٦- ومن مهارات التواصل الدعوي في السنة النبوية مهارات استخدام أسلوب الإقناع والاستدلال العقلي، وتأييده بما هو مسلَّم لدى المتلقي في أرض الواقع، ومنه ما روي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ جَاءَهُ أَعْرَابِيٌّ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ امْرَأَتِي وَلَدَتْ غُلامًا أَسْوَدَ، فَقَالَ: «هَلْ لَكَ



مِنْ إِبِلٍ؟»، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «مَا أَلْوَانُهَا؟»، قَالَ: حُمْرٌ، قَالَ: «هَلْ فِيهَا مِنْ أَوْرَقَ؟»، قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فَأَنَّى كَانَ ذَلِكَ؟»، قَالَ: أُرَاهُ عِرْقٌ نَزَعَهُ، قَالَ: «فَلَعَلَّ ابْنَكَ هَذَا نَزَعَهُ عِرْقٌ؟»(١٧٨).

٧- التبسم كناية عن الرضا، ومنه ما روي عن أبي ذر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنِّي لأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ الجَنَّةِ دُخُولًا الجَنَّةَ، وَآخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا، رَجُلٌ يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيُقَالُ: اعْرِضُوا عَلَيْهِ صِغَارَ ذُنُوبِهِ وَارْفَعُوا عَنْهُ كِبَارَهَا، فَتُعْرَضُ عَلَيْهِ صِغَارُ ذُنُوبِهِ، فَيُقَالُ: عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا، وَعَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: نَعَمْ، لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْكِرَ، وَهُوَ مُشْفِقٌ مِنْ كِبَارِ ذُنُوبِهِ أَنْ تُعْرَضَ عَلَيْهِ، فَيُقَالُ لَهُ: فَإِنَّ لَكَ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً، فَيَقُولُ: رَبِّ قَدْ عَمِلْتُ أَشْيَاءَ لَا أَرَاهَا هَا هُنَا، فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ»(١٧٩).

٨- الإعراض كناية عن عدم الرضا، ومنه ما روي عن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: اسْتَشَارَ رَسُولُ اللهِ ﷺ النَّاسَ فِي الأُسَارَى يَوْمَ بَدْرٍ، فَقَالَ: «إِنَّ اللهَ قَدْ أَمْكَنَكُمْ مِنْهُمْ»، قَالَ: فَقَامَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، اضْرِبْ أَعْنَاقَهُمْ، قَالَ: فَأَعْرَضَ عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ، قَالَ: ثُمَّ عَادَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللهَ قَدْ أَمْكَنَكُمْ مِنْهُمْ، وَإِنَّمَا هُمْ إِخْوَانُكُمْ بِالأَمْسِ»، قَالَ: فَقَامَ عُمَرُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، اضْرِبْ أَعْنَاقَهُمْ، قَالَ: فَأَعْرَضَ عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ، قَالَ: ثُمَّ عَادَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ لِلنَّاسِ مِثْلَ ذَلِكَ، فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، نَرَى أَنْ تَعْفُوَ عَنْهُمْ، وَتَقْبَلَ مِنْهُمُ الفِدَاءَ، قَالَ: فَذَهَبَ عَنْ وَجْهِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا كَانَ فِيهِ مِنَ الغَمِّ، قَالَ: فَعَفَا عَنْهُمْ، وَقَبِلَ مِنْهُمُ الفِدَاءَ»(١٨٠).

٩- تكرار الكلمة أو الجملة لتثبيت الأمر في عقل السامعين، والصبر على السائلين وعدم التضجر من أسئلتهم، ومنه ما روي عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «رَغِمَ أَنْفُ ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ»، قِيلَ: مَنْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «مَنْ أَدْرَكَ أَبَوَيْهِ عِنْدَ الكِبَرِ أَحَدَهُمَا أَوْ كِلَيْهِمَا فَلَمْ يَدْخُلِ الجَنَّةَ»(١٨١).

مع تأكيدنا أن مهارات التواصل الدعوي

في عصرنا الحاضر تتطلب - إضافة إلى كل هذه المهارات التي نتعلمها من سنة سيدنا رسول الله ﷺ - الإلمام الكافي بالتعامل مع سائر وسائل التواصل العصرية، والتكنولوجية ومواقع التواصل الاجتماعي المختلفة بمهارات فائقة تواكب العصر، ومستجداته، ومتطلباته.

أساليب التواصل الدعوي في السنة النبوية المشرفة

أولًا: الخطابة:

لقد نهضت الخطابة في صدر الإسلام نهضة عظيمة، فَعَلا شأنها، وارتفع قدرها، وتبوأت مكانة عليا بين فنون القول وألوان البيان؛ فقد فتح الإسلام أمام الخطابة مجالات عديدة، فارتفعت رايتها في الجمع والأعياد، وفي مجالس الصلح والنكاح، وسائر الجوانب الدينية والوطنية والاجتماعية.

ولم يقف تقدير الإسلام للخطابة عند توسيع نطاقها، إنما أضفى عليها شيئًا من القداسة، وجعلها داخلة في كثير من العبادات، وندب الناس إلى سماعها والإنصات إليها، فقال ﷺ: «لا يَغْتَسِلُ رَجُلٌ يَوْمَ الجُمُعَةِ، وَيَتَطَهَّرُ مَا اسْتَطَاعَ مِنْ طُهْرٍ، وَيَدَّهِنُ مِنْ دُهْنِهِ[182]، أَوْ يَمَسُّ مِنْ طِيبِ بَيْتِهِ ثُمَّ يَخْرُجُ، فَلا يُفَرِّقُ بَيْنَ اثْنَيْنِ، ثُمَّ يُصَلِّي مَا كُتِبَ لَهُ، ثُمَّ يُنْصِتُ إِذَا تَكَلَّمَ الإِمَامُ، إِلَّا غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجُمُعَةِ الأُخْرَى»[183].

وقد حذر النبي ﷺ تحذيرًا شديدًا من الكلام في أثناء خطبة الجمعة ولو كان طلبًا للإنصات، فقال ﷺ: «إِذَا قُلْتَ لِصَاحِبِكَ وَالإِمَامُ يَخْطُبُ يَوْمَ الجُمُعَةِ: أَنْصِتْ، فَقَدْ لَغَوْتَ»[184].

وقال ابن حجر: ويدل على وجوب الإنصات حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَإِنْ جَلَسَ مَجْلِسًا يَسْتَمْكِنُ فِيهِ مِنَ الاسْتِمَاعِ وَالنَّظَرِ فَلَغَا وَلَمْ يُنْصِتْ كَانَ لَهُ كِفْلٌ مِنْ وِزْرٍ، وَمَنْ قَالَ يَوْمَ الجُمُعَةِ لِصَاحِبِهِ: صَهْ، فَقَدْ لَغَا، وَمَنْ لَغَا فَلَيْسَ لَهُ فِي جُمُعَتِهِ تِلْكَ شَيْءٌ»[185]؛ لأن الوزر لا يترتب على من فعل مباحًا ولو كان مكروهًا كراهة تنزيه[186].

ولنأخذ أنموذجًا من خطبه ﷺ وهو في



حجة الوداع؛ حيث خطب ﷺ في الناس في ذلكم المشهد الجامع المهيب، فقال ﷺ: «الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أوصيكم عباد الله بتقوى الله، وأحثكم على طاعته وأستفتح بالذي هو خير.

أما بعد:

أيها الناس: اسمعوا مني أبين لكم، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا.

أيها الناس: إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا هل بلَّغتُ؟ اللهم اشهد، فمن كانت عنده أمانة فليؤدِّها إلى الذى ائتمنه عليها، وإن ربا الجاهلية موضوع، وإن أول ربًا أبدأ به ربا عمِّي العباس بن عبد المطلب، وإنَّ مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة[١٨٧]، والسقاية، والعمد، والقود[١٨٨]، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر، وفيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية.

أيها الناس: إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه، ولكنه رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم.

أيها الناس: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ﴾ [التوبة: ٣٧]، ويحرموا ما أحل الله، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ﴾ [التوبة: ٣٦]، ثلاثة متوالية، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

أيها الناس: إن لنسائكم عليكم حقًّا، ولكم عليهن حق، لكم عليهن ألا يوطئن

فرشكم غيركم، ولا يدخلن أحدًا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن؛ فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن[189]، وتهجروهن في المضاجع، وتضربوهن ضربًا غير مبرح، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وإنما النساء عندكم عوان [190] لا يملكن لأنفسهن شيئًا، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء، واستوصوا بهن خيرًا، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

أيها الناس: إنما المؤمنون إخوة، ولا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد، فلا ترجعن بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض، فإني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعدي، كتاب الله وسنتي، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

أيها الناس: إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلُّكم لآدم، وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، إن الله عليم خبير، وليس لعربي على أعجمي فضل إلا بالتقوى، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد! قالوا: نعم، قال: فليبلغ الشاهد الغائب.

أيها الناس: إن الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث، فلا يجوز لوارث وصية، ولا تجوز وصية في أكثر من الثلث، والولد للفراش وللعاهر الحجر، من ادعى إلى غير أبيه، أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل[191]، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»[192].

وقفة مع هذه الخطبة الجامعة:

لقد وقف النبي ﷺ هذا الموقف العظيم ليعلن في هذه الخطبة الجامعة - التي هي أشبه ما تكون بوصايا مودع - عن طائفة من التشريعات الإسلامية العظيمة، والتي كان من أهمها ما يلي:

١- حرمة الدماء والأموال:

لم يكد النبي ﷺ يلم بالحمد والشهادة



والوصية بالتقوى حتى أعلن عن حرمة الدماء والأموال، فدماء المسلمين وأموالهم حرام كحرمة يوم عرفة، في هذا الشهر الحرام (شهر ذي الحجة)، في هذا البلد الحرام (مكة المكرمة).

ولم يكتف ﷺ بهذا التأكيد فعاد في آخر خطبته ليؤكد هذا الأمر مرة أخرى؛ إذ يقول: «ولا يحل لامرئ مسلم مال أخيه إلا عن طيب نفس منه»، «فلا تَرْجِعُنَّ بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض».

وقد أسقط النبي ﷺ ربا الجاهلية، وبدأ بأقرب الموسرين إليه العباس بن عبد المطلب؛ حيث قال: «وأول ربًا أضع ربا عمي العباس بن عبد المطلب»، وأسقط دماء الجاهلية وبدأ بأقرب الدماء إليه، «أول دم أضع دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب».

وبذلك ندرك البون الشاسع بين المنهاج النبوي الذي يبدأ فيه الرسول ﷺ بنفسه وأقرب الناس إليه - حيث يقول ﷺ: «والذي نفسي بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»[193]- بين كثير ممن تتملكهم المحاباة والمجاملة؛ فإذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، إنه الفارق العظيم بين عدالة السماء وطغيان البشر.

٢- التحذير من التلاعب بالأشهر الحرم:

قد كان العرب إذا جاء شهر حرام وهم محاربون أحلوه وحرموا مكانه شهرًا آخر، فيستحلون المحرم ويحرمون صفرًا، فإن احتاجوه أيضًا أحلوه وحرموا ربيعًا الأول، وهكذا كانوا يعملون حتى استدار التحريم على السنة كلها [194].

وقيل: إن المشركين كانوا يحسبون السنة اثني عشر شهرًا وخمسة عشر يومًا، فكان الحج في رمضان، وفي شوال، وفي ذي القعدة، وفي كل شهر من السنة، وذلك بحكم استدارة الشهر بسبب زيادة الخمسة عشر يومًا.

وكان حج أبي بكر في السنة التاسعة من الهجرة واقعًا في شهر ذي القعدة بسبب ذلك،

فلما حج النبي ﷺ وافق حجه ذا الحجة في العشر الأول منه، فأعلن ﷺ نسخ الحساب الذي كانوا يحسبون به الزمن، وأكد أن السنة إنما هي اثنا عشر شهرًا فقط، فلا تداخل بعد اليوم: يوم عرفة الذي حج فيه رسول الله ﷺ(١٩٥).

قال القرطبي: وهذا القول أشبه بقول النبي ﷺ: «إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ»(١٩٦)؛ أي: إن زمان الحج قد عاد إلى وقته الأصلي الذي عينه الله يوم خلق السماوات والأرض(١٩٧).

٣- الوصايا بالنساء:

أوصى رسول الله ﷺ بالنساء خيرًا، وأكد في كلمة موجزة جامعة القضاء على الظلم الذي كان يقع على المرأة في الجاهلية، وحفظ لها حقوقها وكرامتها الإنسانية التي تضمنتها أحكام الشريعة الإسلامية.

ولقد كانت هذه الحقيقة جديرة بتأكيد الوصية بها بسبب من كانوا حديثي عهد بالإسلام قريبي عهد بتقاليدهم الجاهلية التي تقضي بإهمال شئون المرأة، وعدم الاعتراف لها بأي حق، فوضع النبي ﷺ لهم وللناس جميعًا إلى أن تقوم الساعة ما للمرأة من حقوق، وما عليها من الواجبات.

٤- تقرير مبدأ الأخوة والمساواة:

أكد النبي ﷺ أن الناس سواسية كأسنان المشط، لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى، فلا فضل للون أو جنس، ولا مزية لوطن أو لغة، إنما هو مقياس واحد تتحدد به القيم، ويعرف به فضل الناس جميعًا، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحُجُرَات: ١٣].

كما أكدت الخطبة على ضرورة الالتزام بمنهج الله عَزَّوَجَلَّ، وإعطاء كل وارث حقه، وأنه لا وصية لوارث، وأن الوصية لا تجوز فيما زاد على الثلث، وأن الولد للفراش وللعاهر الحجر.... إلخ.

وهذه الخطبة صورت في دقة بالغة حسن منطق الرسول ﷺ في خطبته، وأنه لم يكن



يستعين فيها بسجع متكلف ولا بلفظ غريب، فقد كان يكره اللونين جميعًا من الكلام؛ لما يدلان عليه من التكلف، وقد برأه الله تعالى منه؛ إذ يقول عَزَّوَجَلَّ في كتابه العزيز على لسانه ﷺ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ [ص: ٨٦]»(١٩٨).

ثانيًا: الموعظة:

إذا كان وقت الخطابة وزمانها محددًا بوقته المحدد، فإن وقت الموعظة أكثر سعة ورحابة، وقد كان نبينا ﷺ يعظُ أصحابَه ويتعهدهم بها، ولا يكثر عليهم في ذلك خشية السآمة عليهم، فعن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «كان النبي ﷺ يَتَخَوّلنا بالموعظة في الأيام، كراهة السآمة علينا»(١٩٩).

وعن تأثير موعظة النبي ﷺ في نفوس الصحابة ﷺ يحدثنا سيدنا حنظلة بن الربيع رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ به؛ حيث قال: «لَقِيَنِي أَبو بَكْرٍ فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ قَالَ: سُبْحَانَ الله مَا تَقُولُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ والجَنَّةِ، حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ الله ﷺ عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ والأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ، فَنَسِينَا كَثِيرًا. قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَالله إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ الله فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: وَمَا ذَاكَ؟ قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ والجَنَّةِ، حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ والأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي، وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمُ المَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ، وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً ثَلَاثَ مَرَّاتٍ»(٢٠٠).

وعن العِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قَالَ: وَعَظَنَا رَسُولُ الله ﷺ يَوْمًا بَعْدَ صَلاةِ الغَدَاةِ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا العُيُونُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا القُلُوبُ، فَقَالَ رَجُلٌ: إِنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى الله وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ

عَبْدٌ حَبَشِيٌّ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَى اخْتِلافًا كَثِيرًا، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ؛ فَإِنَّهَا ضَلالَةٌ؛ فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَعَلَيْهِ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ»(٢٠١).

ثالثًا: الوصايا:

كما كان النبي ﷺ يتعهد أصحابه بالموعظة العامة، كان يتعهدهم بالوصايا العامة والخاصة، ومن الوصايا العامة قوله ﷺ لأصحابه: «أُوصِيكُمْ بِتَقْوى الله، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وإِنْ تَأَمَّر عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حبشيٌّ، وَأَنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيرى اخْتِلافًا كثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بسُنَّتي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عضُّوا عَلَيْهَا بالنَّواجِذِ، وإِيَّاكُمْ ومُحْدثَاتِ الأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضلالَةٌ»(٢٠٢).

ومن وصاياه ﷺ العامة وصيته بالجار، فعن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: «أُوصِيكُمْ بِالْجَار»(٢٠٣)، ووصيته ﷺ بالنساء، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «اسْتَوْصُوا بالنِّساءِ خَيْرًا»(٢٠٤).

ومن وصاياه ﷺ الخاصة ما روي عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «أوصاني خليلي ﷺ بثلاث: صيام ثلاثة أيام من كل شهر، وركعتي الضحى، وأن أُوتر قبل أن أنام»(٢٠٥).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجلًا قال للنبي ﷺ: أوصني، قال: «لا تَغْضَبْ»، فَرَدَّدَ مِرَارًا، قَالَ: «لا تَغْضَبْ»(٢٠٦).

ومنها وصيته ﷺ لسيدنا معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يَا مُعَاذُ، والله إِنِّي لأُحِبُّكَ، ثُمَّ أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ، لا تَدَعنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صلاةٍ تَقُولُ: اللهم أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وحُسنِ عِبَادتِك»(٢٠٧).

ومنها وصيته ﷺ لسيدنا أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، أَوْصِنِي، قَالَ: «أُوصِيكَ بِتَقْوَى الله، فَإِنَّهُ رَأْسُ الأَمْرِ كُلِّهِ»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، زِدْنِي، قَالَ: «عَلَيْكَ بِتِلاوَةِ الْقُرْآنِ وَذِكْرِ الله فَإِنَّهُ نُورٌ لَكَ فِي الأَرْضِ وَذُخْرٌ لك في السماء»، قلت: يَا رَسُولَ الله، زِدْنِي، قَالَ: «إِيَّاكَ وَكَثْرَةَ الضَّحِكِ؛ فَإِنَّهُ يُمِيتُ الْقَلْبَ»(٢٠٨).

ومنها ما روي عن جَرْمُوز الْهُجَيْمِيّ

رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، أَوْصِنِي، قَالَ: «أُوصِيكَ أَنْ لَا تَكُونَ لَعَّانًا»[٢٠٩]، ومنها ما روي عن أبي برزة الأسلمي قال: قلت: يا رسول الله دلّني على عمل يدخلني الجنة، قال: «أمط الأذى عن طريق الناس»[٢١٠].

رابعًا: الرسائل:

ومن وسائل التواصل الدعوية (الرسائل) التي استخدمها النبي ﷺ في مخاطبته الملوك والرؤساء، عن عبد الرحمن بن عبد القاريّ أن رسول الله ﷺ بعث حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس صاحب الإسكندرية - يعني بكتابه معه إليه - فقبل كتابه، وأكرم حاطبًا وأحسن نزله، ثم سرَّحه إلى رسول الله ﷺ، وأهـدى له مع حاطب كسوة وبغلة بسرجها وجاريتين، إحداهما أم إبراهيم، وأما الأخرى فوهبها لجهم ابن قيس العبدري، فهي أم زكريا بن جهم الذي كان خليفة لعمرو بن العاص على مصر[٢١١].

ومن رسائله ﷺ:

*** رسالته ﷺ إلى النجاشي ملك الحبشة:**

وقد حملها إليه الصحابي الجليل سيدنا عمرو بن أمية الضمري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، ونصها: «بِسْمِ الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ الله إِلَى النَّجَاشِيِّ الأَصْحَمِ مَلِكِ الحَبَشَةِ، سَلَامٌ عَلَيْكَ، فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ الله الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ المَلِكُ القُدُّوسُ السَّلَامُ المُؤْمِنُ المُهَيْمِنُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رُوحُ الله وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ البَتُولِ الطَّيِّبَةِ الحَصِينَةِ فَحَمَلَتْ بِعِيسَى فَخَلَقَهُ الله مِنْ رُوحِهِ وَنَفَخَهُ كَمَا خَلَقَ آدَمَ بِيَدِهِ، وَإِنِّي أَدْعُوكَ إِلَى الله وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَالمُوَالَاةِ عَلَى طَاعَتِهِ، وَأَنْ تَتْبَعَنِي وَتُؤْمِنَ بِالَّذِي جَاءَنِي، فَإِنِّي رَسُولُ الله، وَإِنِّي أَدْعُوكَ وَجُنُودَكَ إِلَى الله عَزَّوَجَلَّ، وَقَدْ بَلَّغْتُ وَنَصَحْت، فَاقْبَلُوا نَصِيحَتِي، وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الهدى»[٢١٢].

*** رسالته ﷺ للمنذر بن ساوى التميمي والي البحرين:**

وقد حملها إليه الصحابي الجليل العلاء بن الحضرمي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وجاء فيها: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى المنذر ابن ساوى: سلام عليك، فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو وأشهد أن لا إله إلا الله

وأن محمدًا عبده ورسوله، أما بعد، فَإِنِّي أَذْكُرُ الله عَزَّوَجَلَّ، فَإِنَّهُ مَنْ يَنْصَحْ فَإِنَّمَا يَنْصَحُ لِنَفْسِهِ، وَإِنَّهُ مَنْ يُطِعْ رُسُلِي، وَيَتَّبِعْ أَمْرَهُمْ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ نَصَحَ لَهُمْ، فَقَدْ نَصَحَ لِي، وَإِنَّ رُسُلِي قَدْ أَثْنَوْا عَلَيْكَ خَيْرًا، وَإِنِّي شَفَّعْتُكَ فِي قَوْمِكَ، فَاتْرُكْ لِلْمُسْلِمِينَ مَا أَسْلَمُوا عَلَيْهِ، وَعَفَوْتُ عَنْ أَهْلِ الذُّنُوبِ، فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَإِنَّكَ مَهْمَا تَصْلُحْ فَلَنْ نَعْزِلَكَ عَنْ عَمَلِكَ»[213].

* رسالته ﷺ للحارث الغساني ملك الحيرة:

وقد حملها إليه الصحابي الجليل شجاع بن وهب الأسدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ونصها: «من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله وصدق، وإني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له، يَبْقَى لك ملكك»[214].

وفي تنوع أساليب ووسائل الدعوة ما بين الحديث الشريف، والخطبة، والموعظة، والوصية، والرسالة، مع استخدام سائر مهارات التواصل الدعوي ما يؤكد حرص نبينا ﷺ على إبلاغ الرسالة وأداء الأمانة، وإقامة الحجة واضحة وبينة جلية لا لبس فيها.

وإذا كان رسول الله ﷺ قد قال: «تَرَكْتُ فيكُمْ مَا إِن اعْتَصَمْتُمْ بِهِ فَلَنْ تَضِلُّوا أَبَدًا»[215] فإن من واجبنا أن نسير على نهجه ﷺ في البلاغ المبين بالحكمة والموعظة الحسنة، ومن منطلق قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [النَّحل: ١٢٥] مؤمنين أن دورنا هو البلاغ المبين، وأن أمر الهداية لله وحده؛ حيث يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشُّورَى: ٤٨]، ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القَصَص: ٥٦]، ويقول الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: ٢٧٢].

مختارات شعرية في حب وفضائل سيدنا رسول الله ﷺ

* من همزية أحمد شوقي في مديحه ﷺ(٢١٦):

وُلِدَ الهُدى فَالكائِناتُ ضِياءُ
وَفَمُ الزَمانِ تَبَسُّمٌ وَثَناءُ

الروحُ وَالمَلَأُ المَلائِكُ حَولَهُ
لِلدينِ وَالدُنيا بِهِ بُشَراءُ

وَالعَرشُ يَزهو وَالحَظيرَةُ تَزدَهي
وَالمُنتَهى وَالسِدرَةُ العَصماءُ

بِكَ بَشَّرَ اللَهُ السَماءَ فَزُيِّنَت
وَتَضَوَّعَت مِسكًا بِكَ الغَبراءُ

وَبَدا مُحَيّاكَ الَّذي قَسَماتُهُ
حَقٌّ وَغُرَّتُهُ هُدًى وَحَياءُ

وَعَلَيهِ مِن نورِ النُبُوَّةِ رَونَقٌ
وَمِنَ الخَليلِ وَهَديِهِ سيماءُ

أَثنى المَسيحُ عَلَيهِ خَلفَ سَمائِهِ
وَتَهَلَّلَت وَاهتَزَّتِ العَذراءُ

يَومٌ يَتيهُ عَلى الزَمانِ صَباحُهُ
وَمَساؤُهُ بِمُحَمَّدٍ وَضّاءُ

وفيها يقول:

فَإِذا سَخَوتَ بَلَغتَ بِالجودِ المَدى
وَفَعَلتَ ما لا تَفعَلُ الأَنواءُ

وَإِذا عَفَوتَ فَقادِرًا وَمُقَدَّرًا
لا يَستَهينُ بِعَفوِكَ الجُهَلاءُ

وَإِذا رَحِمتَ فَأَنتَ أُمٌّ أَو أَبٌ
هَذانِ في الدُنيا هُما الرُحَماءُ

وَإِذا غَضِبتَ فَإِنَّما هِيَ غَضبَةٌ
في الحَقِّ لا ضِغنٌ(٢١٧) وَلا بَغضاءُ

وَإِذا رَضيتَ فَذاكَ في مَرضاتِهِ
وَرِضا الكَثيرِ تَحَلُّمٌ وَرِياءُ

وَإِذا خَطَبتَ فَلِلمَنابِرِ هِزَّةٌ
تَعرو النَدِيَّ وَلِلقُلوبِ بُكاءُ

وَإِذا قَضَيتَ فَلا ارتِيابَ كَأَنَّما
جاءَ الخُصومَ مِنَ السَماءِ قَضاءُ

وَإِذا حَمَيتَ الماءَ لَم يُورَد وَلَو
أَنَّ القَياصِرَ وَالمُلوكَ ظِماءُ

وَإِذا أَجَرتَ فَأَنتَ بَيتُ اللَهِ، لَم
يَدخُل عَلَيهِ المُستَجيرَ عَداءُ

وَإِذا مَلَكتَ النَفسَ قُمتَ بِبِرِّها

وَلَوَ اَنَّ ما مَلَكَت يَداكَ الشاءُ

وَإِذا بَنَيتَ فَخَيرُ زَوجٍ عِشرَةً

وَإِذا ابتَنَيتَ فَدونَكَ الآباءُ

وَإِذا صَحِبتَ رَأى الوَفاءَ مُجَسَّمًا

في بُردِكَ الأَصحابُ وَالخُلَطاءُ

وَتَمُدُّ حِلمَكَ لِلسَفيهِ مُدارِيًا

حَتّى يَضيقَ بِعَرضِكَ السُّفَهاءُ

في كُلِّ نَفسٍ مِن سُطاكَ مَهابَةٌ

وَلِكُلِّ نَفسٍ في نَداكَ رَجاءُ

يا أَيُّها الأُمِّيُّ، حَسبُكَ رُتبَةً

في العِلمِ أَنْ دانَت بِكَ العُلَماءُ

أَمّا حَديثُكَ في العُقولِ فَمَشْرَعٌ

وَالعِلمُ وَالحِكَمُ الغَوالي الماءُ

- من قصيدة نهج البردة لأحمد شوقي[٢١٨]:

لَزِمتُ بابَ أَميرِ الأَنبِياءِ وَمَن

يُمسِك بِمِفتاحِ بابِ اللهِ يَغتَنِمِ

فَكُلُّ فَضلٍ، وَإِحسانٍ، وَعارِفَةٍ

ما بَينَ مُستَلِمٍ مِنهُ وَمُلتَزِمِ

عَلَّقتُ مِن مَدحِهِ حَبلًا أُعَزُّ بِهِ

في يَومِ لا عِزَّ بِالأَنسابِ وَاللُّحَمِ

مُحَمَّدٌ صَفوَةُ الباري، وَرَحمَتُهُ

وَبُغيَةُ اللهِ مِن خَلقٍ وَمِن نَسَمِ

وَصاحِبُ الحَوضِ يَومَ الرُّسلِ سائِلَةٌ

مَتى الوُرودُ؟ وَجِبريلُ الأَمينُ ظَمي

وفيها يقول[٢١٩]:

لَمّا رَآهُ بَحيرا قالَ نَعرِفُهُ

بِما حَفِظنا مِنَ الأَسماءِ وَالسِّيَمِ

سائِل حِراءَ، وَروحَ القُدسِ: هَل عَلِما

مَصونَ سِرٍّ عَنِ الإِدراكِ مُنكَتِمِ؟

كَم جيئَةٍ وَذَهابٍ شُرِّفَت بِهِما

بَطحاءُ مَكَّةَ في الإِصباحِ وَالغَسَمِ

وَوَحشَةٍ لاِبنِ عَبدِ اللَهِ بَينَهُما

أَشهى مِنَ الأُنسِ بِالأَحسابِ وَالحَشَمِ

يُسامِرُ الوَحيَ فيها قَبلَ مَهبِطِهِ

وَمَن يُبَشِّر بِسيمى الخَيرِ يَتَّسِمِ

لَمّا دَعا الصَّحبُ يَستَسقونَ مِن ظَمَإٍ

فاضَت يَداهُ مِنَ التَسنيمِ بِالسَّنَمِ



وَظَلَّلَتهُ، فَصارَت تَستَظِلُّ بِـهِ

غَمامَـةٌ جَذَبَتـها خَيـرَةُ الدِيَـمِ

مَحَبَّـةٌ لِرَسـولِ اللَـهِ أُشرِبَـها

قَعائِدُ الدَّيرِ، وَالرُهبانُ في القِمَمِ

إِنَّ الشَمائِلَ إِن رَقَّت يَكادُ بِـها

يُغـرى الجَمادُ وَيُغـرى كُلُّ ذي نَسَـمِ

وَنـودِيَ: اقرَأ تَعالـى اللهُ قائِلُها

لَم تَتَّصِل قَبلَ مَن قيلَت لَهُ بِفَـمِ

هُناكَ أَذَّنَ لِلرَحمَنِ؛ فَـامتَلَأَت

أَسماعُ مَكَّـةَ مِن قُدسِيَّـةِ النَـغَمِ

فَلا تَسَل عَن قُرَيشٍ كَيفَ حَيرَتُها؟

وَكَيفَ نُفرَتُها في السَّهلِ وَالعَلَمِ؟

تَساءَلوا عَـن عَظيـمٍ قَـد أَلَمَّ بِهِم

رَمـى المَشايِـخَ وَالوِلدانَ بِاللَمَمِ

يا جاهِلِيـنَ عَلى الهـادي وَسنته

هَل تَجهَلونَ مَكانَ الصادِقِ العَلَمِ

لَقَّبتُموهُ أَمينَ القَـومِ فـي صِـغَرٍ

وَمـا الأَمِيـنُ عَلى قَـولٍ بِمُتَّـهَـمِ

يـا أَفـصَحَ الناطِقينَ الضادَ قاطِبَةً

حَديثُكَ الشَهدُ عِندَ الذائِقِ الفَهِمِ

حَلَّيتَ مِـن عَطَلٍ جِيدَ البَيانِ بِـهِ

في كُلِّ مُنتَثِرٍ فـي حُسـنِ مُنتَظِـمِ

بِكُـلِّ قَـولٍ كَـريـمٍ أَنتَ قائِلُـهُ

تُحيي القُلوبَ، وَتُحيي مَيِّتَ الهِمَمِ

ويقـــــول[٢٢٠]:

سَرَت بَشائِرُ بِالهادي وَمَـولِـدِهِ

في الشَرقِ والغَربِ مَسرى النورِ في الظُلَمِ

تَخَطَّفَت مُهَجَ الطاغينَ مِن عَرَبٍ

وَطَيَّـرَت أَنفُسَ الباغيـنَ مِن عُجُـمِ

ريعَت لَها شُرَفُ الإيوانِ فَانصَدَعَت

مِن صَدمَةِ الحَقِّ لا مِن صَدمَةِ القُدُمِ

أَتَيتَ وَالناسُ فَوضى لا تَمُـرُّ بِهِم

إِلّا عَلـى صَنَـمٍ قَد هـامَ فـي صَنَـمِ

وَالأَرضُ مَملوءَةٌ جَورًا مُسَخَّـرَةٌ

لِكُلِّ طاغِيَـةٍ فـي الخَـلقِ مُحتَكِـمِ

وَالخَلقُ يَفتِكُ أَقواهُم بِأَضعَفِهِم

كَاللَيثِ بِالبَهْمِ أَو كَالحوتِ بِالبَلَمِ[٢٢١]

أَسرى بِـكَ اللَـهُ لَيلًا؛ إِذ مَلائِكُهُ

وَالرُسلُ في المَسجِدِ الأَقصى عَلى قَدَمِ

لَمّا خطرتَ بِهِ التفّوا بِسيّدِهم ... سَل عُصبةَ الشِّركِ حولَ الغارِ سائِمَةً

كَالشُّهبِ بِالبَدرِ، أَو كَالجُندِ بِالعَلَمِ ... لَو لا مُطارَدَةُ المُختارِ لَم تُسَمِ

صَلّى وَراءَكَ مِنهُم كُلُّ ذي خَطَرٍ ... هَل أَبصَروا الأَثَرَ الوَضّاءَ، أَم سَمِعوا

وَمَن يَفُز بِحَبيبِ اللهِ يَأتَمِمِ ... هَمسَ التَسابيحِ وَالقُرآنِ من أَمَمِ؟

جُبتَ السَماواتِ أَو ما فَوقَهُنَّ بِهِم ... وَهَل تَمَثَّلَ نَسجُ العَنكَبوتِ لَهُم

عَلى مُنَوَّرَةٍ دُرِّيَّةِ اللُجُمِ ... كَالغابِ، وَالحائِماتُ الزُّغبُ كَالرُّخَمِ؟

رَكوبَةً لَكَ مِن عِزٍّ وَمِن شَرَفٍ ... فَأَدبَروا، وَوُجوهُ الأَرضِ تَلعَنُهُم

لا في الجِيادِ، وَلا في الأَينُقِ الرُّسُمِ ... كَباطِلٍ مِن جَلالِ الحَقِّ مُنهَزِمِ

مَشيئَةُ الخالِقِ الباري، وَصَنعَتُهُ ... لَو لا يَدُ اللهِ بِالجارَينَ ما سَلِما

وَقُدرَةُ اللهِ فَوقَ الشَكِّ وَالتُهَمِ ... وَعَينُهُ حَولَ رُكنِ الدينِ، لَم يَقُمِ

حَتّى بَلَغتَ سَماءً لا يُطارُ لَها ... تَوارَيا بِجَناحِ اللهِ، وَاستَتَرا

عَلى جَناحٍ وَلا يُسعى عَلى قَدَمِ ... وَمَن يَضُمُّ جَناحُ اللهِ لا يُضَمِ

وَقيلَ: كُلُّ نَبِيٍّ عِندَ رُتبَتِهِ ... يا أَحمَدَ الخَيرِ، لي جاهٌ بِتَسمِيَتي

وَيا مُحَمَّدُ، هَذا العَرشُ فَاستَلِمِ ... وَكَيفَ لا يَتَسامى بِالرَسولِ سَمي؟

خَطَطتَ لِلدينِ وَالدُنيا عُلومَهُما ... المادِحونَ وَأَربابُ الهَوى تَبَعٌ

يا قارِئَ اللَوحِ؛ بَل يا لامِسَ القَلَمِ ... لِصاحِبِ البُردَةِ الفَيحاءِ ذي القَدَمِ

أَحَطتَ بَينَهُما بِالسِرِّ، وَانكَشَفَت ... مَديحُنا(٢٢٢) فيكَ حُبٌّ خالِصٌ وَهَوًى

لَكَ الخَزائِنُ مِن عِلمٍ وَمِن حِكَمِ ... وَصادِقُ الحُبِّ يُملي صادِقَ الكَلِمِ



اللهُ يَشهَدُ أَنّي لا أُعارِضُهُ
من ذا يُعارِضُ صَوبَ العارِضِ العَرِمِ؟

ويقـــول[223]:

البَدرُ دونَكَ في حُسنٍ وَفي شَرَفٍ
وَالبَحرُ دونَكَ في خَيرٍ وَفي كَرَمِ

شُمُّ الجِبالِ إِذا طاوَلتَها انخَفَضَت
وَالأَنجُمُ الزُهرُ ما واسَمتَها تَسِمِ

وَاللَيثُ دونَكَ بَأسًا عِندَ وَثبَتِهِ
إِذا مَشَيتَ إِلى شاكي السِلاحِ كَمي

ذُكِرتَ بِاليُتمِ في القُرآنِ تَكرِمَةً
وَقيمَةُ اللُؤلُؤِ المَكنونِ في اليُتُمِ

اللَـهُ قَسَّمَ بَينَ الناسِ رِزقَهُمُ
وأنتَ خُيِّرتَ في الأَرزاقِ وَالقِسَمِ

إِن قُلتَ في الأَمرِ: لا، أَو قُلتَ فيهِ: نَعَم
فَخيرَةُ اللهِ في «لا» مِنكَ أَو «نَعَمِ»

أَخوكَ عيسى دَعا مَيتًا، فَقامَ لَهُ
وَأَنتَ أَحيَيتَ أَجيالاً مِنَ الرِمَمِ

قالوا: غَزَوتَ، وَرُسلُ اللهِ ما بُعِثوا
لِقَتلِ نَفسٍ، وَلا جاءوا لِسَفكِ دَمِ

ويقـــول[224]:

يا رَبِّ، هَبَّت شُعوبٌ مِن مَنِيَّتِها
وَاستَيقَظَت أُمَمٌ مِن رَقدَةِ العَدَمِ

سَعدٌ، وَنَحسٌ، وَمُلكٌ أَنتَ مالِكُهُ
تُديلُ مِن نِعَمٍ فيهِ وَمِن نِقَمِ

رَأى قَضاؤُكَ فينا رَأيَ حِكمَتِهِ
أَكرِم بِوَجهِكَ مِن قاضٍ وَمُنتَقِمِ

فَالطُف لِأَجلِ رَسولِ العالَمينَ بِنا
وَلا تَزِد قَومَهُ خَسفًا، وَلا تُسِمِ

يا رَبِّ، أَحسَنتَ بَدءَ المُسلِمينَ بِهِ
فَتَمِّمِ الفَضلَ، وَامنَح حُسنَ مُختَتَمِ

- ومن قصيدة سلوا قلبي لأحمد شوقي[225]:

تَجَلّى مَولِدُ الهادي، وَعَمَّت
بَشائِرُهُ البَوادي وَالقِصابا

وَأَسدَت لِلبَرِيَّةِ بِنتُ وَهبٍ
يَدًا بَيضاءَ، طَوَّقَتِ الرِّقابا

لَقَد وَضَعَتهُ وَهّاجًا مُنيرًا
كَما تَلِدُ السَماواتُ الشِّهابا

فَقامَ عَلى سَماءِ البَيتِ نورًا
يُضيءُ جِبالَ مَكَّةَ وَالنِّقابا

وَضاعَت يَثرِبُ الفَيحاءُ مِسكًا

وَفاحَ القـاعُ أَرجاءً وَطابا

أَبا الزَّهراءِ، قَد جاوَزتُ قَدري

بِمَدحِكَ، بَيدَ أَنَّ لِيَ انتِسابا

فَما عَرَفَ البَلاغَةَ ذو بَيـانٍ

إِذا لَم يَتَّخِـذكَ لَهُ كِتـابا

مَدَحتُ المالِكينَ، فَزِدتُ قَدرًا

فَحينَ مَدَحتُكَ اقتَدتُ السَّحابا

سَـأَلتُ اللهَ في أَبنـاءِ دينـي

فَإِن تَكُنِ الوَسيلَةَ لي أَجابا

وَما لِلمُسلِمينَ سِواكَ حِصنٌ

إِذا مـا الضُّرُّ مَسَّـهُـمُ وَنابا

كَأَنَّ النَّحسَ حينَ جَرى عَلَيهِمْ

أَطـارَ بِكُـلِّ مَملَكَةٍ غُـرابا

وَلَو حَفَظوا سَبيلَكَ كانَ نورًا

وَكانَ مِنَ النُّحوسِ لَهُمْ حِجابا

بَنَيتَ لَهُمْ مِنَ الأَخلاقِ رُكنًا

فَخانوا الرُّكنَ؛ فَانهَدَمَ اضطِرابا

وَكانَ جَنـابُهُمْ فيـها مَهيبـًا

وَلَلأَخلاقِ أَجدَرُ أَن تُهابا

فَلَولاها لَساوى اللَّيثُ ذِئبًا

وَساوى الصارِمُ الماضي قِرابا

فَإِن قُرِنَت مَكارِمُها بِعِلمٍ

تَذَلَّلَتِ العُـلا بِهِما صِعـابا

* ومن قصيدة البردة للإمام البوصيري[٢٢٦]:

محمدٌ سيدُ الكونينِ والثقلَيْـنِ

والفريقَيـنِ مِن عُـربٍ ومِن عَجَـمِ

نَبِيُّنَـا الآمِرُ النَّاهِي فـلا أَحَدٌ

أَبَـرُّ في قَـولِ لا منـه ولا نَعَـمِ

هُو الحبيبُ الذي تُرجَى شفاعَتُهُ

لكُلِّ هَوْلٍ مِن الأهـوالِ مُقتَحَمِ

دَعَـا إِلى الله، فالمُسـتَمسِكُون بِـهِ

مُستَمسِـكُونَ بِحبلٍ غيرِ مُنفَصِـمِ

فاقَ النَّبيينَ في خَلْقٍ، وفي خُلُقٍ

ولم يُـدَانُـوهُ في عِـلـمٍ ولا كَـرَمِ

وكُلُّهُم مِن رسـولِ الله مُلتَمِسٌ

غَرْفًا مِنَ البحرِ، أو رَشفًا مِنَ الدِّيَـمِ

وواقِفُـونَ لَدَيهِ عنـدَ حَدِّهِـمِ

مِن نُقطَةِ العلمِ، أو مِن شَكْلَةِ الحِكَمِ



فَهُوَ الـذي تَمَّ معناهُ، وصورَتُهُ
ثم اصطفاهُ حبيبًـا بـارئُ النَّسَمِ

مُنَـزَّهٌ عـن شـريكٍ في محاسِنِهِ
فجَوهَرُ الحُسنِ فيه غيرُ منقسِـمِ

وانسُبْ إلى ذاتِهِ ما شئتَ مِن شَرَفٍ
وانسُب إلى قَدْرِهِ ما شئتَ مِن عِظَمِ

وفيها يقـــول:

فإنَّ فَضلَ رسولِ الله ليس له
حَـدٌّ، فيُعـرِبَ عنهُ ناطِقٌ بِفَـمِ

لو ناسَبَتْ قَـدْرَهُ آياتُهُ عِظَمَـا
أحيا اسمُهُ حين يُدعَى دارِسَ الرِّمَمِ

لم يمتَحِنَّا بمـا تَعيَا العقولُ بـه
حِرصًا علينا، فلم نرتَبْ ولم نَهِمِ

وفيها يقـــول:

أكرِمْ بخَلْـقِ نبيٍّ زانَهُ خُلُـقٌ
بالحُسـنِ مشـتَمِلٌ بالبِشْـرِ مُتَّسِـمِ

كالزَّهرِ في تَرَفٍ، والبـدرِ في شَـرَفٍ
والبحرِ في كَرَمٍ، والـدهرِ في هِمَمِ

لا طيبَ يَعدِلُ تُرْبـًا ضَمَّ أعظُمَهُ
طوبى لمُنتَشِـقٍ منـه ومـلتَثِـمِ

وفيها يقـــول:

أبانَ مولِدُهُ عن طِيبِ عنصُرِهِ
يـا طِيـبَ مُبتَـدَإٍ منه ومُختَتَـمِ

يَومٌ تَفَرَّسَ فيه الفُرسُ أنَّهُـمُ
قَد أُنـذِرُوا بِحُلُولِ البُؤسِ والنِّقَمِ

وباتَ إيوانُ كِسرَى وَهْوَ مُنْصَدِعٌ
كَشَملِ أصحابِ كِسرَى غيرَ مُلتَئِمِ

والنارُ خامِدَةُ الأنفاسِ مِن أَسَفٍ
عليه والنهرُ ساهي العَيْنِ مِن سَدَمِ

وساءَ ساوَةَ أنْ غاضَتْ بُحَيرَتُهَا
وَرُدَّ وارِدُهَـا بالغَيْظِ حينَ ظَـمِي

كأنَّ بالنـارِ ما بالمـاءِ مِن بَلَـلٍ
حُزْنًا وبـالماءِ ما بالنارِ مِن ضَـرَمِ

والجِنُّ تَهتِفُ والأنوارُ ساطِعَةٌ
والحقُّ يظهَرُ مِن معنىً ومِن كَلِمِ

جاءت لِدَعوَتِهِ الأشجارُ ساجِدَةً
تمشِـي إليه على سـاقٍ بلا قَـدَمِ

كأنَّما سَـطَرَتْ سـطرًا لِمَا كَتَبَتْ
فُرُوعُهَـا مِن بـديعِ الخَطِّ في اللَّـقَمِ

مثلَ الغمامَةِ أنَّى سـارَ سائِرَةً
تَقِيـهِ حَـرَّ وَطِيـسٍ للهَجِيرِ حَمِي

وما حوى الغارُ مِن خيرٍ، ومِن كَرَمٍ
وكُلُّ طَرْفٍ مِنَ الكفارِ عنه عَمِي

فالصدقُ في الغارِ، والصدِّيقُ لم يَرِمَا
وهُم يقولون مـا بالغارِ مِن أَرِمِ

ظنُّوا الحمامَ، وظنُّوا العنكبوتَ على
خيـرِ البَرِّيَّـةِ لم تَنسُـجْ ولم تَحُمِ

وِقَـايَةُ الله أغنَتْ عَـن مُضاعَفَـةٍ
مِنَ الدُّرُوعِ، وعن عالٍ مِنَ الأُطُمِ

ما سامَني الدَّهرُ ضيمًا، واستجرتُ بِهِ
إلا ونِلتُ جِـوَارًا منه لم يُـضَمِ

ولا التمستُ غِنَى الدَّارَيْنِ مِن يَدِهِ
إلا استَلَمتُ النَّدَى مِن خيرِ مُستَلَمِ

لا تُنكِـرِ الوَحْيَ مِن رُؤيَـاهُ إِنَّ لَهُ
قَلْبًـا إذا نامَتِ العينـانِ لم يَنَـمِ

آيـاتُ حَـقٍّ مِنَ الرحمنِ مُحـدَثَةٌ
قديمَةٌ صِفَةُ الموصوفِ بالقِدَمِ

وفيها يقـــــول:

يا خيرَ مَن يَمَّمَ العـافُونَ ساحَتَهُ
سعيًا وفَوقَ مُتُونِ الأَيْنُقِ الرُّسُمِ

ومَن هُوَ الآيَـةُ الكُبرَى لِمُعتَبِـرٍ
ومَن هُـوَ النِّعمَةُ العُظمَى لِمُغتَنِمِ

سَرَيتَ مِن حَـرَمٍ ليلًا إلى حَرَمٍ
كما سَرَى البَدرُ في داجٍ مِنَ الظُّلَمِ

وبِتَّ ترقَى إلى أن نِلـتَ مَنزِلَةً
مِن قابَ قوسَيْنِ لم تُدرَكْ، ولَم تُرَمِ

وقَـدَّمَتْـكَ جميعُ الأنبيـاءِ بهـا
والرُّسْلِ تقديمَ مخدومٍ على خَـدَمِ

وأنتَ تَختَرِقُ السبعَ الطِّبَاقَ بهم
في مَوكِبٍ كُنتَ فيه صاحِبَ العَلَمِ

حتى إذا لم تَـدَعْ شَـأْوًا لِمُستَبِقٍ
مِنَ الـدُّنُـوِّ، ولا مَـرقًى لِمُستَنِـمِ

خَفَضْتَ كُلَّ مَقامٍ بالإضافَةِ إذ
نُودِيتَ بالـرَّفعِ مثلَ المُفرَدِ العَلَمِ

بُشرَى لنا مَعشَرَ الإسلامِ إِنَّ لنا
مِـنَ العِنَـايَـةِ رُكنًـا غيرَ منهَـدِمِ

لَـمَّـا دَعَـا اللهُ داعينـا لطاعَتِـهِ
بـأكرمِ الرُّسْلِ كُنَّـا أكـرَمَ الأُمَـمِ

وفيها يقـــــول:

كفاكَ بـالعلمِ في الأُمِّيِّ مُعجزَةً
في الجاهـليةِ والتأديبَ في اليُتُمِ
خدَمْتُـهُ بمديـحٍ أستَقِيـلُ بِـهِ
ذُنوبَ عُمْرٍ مَضَى في الشِّعرِ والخِدَمِ
فيـا خَسَارَةَ نَفْـسٍ في تِجَارَتِهَـا
لَمْ تَشتَرِ الدِّينَ بـالدنيا ولم تَسُـمِ
ومَن يَبِعْ آجِـلًا منـه بـعاجِلِـهِ
يَبِن لـه الغَبْنُ في بَيْـعٍ وفي سَـلَمِ
فـإِنَّ لي ذِمَّـــةً منـه بتَسـمِيَتِي
مُحمَّدًا، وهُوَ أوفَى الخلقِ بالذِّمَمِ
إِنْ لم يكُن في مَعَادِي آخِذًا بِيَدِي
فَضْلًا، وإلا فَقُـلْ يا زَلَّةَ القَـدَمِ
ومُنذُ أَلزَمْتُ أفكَـارِي مَدَائِحَهُ
وجَـدْتُـهُ لخَلاصِي خيرَ مُلتَـزِمِ
ولَن يَفُوتَ الغِنَى منه يَدًا تَرِبَتْ
إِنَّ الحَيَـا يُنْبِتُ الأزهارَ في الأَكَـمِ

ويقـــــول:

يا نَفْسُ لا تَقنَطِي مِن زَلَّةٍ عَظُمَتْ
إِنَّ الكَبَائِرَ في الغُفرَانِ كاللمَـمِ
لعَـلَّ رَحـمَـةَ رَبِّي حيـنَ يَقسِمُهَـا
تَأتِي على حَسَبِ العِصيَانِ في القِسَمِ
يا رَبِّ واجعَلْ رجائِي غيرَ مُنعَكِسٍ
لَدَيْكَ واجعلْ حِسَابِي غيرَ مُنخَرِمِ
والطُفْ بعَبدِكَ في الدَّارَينِ، إِنَّ لَـهُ
صَبرًا مَتَى تَدعُهُ الأهوالُ ينهَزِمِ
وائذَنْ لِسُحْبِ صلاةٍ منك دائِمَةٍ
على النبيِّ بِمُنْهَـلٍ وَمُنْسَـجِـمِ
ثُمَّ الرِّضَـا عَن أبي بَكرٍ وعَن عُمَرَ
وعَن عَلِيٍّ وعَن عثمـانَ ذِي الكَرَمِ
والآلِ والصَّحبِ ثُمَّ التَّابِعِينَ فَهُمْ
أهلُ التُّقَى والنَّقَا والحِلْمِ والكَرَمِ
يا رب بالمصطفى بلـغ مقاصدنا
واغفر لنا ما مضى يا واسع الكرم

* ويقــــول ابن الخياط[227]:

كـلُّ القُلوبِ إلىَ الحبيبِ تَمِيلُ
وَمـعِي بِهذَا شـاهـدٌ وَدَلِيـلُ
أَمَّا الدَّلِيلُ إِذَا ذَكرتَ محمدًا
فَـتَرَى دُمُـوعَ العَـارِفِيْنَ تسيلُ
هَذَا مَقَالِي فِيْكَ يَا شَرَفَ الوَرَى
وَمَدْحِي فِيْكَ يَا رسُولَ الله قَلِيلُ
هَذَا رَسُولُ الله هذا المُصْطَفَى
هَـذَا لِـرَبِّ العـالمينَ رَسُــولُ

يَا سَيِّدَ الكَوْنينِ، يَا عَلَمَ الهُدَى
هَـذَا المُتيَّمُ فِي حِمَـاكَ نَزِيـلُ
هَـذَا النبيُّ الهَاشِمِيُّ مُحَمَّـدٌ
هَـذَا لكلِّ العالمينَ رَسُـولُ
هَـذَا الذِي رَدَّ العُيونَ بِكَفِّهِ
لَمَّا بَدَتْ فَوْقَ الخُدودِ تَسِيلُ
صَلَّى عَلَيْكَ اللهُ يَا عَلَمَ الهُدَى
مَا لَاحَ بَدْرٌ فِي السَّمَاءِ دَلِيلُ
صَلَّى عَلَيْكَ اللهُ يَا عَلَمَ الهُدَى
مَا حَنَّ مُشْتَاقٌ وَسَارَ جَمِيلُ
هَـذَا رَسُولُ اللهِ نِبْرَاسُ الـهُدَى
هَـذَا لكلِّ العالمينَ رَسُـولُ

* ويقول الإمام الشافعي[228]:

خير النبيين لم يذكر على شفة
إلا وصلّت عليه العجم والعربُ
خير النبيين لم يقرن به أحدٌ
وهكذا الشمس لم تقرن بها الشهبُ
خير النبيين لم تحصر فضائله
مهما تصدّت لها الأسفار والكتبُ

الماءُ فاضَ زلالًا من أصابعه
أروى الجيوش وجوف الجيش يلتهبُ
والظبي أقبل بالشكوى يخاطبه
والصخر قد صار منه الماء ينسكبُ
واهتزت الأرض؛ إجلالًا لمولده
شبيـــهة بعروس هزّها الطربُ
نبــوةٌ ما أتـاهـا باطـلٌ أبـدًا
ولا تملكهــا في حـالة كـذبُ
نبـوةٌ كلها بالصدق ناطقـة
بالعـدل قائمة، آيـاتها عجـبُ

* ويقول سيدنا كعب بن زهير[229]:

وَقالَ كُلُّ خَليـلٍ كُنتُ آمَـلُهُ
لا أُلفِيَنَّكَ إِنّي عَنكَ مَشغولُ
فَقُلتُ خَلّوا سَبيلي لا أَبا لَكُمُ
فَكُلُّ ما قَدَّرَ الرَّحمَنُ مَفعولُ
كُلُّ اِبنِ أُنثى وَإِن طالَت سَلامَتُهُ
يَوماً عَلى آلَةٍ حَدباءَ مَحمولُ
أُنبِئتُ أَنَّ رَسولَ اللهِ أَوعَدَني
وَالعَفوُ عِندَ رَسولِ اللهِ مَأمولُ

إنَّ الرَسولَ لَنورٌ يُستَضاءُ بِهِ
مُهَنَّدٌ مِن سُيوفِ اللهِ مَسلولُ

* ويقول سيدنا حسان بن ثابت[230]:

أغَرُّ، عَلَيْهِ لِلنُّبُـوَّةِ خَاتَـمٌ
مِنَ اللهِ مَشْهُـودٌ يَـلُوحُ ويُـشْهَدُ
وضمَّ الإلهُ اسمَ النبيّ إلى اسمهِ
إذا قَـالَ في الخَمْسِ المُؤَذِّنُ أشْهَدُ
وشقّ لهُ مِـن اسمـهِ ليجلّـهُ
فذو العرشِ محمودٌ، وهذا محمدُ
نَبيٌّ أتَانَـا بَعْدَ يَـأسٍ وَفَـتْرَة
منَ الرسلِ، والأوثان في الأرضِ تعبدُ
فَأمْسَى سِرَاجًا مُسْتَنيرًا وَهَادِيًا
يَلُـوحُ كما لاحَ الصـّقِيلُ المُهَنَّدُ
وأنـذرنـا نـارًا، وبشـرَ جنـةً
وعلمنا الإسـلامَ، فاللهَ نحـمدُ
وأنتَ إلـهَ الخلقِ ربي وخالقي
بذلكَ ما عمرتُ في الناسِ أشهدُ
تَعالَيْتَ رَبَّ الناسِ عن قَوْلِ مَن دَعا
سِـوَاكَ إلَهًا، أنْتَ أعْلَى وَأمْـجَدُ
لكَ الخلقُ والنعماءُ، والأمرُ كلهُ
فإيّـاكَ نَسْتَهْـدي، وإيّـاكَ نَـعْبُدُ

- ويقول في قصيدة أخرى[231]:

محمد المبعوث للناس رحمة
يشيد ما أوْهَى الضلال ويصلحُ
لئن سبحت صم الجبال مجيبة
لـداود أو لان الحـديدُ المصفـحُ
فإن الصخور الصمَّ لانتْ بكفه
وإنَّ الحـصى في كفـهِ ليسبـحُ
وإنْ كان موسى أنبع الماء بالعصا
فمن كفـه قد أصبـح الماء يطفح
وإنْ كانت الريحُ الرخاءُ مطيعةً
سليمان لا تـألـو تـروحُ وتسرحُ
فإن الصَّبا كانتْ لنـصرِ نبينـا
ورعب على شهر به الخَصْم يكلحُ
وإنْ أُوتي الملك العظيم وسُخرت
له الجنُّ تسعَى في رِضاه وتَكْدحُ
فـإنَّ مفاتيحَ الكنـوزِ بأَسْرِهَا
أتتـه فـرد الـزَّاهـد المترجـحُ
وإنْ كـانَ إبراهيمُ أعطي خُلةً
وموسى بتكليمٍ على الطورِ يمنحُ
فـهذا حبيب بل خـليل مُكلم
وخصص بالـرؤيا وبالحق أشرحُ

وخصص بالحَوْضِ الرُّواء وباللوا

ويشفع للعاصين والنارُ تلفحُ

وبالمقعد الأعلى المقرب نـاله

عطـاء لـعينيه أقرُّ وأفـرحُ

وبالرتبة العليا الوسيـلة دونها

مراتب أرباب المواهبِ تلمحُ

وهو إلى الجنـانِ أول داخـلٍ

له بابهـا قبـل الخلائـقِ يفتحُ

- ويقـــول[٢٣٢]:

بطيبـةَ رسمٌ للرسـولِ ومعهدُ

منيرٌ، وقد تعفو الرسـومُ وتهمدُ

ولا تنمحي الآياتُ من دارِ حرمةٍ

بِها منبرُ الهادي الذي كانَ يصعدُ

وواضحُ آيـاتٍ، وباقـي معـالمٍ

وربعٌ لـهُ فيهِ مصلّـى ومسجـدُ

بِها حجراتٌ كـانَ ينـزلُ وسطها

منَ الله نـورٌ يستضـاءُ، ويوقـدُ

معـالمُ لَم تطمسْ على العهدِ آيُها

أتاها البلـى، فالآيُ منهـا تجـددُ

فبوركتَ يا قبرَ الرسولِ، وبوركَتْ

بلادٌ ثوى فيها الرشيدُ المسددُ

أقـولُ، ولا يـلفى لقوليَ عائبٌ

منَ الناسِ، إلا عازبُ العقلِ مبعدُ

وليسَ هوائي نازعًـا عنْ ثنائـهِ

لعلي بهِ في جنـةِ الخلـدِ أخلـدُ

معَ المصطفى أرجو بذاكَ جوارهُ

وفي نيلِ ذاك اليومِ أسعى وأجهدُ

- ويقـول أحدهم في مديحه ﷺ:

وَالله مَا حَمَلَتْ أُنْثَى ولا وَضَعَتْ

أَبـرّ وأَوْفى ذِمـةً مِن مُحَمّـد

ومَا في بِقَاعِ الأرْض حيًّا وميّتًا

ولا بين أرض والسما كَمُحمّد

- ويقول الآخــر:

وَمِمّـا زَادَنـي فخـرًا وَتِيـهًـا

وَكِدْت بِأَخمصِي أَطَأُ الثُّرَيَّا

دُخُولِي تَحْتَ قَوْلِك يَا عِبَادِي

وَأَنْ صَيَّرْت أَحْمَدَ لِي نَبيًّا

* * *

الهوامش:

(١) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان، حديث رقم: ١٥، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب محبة رسول الله ﷺ أكثر من الأهل والولد والناس أجمعين، حديث رقم: ٤٤، واللفظ له.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب دعاء النّبيّ ﷺ لأمّته وبكائه شفقةً عليهم، حديث رقم: ٢٠٢.

(٣) انظر تفصيل ذلك في الصفحة الأولى من هذا المبحث، ص ١٠٩.

(٤) صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب استحباب القول مثل قول المؤذّن لمن سمعه ثمّ يصلّي على النّبيّ ﷺ ثمّ يسأل الله الوسيلة، حديث رقم: ٣٨٤.

(٥) سنن الترمذي، كتاب العلم، باب ما نهي عنه أن يقال عند حديث النّبيّ ﷺ، حديث رقم: ٢٦٦٤، وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.

(٦) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنَّةِ، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، حديث رقم: ٧٢٨٨، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب الحج، باب فرض الحج مرة في العمر، حديث رقم: ١٣٣٧.

(٧) المصدر السابق، حديث رقم: ٧٢٨٠.

(٨) موطأ مالك، كتاب القدر، باب النهي عن القول بالقدر، حديث رقم: ٦٧٨، والمستدرك للحاكم، كتاب العلم، حديث رقم: ٣١٨.

(٩) سنن أبي داود، كتاب السنة، باب في لزوم السُّنَّةِ، حديث رقم: ٤٦٠٧.

(١٠) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، حديث رقم: ٥٠٦٣، وصحيح مسلم، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه، ووجد مؤنه، حديث رقم: ١٤٠١.

(١١) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب قول الله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾، حديث رقم: ٧١٣٧، وصحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، وتحريمها في المعصية، حديث رقم: ١٨٣٥.

(١٢) هو: أبو الفرج زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب السّلامي البغدادي، المعروف بابن رجب الحنبلي، ولد في بغداد ٧٣٦هـ حافظ للحديث، بلغ درجة الإمامة في فنونه، من أعلام المذهب الحنبلي، من أهم مؤلفاته: جامع العلوم والحكم، ولطائف المعارف، توفي في دمشق سنة ٧٩٥هـ. انظر: الأعلام للزركلي، ٣/ ٢٩٥، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشرة ٢٠٠٢م.

(١٣) هو: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني الذهلي، وُلد في بغداد سنة ١٦٤هـ رابع الأئمة الأربعة عند أهل السنة والجماعة، وصاحب المذهب الحنبلي في الفقه الإسلامي، توفي سنة ٢٤١هـ. انظر: سير أعلام النبلاء لشمس الدين الذهبي، ١١/ ١٧٧، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

(١٤) انظر: جامع العلوم والحكم، لابن رجب الحنبلي، ١/ ٦١، مؤسسة الرسالة، بيروت.

(١٥) هو: الإمام أبو داود، سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير الأزدي السجستاني، إمام أهل الحديث في زمانه، أصله من سجستان، صاحب كتاب السنن، وهو أحد الكتب الستة، توفي بالبصرة سنة ٢٧٥هـ. انظر: سير أعلام النبلاء، ١٣/ ٢٠٣، الرسالة، والأعلام للزركلي، ٣/ ١٢٢.

(١٦) انظر: جامع العلوم والحكم، لابن رجب الحنبلي، ص ٦٣.

(١٧) هو: الحسن بن يسار البصري، تابعي، كان إمام أهل البصرة، وحبر الأمة في زمنه، مات سنة ١١٠هـ. انظر: الأعلام للزركلي، ٢/ ٢٢٦.

(١٨) هو: أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعيّ القرشيّ، ثالث الأئمة الأربعة عند أهل السنة والجماعة، وصاحب المذهب الشافعي، ومؤسس علم أصول الفقه، ولد رَحِمَهُ ٱللَّهُ بغزة عام ١٥٠هـ ومن أهم مؤلفاته: كتاب الأم، والرسالة، وهو أول كتاب صنف في علم أصول الفقه، توفي في مصر سنة ٢٠٤هـ. انظر: الأعلام للزركلي، ٦/ ٢٦.

(١٩) راجع في ذلك: تفسير الطبري وابن كثير وغيرهما للآية ١٢٩ من سورة البقرة.

(٢٠) انظر: الرسالة، للإمام الشافعي، تحقيق: الشيخ/ أحمد شاكر، ١/ ٧٥، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢١) انظر: الأم، للشافعي، كتاب جماع العلم، ٧/ ٢٨٧، دار المعرفة، بيروت.

(٢٢) هو: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي، من أكبر علماء الأندلس، من أهم مؤلفاته: المحلى، الفصل في الملل والأهواء والنحل، الإحكام في أصول الأحكام، طوق الحمامة، توفي سنة ٤٥٦ هـ -١٠٦٤م. انظر: الأعلام للزركلي، ٤/ ٢٥٤.

(٢٣) انظر: الإحكام في أصول الأحكام، لابن حزم الظاهري، ٢/ ٧٩، دار الآفاق الجديدة، بيروت.

(٢٤) هو: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فقيه مجتهد من كبار علماء اليمن، من أهم مؤلفاته: نيل الأوطار، وفتح القدير، توفي بصنعاء ١٢٨١هـ - ١٨٦٤م. انظر: الأعلام للزركلي، ٦/ ٢٩٨.

(٢٥) مسند أحمد، ٢٨/ ٤١٠، حديث رقم: ١٧١٧٤.

(٢٦) انظر: إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، للشوكاني، ١/ ٩٦، دار الكتاب العربي.

(٢٧) انظر: المرجع السابق، ١/ ٩٦.

(٢٨) هو: محمود شهاب الدين الألوسي، نسبة إلى مدينة ألوس وهي جزيرة في وسط نهر الفرات بمحافظة الأنبار، مفسر، ومحدث، وفقيه، وأديب، وشاعر، تقلد الإفتاء ببلده عام ١٢٤٨هـ ثم انقطع للعلم، من أهم مؤلفاته: تفسير روح المعاني، توفي سنة ١٢٧٠هـ- ١٨٥٤م. انظر: الأعلام للزركلي، ٧/ ١٧٢.

(٢٩) انظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للألوسي، ٥/ ٦٥، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٣٠) هو: المحدث الأصولي الفقيه، عضو مجمع اللغة العربية في القاهرة، ولد سنة ١٨٨٨م، صاحب المؤلفات الكثيرة خصوصًا في علم أصول الفقه، عين قاضيًا بالمحاكم الشرعية سنة ١٩٢٠م، ثم نقل مديرًا للمساجد بوزارة الأوقاف سنة ١٩٢٤م، وبقي بها حتى عين مفتشًا بالمحاكم الشرعية في منتصف سنة ١٩٣١م، انتدبته كلية حقوق جامعة القاهرة مدرسًا بها في أوائل سنة ١٩٣٤م، وبقي أستاذًا للشريعة الإسلامية حتى إحالته إلى المعاش سنة ١٩٤٨م، توفي ١٩٥٦م. انظر ترجمته في مقدمة كتابه: علم أصول الفقه وخلاصة تاريخ التشريع، ص٣.

(٣١) انظر: علم أصول الفقه، عبد الوهاب خلاف، ص ٤٠، مطبعة المدني بمصر.

(٣٢) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب التيمم، حديث رقم: ٣٣٥، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جُعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، حديث رقم: ٥٢١.

(٣٣) مسند أحمد، ٤١/ ٣٥٦، حديث رقم: ٢٤٨٦٤.

(٣٤) المستدرك على الصحيحين، كتاب الإيمان، حديث رقم: ٤٠.

(٣٥) صحيح البخاري، كتاب الصلح، باب قول النبي ﷺ للحسن بن علي رضي الله عنهما: "ابني هذا سيد"، حديث رقم: ٢٧٠٤.

(٣٦) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، حديث رقم: ٥٩٩٧، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ الصّبيان والعيال وَتَوَاضُعِهِ وفضل ذلك، حديث رقم: ٢٣١٨.

(٣٧) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته، حديث رقم: ٥٩٩٨، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال، وتواضعه وفضل ذلك، حديث رقم: ٢٣١٧.

(٣٨)صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب من أخفّ الصّلاة عند بكاء الصّبيّ، حديث رقم: ٧٠٧.

(٣٩) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب العلم، باب الغضب في الموعظة والتّعليم إذا رأى ما يكره، حديث رقم: ٩٠ واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب أمر الأئمّة بتخفيف الصّلاة في تمام، حديث رقم: ٤٦٧.

(٤٠) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب قول النّبيّ ﷺ: «إنّا بك لمحزونون»، حديث رقم: ١٣٠٣ واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ الصّبيان والعيال وتواضعه وفضل ذلك، حديث رقم: ٢٣١٥، ولفظه: "تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلّا ما يرضي ربّنا والله يا إبراهيم إنّا بك لمحزونون".

(٤١) سنن النسائي، كتاب التطبيق، باب هل يجوز أن تكون سجدةٌ أطول من سجدةٍ، حديث رقم: ١١٤١.

(٤٢) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب إذا حمل جاريةً صغيرةً على عنقه في الصّلاة، حديث رقم: ٥١٦، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جواز حَمْلِ الصّبيان في الصّلاة، حديث رقم: ٥٤٣.

(٤٣) سنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب الإمام يقطع الخطبة للأمر يحدث، حديث رقم: ١١٠٩، وسنن الترمذي، كتاب المناقب، باب مناقب الحسن والحسين عليهما السّلام، حديث رقم: ٣٧٧٤، واللفظ له.

(٤٤) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب الخوخة والممرّ في المسجد، حديث رقم: ٤٦٦، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم، باب من فضائل أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حديث رقم: ٢٣٨٢.

(٤٥) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب قول النبي ﷺ لو كنت متخذًا خليلًا، حديث رقم: ٣٦٦١.

(٤٦) المعجم الكبير، للطبراني، ٦/ ٢١٢، حديث رقم: ٦٠٤٠، المستدرك على الصحيحين، كتاب معرفة الصّحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم، ذِكرُ سلمان الفارسيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حديث رقم: ٦٥٣٩.

(٤٧) المستدرك على الصحيحين، من كتاب الهجرة الأولى إلى الحبشة، حديث رقم: ٤٢٤٩، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

(٤٨) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآدب، باب استحباب طلاقة الوجه عند اللّقاء، حديث رقم: ٢٦٢٦.

(٤٩) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب لا تحقرن جارة لجارتها، حديث رقم: ٦٠١٧، وصحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب الحَثِّ على الصّدقة، ولو بالقليل ولا تُمْتَنَعُ من القليل لاحتقاره، حديث رقم: ١٠٣٠.

(٥٠) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب الصّدقة من كسبٍ طَيِّبٍ، حديث رقم: ١٤١٠ واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب قبول الصّدقة من الكسب الطَّيِّبِ وتربيتها، حديث رقم: ١٠١٤.

(٥١) سنن الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الشّكر لمن أحسن إليك، حديث رقم: ١٩٥٥، وقال: هذا حديث حسن.

(٥٢) صحيح البخاري، كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النّبيّ ﷺ، حديث رقم: ٦٦٣٢.

(٥٣) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، حديث رقم: ١٦ واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان خصالٍ من اتّصف بهنّ وجد حلاوة الإيمان، حديث رقم: ٤٣.

(٥٤) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطّاب أبي حفصٍ القرشيّ العدويّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حديث رقم: ٣٦٨٨، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب: المرء مع من أحبّ، حديث رقم: ٢٦٣٩.

(٥٥) نسبها الحافظ المناوي للإمام الشافعي. انظر: فيض القدير شرح الجامع الصغير لعبد الرؤوف المناوي، المكتبة التجارية الكبرى، ٣/ ٢٦٤. وقال أبو نعيم: حدّثنا أبو الحسين محمّد بن محمّد بن عبيد الله، ثنا العبّاس بن يوسف الشّكليّ، قال: سمعت أبا أميّة الأسود، يقول: سمعت عبد الله بن المبارك.. فنسبه لعبد الله بن المبارك. انظر: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، المتوفى سنة ٤٣٠هـ ٨/ ١٧٠، دار الكتاب العربي، بيروت.

(٥٦) صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب القول مثل قول المؤذّن لمن سمعه، ثمّ يصلّي على النّبيّ ﷺ ثمّ يسأل له الوسيلة، حديث رقم: ٣٨٤. وانظر: سنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب ما يقول إذا سمع المؤذن، حديث رقم: ٥٢٣، وصحيح ابن حبان، كتاب الصلاة، باب الأذان، ذكر إيجاب الشفاعة في القيامة لمن سأل الله جل وعلا لنبيه المصطفى ﷺ الوسيلة في الجنان عند الأذان يسمعه، حديث رقم: ١٦٩٠.



(٥٧) انظر: البداية والنهاية، لإسماعيل بن عمر بن كثير القرشي أبو الفداء، ٦/ ٣١٧، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

(٥٨) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان، حديث رقم: ١٥، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب محبّة رسول الله ﷺ أكثر من الأهل والولد والوالد والناس أجمعين، حديث رقم: ٤٤، واللفظ له.

(٥٩) انظر: ديوان الشافعي، تحقيق: د/ محمد عبد المنعم خفاجي، ص ٩١، مكتبة الكليات الأزهرية.

(٦٠) مسند أحمد، ٤١/ ١٤٨، حديث رقم: ٢٤٦٠١.

(٦١) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، حديث رقم: ٣ واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، حديث رقم: ١٦٠.

(٦٢) تفسير ابن كثير، سورة الأحزاب، ٣/ ٥٥٥، دار الفكر. بيروت.

(٦٣) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب الصلاة على النبي ﷺ، حديث رقم: ٦٣٥٧، وصحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد، حديث رقم: ٤٠٦.

(٦٤) انظر: من فضائل الصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ﷺ، ص ١٣١ - ١٣٣.

(٦٥) انظر: إيقاظ همم أولي الأبصار للعلامة الفلاني، ص ٩٣، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

(٦٦) انظر: المجموع للنووي، ١/ ١٧٥، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، باب بيان ما كان من النّهي عن أكل لحوم الأضاحي بعد ثلاثٍ في أوّل الإسلام، وبيان نسخه وإباحته إلى متى شاء.

(٦٧) انظر: ترتيب المدارك وتقريب المسالك، القاضي عياض، ١/ ٧٢، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

(٦٨) إعلام الموقعين، ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، ٢/ ٢٠٤، الطبعة الأولى، ١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

(٦٩) انظر: المصدر السابق، ٢/ ٢٠٣.

(٧٠) انظر: المصدر السابق، ٢/ ١٣٩.

(٧١) صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب الصلاة على النّبيّ ﷺ بعد التشهد، حديث رقم: ٤٠٨.

(٧٢) السنن الكبرى للنسائي، كتاب عمل اليوم والليلة، باب في ثواب الصلاة على النبي ﷺ، حديث رقم: ٩٨٠٦، مؤسسة الرسالة.

(٧٣) سنن ابن ماجه، كتاب إقامة الصّلاة والسّنّة فيها، باب الصّلاة على النّبيّ ﷺ، حديث رقم: ٩٠٧.

(٧٤) صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب القول مثل قول المؤذّن لمن سمعه، ثمّ يصلّي على النّبيّ ﷺ ثمّ يسأل له الوسيلة، حديث رقم: ٣٨٤.

(٧٥) سنن الترمذي، أبواب الوِتْرِ، باب ما جاء في فضل الصلاة على النبي ﷺ، حديث رقم: ٤٨٤، وقال: هذا حديث حسن غريب.

(٧٦) سنن النسائي، كتاب السهو، باب الفضل في الصّلاة على النّبيّ ﷺ، حديث رقم: ١٢٩٧.

(٧٧) مسند أحمد، ٢٦/ ٢٧٢، حديث رقم: ١٦٣٥٢.

(٧٨) سنن الترمذي، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، باب ما جاء في صفة أواني الحوض، بابٌ منه، حديث رقم: ٢٤٥٧، وقال: هذا حديث حسن غريب.

(٧٩) صحيح ابن حبان، كتاب الرّقائق، باب الأدعية، حديث رقم: ٩١٤.

(٨٠) سنن أبي داود، كتاب المناسك، باب الصلاة على النبي ﷺ وزيارة قبره، حديث رقم: ٢٠٤١.

(٨١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا، حديث رقم: ٣٤.

(٨٢) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الجمعة، باب السواك يوم الجمعة، حديث رقم: ٨٨٧، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب السواك، حديث رقم: ٢٥٢.

(٨٣) سنن أبي داود، كتاب الطهارة، باب السواك، حديث رقم: ٤٧، وسنن ابن ماجه، كتاب الطهارة وسننها، باب السواك، حديث رقم: ٢٨٧، دار الرسالة العالمية.

(٨٤) أخرجه البخاري معلقًا في صحيحه، كتاب الصوم، باب الرطب واليابس للصائم، ٣/ ٣١، وانظر: السنن الكبرى للنسائي، كتاب الصيام، باب الصيام للصائم بالغداة والعشي، حديث رقم: ٣٠٢١.

(٨٥) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب السواك، حديث رقم: ٢٤٥، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب السواك، حديث رقم: ٢٥٥، ومعنى «يشوص فاه»: يدلكه بالسواك.

(٨٦) صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب السواك، حديث رقم: ٢٥٣.

(٨٧) صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب سواك الرّطب واليابس للصّائم، معلقًا، ٣/ ٣١، وسنن أبي داود، كتاب الصوم، باب السواك للصائم، حديث رقم: ٢٣٦٤.

(٨٨) سنن النسائي، كتاب الطهارة، باب الترغيب في السواك، حديث رقم: ٥، وورد معلقًا في صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب سواك الرطب واليابس للصائم، ٣/ ٣١.

(٨٩) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الدّعوات، باب التّعوُّذ والقراءة عند المنام، حديث رقم: ٦٣٢٠، وصحيح مسلم، كتاب الذّكر والدّعاء والتّوبة والاستغفار، باب ما يقول عند النّوم وأخذ المضجع، حديث رقم: ٢٧١٤، واللفظ له.

(٩٠) صحيح البخاري، كتاب التّوحيد، باب السّؤال بأسماء الله تعالى والاستعاذة بها، حديث رقم: ٧٣٩٣، وسنن الترمذي، أبواب الدّعوات عن رسول الله ﷺ، حديث رقم: ٣٤٠١، واللفظ له.

(٩١) مسند البزار ١٥/ ١٦١، حديث رقم: ٨٥٠٦، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٩٨٨م.

(٩٢) الهُدْبُ من الثوب: الخيوط التي تبقى في طرفيه دون أن يكمل نسجها. انظر: المعجم الوسيط، مادة (هدب)، تحقيق: مجمع اللغة العربية، دار الدعوة.

(٩٣) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم، ١٧/ ٣٧، دار أخبار التراث العربي، بيروت، وتحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، ٩/ ٢٤٤، دار الكتب العلمية، بيروت، والإفصاح عن معاني الصحاح لا بن هُبَيْرَة، ٦/ ٢٨١، دار الوطن.

(٩٤) سنن الدارقطني، كتاب الرضاع، ٥/ ٣٢٥، حديث رقم: ٤٣٩٦، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.

(٩٥) رواه الحاكم في المستدرك، ٤/ ١٢٨، حديث رقم: ٧١١٣، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

(٩٦) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب اللّباس، باب قول الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ الله الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾، حديث رقم: ٥٧٨٣، وصحيح مسلم، كتاب اللّباس والزّينة، باب تحريم جرّ الثّوب خيلاء، وبيان حدّ ما يجوز إرخاؤه إليه وما يستحبّ، حديث رقم: ٢٠٨٥.

(٩٧) صحيح البخاري، كتاب اللباس، باب من جر ثوبه من الخيلاء، حديث رقم: ٥٧٩١.

(٩٨) صحيح البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب قول النّبيّ ﷺ: لو كنت متّخذًا خليلًا، حديث رقم: ٣٦٦٥.

(٩٩) صحيح مسلم، كتاب اللّباس والزّينة، باب تحريم جرّ الثّوب خيلاء، وبيان حدّ ما يجوز إرخاؤه إليه وما يستحبّ، حديث رقم: ٢٠٨٥.

(١٠٠) صحيح مسلم، كِتَابُ الإِيمَانَ، باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار، والمنّ بالعطيّة، وتنفيق السّلعة بالحلف، وبيان الثّلاثة الذين لا يُكَلِّمُهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يُزَكِّيهِمْ ولهم عذابٌ أليمٌ، حديث رقم: ١٠٦.

(١٠١) صحيح البخاري، كتاب اللّباس، باب ما أسفل من الكعبين فهو في النّار، حديث رقم: ٥٧٨٧، وسنن النسائي، كتاب الزينة، باب ما تحت الكعبين من الإزار، حديث رقم: ٥٣٣١.

(١٠٢) هو: أبو زكريا، محيي الدين، يحيى بن شرف النووي الشافعيّ، من قرى حوران، بسورية، ولد سنة ٦٣١هـ علامة بالفقه والحديث، من أهم مؤلفاته: المنهاج في شرح صحيح مسلم، ورياض الصالحين، توفي سنة ٦٧٦ هـ. انظر: الأعلام للزركلي، ٨/ ١٤٩.

(١٠٣) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم، ٢/ ١١٦.

(١٠٤) هو: شيخ الإسلام أبو الفضل، شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد العسقلاني، المعروف بابن حَجَر، ولد سنة ٧٧٣هـ من أهم مؤلفاته: فتح الباري، ولسان الميزان، توفي سنة ٨٥٢هـ. انظر: الأعلام للزركلي، ١/ ١٧٨.

(١٠٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري لا بن حجر العسقلاني، ١٠/ ٢٦٣، دار المعرفة، بيروت.

(١٠٦) هو: أبو الفضل، زين الدين عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن، المعروف بالحافظ العراقي، من كبار حفاظ الحديث، ولد سنة ٧٢٥هـ من أهم مؤلفاته: المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج أحاديث الإحياء، والألفية في مصطلح الحديث، توفي بالقاهرة سنة ٨٠٦هـ. انظر: الأعلام للزركلي، ٣/ ٣٤٤.

(١٠٧) انظر: طرح التثريب في شرح التقريب لزين الدين العراقي، ٨/ ١٧٤، الطبعة المصرية القديمة.

(١٠٨) انظر: نيل الأوطار للشوكاني ٢/ ١٣٣، دار الحديث، مصر.



(١٠٩) هو: الإمام أبو حنيفة النّعمان بن ثابت التّيميّ الكوفيّ، فقيه الملّة، عالم العراق، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، وصاحب المذهب المشهور، ولد سنة ٨٠هـ في حياة صغار الصّحابة، توفي سنة ١٥٠هـ. انظر: سير أعلام النبلاء، ٦/ ٣٩٠.

(١١٠) انظر: الآداب الشرعية لابن مفلح المقدسي، ٣/ ٥٢١، عالم الكتب.

(١١١) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الزّكاة، باب فرض صدقة الفطر، حديث رقم: ١٥٠٣، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب الزّكاة، باب زكاة الفطر على المسلمين من التّمر والشّعير، حديث رقم: ٩٨٤.

(١١٢) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الزّكاة، باب صدقة الفطر صاعًا من طعام، حديث رقم: ١٥٠٦، وصحيح مسلم، كتاب الزّكاة، باب زكاة الفطر على المسلمين من التّمر والشّعير، حديث رقم: ٩٨٥.

(١١٣) سنن الترمذي، كتاب الزكاة، باب ما جاء في صدقة الفطر، حديث رقم: ٦٧٤، وقال: هذا حديث حسن غريب، والبر هو القمح.

(١١٤) سنن أبي داود، كتاب الزكاة، باب زكاة الفطر، حديث رقم: ١٦٠٩، وسنن ابن ماجه، أبواب الزّكاة، باب صدقة الفطر، حديث رقم: ١٨٢٧.

(١١٥) صحيح البخاري، كتاب الزّكاة، بابٌ صدقة الفطر على الحرّ والمملوك، حديث رقم: ١٥١١.

(١١٦) صحيح البخاري، كتاب الزّكاة، باب صاعٍ من زبيبٍ، حديث رقم: ١٥٠٨.

(١١٧) صحيح مسلم، كتاب الزّكاة، باب زكاة الفطر على المسلمين من التّمر والشّعير، حديث رقم: ٩٨٥، والمدان: تثنية مدٍّ، وهو ربع الصاع، فالمدان نصفه، والمراد بالسمراء: الحنطة، أي أن نصف الصاع منها يعدل صاعًا من تمر؛ أي: يساويه في الأجزاء.

(١١٨) صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب زكاة الفطر على المسلمين من التمر والشعير، حديث رقم: ٩٨٥.

(١١٩) صحيح البخاري، كتاب الزّكاة، باب العَرْضِ في الزّكاة، معلقًا.

(١٢٠) هو: يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري الكوفي البغدادي، صاحب الإمام أبي حنيفة، ولد بالكوفة سنة ١١٣هـ كان فقيهًا علامة، من حفاظ الحديث، وهو أول من نشر المذهب الحنفي، وأول من دُعي «قاضي القضاة»، وأول من وضع الكتب في أصول الفقه، من أهم مؤلفاته: الخراج، والأمالي في الفقه على مذهب أبي حنيفة، توفي سنة ١٨٢هـ. انظر: الأعلام للزركلي، ٨/ ١٩٣.

(١٢١) انظر: بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، لأبي بكر بن مسعود بن أحمد الكاساني، توفي سنة ٥٨٧هـ ٢/ ٧٢، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، الاختيار لتعليل المختار لابن مودود الحنفي، المتوفى سنة ٦٨٣هـ، ص١٦، دار المعرفة.

(١٢٢) صحيح البخاري، كتاب الأضاحي، باب ما يؤكل من لحوم الأضاحي وما يتزود منها، حديث رقم: ٥٥٦٩، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب الأضاحي، باب ما كان من النهي عن أكل لحوم الأضاحي بعد ثلاث في أول الإسلام، حديث رقم: ١٩٧٤.



(١٢٣) صحيح مسلم، كتاب الأضاحي، باب بيان ما كان من النّهي عن أكل لحوم الأضاحي بعد ثلاثٍ في أوّل الإسلام، وبيان نسخه وإباحته إلى متى شاء، حديث رقم: ١٩٧٣.

(١٢٤) الدافّةُ (بتشديد الفاء): قوم يسيرون جميعًا سيرًا خفيفًا، والدافّةُ: قوم من الأعراب يريدون المصر؛ يريد أنهم قدموا المدينة عند الأضحى فنهاهم عن ادّخار لحوم الأضاحي ليُفرّقوها ويَتَصَدَّقُوا بها فينتفع أولئك القادمون بها. انظر: لسان العرب لابن منظور، مادة (دفف)، ٩/ ١٠٤، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤ هـ.

(١٢٥) وَيَجْمُلُونَ (بفتح الياء مع كسر الميم وضمها، وبضم الياء مع كسر الميم)، يقال: جملت الشّحم وأجملته: إذا أذبته واستخرجت دهنه. النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير، مادة (جمل)، ١/ ٢٩٨، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

(١٢٦) الوَدَكَ (بفتح الواو والدال): دسم اللحم ودهنه الذي يستخرج منه. انظر: المعجم الوسيط، ٢/ ١٠٢٢، أي: يذيبون الشحم ويستخرجون دهنه.

(١٢٧) صحيح مسلم، كتاب الأضاحي، باب بيان ما كان من النّهي عن أكل لحوم الأضاحي بعد ثلاثٍ في أوّل الإسلام، وبيان نسخه وإباحته إلى متى شاء، حديث رقم: ١٩٧١.

(١٢٨) صحيح مسلم، كتاب الأضاحي، باب بيان ما كان من النّهي عن أكل لحوم الأضاحي بعد ثلاثٍ في أوّل الإسلام، وبيان نسخه وإباحته إلى متى شاء، حديث رقم: ١٩٧٠.

(١٢٩) سنن الترمذي، أبواب الزهد، باب ما جاء في صفة أواني الحوض، باب منه، حديث رقم: ٢٤٧٠، وقال: هذا حديث صحيح.

(١٣٠) سنن الدارقطني، كتاب زكاة الفطر، حديث رقم: ٢١٣٣.

(١٣١) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ [الليل: ٥-٧]، حديث رقم: ١٤٤٢، وصحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب في المنفق والممسك، حديث رقم: ١٠١٠.

(١٣٢) المعجم الأوسط للطبراني، ٨/ ١٨٦، حديث رقم: ٨٣٥٠، دار الحرمين، القاهرة.

(١٣٣) سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في قيام الرّجل للرّجل، حديث رقم: ٥٢٢٩.

(١٣٤) الأدب المفرد للإمام البخاري، باب قيام الرجل للرجل تعظيمًا، ص ٣٣٩، حديث رقم: ٩٧٧.

(١٣٥) سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في قيام الرجل للرجل، حديث رقم: ٥٢٣٠.

(١٣٦) صحيح البخاري، كتاب الاستئذان، باب قول النّبيّ ﷺ: قوموا إلى سيّدكم، حديث رقم: ٦٢٦٢.

(١٣٧) المعجم الأوسط للطبراني، ١/ ٣٧، حديث رقم: ٩٧، والمعانقة لا تكون إلا من قيام.

(١٣٨) سنن ابن ماجه، كتاب الزهد، باب الزهد في الدنيا، حديث رقم: ٤١٠٢، والحاكم في المستدرك، كتاب الرقاق، ٤/ ٣٤٨، حديث رقم: ٧٨٧٣ بلفظ: « ازهد في الدّنيا يحبّك الله، وازهد فيما في أيدي النّاس يحبّك النّاس »، وقال: هذا حديثٌ صحيح الإسناد ولم يخرّجاه.

(١٣٩) صحيح مسلم، كتاب الزّكاة، بابٌ في الكفاف والقناعة، حديث رقم: ١٠٥٤، وعند الترمذي بلفظ: «طُوبَى لِمَنْ هُدِيَ إِلَى الإِسْلَامِ، وَكَانَ عَيْشُهُ كَفَافًا وَقَنَعَ»، وسنن الترمذي، أبواب الزّهد، باب ما جاء في الكفاف والصّبر عليه، حديث رقم: ٢٣٤٩، وقال: هذا حديث صحيح، وفي رواية عند ابن حبان بلفظ: «طُوبَى لِمَنْ هُدِيَ إِلَى الإِسْلَامِ وَكَانَ عيشه كفافًا، وقنعه الله به». صحيح ابن حبان، ٢/ ٤٨٠، حديث رقم: ٧٠٥.

(١٤٠) صحيح البخاري، كتاب الرّقاق، باب قول النّبيّ ﷺ: كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ، حديث رقم: ٦٤١٦.

(١٤١) سنن الترمذي، أبواب الزهد، باب ما جاء في أخذ المال، باب منه، حديث رقم: ٢٣٧٧، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(١٤٢) صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف، حديث رقم: ١٠٠٦.

(١٤٣) صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، حديث رقم: ٥٩٥.

(١٤٤) ينسب إلى أبي دُلامة في العصر العباسي، انظر: موقع الديوان الإلكتروني

https://www.aldiwan.net

(١٤٥) مسند أحمد، ١/ ٣٣٢، حديث رقم: ٢٠٥.

(١٤٦) متفق عليه، صحيح البخاري، كتاب النفقات، باب فضل النفقة على الأهل، حديث رقم: ٥٣٥٣، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم، حديث رقم: ٢٩٨٢.

(١٤٧) المعجم الصغير للطبراني، ٢/ ١٤٨، حديث رقم: ٩٤٠.

(١٤٨) انظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ٤/ ٤٤١، تحقيق: محمود حسن، دار الفكر، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.

(١٤٩) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، حديث رقم: ٩١.

(١٥٠) صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب قول النّبيّ ﷺ: مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ البَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، حديث رقم: ٦٦، وصحيح مسلم، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنةً، حديث رقم: ١٤٠٠.

(١٥١) سنن النسائي، كتاب النكاح، باب كراهية تزويج العقيم، حديث رقم: ٣٢٢٧.

(١٥٢) سنن أبى داود، كتاب الزكاة، باب في صلة الرّحم، حديث رقم: ١٦٩٤.

(١٥٣) صحيح مسلم، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوّة، وترك العجز، والاستعانة بالله، وتفويض المقادير لله، حديث رقم: ٢٦٦٤.

(١٥٤) المستدرك للحاكم، كتاب الفتن والملاحم، حديث رقم: ٨٥٢٦.

(١٥٥) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب المرأة راعية في بيت زوجها، حديث رقم: ٥٢٠٠، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر، حديث رقم: ١٨٢٩.

(١٥٦) سنن أبي داود، كتاب العلم، باب الحثّ على طلب العلم، حديث رقم: ٣٦٤١.

(١٥٧) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب عقوق الوالدين من الكبائر، حديث رقم: ٥٩٧٦، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، حديث رقم: ٨٨.



(١٥٨) صحيح مسلم، كتاب البرّ والصّلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم، وخذله، واحتقاره ودمه، وعرضه، وماله، حديث رقم: ٢٥٦٤.

(١٥٩) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآدب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله، حديث رقم: ٢٥٦٤.

(١٦٠) صحيح البخاري، كتاب الطلاق، باب اللعان، حديث رقم: ٥٣٠٤.

(١٦١) صحيح مسلم، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصّلاة والخطبة، حديث رقم: ٨٦٧.

(١٦٢) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآدب، باب فضل الإحسان إلى البنات، حديث رقم: ٢٦٣١.

(١٦٣) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب البكاء عند المريض، حديث رقم: ١٣٠٤، وصحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب البكاء على الميّت، حديث رقم: ٩٢٤.

(١٦٤) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، حديث رقم: ١٦، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان خصالٍ من اتّصف بهنّ وجد حلاوة الإيمان، حديث رقم: ٤٣.

(١٦٥) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، حديث رقم: ٣٣، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، حديث رقم: ٥٩.

(١٦٦) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، حديث رقم: ٣٤، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، حديث رقم: ٥٨، واللفظ له.

(١٦٧) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ»، حديث رقم: ٨، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: «بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ»، حديث رقم: ١٦.

(١٦٨) السنن الكبرى للنسائي، كتاب المواعظ، حديث رقم: ١١٨٣٢.

(١٦٩) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب الأمر باتّباع الجنائز، حديث رقم: ١٢٤٠، وصحيح مسلم، كتاب السلام، باب من حقّ المسلم للمسلم ردّ السّلام، حديث رقم: ٢١٦٢، واللفظ له.

(١٧٠) سنن الترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء في المبادرة بالعمل، حديث رقم: ٢٣٠٦، وقال: هذا حديث حسن غريب.

(١٧١) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الوصايا، باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًاۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النّساء: ١٠]، حديث رقم: ٢٧٦٦، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، حديث رقم: ٨٩.

(١٧٢) صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب في الأمل وطوله، حديث رقم: ٦٤١٧.

(١٧٣) مسند أحمد، ٧/ ٤٣٦، حديث رقم: ٤٤٣٧.

(١٧٤) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الذبائح، باب المسك، حديث رقم: ٥٥٣٤، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب مجالسة الصّالحين ومجانبة قرناء السّوء، حديث رقم: ٢٦٢٨.

(١٧٥) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة النّاس والبهائم، حديث رقم: ٦٠١١، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، حديث رقم: ٢٥٨٦.

(١٧٦) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والأدب، باب تحريم الظّلم، حديث رقم: ٢٥٨١.

(١٧٧) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب العلم، باب طرح الإمام المسألة على أصحابه ليختبر ما عندهم من العلم، حديث رقم: ٦٢، وصحيح مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب مثل المؤمن مثل النّخلة، حديث رقم: ٢٨١١.

(١٧٨) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الطلاق، باب إذا عرّض بنفي الولد، حديث رقم: ٥٣٠٥، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب الطلاق، باب انقضاء عدّة المتوفّى عنها زوجها، وغيرها بوضع الحمل، حديث رقم: ١٥٠٠.

(١٧٩) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنّة منزلةً فيها، حديث رقم: ١٩٠.

(١٨٠) مسند أحمد، ٢١/ ١٨١، حديث رقم: ١٣٥٥٥. وفي حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا في صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدرٍ وإباحة الغنائم، حديث رقم: ١٧٦٣، ولفظه: «قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَلَمَّا أَسَرُوا الأُسَارَى قَالَ رَسُولُ الله ﷺ لأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ: «مَا تَرَوْنَ فِي هَؤُلَاءِ الأُسَارَى؟». فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا نَبِيَّ الله، هُمْ بَنُو العَمِّ والعَشِيرَةِ، أَرَى أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُمْ فِدْيَةً، فَتَكُونُ لَنَا قُوَّةً عَلَى الكُفَّارِ، فَعَسَى الله أَنْ يَهْدِيَهُمْ لِلإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَا تَرَى يَا ابْنَ الخَطَّابِ؟»، قُلْتُ: لا، والله يَا رَسُولَ الله مَا أَرَى الَّذِي رَأَى أَبُو بَكْرٍ، وَلَكِنِّي أَرَى أَنْ تُمَكِّنَّا فَنَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ، فَتُمَكِّنَ عَلِيًّا مِنْ عَقِيلٍ فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ وَتُمَكِّنِّي مِنْ فُلَانٍ - نَسِيبًا لِعُمَرَ - فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ أَئِمَّةُ الكُفْرِ وَصَنَادِيدُهَا، فَهَوِيَ رَسُولُ الله ﷺ مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ، وَلَمْ يَهْوَ مَا قُلْتُ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الغَدِ جِئْتُ فَإِذَا رَسُولُ الله ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ قَاعِدَيْنِ يَبْكِيَانِ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، أَخْبِرْنِي مِنْ أَيِّ شَيْءٍ تَبْكِي أَنْتَ وَصَاحِبُكَ، فَإِنْ وَجَدْتُ بُكَاءً بَكَيْتُ، وَإِنْ لَمْ أَجِدْ بُكَاءً تَبَاكَيْتُ لِبُكَائِكُمَا. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَبْكِي لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنْ أَخْذِهِمُ الفِدَاءَ، لَقَدْ عُرِضَ عَلَيَّ عَذَابُهُمْ أَدْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ». شَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْ نَبِيِّ الله ﷺ، وَأَنْزَلَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧] إلى قَوْلِهِ: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: ٦٩] فَأَحَلَّ الله الغَنِيمَةَ لَهُمْ».

(١٨١) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب رغم أنف من أدرك أبويه أو أحدهما عند الكبر فلم يدخل الجنّة، حديث رقم: ٢٥٥١، ولفظه: «رغم أنفه ثم رغم أنفه، ثم رغم أنفه» بالهاء.

(١٨٢) قوله: «يدهن» المراد به إزالة شعث الشعر به، وفيه إشارة إلى التزين يوم الجمعة. انظر: فتح الباري لابن حجر، ٢/ ٣٧١.

(١٨٣) صحيح البخاري، كتاب الجمعة، باب الدّهن للجمعة، حديث رقم: ٨٨٣.

(١٨٤) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الجمعة، باب الإنصات يوم الجمعة والإمام يخطب، حديث رقم: ٩٣٤، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب الجمعة، باب في الإنصات يوم الجمعة، حديث رقم: ٨٥١، ولفظه: «إذا قلتَ لصاحبك يوم الجمعة والإمام يخطب فقد لغوت».

(١٨٥) سنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب فضل الجمعة، حديث رقم: ١٠٥٣، وانظر: نيل الأوطار للشوكاني، ٣/ ٢٧١، باب المنع من الكلام والإمام يخطب.

(١٨٦) انظر: فتح الباري لابن حجر، ٢/ ٤١٥.

(١٨٧) السدانة: خدمة الكعبة. انظر: معجم ديوان الأدب للفارابي،٢/ ١٣٦، تحقيق: د/ أحمد مختار عمر، دار الشعب، ١٤٣٤هـ-٢٠٠٣م.

(١٨٨) العمد: القتل المتعمد، والقود: القصاص، قتل القاتل بالقتيل. انظر: تاج اللغة للجوهري، مادة (قود).

(١٨٩) تعضلوهن: تضيقوا عليهن. انظر: تفسير الطبري، ٥/ ٢٤، تحقيق: أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م.

(١٩٠) عوان: جمع عانية، وهي الأسيرة، أي: هن عندكم بمنزلة الأسرى. انظر: تاج العروس، مادة (عون).

(١٩١) لا يقبل منه صرف ولا عدل؛ الصرف: التوبة، والعدل: الفدية. انظر: غريب الحديث للقاسم، ٣/ ١٦٧.

(١٩٢) انظر الخطبة في: البيان والتبيين، ٢/ ٣١، وتاريخ الطبري، ٣/ ١٥٠، والسيرة النبوية لابن هشام، ٢/ ٤٤٧. وانظر: صحيح البخاري، كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى، حديث رقم: ١٧٣٩، وصحيح مسلم، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ، حديث رقم: ١٢١٨، وسنن الترمذي، أبواب التفسير، باب من سورة التوبة، حديث رقم: ٣٠٨٧، وأبواب الوصايا، باب ما جاء لا وصية لوارث، حديث رقم ٢١٢٠، والسنن الكبرى للنسائي، كتاب الحج، يوم الحج الأكبر، حديث رقم: ٤٠٨٥، ومسند أحمد، حديث رقم: ٢٠٣٨٦، ٢٣٤٨٩.

(١٩٣) متفق عليه من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: صحيح البخاري، كتاب الحدود، باب إقامة الحدود على الشريف والوضيع، حديث رقم: ٦٧٨٨، وصحيح مسلم، كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره، حديث رقم: ١٦٨٨، واللفظ له.

(١٩٤) انظر: روح المعاني للألوسي، ١٠/ ٩٣.

(١٩٥) انظر: تفسير القرطبي، ٨/ ١٣٧، ١٣٨.

(١٩٦) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [التوبة: ٣٦]، حديث رقم: ٤٦٦٢، وصحيح مسلم، كتاب القسامة والقصاص والديات، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال، حديث رقم: ١٦٧٩.

(١٩٧) انظر: تفسير القرطبي، ٨/ ١٣٨.

(١٩٨) انظر: العصر الإسلامي د/ شوقي ضيف، ص ١٢٠.

(١٩٩) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب العلم، باب ما كان النبي ﷺ يتخوّلهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا، حديث رقم: ٦٨، وصحيح مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب الاقتصاد في الموعظة، حديث رقم: ٢٨٢١.

(٢٠٠) صحيح مسلم، كتاب التوبة، باب فضل دوام الذّكر والفكر في أمور الآخرة والمراقبة وجواز ترك ذلك في بعض الأوقات والاشتغال بالدّنيا، حديث رقم: ٢٧٥٠.

(٢٠١) سنن الترمذي، كتاب العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسّنّة واجتناب البدع، حديث رقم: ٢٦٧٦، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢٠٢) صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية، حديث رقم: ٧١٤٢، ولفظه: «واسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة».

(٢٠٣) المعجم الكبير للطبراني، ٨/ ١١٧، حديث رقم: ٧٥٢٣. وأصل المتن متفق عليه بلفظ: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سَيُوَرِّثُهُ»، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الوصاة بالجار، حديث رقم: ٢٨٩١، وصحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب الوصية بالجار والإحسان إليه، حديث رقم: ٢٦٢٥.

(٢٠٤) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب الوصية بالنساء، حديث رقم: ٥١٨٦، وصحيح مسلم، كتاب الرضاع، باب الوصيّة بالنّساء، حديث رقم: ١٤٦٨.

(٢٠٥) صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب صيام أيام البيض ثلاث عشرة وأربع عشرة وخمس عشرة، حديث رقم: ١٩٨١.

(٢٠٦) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب ما الحذر من الغضب، حديث رقم: ٦١١٦.

(٢٠٧) سنن أبي داود، كتاب الوتر، باب في الاستغفار، حديث رقم: ١٥٢٤، ولفظ الحديث: عن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ أخذ بيده، وقال: يا معاذ، والله إني لأحبك، والله إني لأحبك، فقال: أوصيك يا معاذ، لا تتزعن في دبر كل صلاة ... الحديث.

(٢٠٨) صحيح ابن حبان، كتاب البرّ والإحسان، باب ما جاء في الطّاعات وثوابها، ذكر الاستحباب للمرء أن يكون له من كلّ خيرٍ حظٌّ رجاء التّخلّص في العقبى بشيءٍ منها، حديث رقم: ٣٦١.

(٢٠٩) مسند أحمد، ٣٤/ ٢٧٨، حديث رقم: ٢٠٦٧٨.

(٢١٠) الأدب المفرد، باب إماطة الأذى، حديث رقم: ٢٢٨. وبمعناه في صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل إزالة الأذى عن الطريق، حديث رقم: ٢٦١٨.

(٢١١) مشكل الآثار للطحاوي، ٦/ ٤٠٢، حديث رقم: ٢٥٧٠.

(٢١٢) دلائل النبوة للبيهقي، جماع أبواب المبعث، باب ما جاء في كتاب النبي ﷺ إلى النجاشي، حديث رقم: ٣٠٩، طبعة دار الكتب العلمية.

(٢١٣) انظر: نصب الراية لأحاديث الهداية، لعبد الله بن يوسف أبو محمد الحنفي الزيلعي، ٤/ ٥٠١، طبعة الرياض، بيروت، ١٣٥٧هـ تحقيق: محمد يوسف البنوري.

(٢١٤) انظر: المصدر السابق، ٤/ ٥٠١.

(٢١٥) المستدرك على الصحيحين للحاكم، كتاب العلم، ١/ ١٧١ حديث رقم: ٣١٨، وورد في صحيح مسلم بلفظ: «وقد تركت عليكم ما لن تضلوا بعدي إذا اعتصمتم به».

(٢١٦) انظر: الشوقيات، لأحمد شوقي، ١/ ٣٤، دار العودة، بيروت، ١٩٨٨م.

(٢١٧) الضغن: الحقد الشديد. انظر: لسان العرب، مادة (ضغن).

(٢١٨) انظر: الشوقيات، ١/ ١٩٠ وما بعدها.

(٢١٩) انظر: السابق، ١/ ١٩٥-١٩٦.

(٢٢٠) انظر: السابق، ١/ ١٩٧.

(٢٢١) البلم: صغار السمك. انظر: تاج العروس، مادة (بلم).

(٢٢٢) في بعض الطبعات: مديحه.

(٢٢٣) انظر: الشوقيات، ١/ ٢٠٠.

(٢٢٤) انظر: السابق، ١/ ٢٠٨.

(٢٢٥) انظر: السابق، ١/ ٧١.

(٢٢٦) انظر: شرح بردة المديح، البوصيري، ص ٧ وما بعدها، دار القرآن للطباعة والنشر والتوزيع.

(٢٢٧) انظر: أول بيتين منسوبين لابن الخياط في التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، ابن حجر العسقلاني، ١/ ٣، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٨٩م، والقصيدة كلها لابن الخياط في موقع الديوان الإلكتروني https://www.e-dewan.com/forum/threads/56541

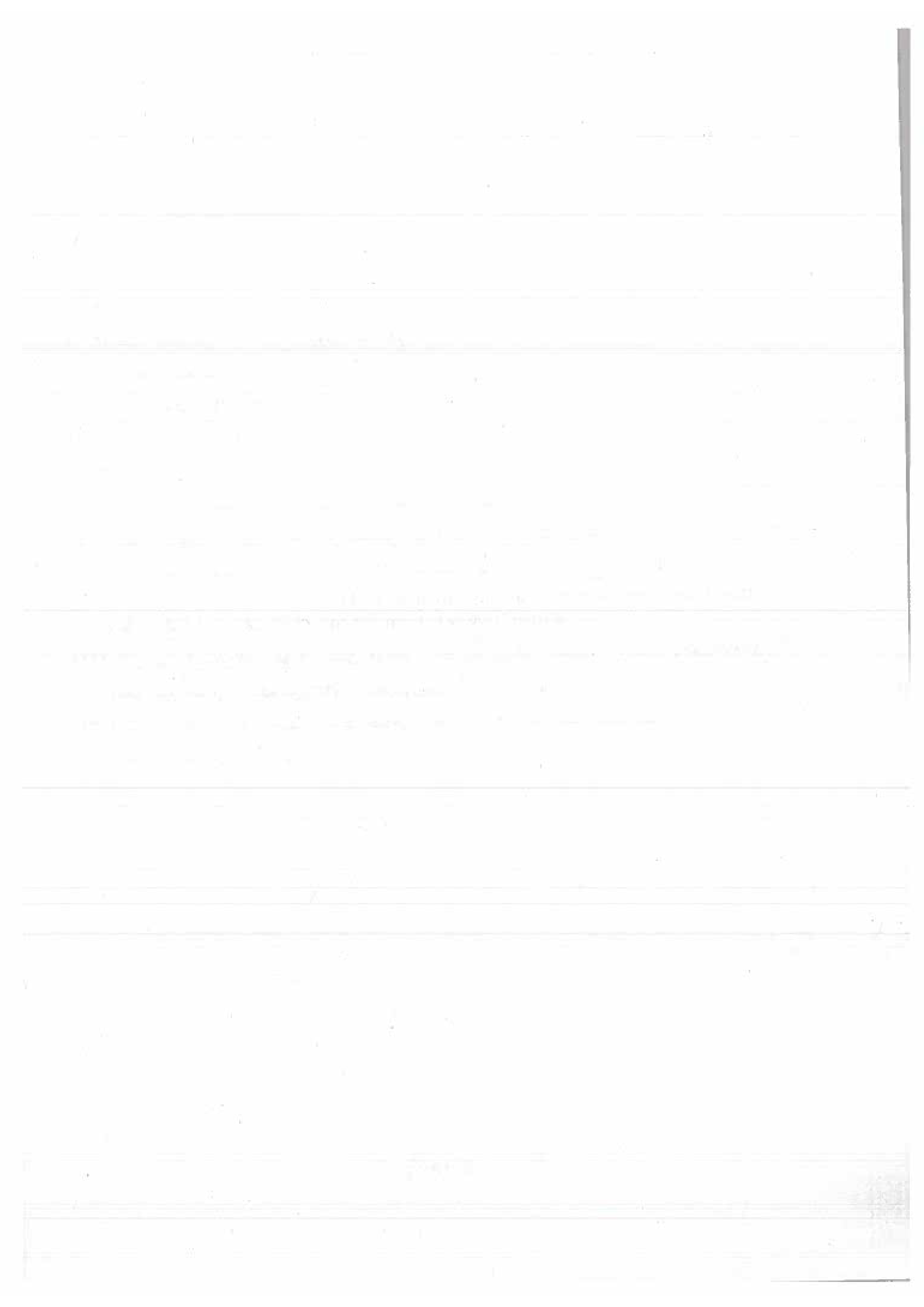
(٢٢٨) انظر: موقع كتار https://www.katarapoet.com/%9522

(٢٢٩) انظر: ديوان كعب بن زهير، ص ١٥، تحقيق: علي فاعور، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

(٢٣٠) انظر: ديوان حسان بن ثابت، ص ١٣٤، دار صادر، بيروت.

(٢٣١) انظر: سبل الهدى والرشاد لمحمد بن يوسف الصالحي الشامي، ١٠/ ٢٧٣، دار الكتب العلمية، لبنان، ١٩٩٣م.

(٢٣٢) انظر: ديوان حسان بن ثابت، ص ٦٠.





الكليات الست

في إطار مشروعنا التجديدي المبني على وضع الأمور في نصابها، من حيث التفرقة بين الثابت والمتغير، ورفع القداسة عن غير المقدس من الأشخاص والآراء البشرية، وقصر التقديس على الذات الإلهية وعلى كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وسنة نبيه ﷺ، من خلال القراءة العصرية للنصوص، تلك القراءة الرامية إلى الخروج من دوائر الحفظ والتلقين والتقليد إلى فضاءات الفهم والتفكير، والتأمل والتدبر، والاجتهاد في ضوء مقتضيات الواقع ومستجداته؛ تأتي هذه القراءة للمقاصد العامة الضرورية المعبر عنها بالكليات أو المقاصد الكلية.

وقد نبعت فكرة هذا المبحث وتبلورت من شدة اهتمامي بقضية الدولة الوطنية وبيان مشروعيتها، وما تدعو إليه بعض الأفكار المتطرفة المنكرة لفضل الوطن، والتي تحاول وضع الناس في تقابلية خاطئة بين الدين والدولة، وكأنهما نقيضان؛ مع أن الدين لا يَنشأ ولا يُحمى ولا يُحفظ في الهواء الطلق، إنما لا بد له من دولة تحميه وترفع لواءه عاليًا، وقد قرر الفقهاء أن العدو إذا دخل بلدًا من بلاد المسلمين صار الجهاد ودفع العدو فرض عين على أهل هذا البلد؛ رجالهم ونسائهم، كبيرهم وصغيرهم، قويهم وضعيفهم، مسلحهم وأعزلهم، كل وفق استطاعته ومكنته؛ حتى لو فنوا جميعًا، ولو لم يكن الدفاع عن الديار والأوطان مقصدًا من أهم مقاصد الشرع لكان لهم أن يتركوا الأوطان، وأن ينجوا بأنفسهم ودينهم.

وقد نظرت في أمر هذه الكليات من حيث عددها وترتيبها فرأيت أنها ليست قرآنًا ولا سنة، إنما هي آراء واجتهادات في ضوء رؤية العلماء والمجتهدين لما يجب الحفاظ عليه

باعتباره أمرًا ضروريًّا.

وبما أن الحفاظ على الوطن وعلى بناء الدولة وكيانها لا يقل أهمية عما ذكره العلماء من الكليات الأخرى؛ إذ لا يوجد عاقل ولا وطني شريف لا يكون على استعداد لأن يفتدي وطنه بنفسه وماله، فإننا نرى ضرورة إدراج حفظ الأوطان في عداد هذه الكليات؛ كي لا تتعرض للاستهداف ومحاولات التفكيك، ومن ثَمَّ نقرر وباطمئنان أن الكليات ينبغي أن تكون ستًّا، هي: الدين، والوطن، والنفس، والعقل، والمال، و «النسل والنسب والعرض».

وقد عَنَيْتُ في هذا المبحث بالرؤية العامة للمقاصد وما ينبغي أن يندرج تحتها من الأمور الكلية، فالحفاظ على الدين مقصوده الأسمى الحفاظ على أصل الدين ومقاصده، أما عند التفصيل فقد يتقدم حفظ النفس على التمسك ببعض الفروع، فللإنسان المضطر أن يأكل من الميتة المحرمة شرعًا ما يحفظ به أصل النفس، كما أن الإنسان الوطني صاحب الدين قد يقتضي الأمر افتداءه لوطنه بنفسه وماله، وعليه أن يلبي نداء وطنه دينًا ووطنية، كما أن الإنسان الحر الكريم قد يذود عن عرضه بنفسه وماله، وقد يذود عن ماله بنفسه، وفي الحديث الشريف: «مَنْ قُتِلَ دُونَ مالِهِ فَهُو شَهِيدٌ، ومَنْ قُتِلَ دُونَ دمِهِ فَهُو شهيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِهِ فَهو شهيدٌ، ومنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ فهُو شهيدٌ»[1].

وقد يُحتمل الأذى اليسير لدفع الضرر الكبير، فقد يتسامح الإنسان في حق ماله أو جزء منه حفاظًا على نفسه، وقد يُظهر مضطرًّا خلاف ما يبطن حفاظًا على النفس أيضًا، كمن أُكرِه على الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان، وكما قرر الفقهاء والأصوليون أن المفسدة اليسيرة قد تُحتمل لتحقيق مصلحة كبيرة، ولا تُدْفَع المفسدة اليسيرة بتضييع المصلحة الكبيرة، مما جعلني أركز حديثي على المقاصد الكلية العامة، تاركًا الحكم على الفرعيات وترتيب أولوياتها لبحث كل مسألة على حدة في ضوء مقتضيات الأحوال والزمان والمكان، وما يقتضيه أو يحتِّمُه ويستوجبه فقه الواقع والمآل، إذ لم يكن مقصدنا من البحث حصر ما يتعلق



به من الجزئيات والفرعيات، إنما كان المقصد هو الرؤية العامة، وإلقاء الضوء على المقاصد الكلية، وفتح ساحات وآفاق أوسع أمام الاجتهاد والتفكير، ومراعاة مقتضيات العصر في رؤية شديدة الوضوح لما هو ثابت مقدس ينبغي الحفاظ عليه، وما هو متغير وغير مقدس قابل للاجتهاد وإعادة النظر.

مدخل إلى دراسة الكليات الست

تحدث العلماء عن الكليات فجعلها بعضهم خمسًا، هي: الدين، والنفس، والعقل، والمال، والعرض[٢]، مع اختلافات يسيرة في تقديم بعضها على بعض أو تأخير بعضها عن بعض، وقد جعلها بعضهم ستًّا، فقال: هي الدين، فالنفس، فالعقل، فالنسب، فالمال، فالعرض[٣].

وعلى الرغم من أن معظم من تحدثوا في المقاصد بدأوا بالدين، ومنهم الغزالي[٤]، والآمدي[٥]، وغيرهما، فإن بعضهم قد بدأها بحفظ النفس كالشوكاني؛ حيث قال: وهي خمس؛ أحدها: حفظ النفس، ثانيها: حفظ المال، ثالثها: حفظ النسل، رابعها: حفظ الدين، خامسها: حفظ العقل[٦]، وقال القرافي: هي حفظ النفوس والأديان والأنساب والعقول والأموال، قيل: والأعراض[٧]، وقال في موضعٍ آخر: حفظ الدماء، والأعراض، والأنساب، والعقول، والأموال[٨]، وفي موضع ثالثٍ قال: ذكر حفظ النفوس والعقول والأعراض والأنساب والأموال[٩].

بل إن الإمام الرازي ذكرها مرة فقال: النفس والمال والنسب والدين والعقل[١٠]، ومرة أخرى قال[١١]: النفوس والعقول والأديان والأموال والأنساب، بما يعني أنه لا يوجد إجماع على عددها ولا على ترتيبها، ومن حكى الإجماع على ذلك لا يعتد بقوله؛ لأن الواقع العلمي ينقضه.

على أننا نفهم أمر الكليات في إطار فهمنا الشديد الوضوح للثابت والمتغير، فالنص المقدس - قرآنًا كان أو سنة - نصٌّ ثابتٌ، وما كتب حوله أو عنه من شروح، أو رؤى، أو استنباطات، أو اجتهادات في ضوء فهم النص فهو من باب القابل للتغيير، فما

وافق عصره وزمانه ومكانه وكان مناسبًا لعصرنا وزماننا ومكاننا عملنا به وشكرناهم عليه، وحمدنا لعلمائنا الأوائل سبقهم إليه وحسن اجتهادهم فيه.

أما ما كان من هذه الاستنباطات والرؤى والاجتهادات والشروح مناسبًا لعصره ومكانه وزمانه، وأصبحت متغيرات عصرنا ومستجداته تتطلب إعادة النظر والاجتهاد والاستنباط، فإن لأهل العلم والتخصص الذين يمتلكون أدوات الاجتهاد أن يعيدوا النظر فيه وفق مقتضيات ومستجدات وواقع عصرهم وبيئتهم وظروف حياتهم.

وبما أن عدد الكليات تحديدًا وترتيبًا ليس نصًا قرآنيًا ولا نبويًا، وإنما هي عملية اجتهادية في ضوء ظروف المجتهدين وعصرهم، فإنني أرى أن الحفاظ على الأوطان وبناء الدول واستقرارها ينبغي أن يدرج في إطار هذه الكليات.

والذي ندين به هو أن مصالح الأوطان من صميم مقاصد الأديان لا تنفك عنها، وأن كل ما يقوي دعائم بناء الدولة الوطنية واستقرارها، ويؤدي إلى قوتها ورقيها، هو من صميم مقاصد الأديان، وكل ما ينال من بناء الدولة واستقرار الوطن ومصالح أهله بالتخريب، أو التدمير، أو الفساد، أو الإفساد: ماديًا كان أو معنويًا؛ ماديًا كالاستهداف والتفجير والتخريب، أو معنويًا كبث الفتن وترويج الأكاذيب والشائعات والعمل على زرع الفرقة بين أبناء الوطن الواحد، قصد هدم الدولة أو إسقاطها أو إضعافها أو تقويض بنيانها، كل ذلك لا علاقة له بالأديان ولا علاقة للأديان به، إنما هي من ذلك كله براء.

فالأديان رحمة، الأديان سماحة، الأديان حضارة، الأديان تعمير، الأديان بناء، الأديان جاءت لسعادة البشرية لا لتعاستها، وحيث تكون مصلحة البلاد والعباد فثمة شرع الله عَزَّوَجَلَّ.

حفظ الدين

الدين فطرة الله التي فطر الناس عليها؛ حيث يقول الحق سبحانه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ



حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠]، ويقول تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة:٢١٣]، ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٣-١٦٥]، ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في حديثه القدسي: «إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا»(١٢).

فلم يخلق الله سبحانه الناس ولا الكون عبثًا ولا هملًا؛ حيث يقول تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥-١١٧]، إنما خلقهم لغاية حددها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ حيث يقول في كتابه العزيز: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦- ٥٨]، على أننا نفهم العبادة بمفهومها الواسع الذي يشمل- إلى جانب أداء العبادات والشعائر الدينية - إتقان العمل، وعمارة الكون، وبناء الحضارات.

فالأديان السماوية كلها جاءت لسعادة البشرية وصلاحها واستقامتها، يقول الحق سبحانه مخاطبًا نبينا محمدًا ﷺ: ﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١ - ٢]،

فالأديان قائمة على جلب المصالح للبلاد والعباد ودرء المفاسد عنها، يقول الإمام الشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: المعلوم من الشريعة أنها شرعت لمصالح العباد؛ فالتكليف كله إما لدرء مفسدة، وإما لجلب مصلحة، أو لهما معًا[١٣].

ويقول رَحِمَهُ اللَّهُ: إن الشرائع إنما جيء بها لمصالح العباد؛ فالأمر والنهي والتخيير جميعًا راجعة إلى حظ المكلَّف ومصالحه؛ لأن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ غنيٌّ عن الحظوظ، منزهٌ عن الأغراض[١٤].

ويقول العز بن عبد السلام رَحِمَهُ اللَّهُ: لا يخفى على عاقل أن تحصيل المصالح المحضة ودرء المفاسد المحضة عن نفس الإنسان وعن غيره محمود حسن، وأن تقديم أرجح المصالح فأرجحها محمود حسن، وأن درء أفسد المفاسد فأفسدها محمود حسن، وأن تقديم المصالح الراجحة على المرجوحة محمود حسن، وأن درء المفاسد الراجحة على المصالح المرجوحة محمود حسن، واتفق الحكماء أيضًا وكذلك الشرائع على تحريم الدماء، والأعراض، والأموال، وعلى تحصيل الأفضل فالأفضل من الأقوال والأعمال[١٥].

فرسالةُ الرسل هي هدايةُ الخلق، وإقامة الحق والعدل، ونشر الهدى والنور ومكارم الأخلاق، وتحقيق الرحمة للعالمين في الدنيا والآخرة؛ حيث يقول الحق سبحانه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، ويقول تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ [ص: ٢٦]، ويقول الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: مخاطبًا نبينا ﷺ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وها هو خطيب الأنبياء شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ يدعو قومه إلى عدم التطفيف في الكيل والميزان، فيقول كما حكى القرآن الكريم على لسانه: ﴿أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ۝١٨١ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۝١٨٢ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الشعراء: ١٨١ - ١٨٣].



وهذا نبي الله صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول لقومه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٥٠ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ۝١٥١ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء: ١٥٠ - ١٥٢].

وعندما نبحث عن الهدف الأسمى لرسالة خاتم الأنبياء والمرسلين نجد أنه يقوم على ركيزتين أساسيتين: الأولى هي الرحمة؛ حيث يقول نبينا ﷺ: «إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ»(١٦)، وهي أخص خصوصيات رسالة نبينا ﷺ، أما الركيزة الثانية فهي الأعم، وتتضمن الأولى وتدعمها وتؤكدها؛ حيث يقول نبينا ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الأَخْلَاقِ»(١٧).

فقد أجمعت الشرائع السماوية على ما فيه خير البشرية، وما يؤدي إلى سلامة النفس، والمال، والعقل، والعرض، وقيم: العدل، والمساواة، والصدق، والأمانة، والحلم، والصفح، وحفظ العهود، وأداء الأمانات، وصلة الأرحام، وحسن الجوار، وبر الوالدين، وحرمة مال اليتيم، وهي مبادئ إنسانية عامة لم تختلف عليها الشرائع السماوية، ولم تنسخ في أي شريعة منها؛ حيث يقول الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝١٥١ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١٥٢ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١-١٥٣]، وقد ذكر سيدنا عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن هذه الآيات آيات محكمات لم تنسخ في أي ملة من الملل أو شريعة من الشرائع(١٨).

أما الإلحاد والخروج على منهج الله عَزَّ وَجَلَّ وفطرته التي فطر الناس عليها فله مفاسد وشرور لا تُحصى ولا تُعدُّ على الفرد والمجتمع

والأمم والشعوب، منها: اختلال القيم، وانتشار الجريمة، وتفكك الأسرة والمجتمع، والخواء الروحي، والاضطراب النفسي، وتفشي ظواهر خطيرة كالانتحار، والشذوذ، والاكتئاب النفسي.

فالسير في طريق الإلحاد والضلال مُدمّرٌ لصاحبه، مُهلِك له في دنياه وآخرته، فواقع الملحدين مُرّ، مليء بالأمراض والعقد النفسية؛ حيث يقول الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ١٢٤ – ١٢٧]، ويقول سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٨].

ولا يمكن للعقوبات الدنيوية والأعراف والتقاليد وحدها مهما كانت دقتها أن تضبط حركة الإنسان في الكون، مالم يكن لهذا الإنسان ارتباط وثيق بخالقه، وقد قال أحد الحكماء: من الصعب بل ربما كان من المستبعد أو المستحيل أن نخصِّص لكل إنسان حارسًا يحرسه أو مراقبًا يراقبه، وحتى لو خصصنا لكل إنسان حارسًا يحرسه أو مراقبًا يراقبه، فالحارس قد يحتاج إلى من يحرسه، والمراقب قد يحتاج إلى من يراقبه، ولكن من السهل أن نربي في كل إنسان ضميرًا حيًّا ينبض بالحق ويدفع إليه، راقبناه أو لم نراقبه؛ لأنه يراقب ممن لا تأخذه سنة ولا نوم، فالتدين الحقيقي يعصم صاحبه من الزلل؛ لأنه يدرك أن أعماله تُحصَى عليه، وأنه سيقف بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء؛ حيث يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤]، ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧]، ويقول سبحانه: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ



وَٱلْبَحْرِۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، ويقول تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، ويقول سبحانه: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١]، ويقول جَلَّ وَعَلَا على لسان لقمان عَلَيْهِ السَّلَامُ في وصيته لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ١٦].

على أن التدين الذي نبحث عنه، ونسعى إليه إنما هو التدين الحقيقي الخالص لوجه الله عَزَّوَجَلَّ، وليس التدين الشكلي أو النفعي.

فلا شك أن ظاهرة التدين الشكلي وظاهرة التدين السياسي تعدان من أخطر التحديات التي تواجه المجتمعات العربية والإسلامية، سواء من هؤلاء الذين يركزون على الشكل والمظهر ولو كان على حساب اللباب والجوهر، وإعطاء المظهر الشكلي الأولوية المطلقة، حتى لو لم يكن صاحب هذا المظهر على المستوى الإنساني والأخلاقي الذي يجعل منه القدوة والمثل؛ ذلك أن صاحب المظهر الشكلي الذي لا يكون سلوكه متسقًا مع تعاليم الإسلام يُعدُّ أحد أهم معالم الهدم والتنفير من الدين، فإذا كان المظهر مظهر المتدينين مع ما يصاحبه من سوء المعاملات، أو الكذب، أو الغدر، أو الخيانة، أو خلف الوعد، أو أكل أموال الناس بالباطل، فإن الأمر هنا جد خطير في الصد عن دين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والتنفير منه؛ بل إن صاحبه يسلك في عداد المنافقين، يقول نبينا ﷺ: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ، إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ»(١)، ويقول ﷺ: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا، إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ

كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»[20].

وكذلك من يحصر التدين في باب العبادات والاجتهاد فيها مع سوء الفهم للدين، والإسراف في التكفير، وحمل السلاح والخروج على الناس به كما حدث من الخوارج الذين كانوا من أكثر الناس صلاة وصيامًا وقيامًا غير أنهم لم يأخذوا أنفسهم بالعلم الشرعي الكافي الذي يحجزهم عن الولوغ في الدماء، فخرجوا على الناس بسيوفهم، ولو طلبوا العلم أولًا؛ لحجزهم عن ذلك[21].

فالإسلام دين رحمة قبل كل شيء، وكل ما يبعدك عن الرحمة يبعدك عن الإسلام، والعبرة بالسلوك السوي لا بمجرد القول، وقد قالوا: حال رجلٍ في ألفٍ خير من كلام ألفٍ لرجل.

على أن العبادات كلها لا تؤتي ثمرتها إلا إذا هذَّبت سلوك وأخلاق صاحبها، فمن لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له، ومن لم ينهه صيامه عن قول الزور فلا صيام له، يقول نبينا ﷺ: «مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لله حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ»[22]، ولا يقبل الله عَزَّوَجَلَّ في الزكاة والصدقات إلا المال الطيب الطاهر، يقول نبينا ﷺ: «إِنَّ الله طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إِلاَّ طَيِّبًا»[23]، ويقول ﷺ: «لا يَقْبَلُ الله صَلَاةً بِغَيْرِ طُهُورٍ، وَلَا صَدَقَةً مِنْ غُلُولٍ»[24].

وأخطر من هذا التدين الشكلي التدين السياسي، ونعني به هذا الصنف الذي يتخذ الدين مجرد وسيلة ومطية للوصول إلى السلطة من خلال استغلال العواطف الدينية وحب الناس – وبخاصة العامة– لدينهم، وإيهامهم بأن هدفه من الوصول إلى السلطة إنما فقط هو خدمة دين الله عَزَّوَجَلَّ، والعمل على نصرته والتمكين له، ومع أننا لا نحكم على النوايا ولا نتدخل في أمر النيات فهي ما بين العبد وخالقه، وكلٌّ ونيتُه، فإن وقائع التاريخ تشهد بأن القضية عند هؤلاء ليست قضية دين على الإطلاق إنما قضية صراع على السلطة بشَرَهٍ ونَهَمٍ، مع إقصاء للآخرين في عنجهية وصلف وغرور وتكبر واستعلاء، وما يصحب ذلك من غشٍّ وكذبٍ ومخادعةٍ ومخاتلة؛ بما ينفر



الناس منهم ومن سلوكهم الذي يصير عبئًا كبيرًا على الدين، وإساءة له، وتشويهًا للوجه الحضاري النقي لحضارتنا الراقية السمحة؛ وذلك لما يخلفه من صورة سلبية ترتسم في أذهان كثير من الناس لربطهم بين سلوك هؤلاء الأدعياء وبين الدين.

حفظ الوطن

مما لا شك فيه أن حب الوطن والحفاظ عليه فطرة إنسانية أكدها الشرع الحنيف، فهذا نبينا ﷺ يقول مخاطبًا مكة المكرمة: «والله إِنَّكِ لَخَيْرُ أَرْضِ الله، وَأَحَبُّ أَرْضِ الله إلى الله، وَلَوْلا أَنِّي أُخرِجْتُ مِنْكِ؛ ما خَرَجْتُ»[٢٥]، ولما هاجر ﷺ إلى المدينة واتخذها وطنًا له ولأصحابه الكرام لم ينسَ ﷺ وطنه الذي نشأ فيه ولا وطنه الذي استقر فيه، وقد قال: «اللهمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا المَدِينَةَ كَحُبِّنَا مَكَّةَ أَوْ أَشَدَّ، اللهمَّ بَارِكْ لَنَا فِي صَاعِنَا وَفِي مُدِّنَا، وَصَحِّحْهَا لَنَا، وَانْقُلْ حُمَّاهَا إِلَى الجُحْفَةِ»[٢٦]، وعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ، فَنَظَرَ إِلَى جُدُرَاتِ المَدِينَةِ، أَوْضَعَ رَاحِلَتَهُ، وَإِنْ كَانَ عَلَى دَابَّةٍ حَرَّكَهَا مِنْ حُبِّهَا»[٢٧]، وظل ﷺ يقلب وجهه في السماء رجاء أن يحول الله عَزَّ وَجَلَّ قبلته تجاه بيته الحرام بمكة حتى استجاب له ربه، فقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة: ١٤٤]، فأكرم الحق جَلَّ وَعَلَا نبينا ﷺ بالتوجه إلى بيت الله الحرام؛ حيث أول بيت وضع للناس، وحيث نشأ ﷺ في كنف هذا البيت وتعلق به عقله وقلبه.

وقد قال الحافظ الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ مُعَدِّدًا طائفةً من محبوبات رسول الله ﷺ: «وكان يحبُّ عائشةَ، ويحبُّ أَبَاهَا، ويحبُّ أسامةَ، ويحب سبطَيْه، ويحب الحلواء والعسل، ويحب جبل أُحُدٍ، ويحب وطنه»[٢٨].

وقال عبد الملك بن قُرَيْبٍ الأصمعي: إذا أردت أن تعرف وفاء الرجل ووفاء عهده، فانظر إلى حنينه إلى أوطانه، وتشوُّقه إلى أقرانه، وبكائه على ما مضى من زمانه[٢٩]، ونقل مثل ذلك عن أحد الأعراب[٣٠].

إن مشروعية الدولة الوطنية أمر غير قابل للجدل أو التشكيك؛ بل هو أصلٌ راسخٌ لا غنى عنه في واقعنا المعاصر، وفي السياق والمناخ الفكري الصحي لا يحتاج الثابت الراسخ إلى دليل، وقد قرر الفقهاء أن العدو إذا دخل بلدًا من بلاد المسلمين صار الجهاد ودفع العدو فرض عين على أهل هذا البلد رجالهم ونسائهم، كبيرهم وصغيرهم، قويهم وضعيفهم، مسلحهم وأعزلهم، كل وفق استطاعته ومكنته، حتى لو فنوا جميعًا، ولو لم يكن الدفاع عن الديار مقصدًا من أهم مقاصد الشرع لكان لهم أن يتركوا الأوطان وأن ينجوا بأنفسهم وبدينهم.

وتُعنَى الدولة الوطنية باحترام عقد المواطنة بين الشخص والدولة، وتعني الالتزام الكامل بالحقوق والواجبات المتكافئة بين أبناء الوطن جميعًا دون أي تفرقة على أساس الدين أو اللون أو العرق أو الجنس أو اللغة.

ونستطيع أن نؤكد وباطمئنان على أمور، أهمها:

أولًا: أن العمل على تقوية شوكة الدولة الوطنية وترسيخ دعائمها مطلب شرعي ووطني، وأن كل من يعمل على تقويض بنيان الدولة أو تعطيل مسيرتها، أو تدمير بناها التحتية، أو ترويع الآمنين بها، إنما هو مجرم في حق دينه ووطنه معًا.

ثانيًا: أن الإسلام لم يضع قالبًا جامدًا لنظام الحكم لا يمكن الخروج عنه، إنما وضع أسسًا ومعايير متى تحققت كان الحكم رشيدًا يقره الإسلام، وفي مقدمتها مدى تحقيقه للعدل والمساواة بين أبنائه، وتوفير الأمن والأمان لهم، وسعيه لتحقيق مصالح البلاد والعباد والحياة الكريمة لجميع المواطنين دون تفرقة أو تمييز بينهم على أساس الدين أو اللون أو العرق أو الجنس، واحترام آدمية الإنسان لكونه إنسانًا؛ حيث يقول الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]؛ حيث كرم الله سبحانه الإنسان على إطلاق إنسانيته، ولا إشكال بعد ذلك في الأسماء أو المسميات؛ لأن العبرة بالمعاني والمضامين لا بالأسماء ولا بالمسميات.



ثالثًا: أنه حيث تكون المصلحة ويكون البناء والتعمير فثم شرع الله وصحيح الإسلام، وحيث يكون الهدم والتخريب والدمار فثمة عمل الشيطان وجماعات الفتنة والدمار والخراب.

رابعًا: أن العلاقة بين الدين والدولة الوطنية ليست علاقة تقابلية كما تحاول أن تسوق الأفكار الإرهابية والمتطرفة، كما أنها ليست علاقة عداء ولن تكون، فالدولة الرشيدة هي صمام أمان للتدين الرشيد، وإن تدينًا رشيدًا صحيحًا واعيًا وسطيًّا يسهم وبقوة في بناء واستقرار دولة عصرية ديمقراطية حديثة تقوم على أسسٍ وطنيةٍ راسخةٍ وكاملةٍ، وإن دولةً رشيدةً لا يمكن أن تصطدم بالفطرة الإنسانية التي تبحث عن الإيمان الرشيد الصحيح، على أننا ينبغي أن نفرّق وبوضوح شديد بين التدين والتطرف، فالتدين الرشيد يدفع صاحبه إلى التسامح، إلى الرحمة، إلى الصدق، إلى مكارم الأخلاق، إلى التعايش السلمي مع الذات والآخر، وهو ما ندعمه جميعًا، أما التطرف والإرهاب الذي يدعو إلى الفساد والإفساد، والتخريب والدمار، والهدم واستباحة الدماء والأموال، فهو الداء العضال الذي يجب أن نقاومه جميعًا وأن نقف له بالمرصاد، وأن نعمل بكل ما أوتينا من قوة للقضاء عليه حتى نجتثه من جذوره.

وفي هذه المعادلة غير الصعبة يجب أن نفرق بين الدين الذي هو حق، والفكر الإرهابي المنحرف الذي هو باطل، موقنين أن الصراع بين الحق والباطل قائم ومستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، على أن النصر للحق طال الزمن أو قصر؛ حيث يقول الحق تعالى: ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨].

إن مثل الحق والباطل كمثل الكلمة الطيبة التي هي حق، والكلمة الخبيثة التي هي باطل؛ حيث يقول سبحانه: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٢٤ تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ۝٢٥ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٖ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ

﴿...أُجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾

[إبراهيم: ٢٤ - ٢٦].

إن كل ما يدعو لبناء الوطن وتعميره وللعمل والإنتاج، وسعادة الناس وتحقيق أمنهم واستقرارهم، لهو الدين الحق والإنسانية الحقيقية، وكل ما يدعو للفساد والإفساد، والتخريب والقتل يدعو إلى ما يخالف الأديان وسائر القيم النبيلة والفطرة الإنسانية القويمة.

الدين والدولة لا يتناقضان، الدين والدولة يرسخان معًا أسس المواطنة المتكافئة في الحقوق والواجبات، وأن نعمل معًا لخير بلدنا وخير الناس أجمعين، أن نحب الخير لغيرنا كما نحبه لأنفسنا، الأديان رحمة، الأديان سماحة، الأديان إنسانية، الأديان عطاء.

الدين والدولة يتطلبان منا جميعًا التكافل المجتمعي، وألَّا يكون بيننا جائع، ولا محروم، ولا عارٍ، ولا مشرد، ولا محتاج.

الدين والدولة يدفعان إلى العمل والإنتاج، والتميز والإتقان، ويطاردان البطالة والكسل، والإرهاب والإهمال، والفساد والإفساد، والتدمير والتخريب، وإثارة القلاقل والفتن، والعمالة والخيانة.

وأؤكد أن من يتوهمون صراعًا لا يجب أن يكون بين الدين والدولة ويرونه صراعًا محتّمًا، إما أنهم لا يفهمون الأديان فهمًا صحيحًا، أو لا يعون مفهوم الدولة وعيًا تامًّا، فالخلل لا علاقة له بالدين الصحيح ولا بالدولة الرشيدة، إنما ينشأ الخلل من سوء الفهم لطبيعة الدين أو لطبيعة الدولة أو لطبيعة العلاقة بينهما.

غير أننا نؤكد على ضرورة احترام دستور الدولة وقوانينها، وإعلاء دولة القانون، وألا تنشأ في الدول سلطات موازية لسلطة الدولة أيًّا كان مصدر هذه السلطات، فهو لواء واحد تنضوي تحته وفي ظله كل الألوية الأخرى، أما أن تحمل كل مؤسسة أو جماعة أو جهة لواء موازيًا للواء الدولة فهذا خطر داهم لا يستقيم معه لا أمر الدين ولا أمر الدولة [٣١].

خامسًا: أن ظهور أحزاب وجماعات التطرف الديني له ويلات كثيرة، ويهدد حفظ الوطن، وبخاصة أن ظاهرة التكسب بالدين أو



المتاجرة به واضحة لدى كثير منها؛ حيث تعمل على توظيف الدين لتشويه خصومها من جهة، وتحقيق مطامعها السلطوية من جهة أخرى، مع فقدانها للتفقه الصحيح في الدين، أو حتى مجرد الإلمام بأصوله وأحكامه، فيتبنى بعضها العنف والإرهاب والتكفير والتفجير والعمليات الانتحارية مسلكًا ومنهجًا، بما يعطي الذرائع لأعداء الأمة للتدخل في شئونها تحت ذرائع متعددة، المعلن منها مواجهة الإرهاب، وغير المعلن هو إضعاف دولنا أو تفتيتها أو تفكيكها أو السيطرة على مفاصلها الاقتصادية أو الجغرافية أو القرار السياسي أو الوطني فيها.

سادسًا: تغنى الأدباء والشعراء عبر تاريخ البشرية بحب الأوطان، وحفل تراثنا الشعري العربي قديمًا وحديثًا بنماذج رائعة من شعر الوطنية الصادقة، نذكر منها ما يلي:

- قول أحمد شوقي[٣٢]:

بِـــلادٌ ماتَ فِتيَتُهـــا لِتَحـيا
وَزالوا دونَ قَومِهِـــمُ لِيَبـــقـــوا
وَقَفتُـــمْ بَيـــنَ مَـوتٍ أَو حَيـاةٍ
فَإِن رُمتُمْ نَعيمَ الدَهـــرِ فَاشْقَـــوا
وَلِلأَوطـــانِ فــي دَمِ كُـلِّ حُرٍّ
يَـدٌ سَلَفَـــت وَدَيـــنٌ مُستَحِـــقُّ
وَمَن يَسقــي وَيَشـرَبُ بِالمَنايا
إِذا الأَحرارُ لَم يُسقَــوا وَيَســـقوا
وَلا يَبـني المَمـالِكَ كَالضَحايـا
وَلا يُدني الحُقـــوقَ وَلا يُحِـــقُّ
وَلِلحُـرِّيَّـــةِ الحَمـــراءِ بـــابٌ
بِكُـــلِّ يَـدٍ مُضَـرَّجَـــةٍ يُـدَقُّ

- قول أحمد شوقي - أيضًا -[٣٣]:

لنـــا وطـــنٌ بأَنفسِـــنا نَقـيه
وبالدُّنيا العريضـة نَفتـــديــــه
إذا مـــا سيـــلَتِ الأرواحُ فيــه
بذلنـــاها كـــأنْ لـــم نـعطِ شيًّا
نقـــومُ علـــى البنـايةِ محسنينا
ونعهَـدُ بالتَّمـــامِ إلـــى بنيـــنا
إليْكِ نَموتُ - مِصْرُ - كما حَيينا
ويبقى وجهـــكِ المـــفديُّ حيًّـا

- قول أحمد محرم [٣٤]:

من يُسعدُ الأوطانَ غيرَ بَنِيهَا
ويُنيلُها الآمالَ غيرُ ذَوِيها
ليس الكريمُ بمن يَرى أوطانَه
نهبَ العوادي ثم لا يحميها
ترجو بنجدته انقضاءَ شقائها
وهو الذي بقعوده يشقيها
وتَود جاهدةً به دَفعَ الأذَى
عن نفسها وهو الذي يُؤذيها
ولَقلَّما أرضَى امرؤٌ أوطانَه
حتى تَراهُ بِنفسهِ يفديهَا

- قول رشيد سليم الخوري [٣٥]:

بِنْتَ العُرُوبَةِ هَيِّئِي كَفَنِي
أَنَا عَائِدٌ لأَمُوتَ فِي وَطَنِي

حفظ النفس

حماية النفس أحد أهم الكليات والمقاصد التي حرص الشرع عليها وأولاها عناية خاصة، فعلى الرغم من اختلاف العلماء من الأصوليين والفقهاء في عدد الكليات وفي ترتيبها فإنهم يجمعون على أن حماية النفس أحد هذه الكليات، بما يعني إجماعهم على حرمة النفس؛ حيث يقول الحق سبحانه: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَاءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ [المائدة: ٣٢]، ويقول تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧٠]، ويقول تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

يقول نبينا ﷺ: «اجْتَنِبُوا السَّبعَ المُوبِقَاتِ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «الشِّرْكُ بِالله، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ الله إِلَّا



بِالحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ الغَافِلاتِ»[٣٦].

وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَكْبَرُ الكَبَائِرِ: الإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ، وَقَوْلُ الزُّورِ»[٣٧]، ويقول ﷺ: «لن يَزَالَ المُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا»[٣٨]، ويقول ﷺ: «لزَوَالُ الدُّنْيَا أهون عَلَى الله مِنْ قتلِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ»[٣٩].

وعَـنْ أَبِي هُـرَيْـرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَـالَ: قَـالَ رَسُولُ الله ﷺ: «كُلُّ المُسْلِمِ عَلَى المُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ»[٤٠].

وعَنِ عبد الله بنِ عَبَّـاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه سَمِـع النبيَّ ﷺ يقُولُ: «يَأْتِي المَقْتُولُ مُتَعَلِّقًا رَأْسُهُ بِإِحْدَى يَدَيْهِ، مُتَلَبِّبًا قَاتِلَهُ بِيَدِهِ الأُخْرَى، تَشْخُبُ أَوْدَاجُهُ دَمًا، حَتَّى يَأْتِيَ بِهِ العَرْشَ، فَيَقُولُ المَقْتُولُ لِرَبِّ العَالَمِينَ: هَذَا قَتَلَنِي؟ فَيَقُولُ اللهُ لِلْقَاتِلِ: تَعِسْتَ، وَيُذْهَبُ بِهِ إِلَى النَّارِ»[٤١].

وعن أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ وَأَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَذْكُرَانِ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: «لَوْ أَنَّ أَهْلَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ اشْتَرَكُوا فِي دَمِ مُؤْمِنٍ لأَكَبَّهُمُ الله فِي النَّارِ»[٤٢].

وعَـنِ ابْـنِ عَبَّـاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَـالَ: قَـالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ شَرَكَ فِي دَمِ حَرَامٍ بِشَطْرِ كَلِمَةٍ جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ آيِسٌ مِنْ رَحْمَةِ الله»[٤٣].

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ نَبِيِّ الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «يَخْرُجُ عُنُقٌ مِنَ النَّارِ يَتَكَلَّمُ يَقُولُ: وُكِّلْتُ اليَوْمَ بِثَلَاثَةٍ: بِكُلِّ جَبَّارٍ، وَبِمَنْ جَعَلَ مَعَ الله إِلَهًا آخَرَ، وَبِمَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ، فَيَنْطَوِي عَلَيْهِمْ، فَيَقْذِفُهُمْ فِي غَمَرَاتِ جَهَنَّمَ»[٤٤].

وعن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَطُوفُ بِالْكَعْبَةِ، وَيَقُولُ: «مَا أَطْيَبَكِ وَأَطْيَبَ رِيحَكِ، مَا أَعْظَمَكِ وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكِ! وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَحُرْمَةُ المُؤْمِنِ أَعْظَمُ عِنْدَ الله حُرْمَةً مِنْكِ، مَالِهِ وَدَمِهِ، وَأَنْ نَظُنَّ بِهِ إِلَّا خَيْرًا»[٤٥].

وعَنْ طَرِيفٍ أَبِي تَمِيمَةَ، قَالَ: شَهِدْتُ صَفْوَانَ وَجُنْدَبًا وَأَصْحَابَهُ وَهُوَ يُوصِيهِمْ، فَقَالُوا: هَلْ سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ الله ﷺ شَيْئًا؟

قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ: «مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ، قَالَ: وَمَنْ يُشَاقِقْ يَشْقُقِ اللهُ عَلَيْهِ يَوْمَ القِيَامَةِ»، فَقَالُوا: أَوْصِنَا، فَقَالَ: إِنَّ أَوَّلَ مَا يُنْتِنُ مِنَ الإِنْسَانِ بَطْنُهُ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لا يَأْكُلَ إِلَّا طَيِّبًا فَلْيَفْعَلْ، وَمَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لا يُحَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجَنَّةِ بِمِلْءِ كَفِّهِ مِنْ دَمٍ أَهْرَاقَهُ فَلْيَفْعَلْ»[٤٦].

وعَنْ عَبْدِ الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ القِيَامَةِ فِي الدِّمَاءِ»[٤٧].

وعَنْ أَبِي إِدْرِيسَ الخَوْلَانِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ مُعَاوِيَةَ، يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «كُلُّ ذَنْبٍ عَسَى اللهُ أَنْ يَغْفِرَهُ إِلَّا الرَّجُلُ يَمُوتُ كَافِرًا، أَوْ رَجُلٌ يَقْتُلُ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا»[٤٨].

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ»[٤٩].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَدْرِي القَاتِلُ فِي أَيِّ شَيْءٍ قَتَلَ، وَلَا يَدْرِي المَقْتُولُ عَلَى أَيِّ شَيْءٍ قُتِلَ»[٥٠]، وفي رواية: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَذْهَبُ الدُّنْيَا، حَتَّى يَأْتِيَ عَلَى النَّاسِ يَوْمٌ لَا يَدْرِي القَاتِلُ فِيمَ قَتَلَ، وَلَا المَقْتُولُ فِيمَ قُتِلَ » فَقِيلَ: كَيْفَ يَكُونُ ذَلِكَ؟ قَالَ: «الهرجُ، القَاتِلُ وَالمَقْتُولُ فِي النَّارِ»[٥١].

ويأتي التأكيد على حرمة الدماء في خطبة حجة الوداع الجامعة؛ حيث يقول نبينا ﷺ: «إِنَّ دِماءَكُم، وأَموالَكم، وأعْراضَكُم حرامٌ عَلَيْكُم كَحُرْمة يومِكُم هَذَا، في شهرِكُمْ هَذَا، في بلَدِكُم هَذَا، ألا هَلْ بلَّغت»[٥٢].

وعن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنه قال: «إِنَّ مِنْ وَرَطَاتِ الأُمُورِ الَّتِي لا مَخْرَجَ لِمَنْ أَوْقَعَ نَفْسَهُ فِيهَا: سَفْكَ الدَّمِ الحَرَامِ بِغَيْرِ حِلِّهِ»[٥٣].

وقال مجاهد: من قتل نفسا محرمة يصلى النار بقتلها، كما يصلاها لو قتل الناس جميعًا ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ [المائدة: ٣٢]؛ أي: من سلم من قتلها فقد سلم من قتل الناس جميعًا، وقال سليمان بن علي: سألت الحسن عن قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ



لَهُۥۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥]، فقلت: يا أبا سعيد: هي لنا كما كانت لبني إسرائيل؟ قال: إي والذي لا إله غيره ما كانت دماء بني إسرائيل أكرم على الله من دمائنا، ﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ﴾ [المائدة: ٣٢](٥٤).

وعَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ قَتَلَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ لَمْ يَجِدْ رِيحَ الجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ سَبْعِينَ عَامًا»(٥٥).

وقال أبو الوليد الباجي: وإياكم والعون على سفك دم بكلمة أو المشاركة فيه بلفظة، فلا يزال الإنسان في فسحة من دينه ما لم يغمس يده أو لسانه في دم حرام(٥٦).

هذا وقد تعهّد الإسلام النفس بالحماية والرعاية منذ الطفولة، فنعى على أهل الجاهلية وأدهم للبنات خشية الفقر أو العار، وأنكر عليهم ذلك نكيرًا شديدًا؛ حيث يقول الحق سبحانه: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓۚ أَيُمۡسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمۡ يَدُسُّهُۥ فِي ٱلتُّرَابِۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾[النحل: ٥٨ - ٥٩]، ويقول تعالى: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ﴾ [الأنعام: ١٥١]، ويقول تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـٔٗا كَبِيرٗا﴾ [الإسراء: ٣١]، ويقول سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ﴾ [التكوير: ٨ - ٩]، وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ أن رجلًا قال: يا رسول الله، أي الذنب أكبر عند الله؟ قال: «أَنْ تَدْعُوَ لله نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ» قال: ثم أي؟ قال: «أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشْيَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ»، قال: ثم أي؟ قال: «أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ»(٥٧)، وقال ﷺ: «مَنْ كَانَتْ لَهُ أُنْثَى فَلَمْ يَئِدْهَا، وَلَمْ يُهِنْهَا، وَلَمْ يُؤْثِرْ وَلَدَهُ عَلَيْهَا أَدْخَلَهُ الله الجَنَّةَ»(٥٨).

وعن عبادة بن الصامت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا، أنّ رسول الله ﷺ قال وحوله عصابة من أصحابه: «بَايِعُونِي عَلَى أَنْ لا تُشْرِكُوا بِالله شَيْئًا، وَلا

تَسْرِقُوا، وَلا تَزْنُوا، وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ، وَلا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلا تَعْصُوا فِي مَعْرُوفٍ»(٥٩).

ولم يقف أمر الإسلام في الحفاظ على النفس عند هذا الحد بل تعداه إلى النهي عن مجرد ترويع الآمنين أو إخافتهم، يقول نبينا ﷺ: «مَنْ أَشَارَ إِلَى أَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ فَإِنَّ المَلَائِكَةَ تَلْعَنُهُ وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لأَبِيهِ وَأُمِّهِ»(٦٠)، ويقول ﷺ: «مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلَاحَ فَلَيْسَ مِنَّا»(٦١).

وإذا كان نبينا ﷺ قد حدثنا عن امرأة دخلت النار في هرة حبستها لا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض، فما بالكم بمن يقتل البشر ويحرق ويسفك الدماء؟! ومن ثمَّ يتضح أن الإسلام دين رحمة وسماحة، لا دين قتل وإرهاب، يقول الحق سبحانه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وهي ليست رحمة خاصة بجنس أو نوع أو زمان؛ بل هي رحمة عامة لجميع المخلوقات، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

كما أن الإسلام لم يترك أمر النفس الإنسانية لمجرد التراحم إنما حصنها بحد القصاص، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَىۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٨- ١٧٩]، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥].

ولمزيد من الحفاظ على النفس شدَّد الإسلام في شأن القصاص حتى إن سيدنا عمر بن

الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حينما اجتمع جماعة من أهل صنعاء على رجل واحد فقتلوه، فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَوْ تَمَالَأَ عَلَيْهِ أَهْلُ صَنْعَاءَ لَقَتَلْتُهُمْ جَمِيعًا»[62].

وكان أبو العالية رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: «جعل الله القصاص حياة، فكم من رجل يريد أن يَقتُل؛ فتمنعه مخافة أن يُقتل»[63].

وحتى في الحرب كان النبي ﷺ يوصي قائد الجيش قبل انطلاقه، فعن أَنَس بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «انْطَلِقُوا بِاسْمِ الله وَبِالله وَعَلَى مِلَّةِ رَسُولِ الله، لَا تَقْتُلُوا شَيْخًا فَانِيًا، وَلَا طِفْلًا، وَلَا صَغِيرًا، وَلَا امْرَأَةً، وَلَا تَغُلُّوا، وَضُمُّوا غَنَائِمَكُمْ، وَأَصْلِحُوا وَأَحْسِنُوا، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ»[64]، ولما رأى ﷺ امرأة مقتولة في إحدى المعارك قال ﷺ: «مَا كَانَتْ هَذِهِ لِتُقَاتِلَ»[65]، ويقول الحق سبحانه: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ٩٤].

وقد دعا الإسلام إلى الحفاظ على النفس دون النظر إلى الدين، فلم يفرق في الدماء بين مسلم وغير مسلم، أو بين حرٍّ وعبد، فعَنْ عَبْدِ الله بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا»[66]، وعَنْ سَمُرَةَ ابْنِ جُنْدُبٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ قَتَلَ عَبْدَهُ قَتَلْنَاهُ، وَمَنْ جَدَعَ عَبْدَهُ جَدَعْنَاهُ»[67].

وحتى في الحرب حثنا الإسلام على عدم الإسراع في القتل، فعن أُسَامَةَ بْن زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: بَعَثَنَا رَسُولُ الله ﷺ إِلَى الحُرَقَةِ مِنْ جُهَيْنَةَ، فَصَبَّحْنَا القَوْمَ فَهَزَمْنَاهُمْ وَلَحِقْتُ أَنَا وَرَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ رَجُلًا مِنْهُمْ، فَلَمَّا غَشِينَاهُ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا الله، فَكَفَّ عَنْهُ الأَنْصَارِيُّ، وَطَعَنْتُهُ بِرُمْحِي حَتَّى قَتَلْتُهُ، قَالَ: فَلَمَّا قَدِمْنَا بَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ لِي: «يَا أُسَامَةُ، أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا الله؟» قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّمَا كَانَ مُتَعَوِّذًا، قَالَ: فَقَالَ: «أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا الله؟» قَالَ: فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا عَلَيَّ

حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ»[68]، وفي رواية أخرى أن رسول الله ﷺ قَالَ له: «فَكَيْفَ تَصْنَعُ بِلَا إِلَهَ إِلَّا الله إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» قَالَ: يَا رَسُولَ الله، اسْتَغْفِرْ لِي، قَالَ: «وَكَيْفَ تَصْنَعُ بِلَا إِلَهَ إِلَّا الله إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» قَالَ: فَجَعَلَ لَا يَزِيدُهُ عَلَى أَنْ يَقُولَ: «كَيْفَ تَصْنَعُ بِلَا إِلَهَ إِلَّا الله إِذَا جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[69].

ولعظم حرمة النفس الإنسانية، فإن الإسلام كما حرم قتل الإنسان غيره حرم قتله لنفسه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩]، وقال سبحانه: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ يَتَرَدَّى فِيهِ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَحَسَّى سُمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَسُمُّهُ فِي يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَجَأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا»[70].

وأباح الشرع للمضطر أكل أو شرب ما يحفظ عليه حياته حال الضرورة التي تصل إلى خشية الهلاك؛ حفاظًا على النفس الإنسانية، على ألا يتجاوز في ذلك حدَّ هذه الضرورة، فقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثْمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [المائدة: ٣]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطْعَمُهُۥٓ



إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

حفظ المال

لقد أحاط الإسلام المال بسياجات متعددة من الحفظ؛ فنهى عن أكل الحرام بكل صوره وأشكاله نهيًا قاطعًا لا لبس فيه، فقال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ٢٩ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾

[النساء: ٢٩ – ٣٠].

وقال جل شأنه: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقٗا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾

[البقرة: ١٨٨].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾ [النساء: ١٠]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَوۡلَا يَنۡهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ عَن قَوۡلِهِمُ ٱلۡإِثۡمَ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾ [المائدة: ٦٣].

وقال سبحانه على لسان سيدنا شعيب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ [هود: ٨٥].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا أن سيدنا سَعْد ابْن أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ قال: يَا رَسُولَ الله، ادْعُ الله أَنْ يَجْعَلَنِي مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا سَعْدُ أَطِبْ مَطْعَمَكَ تَكُنْ مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنَّ العَبْدَ لَيَقْذِفُ اللُّقْمَةَ الحَرَامَ فِي جَوْفِهِ فَلا يُقبَلُ مِنْهُ عَمَلَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، وَأَيُّمَا عَبْدٍ نَبَتَ لَحْمُهُ مِنَ السُّحْتِ وَالرِّبَا فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ»[٧١]، وعن خَوْلَةَ بِنْتِ قَيْسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا، قالت: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «رُبَّ مُتَخَوِّضٍ فِيمَا شَاءَتْ بِهِ نَفْسُهُ مِنْ مَالِ الله وَرَسُولِهِ لَيْسَ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ إِلاَّ النَّارُ»[٧٢].

وقد كان بعض الصالحين يتركون بعض

الحلال مخافة أن تكون فيه شبهة حرام؛ حيث يقول نبينا ﷺ: «إِنَّ الحَلالَ بَيِّنٌ، وَإِنَّ الحَرامَ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُما مُشْتَبِهاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقى الشُّبُهاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ، وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهاتِ وَقَعَ فِي الحَرامِ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الحِمَى، يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا وَإِنَّ حِمَى الله مَحارِمُهُ، أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ القَلْبُ»[٧٣].

وقد ذكر نبينا ﷺ: «الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّماءِ، يا رَبِّ يا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرامٌ، ومكسبه حَرامٌ، وَغُذِّيَ بِالحَرامِ، فَأَنَّى يُسْتَجابُ لَهُ؟»[٧٤]، ويقول ﷺ: «إِنَّ رِجالًا يَتَخَوَّضُونَ فِي مَالِ الله بِغَيْرِ حَقٍّ فَلَهُمُ النَّارُ يَوْمَ القِيامَةِ»[٧٥].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: خَرَجْنا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِلى خَيْبَرَ، فَفَتَحَ الله عَلَيْنا، فَلَمْ نَغْنَمْ ذَهَبًا وَلا وَرِقًا، غَنِمْنا المَتاعَ وَالطَّعامَ وَالثِّيابَ، ثُمَّ انْطَلَقْنا إِلَى الوادِي، وَمَعَ رَسُولِ الله ﷺ عَبْدٌ لَهُ، وَهَبَهُ لَهُ رَجُلٌ مِنْ جُذامٍ، يُدْعَى رِفاعَةَ بْنَ زَيْدٍ مِنْ بَنِي الضُّبَيْبِ، فَلَمَّا نَزَلْنا الوادِيَ قامَ عَبْدُ رَسُولِ الله ﷺ يَحُلُّ رَحْلَهُ فَرُمِيَ بِسَهْمٍ؛ فَكانَ فِيهِ حَتْفُهُ. فَقُلْنا: هَنِيئًا لَهُ الشَّهادَةُ يا رَسُولَ الله، قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «كَلَّا، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! إِنَّ الشَّمْلَةَ لَتَلْتَهِبُ عَلَيْهِ نارًا، أَخَذَها مِنَ الغَنائِمِ يَوْمَ خَيْبَرَ، لَمْ تُصِبْها المَقاسِمُ»، قالَ: فَفَزِعَ النَّاسُ. فَجاءَ رَجُلٌ بِشِراكٍ أَوْ شِراكَيْنِ. فَقالَ: يا رَسُولَ الله! أَصَبْتُ يَوْمَ خَيْبَرَ، فَقالَ رَسُولُ الله ﷺ: «شِراكٌ مِنْ نارٍ أَوْ شِراكانِ مِنْ نارٍ»[٧٦]، ويقول ﷺ: «كُلُّ لَحْمٍ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ فَالنَّارُ أَوْلَى بِهِ»[٧٧].

فأكل الحرام قتل للنفس، وإهلاك وتدمير لها في الدنيا والآخرة، فهو في الدنيا وبال على صاحبه في صحته، في أولاده، في عرضه، في أمواله، ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٧].

ولم يقف حفظ الإسلام للمال عند العقوبات الأخروية أو التحذير من عذاب الله عَزَّوَجَلَّ وعقابه يوم القيامة، إنما شرع لحفظه



حدودًا، منها حد السرقة حيث يقول الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨]، وحد الحرابة للمفسدين والعصابات المجرمة التي تتعرض للناس فتنهب أموالهم تحت تهديد السلاح؛ حيث يقول الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣].

وشرع الإسلام الضمان عقوبة لإتلاف المال، وحثّنا على الوفاء بالعقود والحقوق، فقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١]، ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]، ويقول نبينا ﷺ: «مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ أَدَاءَهَا أَدَّى اللهُ عَنْهُ، وَمَنْ أَخَذَهَا يُرِيدُ إِتْلَافَهَا أَتْلَفَهُ اللهُ»(٧٨).

كما حثنا الشرع الحنيف على كتابة الدين وتوثيقه والإشهاد عليه، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، ويقول جل شأنه: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

على أن حرمة المال العام أشدُّ إثمـًا وجرمًا من حرمة المال الخاص، وذلك لكثرة الحقوق المتعلقة به، وتعدد الذمم المالكة له، ولذلك حذر الإسلام من إتلافه، أو سرقته، أو الإضرار به، قال تعالى: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦١]، ويقول نبينا ﷺ: «مَنْ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الأَرْضِ ظُلْمًا طَوَّقَهُ اللهُ إِيَّاهُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ»[٧٩].

وقد نهى الإسلام عن الإسراف والتبذير، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٦ - ٢٧]، ويقول تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [النساء: ٥].

وشرع الحجر لحق المال حفاظًا عليه من الضياع، كما أن الإسراف إذا وصل إلى حد السفه أو التبذير فإنه يواجه بالشرع والقانون معًا، فالقانون ينظم الحقوق والواجبات، وهو في ذلك ينطلق من منطلق شرعي؛ حيث أفرد الفقهاء في كتبهم بابًا للحجر على السفيه والمبذر، وقسموه قسمين؛ الأول: الحجر لحق الدين أو لحق الدائنين، وهو ما يعبر عنه في القانون المدني بالحجز، والقسم الآخر: الحجر لحق المال، سواء أكان نقدًا أم عينًا مقومة بنقد، وسموه الحجر على السفيه والمبذر، فيُعطَى الإنسان الحق في التصرف في ماله ما دام يتصرف فيه بحدود العقل والمنطق، فإن خرج عن حدود العقل والمنطق إلى درجة التبذير والسفه كان الحكم عليه بالحجر لحق المال، وتعيين وليّ له يتولى شئون إدارة ماله وتسيير أموره؛ حيث يقول الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [النساء: ٥].

ذلك أن المال في الحقيقة مال الله؛ حيث يقول تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [النور: ٣٣]، ونحن مستخلفون

عليه؛ حيث يقول تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ [الحديد: ٧]، فمن أحسن الاستخلاف كان له الحق في التصرف فيه بحقه، ومن أساء الاستخلاف فيه كان الحجر عليه حفاظًا على المال الذي هو حق لصاحبه ما أحسن التصرف فيه، فإن أساء التصرف فيه تدخل الشارع للحفاظ عليه.

حفظ العقل

تحدث القرآن الكريم عن العقل بما ينبئ عن مكانته وأهميته، ودعانا إلى التفكر والتأمل وحسن استخدام العقل، فقال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]، وحثنا على التدبر والتفكر واستخدام العقل في كثير من المواضع؛ حيث يقول سبحانه: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤]، ويقول تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [النحل: ٦٧]، يقول سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ﴾ [الروم: ٨]، ويقول جَلَّجَلَالُهُ: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١]، ويقول تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١] ويقول جل شأنه: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [يوسف:

٢]، ويقول عزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤]، ويقول تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [النور: ٦١]، ويقول سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾ [طه: ٥٤]، ويقول تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، ويقول جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، ولما نزلت هذه الآية قال نبينا ﷺ: «وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا»[٨٠].

وقد ميَّز الله عَزَّوَجَلَّ الإنسان عن سائر الخلق بالعقل والفكر والتأمل والتدبر والتمييز، ونعى على من أهملوا هذه النعم ولم يوفوها حقها، فقال سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَا يَعۡقِلُونَ﴾ [يس: ٦٨]، ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠]، ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٨٠]، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

يقول الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لو كان العقل يشترى؛ لتغالى الناس في ثمنه، فالعجب ممن يشتري بماله ما يفسده[٨١].

ويقول العز بن عبد السلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ونحفظ العقل لفوائده، ولا يجوز تخبيله بشيء من المسكرات، ولا يجوز ستره بالمغفلات المحرمات، ويُستحب صونه عن الغفلة، وذلك بنفي أسباب الغفلات من الشواغل الملهيات[٨٢].

وعن مطرف بن عبد الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: ما أوتي عبدٌ بعد الإيمان أفضل من العقل[٨٣].

وعن عامر بن عبد قيس رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: إِذَا عَقَلَكَ عَقْلُكَ عَمَّا لَا يَنْبَغِي فَأَنْتَ عَاقِلٌ[٨٤].

وعن سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: لَيْسَ العَاقِلُ الَّذِي يَعْرِفُ الخَيْرَ وَالشَّرَّ، إِنَّمَا العَاقِلُ الَّذِي إِذَا رَأَى الخَيْرَ اتَّبَعَهُ وَإِذَا رَأَى الشَّرَّ اجْتَنَبَهُ[٨٥].

ويقول وهب بن منبه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال لقمان لابنه: يا بني، اعقل عن الله، فإن أعقل الناس عن الله: أحسنهم عقلًا، وإن الشيطان ليفر من العاقل وما يستطيع أن يكابده[٨٦].



ويقول أيضًا: لإزالة الجبل صخرة صخرة وحجرًا حجرًا أيسر على الشيطان من مكابدة المؤمن العاقل؛ لأنه إذا كان مؤمنًا عاقلًا ذا بصيرة، فلهو أثقل على الشيطان من الجبال، وأصعب من الحديد؛ وأنه ليزايله بكل حيلة، فإذا لم يقدر أن يستزله، قال: يا ويله، ما له ولهذا، لا حاجة لي بهذا، ولا طاقة لي بهذا، فيرفضه؛ ويتحول إلى الجاهل، فيستأسره، ويستمكن من قياده، وأن الرجلين ليستويان في أعمال البر، فيكون بينهما كما بين المشرق والمغرب، أو أبعد؛ إذا كان أحدهما أعقل من الآخر[٨٧].

ويقول أيضًا: وإني وجدت في بعض ما أنزل الله على أنبيائه: أن الشيطان لم يكابد شيئًا أشد عليه من مؤمن عاقل، وأنه يكابد مائة ألف جاهل، فيسخر بهم، حتى يركب رقابهم، فينقادون له حيث شاء؛ ويكابد المؤمن العاقل، فيصعب عليه، حتى لا ينال منه شيئًا[٨٨].

وقال ابن الجوزيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: العاقل يدبّر بعقله معيشته في الدّنيا، فإن كان فقيرًا اجتهد في كسب وصناعة تكفّه عن الذّل للخلق، وقلّل العلائق، واستعمل القناعة، فعاش سليمًا من منن النّاس، عزيزًا بينهم، وإن كان غنيًّا فينبغي له أن يدبّر في نفقته خوف أن يفتقر فيحتاج إلى الذّل للخلق؛ فإنما التّدبير حفظ المال، والتّوسّط في الإنفاق»[٨٩].

ويقول الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن من حنّكتْهُ التجارب، وهذّبتْه المذاهب، يقال: إنه عاقل في العادة، ومن لا يتصف بهذه الصفة، يقال: إنه غبي، غمر، جاهل»[٩٠].

ويقول الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وإلى جانب حفظ العقل عن طريق تحريم الخمر فإن حفظه أيضًا في حفظ النفس بالكلية، إذ هو داخل في حرمة حفظ النفس كسائر الأعضاء ومنافعها من السمع والبصر وغيرهما، فالعقل محفوظ شرعًا في الأصول الكلية عما يزيله رأسًا كسائر الأعضاء ساعةً أو لحظةً[٩١].

ويقول الأستاذ/ عباس محمود العقاد في منزلة العقل ومكانته في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ: والقرآن الكريم لا يذكر العقل إلا في مقام

التعظيم والتنبيه إلى وجوب العمل به والرجوع إليه، ولا تأتي الإشارة إليه عارضة ولا مقتضبة في سياقها؛ بل هي تأتي في كل موضع من مواضعها مؤكدة جازمة باللفظ والدلالة، وتتكرر في كل معرض من معارض الأمر والنهي التي يُحثُّ فيها المؤمن على تحكيم عقله، أو يُلام فيها المنكر على إهمال عقله وقبول الحجر عليه[92].

ويقول الشاعر[93]:

وأفضل قَسْمِ الله للمرء عقلُه
وليس من الخيرات شيء يقاربُه

فزين الفتى في الناس صحةُ عقلِه
وإن كان محظورًا عليه مكاسبُه

وَيُزري به في الناس قِلةُ عقله
وإن كَرُمَت أعراقُه وَمَناسِبُه

على أن عقل كل فردٍ من أفراد المجتمع ليس حقًّا خالصًا له يتصرف فيه كيف يشاء، إنما هو نعمة من نعم الله عَزَّوَجَلَّ التي يجب الحفاظ عليها والعناية بها، كما أن للمجتمع حقًّا فيه أيضًا باعتبار أن كل شخص لبنة من لبنات المجتمع، وأن مصالح الأمة لا تستقيم إلا إذا كانت عقول أبنائها سليمة من الآفات؛ قادرة على التفكير السليم والتخطيط الدقيق لكل ما من شأنه أن يعود بالخير والسعادة على الفرد والمجتمع، فعدوان الشخص على عقله بتدميره عن طريق تعاطي المخدرات التي تفسده وتعطله عن التفكير السوي، وتنحرف به إلى المهالك إنما تضر بالمجتمع الذي يعيش فيه؛ نظرًا لأن هذا السلوك المنحرف من شأنه أن يفقد المجتمع عضوًا كان من المفروض أن يكون عضوًا صالحًا وعقلًا مفكرًا يساعد في بناء مجتمعه وتقدمه، كما أن فقدان العقل قد يتجاوز الضرر الفردي إلى ضرر المجتمع جراء سوء تصرف من يفقد عقله؛ فتقع الجريمة، ويقل الأمن والأمان، ويكثر الفساد والإفساد، وتغيب المودة والمحبة بين الناس، وتؤدي إلى نشر العداوة والبغضاء، وهي أمور مذمومة جاءت الشريعة الإسلامية بمحاربتها ومنعها، مؤكدة أن الخمر أحد سبل إيقاع العداوة والبغضاء بين الناس، ومن ثمة أحاط الإسلام



العقل بسياجات عديدة من الحفظ، فقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠ - ٩١].

على أن اهتمام الشرع الحنيف بنعمة العقل يتطلب من المسلم أن يحافظ عليه وأن لا يتناول من الأشياء ما يفسده أو يعطل وظيفته أو يضره ويؤذيه، يقول رسول الله ﷺ: «لا ضَرَرَ ولا ضِرَارِ»[٩٤].

وقد كان النبي ﷺ إذا بايع أصحابه (رضوان الله عليهم) قال: «أُبَايِعُكُمْ عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِالله شَيْئًا، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ الله إِلَّا بِالْحَقِّ، وَلَا تَزْنُوا، وَلَا تَسْرِقُوا، وَلَا تَشْرَبُوا مسكرًا»[٩٥]، فقوله ﷺ: «وَلَا تَشْرَبُوا مسكرًا» بصيغة العموم يشمل جميع المسكرات، دون النظر إلى مسمياتها.

وعن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: سُئِلَ رَسُولُ الله ﷺ عَنِ البِتْعِ، وَهُوَ نَبِيذُ العَسَلِ، وَكَانَ أَهْلُ اليَمَنِ يَشْرَبُونَهُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «كُلُّ شَرَابٍ أَسْكَرَ فَهُوَ حَرَامٌ»[٩٦]، وعن ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لُعِنَت الخَمْرُ عَلَى عَشْرَةِ وُجُوهٍ: لُعِنَت الخَمْرُ بِعَيْنِهَا، وَشَارِبُهَا، وَسَاقِيهَا، وَبَائِعُهَا، وَمُبْتَاعُهَا، وَعَاصِرُهَا، وَمُعْتَصِرُهَا، وَحَامِلُهَا، وَالْمَحْمُولَةُ إِلَيْهِ، وَآكِلُ ثَمَنِهَا»[٩٧].

وعن عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «اجْتَنِبُوا الخَمْرَ فَإِنَّهَا أُمُّ الخَبَائِثِ، إِنَّ رَجُلًا مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانَ يَتَعَبَّدُ، وَيَعْتَزِلُ النِّسَاءَ، فَعَلِقَتْهُ امْرَأَةٌ غَاوِيَةٌ، فَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ أَنِّي أُرِيدُ أَنْ أُشْهِدَكَ بِشَهَادَةٍ، فَانْطَلَقَ مَعَ جَارِيَتِهَا فَجَعَلَ كُلَّمَا دَخَلَ بَابًا أَغْلَقَتْهُ دُونَهُ حَتَّى أَفْضَى إِلَى امْرَأَةٍ وَضِيئَةٍ، وَعِنْدَهَا باطية خَمْرٌ، فَقَالَتْ: إِنِّي وَالله مَا دَعَوْتُكَ لِشَهَادَةٍ وَلَكِنْ دَعَوْتُكَ لِتَقَعَ عَلَيَّ أَوْ لِتَشْرَبَ مِنْ هَذَا الخَمْرَ كَأْسًا أَوْ لِتَقْتُلَ هَذَا الغُلَامَ، وَإِلَّا صِحْتُ بِكَ وَفَضَحْتُكَ، فَلَمَّا أَنْ رَأَى أَنْ لَيْسَ بُدٌّ مِنْ بَعْضِ مَا قَالَتْ، قَالَ: اسْقِينِي مَنْ هَذَا الخَمْرَ كَأْسًا

فَسَقَتْهُ، فَقَالَ: زِيدِينِي كَأْسًا فَشَرِبَ فَسَكِرَ، فَقَتَلَ الغُلَامَ وَوَقَعَ عَلَى المَرْأَةِ، فَاجْتَنِبُوا الخَمْرَ، فَوَاللهِ لَا يَجْتَمِعُ الإِيمَانُ وَإِدْمَانُ الخَمْرِ فِي قَلْبِ رَجُلٍ إِلَّا أَوْشَكَ أَحَدُهُمَا أَنْ يُخْرِجَ صَاحِبَهُ»[٩٨].

على أن حماية العقل أمر تُقِرُّه الفطرة السليمة فضلًا عن تعاليم الأديان السماوية؛ لذا رأينا بعض العرب في جاهليتهم أَنِفوا أن يشربوها، وهجروها، ورأوها مُذهبةً للعقل، مُسلبة للمال، مُسقطة للمروءة، فهذا أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد حرّم الخمر على نفسه، فلم يشربها في الجاهليّة، وذلك أنّه مرَّ برجل سكران يضع يده في العذرة ويدنيها من فيه فإذا وجد ريحها صرف عنها، فقال أبو بكر: إنّ هذا لا يدري ما يصنع، فحرّمها أبو بكر على نفسه[٩٩]، وفي الأثر: سُئل أبو بكر الصديق في مجمع من أصحاب رسول الله ﷺ: هل شربت خمرًا في الجاهلية؟ قال: أعوذ بالله، قالوا: ولم ذاك؟ فقال: كنت أصون عرضي وأحفظ مروءتي؛ لأنه من شرب الخمر كان لعرضه ومروءته مضيعًا، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «صدق أبو بكـر، صدق أبو بكـر»[١٠٠].

ويلحق بالخمر في حرمتها كل ما يغيب العقل بأي طريقة كانت: شربًا أو شمًّا أو حقنًا، فعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «نَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ كُلِّ مُسْكِرٍ وَمُفَتِّرٍ»[١٠١].

وكما دعانا الإسلام إلى حماية العقل من المخدرات، دعانا إلى حمايته من الأخبار الكاذبة والشائعات المغرضة، وأمرنا أن نتثبت ونتحقق، وأن نُعمل عقولَنا فيما يُعرض علينا أو يُنقل إلينا من أخبار، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ﴾ [النور: ١٥]، ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ﴾ [النور: ١٦]، ويقول نبينا ﷺ: «كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِبًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ»[١٠٢].



حفظ النسل والنسب والعرض(١٠٣)

حرص الإسلام على عمارة الكون، فشرع النكاح حفظًا للنسل والنسب معًا، وحرم الزنا منعًا لاختلاط الأنساب؛ حيث يقول الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، كما حرم نسبة الإنسان إلى غير أبيه، فقال سبحانه: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ۝ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤ - ٥]،، ويقول نبينا ﷺ: «مَنْ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ أَوْ انْتَمَى إِلَى غَيْرِ مَوَالِيهِ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ الله وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ لَا يَقْبَلُ الله مِنْهُ يَوْمَ القِيَامَةِ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا»(١٠٤).

ونهى الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نهيًا قاطعًا عن التعرض للنسل، وأكد في كتابه العزيز أن إهلاك النسل من أخص صفات المنافقين المفسدين، فقال سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ۝ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٤ - ٢٠٥].

على أن العرض مسألة إنسانية تحدث عنها العرب في جاهليتهم وبعد إسلامهم بما يتسق مع فطرتهم السليمة؛ فهذا السموأل بن عادياء يقول(١٠٥):

إِذا المَرءُ لَم يَدنَس مِنَ اللُؤمِ عِرضُـهُ
فَـكُلُّ رِداءٍ يَرتَـديهِ جَميـلُ
تُعَيِّـرُنا أَنّا قَليـلٌ عَـديدُنا
فَقُلتُ لَهـا إِنَّ الكِـرامَ قَليـلُ
وَمـا ضَرَّنا أَنّـا قَليـلٌ وَجارُنا
عَـزيزٌ وَجـارُ الأَكثَرينَ ذَليل

ويقول عنترة العبسي(١٠٦):

لا تسقني مـاءَ الحياةِ بذلـة
بل فاسقني بالعزِّ كأس الحنظـل

ويقول الشنفرى[١٠٧]:

وأستف ترب الأرض كي لا يرى به

علي مــن الطــول امــرؤ متطول

ويقول حسان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١٠٨]:

أصون عـرضي بمـــالي لا أدنسه

لا بارك الله بعـد العـرض في المـال

ويقول الإمام علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١٠٩]:

سـأمنح مالي كل من جـاء طالبًـا

وأجعله وقفًا على القرض والفـرض

فإمــا كريم صُنت بالمـال عرضـه

وإمــا لئيم صُنت عن لـومه عـرضي

ويقول البارودي[١١٠]:

خُلِقْتُ عَيُوفًـا لا أَرَى لابْـنِ حُـرَّةٍ

لَدَيَّ يَدًا أُغْضِي لهـا حِيـنَ يَغْضَـبُ

ويقول الآخر[١١١]:

إذا قـلَّ ماءُ الوجـهِ قـلَّ حياؤهُ

فلا خيـرَ في وجـهٍ إذا قـلَّ مـاؤهُ

حيـاءَك فـــاحفظْـه عليك فإنَّما

يدلُّ علـى فضـلِ الكريـمِ حيـاؤهُ

ولحفظ العرض حرَّم الله تعالى الزنا، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨].

كما نهى عن مجرد القرب منه، فقال جل شأنه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ ۖ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، وقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢]، وقال الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٢].

وأمر بغض البصر، فقال سبحانه: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ



أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣٠ - ٣١].

وكما أمر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بغضّ البصر أمر النساء بعدم ترقيق الكلام إذا خاطبن الرجال، فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: ٣٢]، وشرع حد القذف لحفظ الأعراض وحمايتها من النيل منها أو المساس بها، فقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٤]، وعدَّ نبينا ﷺ قذف المحصنات من الكبائر، فقال ﷺ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ»، قيل: يا رسول الله وما هنّ؟ قال: «الشِّرْكُ بِالله، وَالسِّحْرُ وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ الله إِلاَّ بِالحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبا، وَأَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ الغافِلاتِ»[١١٢].

وقد سمَّى القرآن الكريم رمي المحصنات إفكًا، فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [النور: ١١ - ١٣]، ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ

ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٥ - ١٩].

ومما يؤكد التشديد على هذا النكير أن حد القتل يثبت بشهادة رجلين عدلين، أما حد الزنا فلا يثبت إلا بشهادة أربعة رجال عدول، فإن نكل أحدهم عن الشهادة أقيم حد القذف على الثلاثة الآخرين؛ حيث يقول الحق سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور: ٤].

ونهانا ديننا الحنيف عن الغمز واللمز والسباب والفسوق والسخرية، يقول الحق تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١].

والعرض له معنيان؛ خاص: وهو ما ينال الإنسان في شرفه وشرف أهله من زوجة وبنت وأم وبنت أخت وعمة وخالة وسائر المحارم، وعام: وهو أوسع من ذلك وأعم، وهو كل ما يمس الإنسان في كرامته، في إنسانيته، في مروءته، في سائر تصرفاته، وهذا سيدنا حسان ابن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول في رده على أبي سفيان ابن الحارث(١١٣):

هَجَوْتَ مُحَمَّدًا فَأَجَبْتُ عَنْهُ
وَعِنْدَ اللهِ فِي ذَاكَ الجَزَاءُ

أَتَهجُوهُ وَلَستَ لَهُ بِكُفءٍ
فَشَرُّكُما لِخَيرِكُما الفِداءُ

هجوتَ مباركًا برًّا حنيفًا
أمينَ الله شيمَتُهُ الوَفاءُ

فَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللهِ مِنْكُمْ
وَيَمْدَحُهُ وَيَنْصُرُهُ سَوَاءُ؟

فَإِنَّ أَبِي وَوَالِدَهُ وَعِرْضِي
لِعِرْضِ مُحَمَّدٍ مِنْكُمْ وِقَاءُ

لساني صارمٌ لا عيب فيه
وبحري لا تُكَدِّرُهُ الدلاءُ

وقد حرَّم الإسلام الاعتداء على الأعراض عامها وخاصها، أو النيل منها بأي وجه من الوجوه؛ فأولاها عناية خاصة، وأوجب

صيانتَها والمحافظةَ عليها.

ومن صور الحفاظ على الأعراض حثُّ الإسلام على عفة الفرج والبطن، فأما عفة الفرج فهو مما تزكو به النفوس، وتسلم به المجتمعات، ويحفظ به الأمن، وتصان به الأعراض، فعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: «مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الجَنَّةَ»(١١٤)، ويقول ﷺ: «اضْمَنُوا لِي سِتًّا مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَضْمَنْ لَكُمُ الجَنَّةَ: اصْدُقُوا إِذَا حَدَّثْتُمْ، وَأَوْفُوا إِذَا وَعَدْتُمْ، وَأَدُّوا إِذَا اؤْتُمِنْتُمْ، وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ، وَغُضُّوا أَبْصَارَكُمْ، وَكُفُّوا أَيْدِيَكُمْ»(١١٥).

وأما عفّة البطن، فيقصد بها تحري الحلال في كل ما يدخل البطن من طعام أو شراب أو غير ذلك، فعَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ: «اسْتَحْيُوا مِنَ الله عَزَّ وَجَلَّ حَقَّ الحَيَاءِ» قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ الله إِنَّا نَسْتَحِي وَالحَمْدُ لله، قَالَ: «لَيْسَ ذَلِكَ وَلَكِنْ مَنِ اسْتَحَى مِنَ الله حَقَّ الحَيَاءِ فَلْيَحْفَظِ الرَّأْسَ وَمَا حَوَى وَلْيَحْفَظِ البَطْنَ وَمَا وَعَى، وَلْيَذْكُرِ المَوْتَ وَالْبِلَى، وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدِ اسْتَحْيَا مِنَ الله عَزَّ وَجَلَّ حَقَّ الحَيَاءِ»(١١٦).

فعلى العاقل أن يحفظ عرضه خاصًّا وعامًّا؛ حيث إن الإنسان ما هو إلا عرض، يقول نبينا ﷺ: «إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الأُولَى: إِذا لَمْ تَسْتَحْيِ فاصْنَعْ ما شِئْتَ»(١١٧).

* * *

الهوامش:

(١) سنن الترمذي، أبواب الدّيات، باب ما جاء فيمن قتل دون ماله فهو شهيدٌ، حديث رقم: ١٤٢١، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) الفروق لأبي العباس شهاب الدين المالكي الشهير بالقرافي، ٤/ ٣٣، عالم الكتب، ونفائس الأصول في شرح المحصول للقرافي، ٤/ ١٩٣٢، والتقرير والتحبير لابن أمير الحاج، ٣/ ١٤٤، دار الكتب العلمية، بيروت، والإبهاج في شرح المنهاج للبيضاوي، لعلي ابن عبد الكافي السبكي، ٢/ ١٥٢، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٣) تشنيف المسامع بجمع الجوامع للزركشي، ٢/ ٤٦، مكتبة قرطبة للبحث العلمي وإحياء التراث، وإرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول للشوكاني، ٢/ ١٢٩-١٣٠، دار الكتب العلمية، بيروت، وجمع الجوامع في أصول الفقه لتاج الدين السبكي، ص٩٢، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٤) انظر: المستصفى لأبي حامد الغزالي، ١/ ١٧٤، دار الكتب العلمية.

(٥) انظر: الإحكام في أصول الأحكام للآمدي، ٤/ ٢٧٥، ٢٧٧، تحقيق: عبد الرزاق عفيفي، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان.

(٦) انظر: إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول للشوكاني، ٢/ ١٢٩.

(٧) انظر: الفروق للقرافي، ٤/ ٣٣.

(٨) انظر: شرح تنقيح الفصول للقرافي، ١/ ١٦٤، تحقيق: طه عبد الرءوف سعد، شركة الطباعة الفنية المتحدة.

(٩) انظر: الفروق للقرافي، ٤/ ٣٣.

(١٠) انظر: المحصول للرازي، ٥/ ١٦٠، تحقيق: د/ طه جابر فياض العلواني، مؤسسة الرسالة، بيروت.

(١١) انظر: المصدر السابق، ٥/ ٤٥٨.

(١٢) صحيح مسلم، كتاب الجنّة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصّفات التي يعرف بها في الدّنيا أهل الجنّة وأهل النّار، حديث رقم: ٢٨٦٥.

(١٣) انظر: الموافقات للإمام الشاطبي، ١/ ٣١٨، تحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.

(١٤) المصدر السابق، ١/ ٢٣٤.

(١٥) انظر: قواعد الأحكام في مصالح الأنام، للعز بن عبد السلام، ١٥٤ بتصرف يسير، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة.

(١٦) المستدرك للحاكم، كتاب الإيمان، حديث رقم: ١٠٠، وقال: هذا حديث صحيح على شرطهما، ووافقه الذهبي.

(١٧) مسند أحمد، ١٤/ ٥١٢، حديث رقم: ٨٩٥٢.

(١٨) انظر: تفسير الطبري، ١٢/ ٢٢٦، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، وتفسير ابن كثير ٣/ ٣٥٩، دار طيبة للنشر والتوزيع.

(١٩) متفق عليه: صحيح البخاري: كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، حديث رقم: ٣٣، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، حديث رقم: ٥٩.

(٢٠) متفق عليه: صحيح البخاري: كتاب بدء الوحي، باب علامات المنافق، حديث رقم: ٣٤، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، حديث رقم: ٥٨.

(٢١) جامع بيان العلم، لابن عبد البر، ١/ ١٤٥، دار ابن الجوزي، السعودية، ١٩٩٤م.

(٢٢) صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب من لم يدع قول الزّور والعمل به، حديث رقم: ١٩٠٣.

(٢٣) صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب قبول الصّدقة من الكسب الطّيّب، حديث رقم: ١٠١٥.

(٢٤) صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب وجوب الطهارة للصلاة، حديث رقم: ٢٢٤، وسنن ابن ماجه، كتاب الطهارة، باب لا يقبل الله صلاةً بغير طهور، حديث رقم: ٢٧٣، واللفظ له.

(٢٥) سنن الترمذي، أبواب المناقب، باب في فضل مكّة، حديث رقم: ٣٩٢٥، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب.

(٢٦) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب فضائل المدنية، باب كراهية النّبيّ أن تعرى المدينة، حديث رقم: ١٨٨٩، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب الحج، باب الترغيب في سكن المدينة والصبر على لأوائها، حديث رقم: ١٣٧٦.

(٢٧) صحيح البخاري، كتاب فضائل المدنية، باب المدينة تنفي الخبث، حديث رقم: ١٨٨٦.

(٢٨) سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي ١٥/ ٣٩٤ ترجمة رقم ٢١٦، مؤسسة الرسالة، بيروت.

(٢٩) كشف الخفاء للعجلوني، دار إحياء التراث العربي ١/ ٣٤٧، وانظر: الآداب الشرعية لابن مفلح، ص ٢٩٢، بتصرف.

(٣٠) العقد الفريد، ٤/ ٣١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

(٣١) راجع كتابنا: الدين والدولة، ص ٥وما بعدها، وزارة الأوقاف المصرية.

(٣٢) انظر: ديوان أحمد شوقي، ١/ ٣٥٠، نهضة مصر.

(٣٣) انظر: ديوان أحمد شوقي، ٢/ ٢٥٥.

(٣٤) انظر: ديوان أحمد محرم، ص ٧٠، مكتبة جزيرة الورد، القاهرة.

(٣٥) انظر: ديوان الشاعر القروي، المجلد الأول، الطبعة الخامسة، دار المسيرة، بيروت.

(٣٦) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الوصايا، باب قول الله تعالى: ﴿إن الذين يأكلون أموال الناس ظلمًا...﴾ حديث رقم: ٢٧٦٦، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، حديث رقم: ٨٩.

(٣٧) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الديات، باب قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾، حديث رقم: ٦٨٧١، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، حديث رقم: ٨٨.

(٣٨) صحيح البخاري، كتاب الديات، باب قَوْلِ الله تَعَالَى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾، حديث رقم: ٦٨٦٢.

(٣٩) سنن الترمذي، أبواب الديات، باب ما جاء في تشديد قتل المؤمن، حديث رقم: ١٣٩٥.

(٤٠) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله، حديث رقم: ٢٥٦٤.

(٤١) المعجم الأوسط للطبراني، ٤/ ٢٨٦، حديث رقم: ٤٢١٧، دار الحرمين، القاهرة.

(٤٢) سنن الترمذي، كتاب الديات، باب الحكم في الدّماء، حديث رقم: ١٣٩٨، وقال: هذا حديث غريب.

(٤٣) المعجم الكبير للطبراني، ١١/ ٧٩، حديث رقم: ١١١٠٢.

(٤٤) مسند أحمد، ١٧/ ٤٥٠ - ٤٥١، حديث رقم: ١١٣٥٤.

(٤٥) سنن ابن ماجه، كتاب الفتن، باب حرمة دم المؤمن وماله، حديث رقم: ٣٩٣٢.

(٤٦) صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب من شاق شق الله عليه، حديث رقم: ٧١٥٢.

(٤٧) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب القصاص يوم القيامة، حديث رقم: ٦٥٣٣، وصحيح مسلم، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والدّيات، باب المجازاة بالدّماء في الآخرة، وأنّها أوّل ما يقضى فيه بين النّاس يوم القيامة، حديث رقم: ١٦٧٨، واللفظ له.

(٤٨) مسند أحمد، ٢٨/ ١١٢، حديث رقم: ١٦٩٠٧.

(٤٩) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الديات، بَابُ قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾، حديث رقم: ٦٨٦٨، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض، حديث رقم: ٦٦.

(٥٠) صحيح مسلم، كتاب الفتن، باب لا تقوم السّاعة حتّى يمرّ الرّجل بقبر الرّجل، فيتمنّى أن يكون مكان الميّت من البلاء، حديث رقم: ٢٩٠٨.

(٥١) المصدر السابق، الموضع نفسه.

(٥٢) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب العلم، باب ليبلغ العلم الشاهد الغائب، حديث رقم: ١٠٥، وصحيح مسلم، كتاب القسامة، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض، حديث رقم: ١٦٧٩.

(٥٣) صحيح البخاري، كتاب الديات، باب قَوْلِ الله تَعَالَى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾، حديث رقم: ٦٨٦٣.

(٥٤) تفسير البغوي، ٣/ ٤٧، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، ١٩٩٧م.

(٥٥) مسند أحمد، ٢٩/ ٦١٤، حديث رقم: ١٨٠٧٢.

(٥٦) انظر: النصيحة الولدية، وصية أبي الوليد الباجي لولديه، لأبي الوليد سليمان بن خلف الباجي الأندلسي، ص٢٠ بتصرف، تحقيق: إبراهيم باجس عبد المجيد، دار الوطن، الرياض.

(٥٧) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قَوْلِ الله تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾، حديث رقم: ٧٥٣٢، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب، حديث رقم: ٨٦.

(٥٨) سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في فَضْلِ مَنْ عَالَ يَتِيمًا، حديث رقم: ٥١٤٦.

(٥٩) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب علامة الإيمان حبّ الأنصار، حديث رقم: ١٨.

(٦٠) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة، باب النّهي عن الإشارة بالسّلاح، حديث رقم: ٢٦١٦.

(٦١) صحيح البخاري، كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ: من حمل علينا السلاح فليس منا، حديث رقم: ٧٠٧٠.

(٦٢) موطأ مالك، كتاب العقول، باب ما جاء في الغيلة والسحر، ٥/ ١٢٨٢.

(٦٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ١/ ٤٩٢، دار طيبة للنشر والتوزيع.

(٦٤) سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب في دعاء المشركين، حديث رقم: ٢٦١٤.

(٦٥) سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب في قتل النساء، حديث رقم: ٢٦٦٩.

(٦٦) صحيح البخاري، كتاب الجزية، باب إثم من قتل معاهدًا بغير جرم، حديث رقم: ٣١٦٦.

(٦٧) سنن الترمذي، أبواب الديات، باب ما جاء في الرجل يقتل عبده، حديث رقم: ١٤١٤، وقال: هذا حديث حسن غريب.

(٦٨) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الديات، باب قول الله تعالى: ﴿ومن أحياها﴾، حديث رقم: ٦٨٧٢، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال: لا إله إلّا الله، حديث رقم: ٩٦، واللفظ لمسلم.

(٦٩) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال: لا إله إلّا الله، حديث رقم: ٩٧.

(٧٠) صحيح البخاري، كتاب الطب، باب شُرْبِ السُّمِّ، والدّواء به وما يخاف منه والخبيث، حديث رقم: ٥٧٧٨.

(٧١) المعجم الأوسط للطبراني، ٦/ ٣١٠، حديث رقم: ٦٤٩٥.

(٧٢) سنن الترمذي، أبواب الزهد، باب ما جاء في أخذ المال، حديث رقم: ٢٣٧٤، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٧٣) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، حديث رقم: ٥٢، وصحيح مسلم، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشُّبُهَاتِ، حديث رقم: ١٥٩٩، واللفظ له.

(٧٤) صحيح مسلم، كتاب الزّكاة، باب قبول الصّدقة من الكسب الطَّيِّبِ، حديث رقم: ١٠١٥.

(٧٥) صحيح البخاري، كتاب فرض الخمس، باب قول الله تعالى: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾، حديث رقم: ٣١١٨.

(٧٦) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، حديث رقم: ٤٢٣٤، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب غلظ تحريم الغلول، حديث رقم: ١١٥، واللفظ له.

(٧٧) المعجم الأوسط للطبراني، ٤/ ٣٧٨، حديث رقم: ٤٤٨٠.

(٧٨) صحيح البخاري، كتاب في الاستقراض وأداء الدّيون والحجر والتّفليس، باب من أخذ أموال النّاس يريد أداءها أو إتلافها، حديث رقم: ٢٣٨٧.

(٧٩) صحيح مسلم، كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض، حديث رقم: ١٦١٠.

(٨٠) صحيح ابن حبان، كتاب الرقاق، باب التوبة، ٢/ ٣٨٦، حديث رقم: ٦٢٠.

(٨١) المستطرف في كل فن مستطرف لشهاب الدين الأبشيهي، ص ٤٦٨، عالم الكتب، بيروت، ١٤١٩هـ.

(٨٢) انظر: شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال للعز بن عبد السلام، ص ٢٦.

(٨٣) انظر: صفة الصفوة، ٣/ ٢٢٤، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٩م.

(٨٤) انظر: العقل وفضله لابن أبي الدنيا، ص٤٣، مكتبة القرآن، مصر.

(٨٥) انظر: حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني، ٨/ ٣٣٩، طبعة السعادة، مصر، ١٩٧٤م.

(٨٦) انظر: المصدر السابق، ٤/ ٣٥.

(٨٧) انظر: المصدر السابق، ٤/ ٢٦.

(٨٨) انظر: المصدر السابق، ٤/ ٢٦.

(٨٩) انظر: صيد الخاطر، ص٤٩٨، دار القلم، دمشق، ٢٠٠٤م.

(٩٠) انظر: إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي، ١/ ٨٥، دار المعرفة، بيروت.

(٩١) انظر: الموافقات للشاطبي، ٣/ ٤٧، دار المعرفة، بيروت.

(٩٢) انظر: لتفكير فريضة إسلامية، ص ٧، ٨.

(٩٣) ديوان علي أبي طالب، ص٦٦ بتصرف.

(٩٤) مسند أحمد، ٥/ ٥٥، حديث رقم: ٢٨٦٥.

(٩٥) المعجم الأوسط للطبراني، ١/ ٢٨٣، حديث رقم: ٩٢٣ بدون كلمة «مسكرًا»، ومجمع الزوائد للهيثمي، ١/ ١٠٤، حديث رقم: ٣٩٣، واللفظ له.

(٩٦) صحيح مسلم، كتاب الأشربة، باب بيان أنّ كلّ مسكرٍ خمرٌ، حديث رقم: ٢٠٠١.

(٩٧) مسند أحمد، ٨/ ٤٠٥، حديث رقم: ٤٧٨٧.

(٩٨) مصنف عبد الرزاق، كتاب الأشربة، باب ما يقال في الشراب، حديث رقم: ١٧٠٦٠.

(٩٩) انظر: حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني، ٧/ ١٦٠ بتصرف يسير، دار الكتاب العربي، بيروت.

(١٠٠) انظر: كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال لعلاء الدين علي بن حسام الدين المتقي الهندي، ١٢/ ٤٨٧، مؤسسة الرسالة، وتاريخ دمشق لابن عساكر، ٢٠/ ٣٣٣، واللفظ له، دار الفكر، بيروت.

(١٠١) سنن أبي داود، كتاب الأشربة، باب النهي عن المسكر، حديث رقم: ٣٦٨٦.

(١٠٢) مقدمة صحيح مسلم، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع، ١/ ١٠، حديث رقم: ٣.

(١٠٣) جمعتُ بين هذه الثلاثة «النسل والنسب والعرض» لوجود خيط دقيق رابط بينها جميعًا يتعلق بحفظ الكرام نسلهم وأنسابهم وأعراضهم وعفة فروجهم وألسنتهم، مع تداخل وارتباط بعضها ببعض، وخروجًا من الخلاف في ذكر بعضها وترك بعض، أو التعبير ببعضها عن بعض.

(١٠٤) صحيح مسلم، كتاب العِتْقِ، باب تحريم تولّي العتيق غير مواليه، حديث رقم: ١٣٧٠.

(١٠٥) انظر: ديوان السموأل، ١/ ١٨.

(١٠٦) انظر: ديوان عنترة، ص ١٥٧، دار المعرفة، بيروت.

(١٠٧) انظر: ديوان الشنفرى، ص ٦١، دار الكتاب العربي، بيروت.

(١٠٨) انظر: ديوان حسان بن ثابت، ص ١٩٢، دار الكتب العلمية، بيروت.

(١٠٩) انظر: ديوان الإمام علي بن أبي طالب، ١/ ٩٠، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة.

(١١٠) انظر: ديوان البارودي، ص ٤٥، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة.

(١١١) اختلف في نسبة الأبيات إلى قائلها، فمنهم من نسبها إلى طرفة بن العبد، ومنهم من نسبها إلى صالح بن عبد القدوس، ينظر: تهذيب ابن عساكر ٦/ ٣٧٦، على أنها إلى أسلوب صالح بن عبد القدوس أقرب منها إلى أسلوب طرفة، وهناك من ينسبها إلى الإمام الشافعي.

(١١٢) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الحدود، باب رمي المحصنات، حديث رقم: ٦٨٥٧، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، حديث رقم: ٨٩.



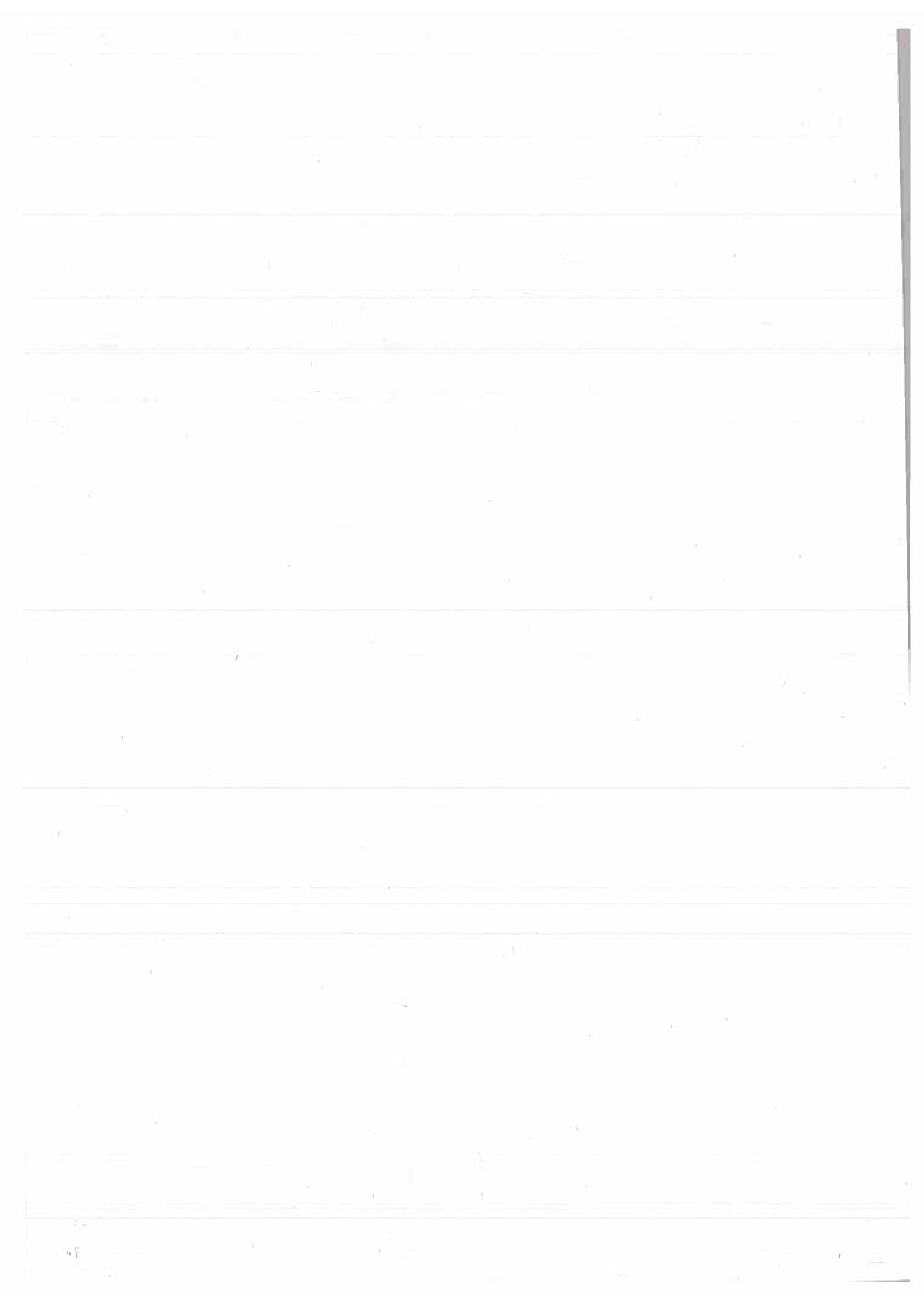
(١١٣) ديوان حسان بن ثابت، ١/ ٢٠.

(١١٤) صحيح البخاري، كتاب الرّقاق، باب حفظ اللّسان، حديث رقم: ٦٤٧٤، لكن الذهبي قال فيه: إرسال.

(١١٥) المستدرك على الصحيحين، كتاب الحدود، حديث رقم: ٨٠٦٦، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(١١٦) سنن الترمذي، أبواب صفة القيامة والرّقائق والورع عن رسول الله ﷺ، باب منه، حديث رقم: ٢٤٥٨، وقال: هذا حديث غريب.

(١١٧) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب إذا لم تستحي فاصنع ما شئت، حديث رقم: ٦١٢٠.





فلسفة الحرب والسلم والحكم

لا شك أن قضية الحرب والسلم وأحكامها وقضية الحكم ونظامه وآلياته من أهم القضايا التي تشغل بال أي مجتمع؛ بل تشغل بال العالم كله والبشرية جمعاء؛ لما لهذه القضايا من أثرٍ بارزٍ في حياة الأفراد والمجتمعات والدول على حدٍّ سواء، وبخاصة قضية نظم الحكم التي تعد لازمة من لوازم العمران وشرطًا رئيسًا في إقامة الدول التي لا تبنى ولا تصير دولًا إلا بأرضٍ وشعبٍ وحكومةٍ ونظام حكم، فلا استقرار لدولة بلا نظام مستقر، ولا سيما في عالم اليوم، عالم التحالفات والتكتلات، عالم الاقتصاد والاستثمار ، عالم رءوس الأموال عابرة القارات ومتعددة الجنسيات، وعلى حدِّ قول الشاعر العربي أبي الأسود الدؤلي[1]:

لا يَصلُحُ الناسُ فَوضى لا سَراةَ لَهُم
وَلا سَــراةَ إِذا جُهّالُهُـم سـادوا
وَالبَيـتُ لا يُبتَنـى إِلّا لَهُ عُمُـدٌ
وَلا عِمـادَ إِذا لَـم تُـرسَ أَوتـادُ

فلكل صنعة أصولها، ولكل دولة قوامها ومقوماتها التي لا تبنى إلا عليها ولا تستقر إلا بها.

كما أن كثيرًا من أوجه الخلل التي تعتري المجتمعات والدول تأتي نتيجة سوء الفهم لفلسفة الحرب، أو فلسفة السلم، أو فلسفة الحكم، حتى إن أكثر الجماعات الضالة والمنحرفة عن جادة الصواب والعناصر التي تجتذبها جماعات التطرف إنما تجتذبها وتجندها في الغالب الأعم من خلال الخلط بين أحكام الحرب وأحكام السلم، وإسقاط أحكام الحرب على أحوال السلم، ورمي المجتمعات بالتقصير في حق دينها، ومن ثم وصفها بالجاهلية تمهيدًا لتكفيرها، ثم الانتقال من التكفير إلى التفجير، أو تعمل على ذلك من خلال نشر الفهم الخاطئ لنظام الحكم وحصره في قضية الخلافة، ومحاولة فرضها

بمنظور هذه الجماعات المتطرفة على المجتمعات والدول فرضًا، والإصرار على إسقاط الواقع المعاصر في قوالب جامدة لم يضعها ولم يفرضها الإسلام، إنما صنعتها الرؤى المتطرفة لهذه الجماعات؛ مما يتطلب بعمق ووضوح تامَّين رؤية ثاقبة وتحليلًا عميقًا يراعي متغيرات العصر ومستجداته، ويعمل على تصحيح المفاهيم الخاطئة؛ بإلقاء الضوء على هذه القضايا وتصويبها، وتنقيتها مما علق بها من شوائب، وبيان الوجه الصحيح لفلسفة الحرب والسلم والحكم، حتى لا تتخذ تلك الجماعات من فرض رؤاها ومفاهيمها الخاطئة في ذلك ذريعة للتطرف، والعنف، وتدمير المجتمعات، وتفكيك الدول أو تدميرها، مع ما يتبع ذلك ويصاحبه من تشويه لصورة ديننا الحنيف وتنفير الناس منه وتبغيضهم فيه؛ مما قد يحملهم على التربص به، وبأتباعه ومعتنقيه، ويعطي بعض الحمقى والناقمين عليه أو على أتباعه ذريعة للنيل منه ومنا تحت غطاء محاربة الإرهاب الذي نحن وديننا منه براء، فنحن ضحايا ولسنا جلَّادين.

فلسفة الحرب

الحرب ليست غاية ولا هدفًا لأي دولة رشيدة أو حكم رشيد، كما أنها ليست نزهة أو فسحة، وكان نبينا ﷺ يقول: «لا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا»[2].

ويقول الشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى[3]:

وَما الحَربُ إِلّا ما عَلِمتُم وَذُقتُمُ
وَما هُوَ عَنها بِالحَديثِ المُرَجَّمِ

مَتى تَبعَثوها تَبعَثوها ذَميمَةً
وَتَضرَ إِذا ضَرَّيتُموها فَتَضرَمِ[4]

فَتَعرُكُكُم عَركَ الرَحى بِثِفالِها
وَتَلقَح كِشافًا ثُمَّ تَحمِل فَتُتئِمِ[5]

فَتُنتَج لَكُم غِلمانَ أَشأَمَ كُلُّهُم
كَأَحمَرِ عادٍ ثُمَّ تُرضِع فَتَفطِمِ

فَتُغلِل لَكُم ما لا تُغِلُّ لِأَهلِها
قُرىً بِالعِراقِ مِن قَفيزٍ وَدِرهَمِ[6]

غير أن هذه الحرب قد تكون ضرورة

للدفاع عن النفس، والعرض، والمال، والديار والأوطان، وكيان الدول ووجودها، وحمايتها من الأخطار التي تتهددها.

إن الحرب في الإسلام إنما هي حرب دفاعية شُرعت لرد الظلم والعدوان، وهي محصورة في رد الاعتداء ودفع الظلم؛ حيث يقول الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩]، ويقول سبحانه ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠]، ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩١-١٩٣]؛ بل إن الإسلام قد دعانا إلى الإقساط إلى جميع المسالمين وبرِّهم وإجارتهم إن استجاروا بنا، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦].

وفي هذه النصوص ما يؤكد أن الإسلام لا يعرف الاعتداء أو الظلم، إنما شرع القتال أصلًا لرد العدوان والاعتداء، فأذن الحق سبحانه للذين يقاتلون ظلمًا بأن يهبُّوا للدفاع عن أنفسهم، على ألا يعتدوا، وألا يغدروا، وألا يسرفوا في الدماء، أو يتوسعوا فيما أذن لهم به من دفع العدوان.

وقد نهانا ديننا فقط عن ولاية من يقاتلوننا ويخرجوننا من ديارنا أو يعملون على ذلك، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٩].

وحتى في الحرب التي هي ردٌّ للاعتداء نهى الإسلام نهيًا صريحًا عن تخريب العامر، وهدم البنيان، وكان أصحاب رسول الله ﷺ حين

يجهزون جيوشهم يوصون قادتها ألا يقطعوا شجرًا، وألا يحرقوا زرعًا، أو يخربوا عامرًا، أو يهدموا بنيانًا، إلا إذا تحصن العدو به واضطرهم إلى ذلك ولم يجدوا عنه بديلًا، وألا يتعرضوا للزراع في مزارعهم، ولا الرهبان في صوامعهم، وألا يقتلوا امرأة، ولا طفلًا، ولا شيخًا فانيًا ما داموا لم يشتركوا في القتال.

هذا، وقد ظل النبي ﷺ وأصحابه في مكة المكرمة ثلاثة عشر عامًا يتحملون أذى المشركين دون أن يؤذن لهم بالقتال ولو دفاعًا عن أنفسهم لأسباب، من أهمها وفي مقدمتها: استنفاد سائر الوسائل السلمية في الدعوة المبنية على الحكمة والموعظة الحسنة، وتربية المؤمنين على أقصى درجات ضبط النفس وتحمُّل الأذى في سبيل الله، وإقامة الحجة على الخصم، ومنها: عدم التكافؤ في المواجهة آنذاك؛ إذ كانت المواجهة بكل حسابات البشر محسومة لصالح المشركين، مما ينذر بخسائر فادحة في صفوف المستضعفين من المسلمين حال التعجل في المواجهة، والإسلام حريص على حفظ الدماء كل الدماء، فما بالك بدماء أبنائه المؤمنين به، المدافعين عنه، المستعدين للتضحية بأغلى ما يملكون وكل ما يملكون في سبيله، ومنها: لفت أنظارنا إلى أهمية الإعداد الجيد أفرادًا وتسليحًا وتخطيطًا قبل الدخول في أي مواجهة ما لم تفرض علينا فرضًا، ولم يكن ثمة بد من الخروج لمواجهة العدو على نحو ما كان من النبي ﷺ وأصحابه في مواجهة المشركين في بدر وأحد والخندق وغيرها من الأيام.

وفي التأكيد على هذا الإعداد الجيد والأخذ بأسباب القوة والمنعة؛ يقول الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾[الأنفال: ٦٠].

على أن الغاية هنا والمراد من هذه الآية إنما هو ردع العدو من أن يعتدي علينا، فلو تحقق الردع دون قتالٍ فإنها لأسمى غاية



وأنبل هدف، يقول الحق سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ في شأن يوم الأحزاب: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا﴾ [الأحزاب: ٢٥]، وفي شأن يوم الحديبية يقول سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ ممتنًا على عباده المؤمنين بتجنيبهم القتل والقتال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الفتح: ٢٤]، فلما هاجر النبي ﷺ وأصحابه الكرام إلى المدينة، وصار لهم بها دولة ووطن يدافعون عنها، كان الإذن بالقتال الدفاعي في قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩].

مع ضرورة الوقوف عند الآتي:

١- في قوله تعالى: ﴿أُذِنَ﴾ عبَّر في الإذن بالبناء للمجهول، ولم يقل سبحانه: أذن الله؛ ليكون العمل بالإذن على قدر الحاجة والضرورة، وألا يستخدم الإذن على إطلاقه، فيؤدي ذلك إلى الإسراف في القتال والدماء.

٢ - في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾ لم يقل سبحانه: أذن للمؤمنين، أو للمسلمين، أو للمضطهدين، أو من أُخرجوا من ديارهم وأموالهم، فلم يكن كل ذلك وحده مسوغًا لاستخدام هذا الإذن، وإنما هي علة واحدة: أن يُقاتَلوا، وأن تكون المبادرة والمبادأة من عدوهم بالقتال؛ ولذا كان رسول الله ﷺ وخلفاؤه الراشدون يوصون قادة جيوشهم ألا يبدأوا أحدًا بقتال حتى يكون العدو هو البادئ بالبغي والعدوان، وألا يأخذوا أحدًا غدرًا أو خيانة حتى لو علموا بنيته فيهما؛ حيث يقول الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨] أي: فإن خفت من قوم غدرًا أو خيانة فاطرح إليهم عهدهم، ورده عليهم، وتحلل منه قبل الشروع في قتالهم.

٣ - ولم يكتف النص القرآني في قضية الإذن بأن يكون العدو هو البادئ بالقتال؛ بل جعل قتال المسلمين لأعدائهم لأجل ردِّ

بغيهم وظلمهم وعدوانهم عنهم أو عليهم؛ فجعل العلة الثانية والاشتراط الثاني للإذن ظلم عدوهم لهم؛ حيث يقول الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ﴾ [الحج: ٣٩]، وهنا يأتي التأييد الإلهي حتى لو كانوا قلة مستضعفين: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩]، طالما أن العلة هي ردّ الظلم وحماية الدولة والوطن، لا البغي ولا الطمع.

وعندما ننظر إلى سيرة النبي ﷺ في هذا الجانب نجد أن النبي ﷺ عندما علم بمقدم قريش في يوم بدر جمع ﷺ أصحابه وجعل يقول: «أَشِيرُوا عَلَيَّ أَيُّهَا النَّاسُ»، فقام سيدنا أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فتكلم وأحسن، ثم قام سيدنا عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فتكلم وأحسن، ثم قام سيدنا الْمِقْدَادُ بْنُ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: «يا رسول الله، امْضِ لِمَا أَرَاكَ اللهُ فَنَحْنُ مَعَكَ، والله لَا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، وَلَكِنْ نقول: اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا مَعَكُمَا مُقَاتِلُونَ، فو الَّذي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لَوْ سِرْتَ بِنَا إِلَى بِرْكِ الْغِمَادِ[٧] لَجَالَدْنَا مَعَكَ مِنْ دُونِهِ، حَتَّى تَبْلُغَهُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ خَيْرًا، وَدَعَا لَهُ بِهِ».

وهؤلاء الصحابة الثلاثة كانوا من المهاجرين، فأحب رسول الله ﷺ أن يعرف رأي قادة الأنصار؛ لأن نصوص بيعة العقبة لم تكن تُلزمهم بالقتال خارج المدينة؛ إذ كانوا قد بايعوا النبي ﷺ على أن يحموه مما يحمون منه أنفسهم وأعراضهم وأموالهم ما دام معهم داخل المدينة، ولم تكن البيعة قد تعرضت لخروجهم معه خارج المدينة، فأحب ﷺ أن يسمع رأيهم صراحة، فكلما تحدث واحد من المهاجرين قال النبي ﷺ: «أشيروا عليَّ أيها الناس»، وهو يريد أن يسمع رأي الأنصار، حتى فطن إلى ذلك قائد الأنصار وحامل لوائهم سيدنا سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: والله لَكَأَنَّكَ تُرِيدُنَا يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: أَجَلْ، قَالَ: فَقَدْ آمَنَّا بِكَ وَصَدَّقْنَاكَ، وَشَهِدْنَا أَنَّ مَا



جِئْتَ بِهِ هُوَ الْحَقُّ، وَأَعْطَيْنَاكَ عَلَى ذَلِكَ عُهُودَنَا وَمَوَاثِيقَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، فَامْضِ يَا رَسُولَ الله لِمَا أَرَدْتَ فَنحْن مَعَك، فوالّذي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، لَوْ اسْتَعْرَضْتَ بِنَا هَذَا الْبَحْرَ فَخُضْتَهُ لَخُضْنَاهُ مَعَكَ، مَا تَخَلَّفَ مِنَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ، وَمَا نَكْرَهُ أَنْ تَلْقَى بِنَا عَدُوَّنَا غَدًا، إِنَّا لَصُبُرٌ فِي الْحَرْبِ، صُدُقٌ فِي اللِّقَاءِ، لَعَلَّ اللهَ يُرِيكَ مِنَّا مَا تَقَرُّ بِهِ عَيْنُكَ، فَسِرْ بِنَا عَلَى بَرَكَةِ الله، فَسُرَّ رَسُولُ الله ﷺ بِقَوْلِ سَعْدٍ، وَنَشَّطَهُ ذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ: «سِيرُوا وَأَبْشِرُوا، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ وَعَدَنِي إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ، والله لَكَأَنِّي الْآنَ أَنْظُرُ إِلَى مَصَارِعِ الْقَوْمِ» [٨].

ولهذا الموقف وغيره من المواقف العظيمة لسيدنا سعد بن معاذ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كانت البشرى والمكافأة العظيمة من الله تعالى له عند وفاته، حيث قال ﷺ: «اهْتَزَّ عَرْشُ الرَّحْمَنِ لِمَوْتِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ» [٩].

أما يوم بني قينقاع فيرجع إلى ما كان من يهود بني قينقاع الذين كان قد ملأ الحقد نفوسهم على رسول الله ﷺ وأصحابه بعد أن أعزهم الله بالنصر في بدر، فقالوا: «يا محمد، لا يَغُرَّنَّكَ مِنْ نَفْسِكَ أَنَّكَ قَتَلْتَ نَفَرًا مِنْ قُرَيْشٍ، كَانُوا أَغْمَارًا لا يَعْرِفُونَ الْقِتَالَ، إِنَّكَ لَوْ قَاتَلْتَنَا لَعَرَفْتَ أَنَّا نَحْنُ النَّاسُ، وَأَنَّكَ لَمْ تَلْقَ مِثْلَنَا»، وكشف جماعة منهم عورة امرأة مسلمة في السوق، فلما هبَّ أحد المسلمين لسترها والدفاع عنها اجتمعوا عليه وقتلوه، فكان لا بد من التجهز لقتالهم ردعًا لبغيهم وخيانتهم، فجهز النبي ﷺ جيشًا لقتالهم، وانتقل سريعًا إلى ديارهم وحصونهم، وحاصرهم خمس عشرة ليلة، حتى اضطروا إلى الاستسلام والنزول على حكمه ﷺ الذي قضى بإخراجهم من ديارهم [١٠].

وفي أُحد كانت قريش قد جاءت لتثأر لقتلاها في بدر، فخرج رسول الله ﷺ للقائهم، ولم يبدأ هو ولا أصحابه بالقتال أو طلب قريش، إنما هي التي أتت بقَضِّها وقضيضها [١١] وخيلها وخيلائها باغية، تريد استئصال دعوته ﷺ والثأر لقتلاها في بدر.

وفي يوم حمراء الأسد كان أبو سفيان قد

عزم إثر أُحُد على العودة إلى المدينة لاستئصال شأفة المسلمين، فندب النبي ﷺ أصحابه إلى الخروج لملاقاتهم، وقال ﷺ: «لا يخرج معنا إلا من شهد أحدًا»، فخرج معه أصحابه وجراحهم تثعَب دمًا، وهنا خشي أبو سفيان ومن معه أن يكون رسول الله ﷺ قد جهز جيشًا جديدًا من أصحابه، ففضلوا الهرب والانصراف إلى مكة، وبقي النبي ﷺ والمسلمون معه ثلاثة أيام في حمراء الأسد لم يمسسهم سوء[١٢]، وفي شأن هذا اليوم نزل قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٢-١٧٤].

وفي يوم بني النضير كان يهود بني النضير هم الذين نقضوا العهد وحاولوا اغتيال النبي ﷺ[١٣].

وفي يوم دومة الجندل كانت قبائل المشركين بدومة الجندل تُعِد للإغارة على قوافل المسلمين بالمدينة ثم الإغارة عليها[١٤].

وفي يوم بني المصطلق كانت قبائلهم تعد للإغارة على المدينة، فخرج النبي ﷺ إليهم؛ ردًا لبغيهم وعدوانهم[١٥].

وفي يوم الخندق اجتمعت الأحزاب من كل حَدَب وصوب لحصار المدينة، فكان القتال دفاعًا عن النفس، والوطن، والديار، والأرض، والعرض، وهو ما يصوره الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في سورة الأحزاب فيقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ ۚ

﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ٩-١٣].

ثم يصور سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حال المؤمنين الصادقين، فيقول: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٢-٢٥].

وفي يوم بني لحيان، كان بنو لحيان هم الذين غدروا بعشرة من الصحابة بالرَّجيع، وتسببوا في قتلهم واستشهادهم(١٦).

وفي يوم ذي قَرَد أو يوم الغابة كان جماعة من أعراب نجد من بني فزارة قد أغاروا على إبل للنبي ﷺ وأصحابه، وقتلوا حارسها واحتملوا امرأته مع الإبل، وفروا نحو نجد، فكان لا بد من ردعهم وتأديبهم(١٧).

وفي خيبر كان أهل خيبر هم الذين حزَّبوا الأحزاب ضد المسلمين، وحرَّضوا بني قريظة على الغدر والخيانة، ثم أخذوا في الاتصال بالمنافقين وبقبائل غطفان وأعراب البادية لتأليبهم على المسلمين، وكانوا هم أنفسهم يستعدون للقتال، فكان لا بد من مواجهتهم وكف شرهم(١٨).

أما يوم مؤتة فكانت ثأرًا لقتل الصحابي الجليل الحارث بن عمير الأزدي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ رسول النبي ﷺ الذي بعثه بكتابه إلى عظيم بُصْرَى، فعرض له شُرَحْبِيل بن عمرو الغساني، وكان عاملًا على البلقاء من أرض الشام من قِبَل قيصر، فأوثقه رباطًا، ثم قدمه فضرب عنقه، وكان قتل السفراء والرسل ولا يزال من أشنع الجرائم وأبشعها، يساوي بل يزيد على إعلان حالة الحرب، فاشتد ذلك على النبي ﷺ، فجهز جيشًا ووجهه إليهم(١٩).

وفي فتح مكة كانت قريش هي التي نقضت عهدها مع سيدنا رسول الله ﷺ،

وساعدت حلفاءها من بني بكر على قتل خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ؛ حيث بيّتوهم وقتلوهم غدرًا عند ماء بالقرب من مكة يُقَالُ لَهُ: الْوَتِيرُ، فجاء عمرو بن سالم الخزاعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى رسول الله ﷺ بالمدينة مستغيثًا بقوله[٢٠]:

يَـا رَبِّ إِنِّـي نَـاشِـدٌ مُحَمَّـدَا
حِلْـفَ أَبِينَـا وَأَبِيـهِ الأَتْلَـدَا
قَـدْ كُنْتُمْ وُلْـدًا وَكُنَّـا وَالِـدَا
ثُمَّـتَ أَسْلَمْنَا فَلَـمْ نَنْزِعْ يَـدَا
فَانْصُـرْ هَـدَاكَ اللهُ نَصْـرًا أَعْتَـدَا
وَادْعُ عِبَـادَ اللهِ يَأْتُـوا مَـدَدَا
فِيهِـمْ رَسُـولُ اللهِ قَـدْ تَجَـرَّدَا
إِنْ سِيمَ خَسْفًا وَجْهُـهُ تَرَبَّـدَا
فِي فَيْلَـقٍ كَالْبَحْـرِ يَجْـرِي مُزْبِـدَا
إِنَّ قُرَيْشًـا أَخْلَفُـوكَ الْمَوْعِـدَا
وَنَقَضُـوا مِيثَاقَـكَ الْمُوَكَّـدَا
وَجَعَلُـوا لِـي فِـي كَدَاءٍ رُصَّـدَا
وَزَعَمُـوا أَنْ لَسْـتُ أَدْعُو أَحَـدَا
وَهُـمْ أَذَلُّ وَأَقَـلُّ عَـدَدَا
هُـمْ بَيَّتُونَـا بِالْوَتِيـرِ هُجَّـدَا
وَقَتَلُونَـا رُكَّعًـا وَسُجَّـدَا

فقال ﷺ: «نُصِرْتَ يَا عَمْرو بْنَ سَالِمٍ»، فَمَا بَرِحَ حَتَّىٰ مَرَّتْ سحابة فِي السَّمَاءِ، فقال ﷺ: «إِنَّ هَذِهِ السَّحَابَةَ لَتَسْتَهِلُّ بِنَصْرِ بَنِي كَعْبٍ»[٢١].

ومع ذلك لما دخل رسول الله ﷺ مكة فاتحًا منتصرًا أعلن العفو العام عن أهل مكة، وقال قولته المشهورة: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، مَا تَرَوْنَ أَنِّي صَانِعٌ بكم؟» قَالُوا: خَيْرًا، أَخٌ كَرِيمٌ، وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ، فَقَالَ ﷺ: «اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطُّلَقَاءُ»[٢٢]، وقد ترتب على هذا العفو العام حفظ الأنفس من القتل.

ويوم حنين كانت قبائل هوازن وثقيف هي البادئة بالعداء، وأعدت العدة للانقضاض على المسلمين، وقد سار مالك بن عوف النّصري على رأس جيش حتى وصل إلى القرب من مكة، فكان لا بد من مواجهتهم ورد بغيهم وعدوانهم[٢٣].

وأما تبوك فكانت ردًّا لعدوان الرومان

الذين كانوا يعملون على إنهاء قوة المسلمين آنذاك؛ ذلك أنهم كانوا يرونها الخطر الحقيقي على سلطانهم، فأخذوا يهددون ثغورهم، ويعدون العدة للانقضاض عليهم، فانتدب النبي ﷺ أصحابه للتجهز والخروج في ساعة العسرة، ولم يكن من الحكمة أن ينتظرهم المسلمون حتى يداهموهم في مدينتهم، وانتهت بفرار الروم وانسحابهم دون قتال، وحرص النبي ﷺ على حفظ الدماء فلم يتتبعهم، واكتفى ﷺ بالردع الذي تحقق لهم[٢٤].

ومن يتتبع سائر أيام نبينا ﷺ وسراياه يجد أنها لا تخرج عن دائرة ردِّ البغي، ودفع العدوان، وردع التآمر والكيد له ﷺ ولدعوته ولأصحابه رضوان الله عليهم أجمعين.

ولعل من أهم أخلاق الفرسان التي أصّلها الإسلام في فلسفة القتال أنه لا قتل للمدنيين أو لغير المقاتلين، فقد كان النبي ﷺ يوصي قادة جيشه بقوله: «انْطَلِقُوا بِاسْمِ اللهِ، وَبِاللهِ، وَعَلَى مِلَّةِ رَسُولِ اللهِ، وَلَا تَقْتُلُوا شَيْخًا فَانِيًا، وَلَا طِفْلًا، وَلَا صَغِيرًا، وَلَا امْرَأَةً، وَلَا تَغُلُّوا»[٢٥]، وبقوله ﷺ: «وَلَا تَغُلُّوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تُمَثِّلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا»[٢٦].

وفي وصية أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لأحد قادة جنده: «وَإِنِّي مُوصِيكَ بِعَشْرٍ: لَا تَقْتُلَنَّ امْرَأَةً، وَلَا صَبِيًّا، وَلَا كَبِيرًا هَرِمًا، وَلَا تَقْطَعَنَّ شَجَرًا مُثْمِرًا، وَلَا تُخَرِّبَنَّ عَامِرًا، وَلَا تَعْقِرَنَّ شَاةً، وَلَا بَعِيرًا إِلَّا لِمَأْكَلَةٍ، وَلَا تَحْرِقَنَّ نَخْلًا، وَلَا تُغَرِّقَنَّهُ، وَلَا تَغْلُلْ، وَلَا تَجْبُنْ»[٢٧].

وقد شدد النبي ﷺ في النهي عن قتل الأطفال أو الذرية تشديدًا كبيرًا، وبلغه ﷺ قتل بعض الأطفال، فوقف يصيح في جنده: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ جَاوَزَ بِهِمُ الْقَتْلُ إِلَى الذُّرِّيَّةِ، أَلَا لَا تَقْتُلُوا ذُرِّيَّةً، أَلَا لَا تَقْتُلُوا ذُرِّيَّةً»[٢٨].

وقد نهى ﷺ عن قتل جميع من لا يقاتل وخاصة النساء، فلما رأى امرأة مقتولة، وكان من حالها أنها لا تقوى على القتال استنكر ﷺ ذلك بشدة، وقال: «مَنْ قَتَلَ هَذِهِ؟ مَا كَانَتْ هَذِهِ لِتُقَاتِلَ»[٢٩]؛ مما يؤكد أنه لا قتل على المعتقد قط، وأن القتل ليس مقابلًا للكفر، إنما

هو مقابل لدفع القتل ورد الاعتداء؛ حيث يقول الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

فالقتال في الإسلام مقصور على رد الاعتداء دون تجاوز؛ حيث يقول الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠]، ويقول سبحانه: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤].

ومما يؤكد أن الحرب في الإسلام إنما هي لرد الاعتداء ودفع العدوان دون أي تجاوز أو بغي أو إسراف في الدماء، ما شرعه الإسلام في معاملة الأسرى من حسن معاملتهم والإحسان إليهم؛ حيث يقول الحق سبحانه: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ [الإنسان: ٨-١٤].

وقد دعا نبينا ﷺ إلى الرفق بالأسرى، فقال: «اسْتَوْصُوا بِالأَسَارَى خَيْرًا»[٣٠]، وقد أوصى أصحابه يوم بدر أن يكرموا الأسرى، فكانوا يقدمونهم على أنفسهم عند الطعام.

وفي قصة «ثُمَامَة بْن أُثَالٍ الحنفي» ما يؤكد كيف كان نبينا ﷺ يتعامل مع أسراه، ذلك أنه عندما أُسر ثمامة بن أثال، ورَبَطُوهُ بِسَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ، خَرَجَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ: مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟ فَقَالَ: عِنْدِي خَيْرٌ يَا مُحَمَّدُ، إِنْ تَقْتُلْنِي تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ مِنْهُ مَا شِئْتَ، حَتَّى كَانَ الْغَدُ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: مَا عِنْدَكَ



يَا ثُمَامَةُ؟ قَالَ: مَا قُلْتُ لَكَ، إِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ، فَتَرَكَهُ حَتَّى كَانَ بَعْدَ الْغَدِ، فَقَالَ: مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟ فَقَالَ: عِنْدِي مَا قُلْتُ لَكَ، فَقَالَ: أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ، فَانْطَلَقَ إِلَى نَخْلٍ قَرِيبٍ مِنَ الْمَسْجِدِ فَاغْتَسَلَ، ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لا إله إلا الله، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، يَا مُحَمَّدُ، والله مَا كَانَ عَلَى الأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ، فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الْوُجُوهِ إِلَيَّ، والله مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ، فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيَّ، والله مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ، فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ الْبِلادِ إِلَيَّ، وَإِنَّ خَيْلَكَ أَخَذَتْنِي وَأَنَا أُرِيدُ الْعُمْرَةَ، فَمَاذَا تَرَى؟ فَبَشَّرَهُ رَسُولُ الله ﷺ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَعْتَمِرَ، فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ، قَالَ قَائِلٌ: صَبَوْتَ، قَالَ: لا، وَلَكِنْ أَسْلَمْتُ مَعَ مُحَمَّدٍ رَسُولِ الله ﷺ، وَلا والله لا يَأْتِيكُمْ مِنَ الْيَمَامَةِ حَبَّةُ حِنْطَةٍ حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا النَّبِيُّ ﷺ»(٣١).

وهذه الثقافة في معاملة الأسرى عبّر عنها الشاعر الأموي الكبير همام بن غالب التميمي المعروف بالفرزدق، فقال(٣٢):

وَلا نَقْتُلُ الأسرَى وَلكنْ نَفُكُّهمْ
إذا أثْقَلَ الأعناقَ حَمْلُ المَغارِمِ

أما إذا فرض علينا القتال؛ فإننا لا يمكن أن نعطي الدنية في ديننا ولا أن نتخاذل عن الدفاع عن أوطاننا، إنها نفتديها بأنفسنا، وشعارنا في ذلك: والله إنها لإحدى الحسنيين، إما النصر وإما الشهادة؛ حيث يقول الحق سبحانه مخاطبًا المسلمين في يوم بدر: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأنفال: ٧]، أي: ويقطع دابر الكافرين المعتدين عليكم، المتربصين بكم، الذين أخرجوكم من دياركم وأموالكم، لا ذنب لكم ولا جريرة إلا أنكم آمنتم بالله ورسوله، ويقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٠٤]، ويقول الحق جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ

وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، ويقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٣-١٢٦]، ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦١-٦٣].

وقد قلت حول هذه المعاني التي تؤكد أننا أهل سلام ما لم تفرض علينا الحرب، فإن فُرضت علينا فنحن رجالها:

من رامهـــا سلمـــاً فتلـك يـد
أو رامهـا حربًا فنحــن رجالهـــا
لا نعتـدي أبدًا ولا نرضى الخنا
إن الرجـــولة عنـــدنا عنوانهـــا
إحـــدى اثنتين ولا معقّب بعده
النصـرُ نصرٌ أو نُـــرى شهـداءها

وقد استفز أحد قادة الروم شاعرنا العربي أبا فراس الحمداني بقوله: أنتم - معشرَ العرب - أهل كلام، ولا علم لكم بالحرب، فأجابه أبو فراس في عزة وإباء شديدين وهو أسير في سجونهم وفي متناول أيديهم [٣٣]:

أَتزعُـمُ يـا ضخمَ اللغَـاديـدِ أنّنـا
وَنحن أُسودُ الحرْبِ لا نَعرفُ الحرْبَا
لَقد جَمَعَتْنَـا الحَرْبُ من قبلِ هَـذِهِ
فكنـا بها أُسْـدًا؛ وكنتَ بها كلبـا
بأقلامِنَـا أُجْحِـرْتَ أمْ بِسُيُوفِنَـا؟
وأُسْدَ الشَّرى قُدْنا إليكَ أمِ الكُتُبـا؟

وإننا لعلى يقين تام أن منزلة الشهيد من أعلى المنازل عند الله عَزَّوَجَلَّ؛ فالشهيد مع

الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين؛ حيث يقول الحق تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ۝٦٩ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٦٩-٧٠]، ويقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعْتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١]، ويقول تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤]، ويقول الحق سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۝١٦٩ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧٠].

ولا شك أن الشهادة في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ منحة إلهية يمنحها الله تعالى لأحب خلقه إليه بعد الأنبياء والصديقين، وقد ورد في السنة النبوية المطهرة أحاديث كثيرة عن فضل الشهادة، منها ما يلي:

* عن أَنَس بْن مَالِكٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا أَحَدٌ يَدْخُلُ الجَنَّةَ يُحِبُّ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا وَلَهُ مَا عَلَى الأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ إِلا الشَّهِيدُ يَتَمَنَّى أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا فَيُقْتَلَ عَشْرَ مَرَّاتٍ؛ لِمَا يَرَى مِنَ الْكَرَامَةِ»[١].

* وعن جَابِر بْن عَبْدِ الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: لَقِيَنِي رَسُولُ الله ﷺ فَقَالَ لِي: «يَا جَابِرُ مَا لِي أَرَاكَ مُنْكَسِرًا؟» قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله اسْتُشْهِدَ أَبِي وَتَرَكَ عِيَالًا وَدَيْنًا، قَالَ: «أَفَلَا أُبَشِّرُكَ بِمَا لَقِيَ اللهُ بِهِ أَبَاكَ؟» قَالَ: بَلَى يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «مَا كَلَّمَ اللهُ أَحَدًا قَطُّ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وَأَحْيَا أَبَاكَ فَكَلَّمَهُ كِفَاحًا» - مواجهة ليس بينهما حجاب ولا رسول - فَقَالَ: «يَا عَبْدِي تَمَنَّ عَلَيَّ أُعْطِكَ» قَالَ: يَا رَبِّ تُحْيِينِي فَأُقْتَلَ فِيكَ ثَانِيَةً، قَالَ الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ: «إِنَّهُ قَدْ سَبَقَ مِنِّي أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لَا يُرْجَعُونَ»، قَالَ: وَأُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ[٢]: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي

سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

* وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لا يُكْلَمُ أَحَدٌ فِي سَبِيلِ الله – وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِهِ – إِلا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّوْنُ لَوْنُ الدَّمِ وَالرِّيحُ رِيحُ الْمِسْكِ»[٣٦].

* وعَنِ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِ يكَرِبَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لِلشَّهِيدِ عِنْدَ الله سِتُّ خِصَالٍ: يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دَفْعَةٍ، وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَيَأْمَنُ مِنَ الْفَزَعِ الأَكْبَرِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوَقَارِ، الْيَاقُوتَةُ مِنْهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَيُزَوَّجُ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَقَارِبِهِ»[٣٧].

ونـؤمن كذلك إيمانًا لا يداخلـه أدنى شـك بأنـه لن تمـوت نفس حتى تُسْتَوفَى أجلها ورزقها؛ حيث يقول الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١]، ويقول سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًاۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَاۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٥-١٤٨].

وأخيرًا نؤكد أن البشرية لو بذلت في سبيـل السـلام والبنـاء، والنماء والتنمية، ورعاية الضعفاء والمحتاجين والمهمشين في العالم معشار ما تنفقه على الحروب والتسليح، وتخلى الأنانيـون عن نفعيتهم وأنانيتـهم؛ لانصلح حالُ البشرية جمعاء، ولتغير وجهُ البسيطة، ولعاش العالم كله في سلام وأمان، فإن لم يكن ذلك فما لا يُدرَك كله لا يُترَك كلُّه، ويجب على كل عاقل رشيد مؤمن بالإنسانية محب للسلام أن يكون في جانب السلام والبناء



والتعمير، لا جانب الاحتراب والتدمير، فكل ما يدعو إلى السلام والبناء وعمارة الكون يتوافق وصحيح الأديان، وكل ما يدعو إلى القتل والتخريب والتدمير يتناقض مع سائر الأديان السماوية؛ بل يتناقض مع كل الأخلاق والقيم الإنسانية والأعراف والمواثيق الدولية؛ مما يتطلب منا جميعًا العمل معًا على ترسيخ وتأصيل كل معاني السلام، والوقوف في وجه دعاة الحرب والدمار؛ من أجل سعادة البشرية جمعاء، وتحقيق أمنها وسلامها.

فلسفة السلم

إن المتأمل في الجذر اللغوي لكلمتي السلام والإسلام؛ يجد أن الكلمتين تشتركان في جذر لغوي واحد هو «سلم»، ووفق ما قرره العلامة اللغوي ابن جني في كتابه «الخصائص» في باب الاشتقاق الأكبر أن الكلمات التي تنتمي إلى جذر لغوي واحد تشترك في جوانب واسعة من المعنى كما تشترك في أصل الجذر اللغوي[٣٨]، وإذا كانت ألفاظ: «السلم، والسلام، والإسلام» تنتمي إلى جذر لغوي واحد هو مادة «سلم»، فإن أهم ما يميز هذا الجذر هو معاني السلم والمسالمة.

فالإسلام هو دين السلام، ونبينا ﷺ هو نبي السلام، وتحية الإسلام والمسلمين في الدنيا والآخرة هي السلام، والجنة إنما هي دار السلام؛ حيث يقول تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في شأن عباده المؤمنين في الجنة: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٧]، وتحية أهل الجنة في الجنة السلام؛ حيث يقول الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌۚ﴾ [يونس: ١٠]، وتحية الملائكة لهم فيها سلام؛ حيث يقول الحق جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤]، ويقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُۖ فَنِعْمَ أَجْرُ

ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٣-٧٤]، ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٣]، ويقول تعالى: ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَـٰمًا﴾ [الفرقان: ٧٥]، ويقول جل شأنه: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٤].

وقد سمى ربنا عَزَّوَجَلَّ نفسه باسم السلام، فقال سبحانه: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر: ٢٣]، ويدعونا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلى دار السلام فيقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥]، وإن ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر والتي تعد أعظم ليلة وأعظم منحة من الله للمسلمين ليلة سلام؛ حيث يقول الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۞ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۞ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۞ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۞ سَلَـٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ [القدر: ١-٥]، فقال تعالى: ﴿سَلَـٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾، ولم يقل سبحانه: هي سلام؛ ليجعل من لفظ السلام عمدة وأصلًا تدور عليه حركة الكون والحياة.

وقد نهانا الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن نسيء الظن بمن يلقي إلينا السلام، فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ٩٤].

فضـرورة السـلام للإنسان في الإسلام تنبع من أنه دين يعدل بين الناس جميعًا في الحقوق وفي الواجبات، ويؤمن بقبول الآخر والمختلف، فالله تعالى خلق الناس مختلفين، قال الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۞ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨-١١٩]، ويقـول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا

﴿وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: ١٣]، أي: لتتعارفوا وتتعاونوا وتتكاملوا، لا لتتحاربوا وتتقاتلوا ويسفك بعضكم دم بعض؛ حيث أكد تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أن خوض الناس بعضهم في دماء بعض إنما هو نوع من العذاب الذي يسلطه عليهم إذا حل بهم غضبه، فيقول جل شأنه: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٦٥].

ويقول سبحانه: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]، ويقول جل شأنه: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ويقول جل شأنه مخاطبًا نبينا ﷺ: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]، ويقول سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مخاطبًا إياه عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، ويقول تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ [الشورى: ٤٨]، ويقول عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

بل إننا لنرى ما كان من النبي ﷺ مع سيدنا أسامة بن زيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا عندما طعن رجلًا برُمحِه حَتَّى قَتَلَهُ بعد أن نطق بالشهادة، فقال له النبي ﷺ: « يَا أُسَامَة، أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لا إلهَ إلا اللهُ؟!» فقال أسامة: يَا رَسُول الله، إنَّمَا كَانَ متعوِّذًا، فَقَالَ: «أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لا إلهَ إلا اللهُ؟!» يقول أسامة: «فما زَالَ يُكَرِّرُهَا عَلَيَّ حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ قَبْلَ ذلِكَ اليَوْمِ»(٣٩).

وفي رواية أن النبي ﷺ قال: «أَفَلا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ قَالَهَا أَمْ لا؟»(٤٠)، وعند الطبراني: «هَلَّا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى يَسْتَبِينَ لَكَ؟»(٤١)، مما يؤكد أن الإسلام حريص كل الحرص على حفظ الدماء، وأن الأصل في الإسلام هو عصمتها لا سفكها.

وتعد فلسفة السلم هي القضية الراسخة في

الفكر الإسلامي؛ حيث يقول الحق سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

ووفق مفهومَي الموافقة والمخالفة في فهم هذه الآية فإن من يسير في طريق السلم الإنساني متبعٌ لما أمر الله عَزَّوَجَلَّ به عباده المؤمنين، ومن يسلك مسالك الفرقة والشقاق، والتكفير والتفجير، والخوض في الدماء، والولوج فيها بغير حق فسادًا أو إفسادًا؛ متبعٌ لخطوات الشيطان الذي هو لنا جميعًا عدوٌّ مبين.

وقد كان من منهج نبينا ﷺ أنه يعفو عمن ظلمه، ويعطي من حرمه، ويحسن إلى من أساء إليه، أما معاملته ﷺ لغير المسلمين فترسخها وتتوجها «وثيقة المدينة» التي رسخت لأسس التعايش السلمي بين البشر في أسمى معانيه الإنسانية.

وتعد هذه الوثيقة من أفضل النماذج في تاريخ البشرية للعيش الإنساني السلمي المشترك، وإننا لفي أمس الحاجة إلى العودة إلى هذا التراث العظيم وهذا التطبيق الراقي لحق الإنسان في الحياة والمواطنة المتكافئة، واستلهام روح التسامح التي يفيض بها تاريخنا الحضاري الذي يؤصل للتعايش المشترك على أسس وطنية وإنسانية راقية.

فقد وضعت هذه الوثيقة أسس التعايش الذي يريده الإسلام لأبناء المجتمع الواحد على اختلاف دياناتهم ومعتقداتهم؛ حيث تنص على أن يهود بني عوف، ويهود بني النجار، ويهود بني الحارث، ويهود بني ساعدة، ويهود بني جُشَم، ويهود بني الأوس، ويهود بني ثعلبة؛ مع المؤمنين أمة، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم، وأنه لا يأثم امرؤ بحليفه، وأن النصر للمظلوم، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم، وأن بينهم النصر على من دهم يثرب، وأن من

خرج منهم فهو آمن، ومن قعد بالمدينة فهو آمن، إلا من ظلم أو أثم، وأن الله عَزَّوَجَلَّ جار لمن برَّ واتقى، وكذلك محمد رسول الله ﷺ[42].

فأي إنسانية، وأي حضارة، وأي تعايش سلمي، أو تقدير لمفاهيم الإنسانية يمكن أن يرقى إلى ما كان من تسامح رسول الله ﷺ وإنصافه؟! ألا ترى إلى قوله ﷺ: «لِلْيَهُودِ دِينُهُمْ» قبل أن يقول: «لِلْمُسْلِمِيْنِ دِينُهُمْ»، ليكون في أعلى درجات الإنصاف والتسامح.

لقد علمنا ديننا إنصاف الآخر حتى في طريق المحاورة والمجادلة بالتي هي أحسن، فقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، وقال سبحانه على لسان نبينا ﷺ: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]، مع المعرفة الواضحة التي لا لبس فيها بمن هو على هدى ومن هو في ضلال مبين، وهو ما يسميه علماء البلاغة «الإنصاف»، وعليه قول حسان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يرد على أبي سفيان بن الحارث، وكان قبل إسلامه قد هجا نبينا ﷺ، فأجابه سيدنا حسان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقوله[43]:

هجوتَ محمــدًا، فأجبتُ عنــهُ
وعنــدَ الله في ذاكَ الجـــزاءُ

أَتَهْجُــوهُ، وَلَسْــتَ لَهُ بكُــفْءٍ
فَشَرُّكُمـا لِخَيــرِكُمَــا الفِــداءُ

فَــإِنَّ أَبِي وَوَالِــدَهُ وَعِرْضـي
لعــرضِ محمــدٍ منكمْ وقــاءُ

ولم يقف الأمر عند «وثيقة المدينة» وحدها، فقد كان النبي ﷺ شديد الحرص على صون حقوق الإنسان واحترام إنسانيته وآدميته واختياره؛ ولهذا جاء في إحدى رسائله إلى أهل نجران: «وَلِنَجْرَانَ وَحَاشِيَتِهَا جِوَارُ اللهِ وَذِمَّةُ مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَمِلَّتِهِمْ، وَأَرْضِيهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، وَغَائِبِهِمْ وَشَاهِدِهِمْ، وَعَشِيرَتِهِمْ وَبِيَعِهِمْ، وَأَنْ لَا يُغَيِّرُوا مِمَّا كَانُوا عليه وَلَا يُغَيَّرُ حَقٌّ مِنْ حُقُوقِهِمْ وَلَا مِلَّتِهِمْ،

وَلَا يُغَيَّرَ أَسْقُفٌ مِنْ أَسْقُفِيَّتِهِ، وَلَا رَاهِبٌ مِنْ رَهْبَانِيَّتِهِ، وكل ما تَحْتَ أَيْدِيهِمْ مِنْ قَلِيلٍ أَوْ كَثِيرٍ»(٤٤).

وعندما جاءه ﷺ وفد نجران، وحان وقت صلاتهم، سمح لهم النبي ﷺ بإقامة صلاتهم في مسجده المبارك ﷺ، فَأَرَادَ النَّاسُ مَنْعَهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «دَعُوهُمْ»، فَاسْتَقْبَلُوا الْمَشْرِقَ، فَصَلَّوْا صَلَاتَهُمْ»(٤٥).

وعندما جاءه ﷺ وفد نصارى الحبشة استقبلهم النبي ﷺ، وأكرمهم بنفسه، وقال: «إِنَّهُمْ كَانُوا لأَصْحَابِنَا مُكْرِمِينَ، فإني أحبُّ أَنْ أكافِئَهُمْ»(٤٦).

وعلى هذا النهج النبوي سار الخلفاء الراشدون، فقد اقتدى سيدنا عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالنبي ﷺ عندما ضمن لأهل إيلياء «القدس» من المسيحيين أمنهم، وأعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم، وسائر ملتها، وأنه لا تُسكن كنائسهم، ولا تُهدم، ولا يُنتقص منها ولا من حيزها شيء، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرَهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ومن أحب أن يبقى على دينه فعلى المسلمين أن يبلغوه مأمنه دون غدر أو خيانة.

وتُعَد هذه العهدة العمرية التي أبرمها الخليفة العادل سيدنا عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع أهل إيلياء صفحة بيضاء ناصعة في التسامح الديني، وصفحة مضيئة في تاريخ الحضارة الإنسانية على العموم.

وفي هذا كله ما يؤكد عظمة الإسلام في تعامله مع غير المسلمين وإنصافهم، وعدم إكراههم على الدخول في الإسلام؛ حيث يقول الحق سبحانه: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ويقول تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ على لسان نبيه ﷺ: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَاۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥]، ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢].



وهذا شاعر العربية الكبير أحمد شوقي يقول في تأصيل مبدأ التسامح وترسيخ أسس التعايش السلمي[٤٧]:

أَعَهِدْتَنَا والقِبْطَ إلا أُمَّةً
في الأرض واحدة نعيش سلامًا
نعلي تعاليمَ المسيحِ لأجلهم
ويوقِّرون لأجلنا الإسلاما
الدِّينُ للدَّيَّانِ جَلَّ جَلَالُهُ
لو شاءَ ربُّكَ وَحَّدَ الأقواما
هذي ربوعكمُ، وتلك ربوعنا
مُتقابلين نعالج الأياما
هذي بيوتكم، وتلك بيوتنا
متعانقين مودة ووئاما[٤٨]
هذي قبوركمُ، وتلك قبورنا
مُتجاورينَ جماجمًا وعِظاما
فبحُرمة المَوْتَى، وواجبِ حقِّهم
عيشوا كما يقضي الجوارُ كراما

وعلى الجانب الآخر من التسامح والتسامي المسيحي، يقول الشاعر المسيحي اللبناني «محبوب الخوري»[٤٩] من مهجره بالمكسيك:

قالوا: تُحِبُّ العُرْبَ؟ قلتُ: أُحبُّهم
يقضي الجوارُ عَلَيَّ والأرحامُ
قالوا: لقد بَخلوا عليك! أجبتُهم
أهلي وإن ضنُّوا عليَّ كرامُ
قالوا: الديانةُ؟! قلتُ: جيلٌ زائلٌ
وتزولُ معه حَزازةٌ وخِصامُ
ومحمدٌ بطلُ البريةِ كلِّها
هو للأعاربِ أجمعينَ إمامُ

وكان مكرم عبيد باشا يقول: نحن مسلمون وطنًا ونصارى دينًا، اللهم يا رب المسلمين والنصارى اجعلنا نحن المسلمين لك وللوطن أنصارًا، واجعلنا نحن نصارى لك، وللوطن مسلمين؛ وهذا هو التسامح الذي ننشده ونسعى أن يصير ثقافة سائدة وواقعًا معاشًا بيننا جميعًا.

إن السلام الحقيقي يقتضي أن يكون الإنسان في سلام مع نفسه، مع أصدقائه، مع جيرانه، مع النبات والحيوان والجماد، ألم يقل النبي ﷺ: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى

دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ؟»[٥٠]، وفي رواية عَبْد الله بن عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ الله ﷺ أَيُّ الْمُسْلِمِينَ خَيْرٌ؟ قَالَ: «مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»[٥١]، وقال ﷺ: «والله لا يُؤْمِنُ، والله لا يُؤْمِنُ، والله لا يُؤْمِنُ، قِيلَ: وَمَنْ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ الَّذِي لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ»[٥٢]، وزاد الإمام أحمد: قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، وَمَا بَوَائِقُهُ؟ قَالَ: «شَرُّهُ»[٥٣]، ولما سئل ﷺ عن امرأة صوَّامة قوَّامة إلا أنها تؤذي جيرانها، فقيل له: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ فُلَانَةَ تَقُومُ اللَّيْلَ، وَتَصُومُ النَّهَارَ، وَتَفْعَلُ، وَتَصَدَّقُ، وَتُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا؟ فَقَالَ ﷺ: «لا خَيْرَ فِيهَا، هِيَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ»[٥٤].

فقد كان ﷺ بحق رحمة للعالمين، يؤصل للسلام الكوني، دخل ﷺ بُسْتَانًا لِرَجُلٍ من الأنصارِ فَإِذَا فِيهِ جَمَلٌ، فَلَمَّا رَأَى الجملُ النَّبِيَّ ﷺ حَنَّ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ فَمَسَحَ ذِفْرَاهُ[٥٥] فَسَكَتَ، فَقَالَ: «مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ، لِمَنْ هَذَا الْجَمَلُ؟»، فَجَاءَ فَتًى مِنَ الأَنْصَارِ فَقَالَ: لِي يَا رَسُولَ الله، فَقَالَ ﷺ: «أَفَلَا تَتَّقِي اللهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَ اللهُ إِيَّاهَا؟ فَإِنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ»[٥٦].

وعن ابن مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: كنَّا مَعَ رسول الله ﷺ في سَفَرٍ، فانْطَلَقَ لِحَاجَتِهِ، فَرَأَيْنَا حُمَرَةً[٥٧] مَعَهَا فَرْخَانِ، فَأَخَذْنَا فَرْخَيْهَا، فَجَاءَتِ الْحُمَرَةُ فَجَعَلَتْ تَفْرِشُ «ترفرف بأجنحتها»، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «مَنْ فَجَعَ هذِهِ بِوَلَدِهَا؟، رُدُّوا وَلَدَهَا إِلَيْهَا»[٥٨].

ألم يخبرنا النبي ﷺ أن امرأة دخلت النار في هرة حبستها حتى ماتت؟ فعَنْ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «عُذِّبَتْ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ سَجَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ، فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ، لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَلَا سَقَتْهَا إِذْ حَبَسَتْهَا، وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ»[٥٩].

وفي المقابل فإن الله عَزَّ وَجَلَّ أدخل رجلًا الجنة بسبب رحمته بكلب وجده يلهث من العطش فروى كبده، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَنَّ رَجُلًا رَأَى كَلْبًا يَأْكُلُ



الثَّرَى مِنَ العَطَشِ، فَأَخَذَ الرَّجُلُ خُفَّهُ، فَجَعَلَ يَغْرِفُ لَهُ بِهِ حَتَّى أَرْوَاهُ، فَشَكَرَ اللهُ لَهُ، فَأَدْخَلَهُ الجَنَّةَ»(٦٠).

هذا هو السلام في الإسلام، سلامٌ مع النفس، سلامٌ مع الآخر، سلامٌ مع المجتمع، سلامٌ مع الحيوان، سلامٌ مع الجماد، سلامٌ مع الكون كله، وهو ما يجعلنا نؤكد وباطمئنان أن ديننا هو دين السلام، وأن فلسفة السلام هي الفلسفة الأصيلة الراسخة في الإسلام.

فلسفة الحكم

فلسفة الحكم في الإسلام قائمة على مراعاة مصالح الناس، فحيث تكون المصلحة فثمة شرع الله عَزَّوَجَلَّ، فكل ما يحقق الأمن والأمان والاستقرار، ويعمل على عمارة الكون وسعادة البشر يتفق ومقاصد الأديان، وكل ما يؤدي إلى الظلم أو الفساد أو التخلف لا علاقة له بالأديان؛ بل إنه متناقض كل التناقض مع صحيح الأديان ومقاصدها السامية، على أن الإسلام لم يضع قالبًا جامدًا صامتًا محددًا لنظام الحكم لا يمكن الخروج عنه، وإنما وضع أسسًا ومعايير متى تحققت كان الحكم رشيدًا يُقرّه الإسلام، ومتى اختلّت أصاب الحكم من الخلل والاضطراب بمقدار اختلالها.

ولعل العنوان الأهم الأبرز لنظام أي حكم رشيد هو مدى تحقيقه لمصالح البلاد والعباد، وعلى أقل تقدير مدى عمله لذلك وسعيه إليه، فأي حكم يسعى إلى تحقيق مصالح البلاد والعباد في ضوء معاني العدل والمساواة والحرية المنضبطة، بعيدًا عن الفوضى والمحسوبية وتقديم الولاء على الكفاءة، فهو حكم رشيد معتبر.

وتحت هذا العنوان الرئيس تتداعى تفاصيل كثيرة تهدف في مجملها إلى تحقيق العدل بكل ألوانه السياسية والاجتماعية والقضائية بين البشر جميعًا، وعدم التمييز بين الناس على أساس اللون أو الجنس أو العرق، فلا إكراه في الدين، ولا حمل لأحدٍ على الدخول فيه عنوة.

فكل حكم يعمل على تحقيق ذلك، ويسعى

إلى توفير الحاجات الأساسية للمجتمع من مأكلٍ ومشربٍ وملبسٍ ومسكنٍ وبنًى تحتية من: صحة، وتعليم، وطرق، ونحو ذلك مما لا تقوم حياة البلاد والعباد إلا به؛ فإنه يُعدُّ حكمًا رشيدًا سديدًا موفقًا، مرضيًّا عند الله وعند الناس إلا من حاقد، أو حاسد، أو مكابر، أو معاند، أو خائن، أو عميل.

ويؤكد أهل العلم والرأي والفكر أن الله عَزَّوَجَلَّ ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة، وأن الدول قد تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام؛ لأنه لو كان هناك إسلام حقيقي لما كان هناك ظلم ولا جور.

أما من يتخذون من قضية الخلافة وسيلة للمتاجرة بالدين واللعب بعواطف العامة محتجين ببعض النصوص التي يسقطونها إسقاطًا خاطئًا دون أي دراية بفقه الواقع أو تحقيق المناط من جهة، ويجعلونها أصل الأصول الذي عليه مناط الإيمان والكفر من جهة أخرى، فإننا نرد عليهم بما أكد عليه فضيلة الإمام الأكبر الأستاذ الدكتور/ أحمد الطيب شيخ الأزهر في كلمته التي ألقاها في مؤتمر: «الأزهر في مواجهة الإرهاب والتطرف» ٢٠١٤م من أنه لا نزاع بين أهل العلم المعتبرين في أن الخلافة أليق بالفروع وأقرب لها، ومذهب الأشاعرة على أنها فرع لا أصل، وذكر فضيلته ما ورد في كتاب «شرح المواقف» الذي يُعد أحد أعمدة كتب المذهب الأشعري؛ حيث ذكر مؤلفه في شأن الإمامة أنها «ليست من أصول الديانات والعقائد عندنا؛ بل هي فرع من الفروع»، ثم علق فضيلة الإمام قائلًا: فكيف صارت هذه المسألة التي ليست من أصول الدين عند أهل السنة والجماعة حدًّا فاصلًا عند هذا الشباب بين الكفر والإيمان، وفتنة سُفِكَت فيها الدماء، وخُرّب العمران، وشُوّهت بها صورة هذا الدين الحنيف؟!

وعندما تحدث النبي ﷺ في حديثه الجامع عن الإيمان والإسلام والإحسان لم يجعل ﷺ الخلافة ركنًا من أركان الإيمان أو الإسلام، فعن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «بَيْنَمَا



نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنْ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله ﷺ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ الْإِيمَانِ، قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِالله وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ الْإِحْسَانِ، قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ السَّاعَةِ، قَالَ: مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنْ السَّائِلِ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا، قَالَ: أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ، قَالَ: ثُمَّ انطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ لِي: يَا عُمَرُ، أَتَدْرِي مَنْ السَّائِلُ؟ قُلْتُ: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»(٦١).

أما جملة الأحاديث التي تتحدث عن الخلافة والبيعة فيمكن أن تُحمل في جملتها في ضوء معطيات عصرنا الحاضر على ضرورة إقامة نظام حكم عادل رشيد، له رئيس ومؤسسات، يعمل على تحقيق العدل بين الناس، وتحقيق مصالح البلاد والعباد، ويستند إلى الشورى، والإفادة من الكفاءات وأهل الخبرة والاختصاص، بحيث لا يُترك الناس فوضى لا سراة لهم، ولا إشكال بعد ذلك في الأسماء والمسميات طالما أنها تحقق الأهداف والغايات التي يسعى الإسلام لتحقيقها بين الناس جميعًا بما يحقق صالح دينهم ودنياهم.

ومن ثم فإن قيام بعض المجتمعات بسن قوانين لتنظيم أمور حياتها بما يحقق العدل والمساواة، ويعمل على القضاء على الجرائم بشتى أنواعها، ويؤدي إلى عمارة الكون،

وتحقيق الأمن والاستقرار والتقدم والرخاء؛ لهو مقصد هام من مقاصد التشريع في بناء الدول واستقرارها، ومما لا غنى عنه فيما لم يرد فيه نص قاطع حاسم قطعي الثبوت والدلالة بإجماع أهل العلم والفقهاء المعتبرين؛ ذلك أن دراسة المستجدات والقضايا العصرية مما يحتاج إلى اجتهاد فقهي وتشريعي بما يناسب الزمان والمكان.

وبما أن الله عَزَّوَجَلَّ لم يخص بالعلم ولا الفقه قومًا دون قوم أو جيلًا دون جيل، ولم يقصر الاجتهاد الفقهي ولا العلمي على عصر دون غيره، وبما إن العلماء المتخصصين لا يرون آفة أشد خطرًا من الجمود والانغلاق، ومحاولة فرض بعض الفتاوى التي ناسبت عصرًا أو مكانًا أو حالًا معينًا على كل العصور والأمكنة أو الأحوال دون مراعاة لتغير كل ذلك أو بعضه، مؤكدين أن الفتوى قد تتغير؛ بل قد يتحتم تغيرها بتغير الزمان أو المكان أو الحال؛ فإنه يجب أن ينشأ تعاون وثيق بين المؤسسات الدينية والبرلمانية والتنفيذية لاقتحام عباب الواقع في شجاعة وموضوعية تامين دون مساس بثوابت الشرع الحنيف.

وهنا نؤكد على عدة أمور، أهمها:

١- أنه لا تعارض بين النقل والعقل، ونعني بذلك أنه لا تعارض بين النص الثابت الصريح والعقل المفكر الرشيد، فالإسلام دين الفطرة، وحيث تكون المصلحة فثمة شرع الله ما لم يحل ذلك حرامًا أو يحرم حلالًا، ويكفي أن نشير إلى تلك الآيات الداعية إلى التأمل والتفكر والتدبر والنظر واستخدام العقل، كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، وقوله سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١]، وقوله جل شأنه: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ



بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، ويقول سبحانه: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ ۝٢٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٧-٢٨].

ولما نزل قوله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، قال نبينا ﷺ: «وَيْلٌ لِـمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا»[٦٢].

كما أنه لا تعارض بين الإسلام والعلم؛ بل على العكس من ذلك فإن الإسلام دين العلم، وأمته أمة اقرأ، ويكفي أن نشير إلى أن أول ما نزل من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق: ١-٥]، ويقول سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩]، ويقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧].

فالإسلام يدعونا إلى الأخذ بأقصى أسباب العلم، ويحثنا عليه، ويأمرنا به، وينهانا عن التخبط في ظلمات الجهل والتخلف، وقد جعل نبيُّنا ﷺ فداءَ أسرى بدر الذين يجيدون القراءة والكتابة أن يُعلِّم كل واحد منهم عشرة من صبيان المدينة القراءة والكتابة[٦٣]، في إشارة واضحة إلى الاهتمام البالغ بالعلم وإعلاء شأنه وقيمته.

٢- أنه لا تعارض بين الدين والدولة، فالدولة الرشيدة هي صمام أمان للتدين الرشيد، والعلاقة بين الدين والدولة ليست علاقة عداء، ولن تكون، إن تدينًا رشيدًا صحيحًا واعيًا وسطيًّا يسهم وبقوة في بناء واستقرار دولة عصرية ديمقراطية حديثة تقوم على أسس وطنية راسخة وكاملة، وإن دولة رشيدة لا يمكن أن

تصطدم بالفطرة الإنسانية التي تبحث عن الإيمان الرشيد الصحيح.

على أننا ينبغي أن نفرّق وبوضوح شديد بين التدين والتطرف، فالتدين الرشيد يدفع صاحبه إلى التسامح، إلى الرحمة، إلى الصدق، إلى مكارم الأخلاق، إلى التعايش السلمي مع الذات والآخر، وهو ما ندعمه جميعًا، أما التطرف والإرهاب الذي يدعو إلى الفساد والإفساد، والتخريب والدمار، والهدم، واستباحة الدماء والأموال، فهو الداء العضال الذي يجب أن نقاومه جميعًا، وأن نقف له بالمرصاد، وأن نعمل بكل ما أوتينا من قوة للقضاء عليه حتى نجتثه من جذوره.

وفي هذه المعادلة غير الصعبة يجب أن نفرق بين الدين الذي هو حق، والفكر الإرهابي المنحرف الذي هو باطل، موقنين أن الصراع بين الحق والباطل قائم ومستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، على أن النصر للحق طال الزمن أو قصر؛ حيث يقول الحق سبحانه: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨].

إن مثل الحق والباطل كمثل الكلمة الطيبة التي هي حق والكلمة الخبيثة التي هي باطل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٦].

على أن النصر لا محالة للحق وأهله؛ حيث يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣]، ويقول تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]، ويقول الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

إننا لأصحابُ قضية عادلة، قضية دين، وقضية وطن، فكل ما يدعو للبناء والتعمير، والعمل والإنتاج، وإسعاد الناس وتحقيق



أمنهم واستقرارهم؛ لهو الدين الحق، والإنسانية الحقيقية، وكل ما يدعو للفساد والإفساد، والتخريب والقتل، يدعو إلى ما يخالف الأديان وسائر القيم النبيلة والفطرة الإنسانية القويمة.

الدين والدولة لا يتناقضان، الدين والدولة يرسخان معًا أسس المواطنة المتكافئة في الحقوق والواجبات، وأن نعمل معًا لخير بلدنا وخير الناس أجمعين، أن نحب الخير لغيرنا كما نحبه لأنفسنا، فالأديان رحمة، الأديان سماحة، الأديان إنسانية، الأديان عطاء.

الدين والدولة يتطلبان منا جميعًا التكافل المجتمعي، وألَّا يكون بيننا جائع ولا محروم ولا عارٍ ولا مشرد ولا محتاج.

الدين والدولة يدفعان إلى العمل والإنتاج، والتميز والإتقان، ويطاردان البطالة والكسل، والإرهاب والإهمال، والفساد والإفساد، والتدمير والتخريب، وإثارة القلاقل والفتن، والعمالة والخيانة.

ونؤكد أن من يتوهمون صراعًا لا يجب أن يكون بين الدين والدولة ويرونه صراعًا محتمًا إما أنهم لا يفهمون الأديان فهمًا صحيحًا أو لا يعون مفهوم الدولة وعيًا تامًّا، فالخلل لا علاقة له بالدين الصحيح ولا بالدولة الرشيدة، إنما ينشأ الخلل من سوء الفهم لطبيعة الدين أو لطبيعة الدولة أو لطبيعتيهما معًا.

غير أننا نؤكد على ضرورة احترام دستور الدولة وقوانينها، وإعلاء دولة القانون، وألا تنشأ في الدول سلطات موازية لسلطة الدولة، أيًّا كان مصدر هذه السلطات، فهو لواء واحد تنضوي تحته وفي ظله كل الألوية الأخرى، أما أن تحمل كل مؤسسة أو جماعة أو جهة لواء موازيًا للواء الدولة؛ فهذا خطر داهم لا يستقيم معه أمر الدين ولا أمر الدولة [٦٤].

٣- أن أهم ما يميز الحكم الرشيد في الإسلام هو العدل، العدل في الرضا والغضب، مع الصديق والعدو؛ حيث يقول سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ

وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]، ويقول الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨]، ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥]، ويقول جل شأنه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨]، ويقول نبينا ﷺ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ في ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ الله تَعَالَى، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالمَسَاجِدِ، وَرَجُلانِ تَحَابَّا في الله اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَال: إِنِّي أَخَافُ اللهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لا تَعْلَمَ شِمَالُه مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا ففاضت عَيْنَاهُ»(٦٥)، ويقول ﷺ: «إِنَّ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَى الله وَأَقْرَبَهُمْ مِنْهُ مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِمَامٌ عَادِلٌ، وَأَبْغَضَ النَّاسِ إِلَى الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَشَدَّهُمْ عَذَابًا إِمَامٌ جَائِرٌ»(٦٦)، ويقول ﷺ: «ثَلاثَةٌ لا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ الإِمَامُ الْعَادِلُ، وَالصَّائِمُ حِينَ يُفْطِرُ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ يَرْفَعُهَا فَوْقَ الْغَمَامِ وَتُفَتَّحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَيَقُولُ الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ: وَعِزَّتِي لأَنْصُرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ»(٦٧)، ويقول ﷺ: «مَا مِنْ رَجُلٍ يَلِي أَمْرَ عَشَرَةٍ فَمَا فَوْقَ ذَلِكَ إِلَّا أَتَى الله مَغْلُولًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَدُهُ إِلَى عُنُقِهِ فَكَّهُ بِرُّهُ، أَوْ أَوْبَقَهُ إِثْمُهُ، أَوَّلُهَا مَلَامَةٌ، وَأَوْسَطُهَا نَدَامَةٌ، وَآخِرُهَا خِزْيٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(٦٨)، ويقول ﷺ: «إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ الله عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّوَجَلَّ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا»(٦٩).

وهو ما أكده سيدنا أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في أول خطبة له عند تولي الخلافة حين قال: أيها الناس، إني قد وليتُ عليكم ولست بخيركم،

فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوِّموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم [٧٠]»، ولم يكتف بذلك قولًا، إنما حققه قولًا وعملًا.

وهو ما أكده وانتهجه أيضًا سيدنا عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند توليه الخلافة، فكرر المعاني نفسها في أول خطبة له، وها هي رسالته التي أرسلها إلى سيدنا أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول فيها: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الْقَضَاءَ فَرِيضَةٌ مُحْكَمَةٌ، وَسُنَّةٌ مُتَّبَعَةٌ، فَافْهَمْ إِذَا أُدْلِيَ إِلَيْكَ، فَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُ تَكَلُّمٌ بِحَقٍّ لَا نَفَاذَ لَهُ، آسِ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَجْلِسِكَ، وَوَجْهِكَ، وَعَدْلِكَ، حَتَّى لَا يَطْمَعَ شَرِيفٌ فِي حَيْفِكَ، وَلَا يَخَافَ ضَعِيفٌ جَوْرَكَ، الْبَيِّنَةُ عَلَى مَنِ ادَّعَى، وَالْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ، الصُّلْحُ جَائِزٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، إِلَّا صُلْحًا أَحَلَّ حَرَامًا أَوْ حَرَّمَ حَلَالًا، لَا يَمْنَعُكَ قَضَاءٌ قَضَيْتَهُ بِالْأَمْسِ رَاجَعْتَ فِيهِ نَفْسَكَ، وَهُدِيتَ فِيهِ لِرُشْدِكَ أَنْ تُرَاجِعَ الْحَقَّ، فَإِنَّ الْحَقَّ قَدِيمٌ، وَإِنَّ الْحَقَّ لَا يُبْطِلُهُ شَيْءٌ، وَمُرَاجَعَةُ الْحَقِّ خَيْرٌ مِنَ التَّمَادِي فِي الْبَاطِلِ، الْفَهْمَ الْفَهْمَ فِيمَا يَخْتَلِجُ عِنْدَ ذَلِكَ، فَاعْمَدْ إِلَى أَحَبِّهَا إِلَى اللهِ، وَأَشْبَهِهَا بِالْحَقِّ فِيمَا تَرَى، وَاجْعَلْ لِلْمُدَّعِي أَمَدًا يَنْتَهِي إِلَيْهِ، فَإِنْ أَحْضَرَ بَيِّنَةً وَإِلَّا وَجَّهْتَ عَلَيْهِ الْقَضَاءَ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَجْلَى لِلْعَمَى، وَأَبْلَغُ فِي الْعُذْرِ، الْمُسْلِمُونَ عُدُولٌ بَيْنَهُمْ، بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا مَجْلُودًا فِي حَدٍّ، أَوْ مُجَرَّبًا فِي شَهَادَةِ زُورٍ، أَوْ ظَنِينًا فِي وَلَاءٍ أَوْ قَرَابَةٍ، فَإِنَّ اللهَ تَوَلَّى مِنْكُمُ السَّرَائِرَ وَدَرَأَ عَنْكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ، ثُمَّ إِيَّاكَ وَالضَّجَرَ، وَالْقَلَقَ، وَالتَّأَذِّيَ بِالنَّاسِ، وَالتَّنَكُّرَ لِلْخُصُومِ فِي مَوَاطِنِ الْحَقِّ الَّتِي يُوجِبُ بِهَا الْأَجْرَ، وَيُحْسِنُ بِهَا الذِّكْرَ، فَإِنَّهُ مَنْ يُخْلِصْ نِيَّتَهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ يَكْفِهِ اللهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ، وَمَنْ تَزَيَّنَ لِلنَّاسِ بِمَا يَعْلَمُ اللهُ مِنْهُ غَيْرَ ذَلِكَ؛ شَانَهُ اللهُ؛ فَإِنَّ اللهَ لَا يَقْبَلُ مِنْ عَبْدِهِ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا، فَمَا ظَنُّكَ بِثَوَابِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ وَعَاجِلِ رِزْقِهِ، وَخَزَائِنِ رَحْمَتِهِ، وَالسَّلَامُ

عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ الله»[71].

وهو ما يصوره حافظ إبراهيم في قصيدته الرائعة المسماة بالعمرية؛ حيث يقول[72]:

وراع صاحِبَ كسرى أَنْ رأى عمرًا
بين الرعية عطلًا وهو راعيها

وعهده بملُوك الفُرْس أنَّ لها
سورًا من الجنْدِ والأَحْراسِ يحميها

رآه مُسْتغرقًا في نَوْمِه فرَأَى
فيه الجلالة في أَسْمى مَعانيها

فَوْقَ الثَّرى تحت ظلِّ الدَّوْح مُشْتملًا
ببردة كاد طُول العَهْد يبليها

فهان في عَيْنِهِ ما كان يكبره
من الأكاسِر والدُّنيا بأيديها

وقال قَوْلَةَ حقٍّ أَصْبحت مثلًا
وأَصْبح الجيلُ بعد الجيلِ يَرْوِيها

أمنتَ لمَّا أقمتَ العَدْلَ بينهم
فَنِمْتَ نَوْمَ قَرِير العينِ هانيها

إنْ جاع في شدَّةٍ قومٌ شركتهم
في الجوع أَو تَنْجِلي عنهم غَواشيها

جوعُ الخليفةِ و الدُّنيا بقبضتِهِ
في الزُّهْدِ منزلة سُبْحان موليها

فَمَنْ يُبارِي أبا حفصٍ وسِيرته
أو مَنْ يُحاوِل للفاروق تَشْبِيها

وكتب أحد الولاة إلى سيدنا عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن اللصوص كثروا بالمدينة فكتب إليه: أن حَصِّنها بالعدل[73]، وقد قال أحد العلماء البلغاء في شأن العدل: «إنّ العدل ميزان الله الّذي وضعه للخلق، ونصبه للحقّ، فلا تخالفه في ميزانه، ولا تعارضه في سلطانه، واستعن على العدل بخلّتين: قلّة الطّمع، وكثرة الورع»[74].

وكان ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: أفضل نعم الله تعالى على المرء أن يطبعه على العدل وحبّه، وعلى الحقّ وإيثاره[75].

٤- أن العمل على تقوية شوكة الدولة الوطنية وترسيخ دعائمها مطلب شرعي ووطني، وأن كل من يعمل على تقويض بنيان الدولة أو تعطيل مسيرتها، أو تدمير بناها التحتية، أو ترويع الآمنين بها؛ إنما هو مجرم في حق دينه ووطنه معًا.

٥- أن السلطة في منظور الجماعات المتطرفة



وأيديولوجياتها غاية لا وسيلة، ويتمحور فكرها حول معنى واحد، ربما لا ثاني له، إما أن تحكم، وإما أن تخرب لتسقط أنظمة الحكم، وفي سبيل ذلك كل شيء لديها مباح ومستباح، فكل ما يمكن أن يسهم في تحقيق غاياتها السلطوية هو في أيديولوجياتها سبيل من سبل التمكين التي يجب الأخذ بها، حتى لو كان ذلك سيؤدي إلى سفك الدماء، أو ترويع الآمنين، أو إسقاط الدول، أو تفكيكها، أو تفتيتها، أو تدميرها، أو تعريض وجودها من أساسه للخطر والمخاطر؛ لذا لا يتوقع من عناصر هذه الجماعات المتطرفة في فكرها وسلوكها أي خير لأوطانهم؛ بل إنهم وبال وشر أينما حلوا أو حتى ارتحلوا؛ لأن الشر يرحل معهم، ويرتحل بارتحالهم، وهم على الجملة لا يؤمنون إلا بأنفسهم، لا يؤمنون بوطن ولا بدولة وطنية، فهم على استعداد للتحالف مع العدو أيًا كان، ومع كل من يوهمهم بمساعدتهم على الوصول إلى السلطة وتحقيق ما يتمنونه من ورائها، وهم لا يعتبرون ذلك عمالة ولا خيانة، إنما يعتبرونه تحالفات وقتية أو استراتيجية طبيعية، طالما أنها تصل بهم إلى مرادهم في تحقيق السلطة التي لا يَعُونَ أي شيء عن مقوماتها أو متطلباتها، سوى أنها ستحقق لهم ما يطمحون إليه من أمر دنياهم مغطى بما يوهمون به العامة والدهماء من أنهم إنما يعملون لأمر دينهم، والأديان براء من كل ذلك، وأبعد ما تكون عن هذه العمالات والخيانات وهذا التفكير الشاذ المنحرف.

وفي سبيل الوصول إلى مآربهم يتذرعون بذرائع، منها أن بعض الحكام لا يحكمون بشرع الله عَزَّوَجَلَّ، على أنك عندما تناقش أحد عناصر هذه الجماعات عن مفهوم شرع الله تجده خاوي الوفاض، وقد بينا ذلك واضحًا جليًّا في كتابَيَّ: «مفاهيم يجب أن تصحح»، و«ضلالات الإرهابيين وتفنيدها»، وأكدنا أن الالتزام بما أنزل الله عَزَّوَجَلَّ من شرع لا يمنع احتكام البشر إلى قوانين يضعونها في إطار مبادئ التشريع العامة وقواعده الكلية، وفقًا

لتغير الزمان والمكان، ولا يكون الاحتكام لتلك التشريعات الوضعية مخالفًا لشرع الله عَزَّوَجَلَّ ما دام أنه يحقق المصالح العامة للدول والشعوب والأفراد والمجتمعات، ولا يُحِل حرامًا أو يُحرِّم حلالًا أو يتناقض مع ثوابت الشرع، أو ينال منها.

على أن أهم ما نحذر منه هو ما تنطوي عليه هذه الجماعات المتطرفة من حقد على المجتمع، وتربص به، وعمل على الإيقاع به بشتى الطرق؛ سواء بالتخريب المباشر أو بالتعويق والتعطيل والتشويه وقلب الحقائق، ولهم من أساليب المكر ما لا يمكن أن يفكر فيه سوى جماعات الهدم ومنزوعي الوطنية؛ بهدف إضعاف الدولة وسقوطها، وهو ما قد يسهم من منظورهم في إفساح الطريق لهم إلى سُدَّة الحكم، خابوا وخسروا ﴿وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

كما أننا نحذر من حملات التشويه وقلب الحقائق من خلال المواقع الإلكترونية وبعض الوسائل الإعلامية التي تتسلل عبرها هذه العناصر محترفة الكذب والتدليس، وعلينا أن نتثبت ونتبين حقائق الأخبار حتى لا نقع في شراك ما تريده هذه الجماعات من فوضى؛ حيث يقول الحق سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

٦- أننا في حاجة ملحة إلى إعادة قراءة تراثنا الفكري قراءة دقيقة واعية تفرق بين الثابت والمتغير، بين ما ناسب عصره وزمانه ومكانه من اجتهادات الفقهاء، وما يتطلبه عصرنا ومستجداته من قراءة جديدة للنصوص يقوم بها أهل العلم والاختصاص لحل إشكاليات الحاضر، وبخاصة فيما يتصل بأحكام الحرب والسلم والحكم، ولا سيما في الرسائل العلمية والبحثية الجامعية المتخصصة حتى تكون الجامعة بحق في خدمة المجتمع، وكذلك من خلال المجامع والهيئات والمؤسسات العلمية والفقهية المتخصصة.

وختامًا: وبعد رحلة فكرية طويلة مع

فلسفة الحرب والسلم والحكم، لخصتها في هذا المبحث تجلية للحق، وتصويبًا للمفاهيم الخاطئة، آثرت فيها الإيجاز تيسيرًا على القارئ، ومراعاة لوتيرة العصر المتسارعة في كل شيء؛ يسرني أن أسجل بين يدي القارئ الكريم بعض الإضاءات التي تضمنها هذا المبحث، وهي:

١- أن كثيرًا من أوجه الخلل التي تعتري المجتمعات والدول تأتي نتيجة سوء الفهم لفلسفة الحرب، أو فلسفة السلم، أو فلسفة الحكم، حتى إن أكثر الجماعات الضالة والمنحرفة عن جادة الصواب والعناصر التي تجتذبها جماعات التطرف إنما تجتذبها وتجندها في الغالب الأعم من خلال الخلط بين أحكام الحرب وأحكام السلم، وإسقاط أحكام الحرب على أحوال السلم، ورمي المجتمعات بالتقصير في حق دينها، ومن ثَمَّ وصفها بالجاهلية تمهيدًا لتكفيرها، ثم الانتقال من التكفير إلى التفجير، أو تعمل على ذلك من خلال نشر الفهم الخاطئ لنظام الحكم، وحصره في قضية الخلافة، ومحاولة فرضها بمنظور هذه الجماعات المتطرفة على المجتمعات والدول فرضًا، والإصرار على إسقاط الواقع المعاصر في قوالب جامدة لم يضعها ولم يفرضها الإسلام، إنما صنعتها الرؤى المتطرفة لهذه الجماعات.

٢- أن الحرب في الإسلام إنما هي حرب دفاعية شُرعت لرد الظلم والعدوان، وهي محصورة في ردِّ الاعتداء ودفع الظلم؛ حيث يقول الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩]، ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

٣- أن من أهم أخلاق الفرسان التي أصَّلها الإسلام في فلسفة القتال أنه لا قتل للمدنيين أو لغير المقاتلين، ولا هدم للبنيان، ولا تخريب للعمران، فالإسلام دين بناء لا هدم.

٤- أننا إذا فرض علينا القتال؛ فإننا لا

يمكن أن نعطي الدنية في ديننا، ولا أن نتخاذل في الدفاع عن أوطاننا، إنها نفتديها بأنفسنا وشعارنا في ذلك: والله إنها لإحدى الحسنيين إما النصر، وإما الشهادة.

٥- أن البشرية لو بذلت في سبيل السلام والبناء، والنماء والتنمية، وعلاج المرضى، ورعاية الضعفاء والمحتاجين والمهمشين في العالم معشار ما تنفقه على الحروب والتسليح، وتخلى الأنانيون عن نفعيتهم وأنانيتهم؛ لانصلح حال البشرية جمعاء، ولتغير وجه البسيطة، ولعاش العالم كله في سلام وأمان، فإن لم يكن ذلك فما لا يُدرك كلُّه لا يُترك كلُّه، ويجب على كل عاقل رشيد مؤمن بالإنسانية محب للسلام أن يكون في جانب السلام والبناء والتعمير، لا جانب الاحتراب والتدمير.

٦- تعد فلسفة السلم هي القضية الراسخة في الفكر الإسلامي؛ حيث يقول الحق سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

ووفق مفهومي الموافقة والمخالفة في فهم هذه الآية فإن من يسير في طريق السلم الإنساني متبعٌ لما أمر الله عَزَّوَجَلَّ به عباده المؤمنين، ومن يسلك مسالك الفرقة والشقاق، والتكفير والتفجير، والخوض في الدماء، والولوج فيها بغير حق فسادًا أو إفسادًا؛ متبعٌ لخطوات الشيطان الذي هو لنا جميعًا عدوٌّ مبين.

٧- أن السلام الحقيقي يقتضي أن يكون الإنسان في سلام مع نفسه، مع أصدقائه، مع جيرانه، مع النبات والحيوان والجماد، مع الكون كله، ألم يقل النبي ﷺ: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ»؟[٧٦].

٨- فلسفة الحكم في الإسلام قائمة على مراعاة مصالح الناس، فكل ما يحقق الأمن والأمان والاستقرار، ويعمل على عمارة الكون وسعادة البشر، يتفق ومقاصد الأديان، وكل ما يؤدي إلى الظلم أو الفساد أو الهدم، أو التخريب؛ لا علاقة له بالأديان؛ بل إنه



متناقض كل التناقض مع صحيح الأديان ومقاصدها السامية.

٩- أن الإسلام لم يضع قالبًا جامدًا صامتًا محددًا لنظام الحكم لا يمكن الخروج عنه، وإنما وضع أسسًا ومعايير متى تحققت كان الحكم رشيدًا يقرّه الإسلام، ومتى اختلّت أصاب الحكم من الخلل والاضطراب بمقدار اختلالها.

ولعل العنوان الأهم والأبرز لنظام أي حكم رشيد هو مدى تحقيقه لمصالح البلاد والعباد، وعلى أقل تقدير مدى عمله لذلك وسعيه إليه، فأي حكم يسعى إلى تحقيق مصالح البلاد والعباد في ضوء معاني العدل والمساواة والحرية المنضبطة بعيدًا عن الفوضى والمحسوبية وتقديم الولاء على الكفاءة؛ فهو حكم رشيد معتبر.

١٠- أنه لا تعارض بين النقل والعقل، ونعني بذلك أنه لا تعارض بين النص الثابت الصريح والعقل المفكر الرشيد، فالإسلام دين الفطرة، وحيث تكون المصلحة فثمة شرع الله ما لم يحل ذلك حرامًا أو يحرم حلالًا.

١١- أنه لا تعارض بين الإسلام والعلم؛ بل على العكس من ذلك فإن الإسلام دين العلم، وأمته أمة « اقرأ »، وإنه ليدعونا إلى الأخذ بأقصى أسباب العلم، ويحثنا عليه، ويأمرنا به، وينهانا عن التخبط في ظلمات الجهل والتخلف، وقد جعل نبينا ﷺ فداء أسرى بدر الذين يجيدون القراءة والكتابة أن يعلم كل واحد منهم عشرة من صبيان المدينة القراءة والكتابة، في إشارة واضحة إلى الاهتمام البالغ بالعلم وإعلاء شأنه وقيمته.

١٢- أنه لا تعارض بين الدين والدولة، فالدولة الرشيدة هي صمام أمان للتدين الرشيد، والعلاقة بين الدين والدولة ليست علاقة عداء، ولن تكون، إن تدينًا رشيدًا صحيحًا واعيًا وسطيًّا يسهم وبقوة في بناء واستقرار دولة عصرية ديمقراطية حديثة تقوم على أسس وطنية راسخة وكاملة، وإن دولة رشيدة لا يمكن أن تصطدم بالفطرة الإنسانية التي تبحث عن الإيمان الرشيد الصحيح.

على أننا ينبغي أن نفرّق وبوضوح شديد

بين التدين والتطرف، فالتدين الرشيد يدفع صاحبه إلى التسامح، إلى الرحمة، إلى الصدق، إلى مكارم الأخلاق، إلى التعايش السلمي مع الذات والآخر، وهو ما ندعمه جميعًا، أما التطرف والإرهاب الذي يدعو إلى الفساد والإفساد، والتخريب والدمار، والهدم واستباحة الدماء والأموال، فهو الداء العضال الذي يجب أن نقاومه جميعًا، وأن نقف له بالمرصاد، وأن نعمل بكل ما أوتينا من قوة للقضاء عليه حتى نجتثه من جذوره.

١٣- أن فلسفة الإسلام الحقيقية تقوم على العدل، فإن الله عَزَّوَجَلَّ ينصر الدولة العادلة ولو كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة ولو كانت مؤمنة، وقد قالوا: إن الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام.

١٤- أن العمل على تقوية شوكة الدولة الوطنية وترسيخ دعائمها مطلب شرعي ووطني، وأن كل من يعمل على تقويض بنيان الدولة أو تعطيل مسيرتها، أو تدمير بناها التحتية، أو ترويع الآمنين بها؛ إنما هو مجرم في حق دينه ووطنه معًا.

١٥- أن السلطة قد صارت في منظور الجماعات المتطرفة وأيديولوجياتها غاية لا وسيلة، ويتمحور فكر هذه الجماعات حول معنى واحد، ربما لا ثاني له، إما أن تحكم، وإما أن تخرب لتسقط أنظمة الحكم، وفي سبيل ذلك كل شيء لديها مباح، فكل ما يمكن أن يسهم في تحقيق هذه الغاية لهم هو في أيديولوجياتهم سبيل من سبل التمكين التي يجب الأخذ بها، حتى لو أدى ذلك إلى سفك الدماء، وترويع الآمنين، أو إسقاط الدول، أو تفكيكها، أو تفتيتها، أو تدميرها، أو تعريض وجودها من أساسه للخطر والمخاطر.

١٦- أننا في حاجة ملحة إلى إعادة قراءة تراثنا الفكري قراءة دقيقة واعية تفرق بين الثابت والمتغير، بين ما ناسب عصره وزمانه ومكانه من اجتهادات الفقهاء وما يتطلبه عصرنا ومستجداته من قراءة جديدة للنصوص، يقوم بها أهل العلم والاختصاص لحل إشكاليات الحاضر، وبخاصة فيما يتصل

بأحكام الحرب والسلم والحكم، ولا سيما في الرسائل العلمية الجامعية المتخصصة حتى تكون الجامعة بحق في خدمة المجتمع، وكذلك من خلال المجامع والهيئات والمؤسسات العلمية والفقهية المتخصصة.

١٧- أننا في حاجة إلى شراكة حقيقية، لا إقصاء فيها، تجمع بين العلماء والفقهاء والمفكرين والمثقفين وقادة الفكر والرأي؛ لنعمل معًا على تجديد وتطوير وتصويب خطابنا الفكري والثقافي والديني والعلمي، في إطار من التعاون، لا التقابل ولا التناقض، وتركيز كل منا فيما يتقنه ويحسنه، قصد خدمة ديننا ووطننا وأمتنا، مجتمعين على كلمة سواء.

١٨- أننا يجب أن نفرق بين إسلامية المنهج الذي يجب ألا يتعارض أو يتناقض مع المقاصد الكلية للشرع الحنيف التي تدعو في جملتها إلى العدل والمساواة والكرامة الإنسانية واحترام آدمية الإنسان، وبين المتاجرة بهذه المبادئ واحتكار فهمها أو تطبيقها، ومحاولات تسويق بعض الجماعات الإرهابية والمتطرفة أنفسها على أنها حامية حمى الدين، واختزال هذه الحماية في أنفسهم، بحيث لو حكم غيرهم بكل معاني العدل والنزاهة والشفافية لكان حكمه غير إسلامي وغير مقبول، لا لشيء إلا لأنه لا ينتمي إليهم، ولا يطبق أيديولوجياتهم ومخططاتهم، ولا يحقق مصالحهم الخاصة، أما إذا آل الحكم إلى أحدهم؛ فهو الحاكم المنزه الذي لا يخطئ، والذي يجب تبرير أخطائه وقلب سيئاته حسنات حتى لو كان في أعلى درجات الديكتاتورية والإقصاء، مما يجعله متطابقًا مع ما كان من فرعون مع قومه حين قال لهم: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

* * *

الهوامش:

(١) ديوان أبي الأسود الدؤلي، ص ١٨٢، تحقيق: محمد حسن آل ياسين، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

(٢) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب كان النّبيّ ﷺ إذا لم يقاتل أوّل النّهار أخّر القتال حتّى تزول الشّمس، حديث رقم: ٢٩٦٦، وصحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب كراهة تمني لقاء العدو، حديث رقم: ١٧٤٢.

(٣) ديوان زهير بن أبي سلمى: معلقة أمن أمّ أوفى دِمْنَةٌ لم تكلّم، ص ١٠٦، تحقيق: علي حسن فاعور، دار الكتب العلمية، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

(٤) الضّرى: شدة الحرب واستعار نارها، وضرمت النار تضرم ضرمًا: اشتعلت واشتدت، انظر: شرح المعلقات السبع، حسين ابن أحمد الزَّوْزَني، ص١٤٣، دار إحياء التراث العربي.

(٥) اللقاح: حمل الولد، ومنه: لقحت الناقة، والكشاف: أن تلقح النعجة في السنة مرتين، ونتجت الناقة تنتج نتاجًا. وتتئم: تلد توأمين. انظر: الصفحة نفسها.

(٦) المراد: تنتج لكم ما تكرهون من الدمار والدم لا ما تحبون مما تنتجه قرى العراق الآمنة المستقرة آنذاك.

(٧) برك الغماد (بكسر الغين المعجمة): موضع وراء مكة بخمس ليال مما يلي البحر، وقيل: بلد باليمن. انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي، ١/ ٣٩٩، دار صادر، بيروت.

(٨) انظر: المغازي للواقدي، ١/ ٤٨، تحقيق: مارسون جونس، دار الأعلمي، بيروت الطبعة الثالثة، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩م، وسيرة ابن هشام- استيثاق الرّسول ﷺ من أمر الأنصار، ١/ ٦١٥، مصطفى البابي الحلبي بمصر، ودلائل النبوة للبيهقي، ٣/ ٣١، دار الكتب العلمية، بيروت، ودار الريان للتراث.

(٩) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب مناقب سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حديث رقم: ٣٨٠٣، وصحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل سعد بن معاذ، حديث رقم: ٢٤٦٦.

(١٠) انظر: الكامل في التاريخ لابن الأثير، ٢/ ٣٣، دار الكتب العلمية، بيروت، وجوامع السيرة لابن حزم ١/ ١٥٤، دار المعارف، مصر، وتاريخ الإسلام للذهبي، ٢/ ١٤٥، دار الكتاب العربي، لبنان، بيروت.

(١١) القضّ: الحصى الكبار، والقضيض: الحصى الصغار، والمعنى: جاءوا جميعًا بكبارهم وصغارهم. انظر: لسان العرب لابن منظور، ٧/ ٢١٩.

(١٢) انظر: الكامل في التاريخ لابن الأثير، ١/ ٢٩٨، والبداية والنهاية لابن كثير، ٥/ ٤٥٤، تحقيق: عبد الله التركي، دار هجر، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، وتاريخ الإسلام للذهبي، ٢/ ٢٢٣.

(١٣) انظر: تاريخ الإسلام للذهبي، ٢/ ١٤٨، وسبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، ٤/ ٣١٧، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

(١٤) انظر: تاريخ الطبري، ٢/ ٩٠، دار الكتب العلمية، بيروت، والكامل في التاريخ لابن الأثير، ٢/ ٦٩.



(١٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام، ٢/ ٢٨٩، والروض الأنف للسهيلي، ٧/ ١٨، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(١٦) انظر: تاريخ الإسلام للذهبي، ٢/ ٢٤٥، وتاريخ الطبري، ٢/ ١٠٥.

(١٧) انظر: الكامل في التاريخ لابن الأثير، ٢/ ٧٨، وتاريخ الطبري، ٢/ ١٠٥.

(١٨) انظر: تاريخ الطبري، ٢/ ١٣٥، والبداية والنهاية لابن كثير ١/ ٢٥٣.

(١٩) انظر: المغازي للواقدي، ١/ ٧٥٥، وتاريخ الإسلام للذهبي، ٢/ ٤٧٩.

(٢٠) انظر: السيرة النبوية لابن هشام، ٢/ ٣٩٤، وتاريخ الإسلام للذهبي، ٢/ ٥٢٣.

(٢١) انظر: سيرة ابن هشام، ٢/ ٣٩٣.

(٢٢) السنن الكبرى للبيهقي، كتاب السّير، باب فتح مَكَّةَ حرسها الله تعالى، ٩/ ١٩٩، حديث رقم: ١٨٢٧٦، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، وانظر: سيرة ابن هشام، ٢/ ٤١١، والروض الأنف، ٧/ ٧٥.

(٢٣) انظر: المغازي للواقدي، ١/ ٨٨٦، وتاريخ الإسلام للذهبي، ٢/ ٥٧١.

(٢٤) انظر: الكامل في التاريخ لابن الأثير، ١/ ٣٤٠، وتاريخ الطبري، ٢/ ١٨١.

(٢٥) سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب في دعاء المشركين، حديث رقم: ٢٦١٤، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢٦) صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث، ووصيّته إيّاهم بآداب الغزو وغيرها، حديث رقم: ١٧٣١، من حديث بريدة بن الحصيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢٧) موطأ مالك، كتاب الجهاد، باب النّهي عن قتل النّساء والصبيان في الغزو، حديث رقم: ١٦٢٧، وتاريخ دمشق لابن عساكر، ٢/ ٧٧، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، والسنن الكبرى للبيهقي، كتاب السير، باب المرأة تقاتل فتقتل، حديث رقم: ١٨١٥٩.

(٢٨) مسند أحمد، ٢٤/ ٣٥٧، حديث رقم: ١٥٥٨٩.

(٢٩) مسند أحمد، ٢٥/ ٣٧٠، حديث رقم: ١٥٩٩٢.

(٣٠) المعجم الكبير للطبراني، ٢٢/ ٣٩٣، حديث رقم: ٩٧٧، مكتبة ابن تيمية، القاهرة.

(٣١) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب وفد بني حنيفة، وحديث ثمامة بن أثال، حديث رقم: ٤٣٧٢، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب ربط الأسير وحبسه، حديث رقم: ١٧٦٤.

(٣٢) ديوان الفرزدق، ص٦٢٢، تحقيق: علي حسن فاعور، دار الكتب العلمية.

(٣٣) ديوان أبي فراس الحمداني، ص ٣١، دار الكتاب العربي، بيروت.

(٣٤) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب تمنّي المجاهد أن يرجع إلى الدنيا، حديث رقم: ٢٨١٧، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب الشهادة في سبيل الله، حديث رقم: ١٨٧٧.

(٣٥) سنن الترمذي، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، باب: ومن سورة آل عمران، حديث رقم: ٣٠١٠.

(٣٦)صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب مَنْ يُجْرَحُ في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، حديث رقم: ٢٨٠٣.

(٣٧) سنن الترمذي، أبواب فضائل الجهاد، باب في ثواب الشهيد، حديث رقم: ١٦٦٣، وقال: هذا حديث صحيح غريب.

(٣٨) انظر: الخصائص لابن جني، باب الاشتقاق الأكبر ٢/ ١٣٦، عالم الكتب، بيروت.

(٣٩) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب بعث النّبيّ ﷺ أسامة بن زيد إلى الحرقات من جهينة، حديث رقم: ٤٢٦٩، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال: لا إله إلّا الله، حديث رقم: ١٥٩ - ٩٦، واللفظ له.

(٤٠) سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب على ما يقاتل المشركون، حديث رقم: ٢٦٤٣.

(٤١) المعجم الكبير للطبراني، ١٨/ ٢٢٦، حديث رقم: ٥٦٢.

(٤٢) سيرة ابن هشام، كتابه ﷺ بين المهاجرين والأنصار وموادعة يهود، ١/ ٥٠١، طبعة شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي.

(٤٣) ديوان حسان بن ثابت، ص ٢٠، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٤٤) انظر: تاريخ المدينة لابن شبة، ٢/ ٥٨٤، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، ١٣٩٩هـ ودلائل النبوة للبيهقي، ٥/ ٣٨٩، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ والطبقات الكبرى لابن سعد، ١/ ٢٨٨، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت الطبعة الأولى، ١٩٦٨م.

(٤٥) انظر: السيرة النبوية لابن هشام، ١/ ٥٧٣، والطبقات الكبرى لابن سعد، ١/ ٣٥٧، وزاد المعاد لابن القيم، ٣/ ٦٢٩، مؤسسة الرسالة، مكتبة المنار، الطبعة السابعة والعشرين، ١٤١٩هـ - ١٩٩٤م.

(٤٦)دلائل النبوة للبيهقي، جماع أبواب المبعث، باب الهجرة الأولى إلى الحبشة، ثمّ الثّانية وما ظهر فيها من الآيات وتصديق النّجاشيّ ومن تبعه من القسس والرّهبان رسولَ الله ﷺ، ٢/ ٣٠٧، دار الكتب العلمية، بيروت، ودار الريان للتراث.

(٤٧) ديوان أحمد شوقي، ص ٥١٢، مع إعادة صياغة بعض الجمل.

(٤٨) هذا البيت من إضافتنا.

(٤٩) هو الشاعر اللبناني الأصل محبوب الخوري، ويقال له: الشرتوني، نسبة إلى قرية شرتون مسقط رأسه بلبنان.

(٥٠) سنن الترمذي، أبواب الإيمان، باب ما جاء في أن المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، حديث رقم: ٢٦٢٧، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٥١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان تفاضل الإسلام، وأيُّ أموره أفضل، حديث رقم: ٤٠.

(٥٢) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه، حديث رقم: ٦٠١٦.

(٥٣) مسند أحمد، ٤٥/ ١٣٩، حديث رقم: ٢٧١٦٢.

(٥٤)الأدب المفرد للبخاري، باب لا يؤذي جاره، حديث رقم: ١١٩.

(٥٥) الذّفرى من الحيوان والإنسان: العظم الشاخص خلف الأذن، وهي مؤنثة، وألفها للتّأنيث أو للإلحاق. انظر: النهاية في غريب الحديث لابن الأثير، ٢/ ١٦١، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩ م، والصحاح للجوهري، مادة (ذفر)، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م، والمعجم الوسيط، مادة (ذفر)، مجمع اللغة العربية، دار الدعوة.

(٥٦) سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب ما يؤمر به من القيام على الدّوابّ والبهائم، حديث رقم: ٢٥٤٩.



(٥٧) الحمرة (بضمّ الحاء وتشديد الميم المفتوحة، وقد تُخَفَّفُ): طَائِرٌ صغير كالعصفور. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير، ١/ ٤٣٩، المكتبة العلمية، بيروت.

(٥٨) سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في قتل الذر، حديث رقم: ٥٢٦٨.

(٥٩) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب حديث الغار، حديث رقم: ٣٤٨٢، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب السّلام، باب تحريم قتل الهرّة، حديث رقم: ٢٢٤٢.

(٦٠) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب الماء الذي يُغْسَلُ به شعر الإنسان، حديث رقم: ١٧٣، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب السلام، باب فضل ساقي البهائم، حديث رقم: ٢٢٤٤.

(٦١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، والإسلام، والقدر وعلامة السّاعة، حديث رقم: ٨.

(٦٢) صحيح ابن حبان، كتاب الرقائق، باب التوبة، ٢/ ٣٨٦، حديث رقم: ٦٢٠.

(٦٣) مسند أحمد، ٤/ ٩٢، حديث رقم: ٢٢١٦.

(٦٤) كتابنا: الدين والدولة، ص٧-٩، وهو نص مقال نشرناه بصحيفة الأهرام المصرية بتاريخ: ١٧ من فبراير ٢٠١٧م.

(٦٥) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب مَنْ جلس في المسجد ينتظر الصّلاة وفضل المساجد، حديث رقم: ٦٦٠، وصحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصّدقة، حديث رقم: ١٠٣١.

(٦٦) مسند أحمد، ١٨/ ٨٥، حديث رقم: ١١٥٢٥.

(٦٧) سنن الترمذي، أبواب الدعوات، باب منه، حديث رقم: ٣٥٩٨، وقال: هذا حديث حسن، وسنن ابن ماجه، كتاب الصّيام، باب في الصّائم لا تُرَدُّ دعوته، حديث رقم: ١٧٥٢، واللفظ له.

(٦٨) مسند أحمد، ٣٦/ ٦٣٥حديث رقم: ٢٢٣٠٠.

(٦٩) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، وعقوبة الجائر، والحثّ على الرّفق بالرّعيّة، والنّهي عن إدخال المشقّة عليهم، حديث رقم: ١٨٢٧.

(٧٠) انظر: السيرة النبوية لابن هشام، ٢/ ٨٢ وما بعدها.

(٧١) سنن الدارقطني، كتاب في الأقضية والأحكام، كتاب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، حديث رقم: ٤٤٧١، ٥/ ٣٦٩، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان الطبعة الأولى، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤م، وتاريخ المدينة لابن شبة، ٢/ ٧٧٦.

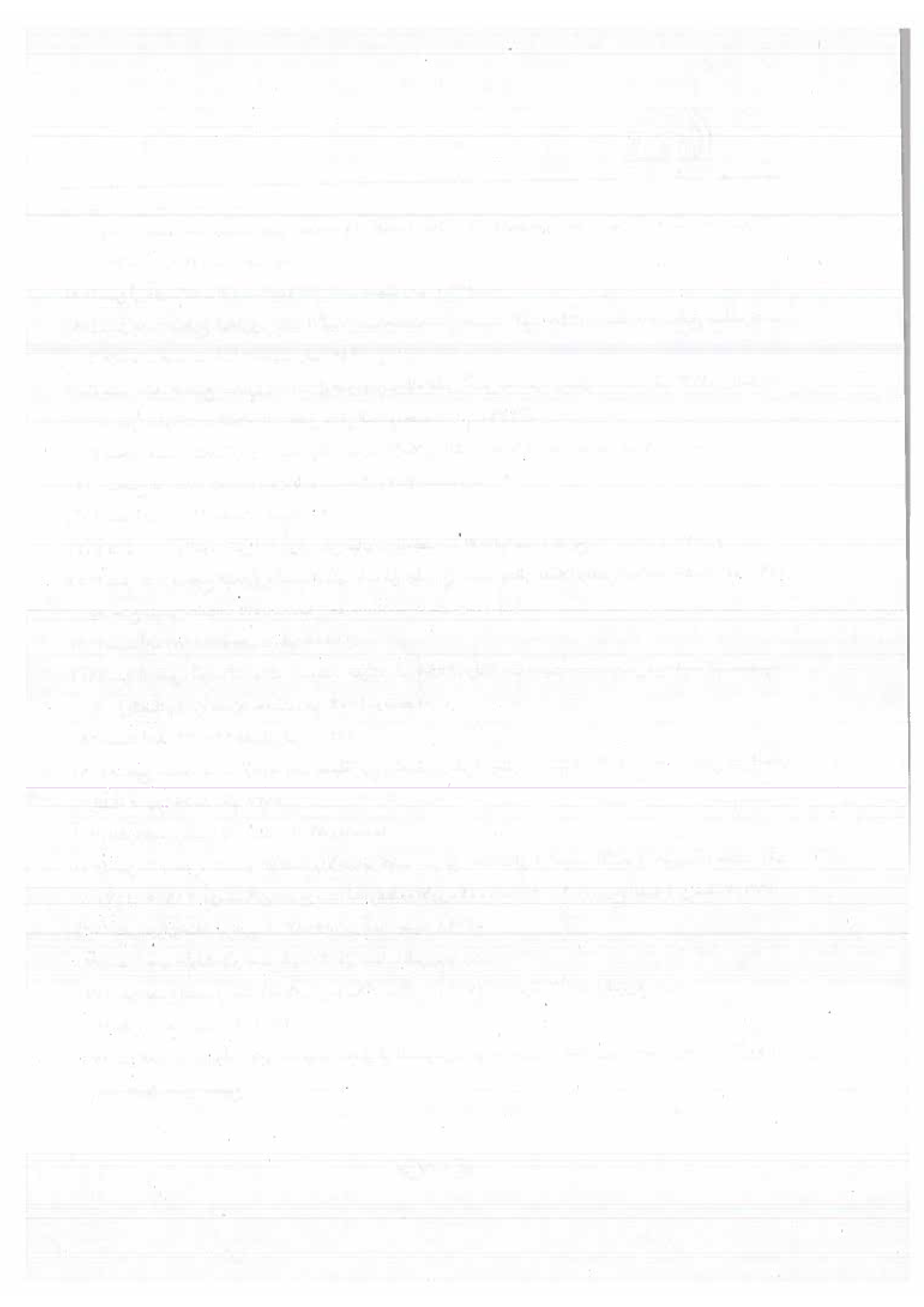
(٧٢) انظر: ديوان حافظ إبراهيم، ١/ ٨٣-٨٥، دار الغد الجديد، ٢٠١٨م.

(٧٣) انظر: حلية الأولياء لأبي نعيم، ٥/ ٣٠٥، دار الكتاب العربي، بيروت.

(٧٤) انظر: نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ، ٧/ ٢٧٩٣، دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة.

(٧٥) انظر: المرجع السابق، ٧/ ٢٨١٦.

(٧٦) سنن الترمذي في أبواب الإيمان، باب ما جاء في أن المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، حديث رقم: ٢٦٢٧، وقال: هذا حديث حسن صحيح.





الشأن العام بين حرية الرأي ومسئولية الكلمة

إن الكلمة أمانة عظيمة، ومسئولية كبيرة، والكلمة غير المسئولة كلمة خطيرة، قد تكون مهلكة لصاحبها، وقد يتجاوز أثرها السلبي حدود قائلها إلى آفاق أوسع، فتصبح ذات أثرٍ بالغٍ على المجتمع أو الوطن بأسره، مما يتطلب من المتحدث - ولا سيما في قضايا الشأن العام - غاية الدقة والتخصص، والتثبت والتحرِّي، وعدم الحديث بدون علمٍ أو دراسة.

وإذا كان الإنسان حرًّا في التعبير عن رأيه، فإن هذه الحرية يجب أن تكون حرية مسئولة وليست مطلقة؛ حيث تقف حرية كل إنسان عند حدود حرية الآخرين، وقد قالوا: أنت حرّ ما لم تضر، والقاعدة الشرعية والقانونية والوطنية والإنسانية معًا تقرر أنه «لا ضرر ولا ضرار»[1]، وأن «درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة»[2]، وقد تفرع عن هذه القاعدة قواعد أخرى، منها: الموازنة بين درء المفاسد وجلب المصالح، فقد تُحتمل المفسدة الأخص أو الأخف لتحقيق المصلحة الأعظم والأعم، وعند الموازنة بين المفاسد تحتمل أخف المفسدتين إن كان لا بد من احتمال إحداهما، وتقدم أعلى المصلحتين إن كان لا مفر من تحقيق إحداهما دون الأخرى.

على أن كل هذه الأمور إنما تتطلب خبرات تراكمية عالية عند الحديث أو إبداء الرأي فيها بالترجيح والاختيار، أو التقديم والتأخير، سواء أكان المجال سياسيًّا أم اقتصاديًّا أم كان شأنًا دينيًّا.

الوعي بالشأن العام

الشأن العام هو ما يتجاوز شواغل الفرد واهتماماته الشخصية إلى شواغل المجتمع واهتماماته وقضاياه العامة، سواء أكانت سياسية، أم اقتصادية، أم ثقافية، أم أخلاقية وقيمية، أم اجتماعية، أم رياضية، مما يتصل بقضايا الوطن الكبرى داخليًّا أو خارجيًّا.

فالشأن العام يعني القضايا ذات الاهتمام المشترك بين جملة المواطنين أو عمومهم أو غالبيتهم، وكلما زاد الوعي بين أبناء المجتمع بقيمة الشأن العام وخطورته زاد التعاون والتكاتف والترابط من أجل حماية الوطن والحفاظ عليه والوفاء بحقوقه؛ فتتحقق للمجتمع قوة البنيان الواحد، وشعور الجسد الواحد الذي حثنا عليه نبينا الكريم ﷺ، فقال: «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ»[3]، وقال ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى»[1].

على أنَّ من يتصدى للحديث في الشأن العام - عالمًا كان، أو مفتيًا، أو سياسيًّا، أو اقتصاديًّا، أو إعلاميًّا - لا بد أن يكون واسع الأفق ثقافيًّا ومعرفيًّا فيما يتعرض له أو يتحدث عنه، وأن أي إجراء فقهي أو إفتائي أو فكري أو دعوي أو إعلامي لا بد أن يضع في اعتباره كل الملابسات المجتمعية والوطنية والإقليمية والدولية المتصلة بالأمر الذي يتحدث فيه أو عنه، حتى لا تصدر بعض الآراء الفردية المتسرعة في الشأن العام دون دراسة أصلًا، أو دون دراسة وافية، بما يصادم الواقع أو يتصادم مع القوانين والمعاهدات والاتفاقيات الدولية، مما يسبب ضررًا بالغًا أو غير بالغ على وطنه ودولته، سواء أكان ذلك عن قصد وسوء طوية أم عن تسرعٍ وقِصَر نظر.

وإذا كان أهل العلم على أن العالم الفقيه - إذا كان من أهل الاجتهاد والنظر المعتبر شرعًا - إذا اجتهد فأخطأ فله أجر، وإذا اجتهد فأصاب فله أجران، فإن مفهوم المخالفة يقتضي أنَّ من اجتهد أو أفتى من غير أهل العلم والاختصاص فيما لا علم ولا دراية له به فأصاب فعليه وزر؛ لجرأته على الفتوى وإقحام نفسه فيما ليس له بأهل، وإن اجتهد فأخطأ فعليه وزران؛ وزر لخطئه، ووزر لجرأته على ما أقدم عليه أو قام به بغير علم، كالطبيب المختص الذي يمارس الطب ويجتهد



فيه إن أخطأ خطأ مهنيًا - لا عن قصد ولا إهمال بما يقدره أهل الاختصاص في الطب - فلا حرج عليه لا شرعًا ولا قانونًا، أما لو مارس غير المتخصص في الطب عملية التطبيب فهو معاقب قانونًا حتى لو نجح مصادفة فيما قام به، وذلك لحرص الإسلام على احترام الاختصاص؛ حيث يقول الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، كما أن القوانين المنظمة لشئون الناس والحياة مبنية على ذلك.

فالحكم على الشيء - فضلًا عن الحديث عنه - فرع عن تصوره، غير أن كثيرًا من الناس لا يدركون ما يتطلبه مفهوم بناء الدول، أو إدارة الدول، أو سياسة الدول، أو الحديث عن شئونها العامة؛ فيتكلمون بما لا يعرفون، ويتعرضون لما لا يعلمون، ويظن بعضهم الأمر هينًا أو يسيرًا، وليس الأمر كذلك على الإطلاق؛ فإن إدارة الدول والحديث في شئونها العامة أمر يتجاوز كل دوائر الهواية بمراحل، فالخبرة عملية تراكمية، جانب منها يكون ناتجًا عن علم ودراسة، وجانب آخر يُبنى على الدربة، والممارسة، والفراسة، وتَوقُّد الذهن، وشدة النباهة، والذكاء، والتوفيق.

كما أن الحديث في الشأن العام يحتاج إلى التخصص الدقيق والخبرة الكافية لدى المتحدث فيه أو عنه، سواء أكان تناولًا للأبعاد السياسية، أم الأمنية، أم الاقتصادية، أم الاجتماعية، أم الدينية، لا أن يجعل الإنسان من نفسه خبيرًا ومحللًا لكل شئون الدول دون دراسة وافية أو مؤهلات كافية، فهذا الأمر جدّ خطير.

فالحديث في الشأن العام دون وعيٍ وإدراكٍ تامّين يمكن أن يُعرِّض أمن الوطن الفكري أو العام للخطر، سواء أكان ذلك عن تعمد وقصد، أم عن غفلة، أم جهالة، أم سبق لسان لمن لا يملكون أنفسهم ولا ألسنتهم، ولا سيما أمام الكاميرات وتحت الأضواء المبهرة.

ولا شك أن الحديث في الشأن العام يتطلب بالضرورة إدراك المتحدث لمفهوم المصلحة

العامة وتقدّمها على المصلحة الخاصة؛ بل تقدُّم المصلحة الأعم نفعًا على الأخص، وإدراك الموازنة والترجيح بين دفع المفاسد وجلب المصالح، وأن دفع المفسدة العامة مقدم على جلب المصلحة العامة، وأنه قد تُحتمل المفسدة الأخف تحققًا للمصلحة الأهم والأعم؛ ونحو ذلك مما لا يدركه سوى أهل الخبرة والاختصاص في كل علم وفن ومؤسسة، ممن تتوافر لهم كامل المعلومات المعينة على اتخاذ القرار الصحيح في الوقت المناسب.

أمانة الكلمة:

الكلمة أمانة عظيمة ومسئولية كبيرة، يقول الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤- ٢٦].

الكلمة أَحَدُّ من السيف، وأمضى من السهم، وأنفذ من الرصاص، وأكثر فتكًا من السم، يقول الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥]؛ ولهذا كان تحذير نبينا ﷺ من خطورة الكلمة، فيقول ﷺ: «إِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ الله، لاَ يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَرْفَعُهُ الله بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ الله، لاَ يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ»[١].

والمقصود بقوله ﷺ: «لا يُلقِي لَهَا بَالًا»، أي: لا يفكر في معناها ولا تبعاتها ولا ما قد تجر عليه أو على بلده، ولهذا كان الصمت خيرًا من الكلام فيما لا يفيد؛ حيث يقول نبينا محمد ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»[٢]، وعن سيدنا معاذ ابن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنت رديف رسول الله ﷺ فقال لي: «أَلَا أَدُلُّكَ على رَأْسِ الأَمْرِ وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ؟»، قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الجِهَادُ»، ثُمَّ قَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِمِلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟»، قُلْتُ: بَلَى يَا نَبِيَّ



الله، فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ، فَقَالَ: «اُكْفُف عَلَيْكَ هَذَا»، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ الله، وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ قَالَ: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ! وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ - أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ - إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟»(٧).

على أن خطورة الكلمة عن غفلة لا تقل عن خطورة الكلمة عن قصد طالما نزع السهم من القوس، فالعاقل هو من يفكر قبل أن يتكلم، والأحمق من يتكلم دون أن يفكر، ذلك أن الكلمة قد تُودِي بإنسان، بل ربما بمصير أمة، فعلى العاقل أن يقول خيرًا أو يصمت، وألا يتدخل أو يتحدث فيما لا يعنيه، وأن يفكر قبل أن يتكلم، وإن تكلم فقولًا سديدًا، متحريًّا الصدق، والعدل، والحكمة، والقصد؛ حيث يقول الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠- ٧١].

ومن أمانة الكلمة ألا يتحدث الإنسان أو يفتي فيما ليس له به علم، ففي الحديث: «أَجْرَؤُكُمْ عَلَى الفُتْيَا، أَجْرَؤُكُمْ عَلَى النَّارِ»(٨)، ويقول نبينا ﷺ: «إِنَّ الله لاَ يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا»(٩).

ومن اجتهد من أهل العلم فأفتى فأخطأ فله أجر اجتهاده، وإن اجتهد فأصاب فله أجران: أجرٌ لاجتهاده وأجرٌ لإصابته، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِذَا حَكَمَ الحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ فَأَصَابَ، فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَأَخْطَأَ، فَلَهُ أَجْرٌ وَاحِدٌ»(١٠)، وبمفهوم المخالفة فإن غير العالم وغير المتخصص إن أفتى فأصاب فعليه وزر، وهو وزر التجرؤ على الفتوى، وإن اجتهد فأخطأ فعليه وزران، وزر الخطأ، ووزر التجرؤ على الفتوى، ولا يشفع له التعقيب بعبارة «والله أعلم»، فهذا ما يعقّب به العالم بعد اجتهاده، لا الجاهل تغطيةً لحمقه وجهله.

وأمانة الكلمة ليست قصرًا على المجال

الديني، بل هي أعم، فهي أمانة في المجال السياسي، والاقتصادي، والقانوني، والعلمي، والطبي، والحرفي، وسائر المجالات والتخصصات، يقول الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩]، ويقول تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، وأهل الذكر ليسوا أهل العلم الديني فحسب، بل هم أهل الخبرة والاختصاص في سائر المجالات والميادين.

وعلينا أن ندرك أننا محاسبون أمام الله عَزَّوَجَلَّ بكل ما يصدر عنا من قولٍ أو فعلٍ؛ حيث يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٦- ١٨]، ويقول تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧].

بناء الوعي

إن تشكيل وعي أمة أو بناء ذاكرتها ليس أمرًا سهلًا ولا يسيرًا، ولا يتم بين لحظة وأخرى أو بين عشيَّة وضحاها، إنما هو عملية شاقة ومركبة، وأصعب منه إعادة بناء هذه الذاكرة أو ردها إلى ما عسى أن تكون قد فقدته من مرتكزاتها، فما بالكم لو كانت هذه الذاكرة قد تعرضت للتشويه أو محاولات الطمس أو المحو أو الاختطاف، ولا سيما لو كان ذلك قد استمر لعقود أو لقرون؟!

لقد تعرضت ذاكرة الأمة عبر تاريخها الطويل لمحاولات عديدة من المحو أو الشطب أو التغيير، ناهيك عن محاولات الاختطاف وحالات الخمول والجمود، وأصبحنا في حاجة

ماسة إلى استرداد هذه الذاكرة من خلال إعادة تنشيطها وتخليصها مما علق بها من شوائب في مراحل الاختطاف والتشويه جراء محاولات المحو، أو الشطب، أو التغييب.

وإذا كان من حاولوا السطو على ذاكرة أمتنا قد استخدموا المغالطات الدينية والفكرية والثقافية والتاريخية للاستيلاء على هذه الذاكرة، فإن واجبنا مسابقة الزمن لكشف هذه المغالطات، وتصحيح تلك المفاهيم الخاطئة، وبيان أوجه الحق والصواب بالحجة والبرهان، من خلال نشر الفكر الوسطي المستنير في المجال الدعوي، والثقافي، والتعليمي، والتربوي، والإعلامي، وإحلال مناهج الفهم والتفكير والإبداع والابتكار محل مناهج الحفظ والتلقين والتقليد، مع اعتبار العمل على خلق حالة من الوعي المستنير واسترداد ذاكرة الأمة التي كانت مختطفة أولوية لدى العلماء، والمفكرين، والمثقفين، وقادة الرأي والفكر.

على أن بناء الوعي يتطلّب الإلمام بحجم التحديات التي تواجهنا؛ لأننا دون إدراك هذه التحديات ودون الوعي بها لا يمكن أن نضع حلولًا ناجحة أو ناجعة لها، وإذا كان المناطقة يؤكدون أن الحكم على الشيء فرع عن تصوره، فإن معالجته أو مواجهة ما يرتبط به من تحديات لا يمكن أن تتم دون سبر أغوار هذا التصور وأعماقه؛ مما يتطلب تسليط الضوء على تحديات واقعنا المعاصر؛ للعمل على خلق حالة من الوعي تسهم في معالجتها، وحل إشكالاتها، أو فك شفرتها، أملًا في الخروج من حالة التأزم الفكري إلى حالة من الرشاد والديناميكية الفكرية التي تعمل على بناء الذاكرة وبناء الأمة معًا، مع التركيز على القضايا الحيوية والمحورية: دينية، ووطنية، وثقافية، ومجتمعية، مثل: إرادة التغيير، والتحول من حالة الجمود والتقليد إلى الإبداع والابتكار والتجديد، والتفرقة بين الثابت والمتغير، وما هو من شئون الأفراد وما هو من شئون الدول، وحروب الجيل الخامس[١١]، وتفكيك حواضن الإرهاب،

وخطورة الشائعات، والصورة الذهنية للأفراد والمجتمعات، وفقه الحياة السياسية، وغيرها من الموضوعات، مع العمل الدءوب على تصحيح الأفكار المغلوطة، والمفاهيم الخاطئة، وكشف ضلالات وأباطيل الجماعات المتشددة والمتطرفة، وبيان زيغها وزيفها وضلالها وبهتانها؛ تحصينًا للنشء والشباب والمجتمع من شر هذه الأفكار والجماعات، وعملًا على نشر صحيح الدين والعلم والفكر والثقافة، وصولًا إلى بناء ذاكرة واعية مستنيرة لمجتمعنا وأمتنا، تأخذ بأيدينا إلى الإسهام الجاد في بناء الحضارة الإنسانية، وترقى بنا إلى المكانة التي تليق بنا في مصاف الأمم الأكثر تقدمًا ورقيًّا ورخاء.

فقه الحياة السياسية

لعل من العجب العجاب أن يتصدى لفقه الحياة السياسية من لم يمارس السياسة قط، أو يقترب من دوائرها، أو لم يدرس كيف تدار شئون الدول يومًا من الأيام، ولم يفهم معنى الدولة ولا ظروف العصر، وربما لا يعرف أدوار المؤسسات والمنظمات الدولية فضلًا عن معرفة نظمها، ولوائحها، وطبيعة عملها، ومقارها الرئيسة والفرعية، ولم يقرأ كلمة واحدة في القانون الدولي، ولا في قوانين المجال الجوي واستخدام الفضاء، ولا أسس ترسيم الحدود بين الدول، ولا حقوق استخدام المياه المشتركة، ولا طبيعة عمل الشركات العابرة للحدود والقارات، ولا مفاهيم التكتل الاقتصادي، ولا نظام المحاكم الدولية، أو قضايا التحكيم الدولي، فضلًا عن معرفة ما هو دستوري وما هو غير دستوري، ومهام المؤسسات القضائية المختلفة، ولا نظام إدارة البنوك أو البورصات، ولا حوافز تشجيع الاستثمار، ولا آليات حفظ الأمن القومي، ولا إدارة أمن المجتمعات، ولا كيفية توفير الخدمات الأساسية، فضلًا عن تحديدها وترتيب أولوياتها، ولا قرأ شيئًا عن شئون الحياة السياسية وأسس بنائها، والعلاقة بين السلطات، وقواعد عمل كل منها.

وقد نرى للأسف الشديد أدعياء أو دُخلاء



لا يُلمُّون بشيء مما سبق، ومع ذلك يطلقون الفتاوى أو الأحكام في الشأن العام الداخلي والخارجي دون بصيرة بالأمر أو حتى إلمام به، وقد يورِّط أحدهم نفسه أو مؤسسته أو دولته في مشاكل لا يدرك عواقبها ولا نتائجها، نتيجة تسرعه وعدم إدراكه مفهوم العلاقات الدولية، ومَن له الحق في الفتوى أو التصرف فيما يتصل بشئون الدول، وربما يُسقط بعض النصوص دون فهمها ودون تحقيق مناطها على أحداثٍ غير تلك الأحداث التي تناولها هذا النص آنذاك، غير مفرِّقٍ بين ما هو من شأن العقائد والعبادات وما هو من شئون نظام الحكم وإقامة الدول، وبعبارة أدق بين ما هو ثابت وما هو متغير.

ولهذا أكدنا أن إعلان التعبئة العامة للدفاع عن حدود الدولة وكيانها - المعبر عنه في كتب التراث بإعلان الجهاد- هو من اختصاص ولي الأمر، وليس من اختصاص آحاد الناس أو جماعة منهم، كما أكدنا - أيضًا- أنه ليس لآحاد الناس أو عامتهم الحكم على أحدٍ بالكفر أو الخروج من الملة، وإنما يثبت ذلك بحكم قضائي نهائي وباتّ؛ لخطورة ما يترتب على الحكم بالتكفير والإخراج من الدين، وللعلماء بيان ما يترتب على الفعل لا الحكم على الأشخاص؛ مما يتطلب التفرقة بين تكفير غير المعين وتكفير المعين، فالأول الأمر فيه للعلماء، والآخر الحكم فيه للقضاء.

وهذا كله يتطلب مزيدًا من الاحتياط عند الحديث في الشأن العام، فضلًا عن ضرورة إلمام من يتحدث فيه بالواقع المعاصر سياسيًّا واقتصاديًّا وقانونيًّا وثقافيًّا وفكريًّا، مع الوقوف على سائر التحديات المحلية والإقليمية، والدولية، حتى نضع كل شيء في نصابه، ونحسب لكل كلمة حسابها، ونترك لكل أهل اختصاص أمر اختصاصهم؛ حيث يقول نبينا ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَا يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا»[١٢]، وأهل العلم هم أهل

الاختصاص، كلٌّ في مجاله وميدانه، شرعيًّا كان أو حياتيًّا.

إدارة الدول بين الخبرة والهواية

كثير من الناس لا يدركون مفهوم بناء الدول، أو إدارة الدول، أو سياسة الدول، فضلًا عن قيادة الدول، ويظن بعضهم الأمر هينًا أو يسيرًا، وليس الأمر كذلك على الإطلاق، إنه يتجاوز كل دوائر الهواية بمراحل، إنه سلسلة متشابكة ومعقدة من الخبرات المتراكمة، إنه القدرة على سرعة قراءة الواقع وفهم تحدياته وفك شفراته وحل طلاسمه، والتعامل معه على أسس علمية ومنطقية في ضوء الخبرات المتراكمة.

الخبرة عملية تراكمية؛ جانب منها يكون ناتجًا عن علمٍ ودراسة، وجانب آخر يبنى على الدربة، والممارسة، والفراسة، وتَوقُّد الذهن وشدة النباهة، والذكاء، والتوفيق.

ولقد فطن النقاد القدامى إلى أهمية الخبرة والدربة والممارسة التي يُدْرَك بعضها بالحواس ولا يحسب بالأرقام؛ بل إنه قد يدرك ولا يوصف، يقول الآمدي في موازنته متحدثًا عن أهميـة الخبرة والدربة وطول الممارسة: ألا ترى أنه قد يكون هناك فرسان نجيبان شديدا النجابة يكادان يكونان متفقين في كل الملامح، والأوصاف، والصفات من العتق والنجابة، غير أن أحدهما يفضل الآخر بشـيء لا يدركه إلا أهل الخبرة والدربة وطول الممارسة، وكذا الحال في تمييز الإبل والنخيل وأنواع التمور وسائر الصناعات[١٣].

وفي عصرنا الحديث نقول: والأمر كذلك في تمييز الفاره من الصناعات والمميز من سائر الحرف، ألا ترى أنك قد تقف على عمل نحّاتين أو سباكين أو نجّارين أو نقاشين أو غيرهم من ذوي المهارات الإبداعية، وكل منهم شديد التميز، غير أن تميز أحدهم عن الآخر في دقة الصنعة ودقائق فنونها الجمالية والإبداعية لا يدركه إلا أهل الخبرة الشديدة ممن مارسوا الصنعة وتميزوا فيها لسنوات وسنوات.

وإذا كان الأمر كذلك في الصناعات



الحرفية والمهنية الخفيفة واليدوية فما بالكم بإدارة المؤسسات، ناهيك عن إدارة الدول مع كل تحديات العصر وتشابكاته وتعقيداته ومشكلاته الأمنية، والسياسية، والعسكرية، والاقتصادية، والفنية، إن الأمر يحتاج إلى علم، وخبرة، ودربة، وتخصص، وليس مجرد هواية.

وعندما ننظر في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة نجد أنهما يؤكدان على ضرورة توفر الكفاءة والكفاية والأمانة، حيث يقول الحق سبحانه في كتابه العزيز على لسان سيدنا يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لعزيز مصر: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥]، ويقول سبحانه على لسان ابنة شعيب لأبيها في شأن سيدنا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]، ولما طلب سيدنا أبو ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من سيدنا رسول الله ﷺ أن يستعمله قال له ﷺ: «يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ، إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا، وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا»(١٤)، وقال ﷺ: «إِذَا وُسِّدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ»(١٥)، وأهل الأمر هم أهل الكفاءة والأمانة معًا.

ونلاحظ أن نبينا ﷺ في رحلة الهجرة استأجر دليلًا غير مسلم معروفًا بكفاءته وأمانته، ولم يعتمد على أحد من الصحابة الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ رغم شدة أمانتهم جميعًا، ولا شك أن بعضهم كان على دراية بدروب الصحراء ومسالكها، على أن فارق الكفاءة هو الذي قدَّم الدليل غير المسلم عليهم، وهو أيضًا ما فعله سيدنا عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في استخدام بعض كُتَّاب بيت المال وكُتَّاب الدواوين(١٦).

مفهوم الأمن القومي

لا شك أن استقرار أي دولة إنما يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالحفاظ على أمنها القومي؛ بل بمدى حرص كل فرد من أفرادها على مستوى هذا الأمن وعدم المساس به، ولا سيما من كان في موضع اتخاذ القرار، وعلى وجه

أخص القرارات التي تتصل بالتعامل مع العالم الخارجي أو تؤثر في هذا التعامل.

وإذا كان الأمن القومي لأي دولة مستقلة ذات سيادة خطًّا أحمر لا يمكن تجاوزه أو التسامح تجاهه، فإن الحفاظ على عدم المساس بهذا الخط أو السماح بتجاوزه يقتضي وعيًا، وثقافة، وتثقيفًا مستمرًّا، علميًّا، ومنهجيًّا، بمفهوم الأمن القومي، وأستطيع أن أقول: إن عقد دورات مكثفة في ذلك لكل من يتولى موقعًا أو منصبًا قياديًّا بات أمرًا ضروريًّا شديد الإلحاح؛ إذ لا تكفي المهارات الفنية أو التقنية أو الإدارية في تكوين رؤية شاملة تؤدي إلى الاتجاه والمسار الصحيح ما لم تكن هناك رؤية أبعد، ونظرة أشمل لأثر أي قرار يتخذ على الأمن القومي العام.

وقد لا يخطر ببال بعض الناس أن ما يتخذه من قرارات أو ما يقوم به من تصـرفات أو ما يقيمه من علاقات يمكن أن يكون ذا أثر في الأمن القومي، وقد لا يكون ذلك عن سوء قصد؛ وإنما لعدم الإلمام بمعطيات الأمن القومي، أو لأن هذه المعطيات غير حاضرة في شعوره بالقدر الكافي، على أنه ينبغي على المواطن العادي فضلًا عن المسئول أو متخذ القرار أن يكون على أعلى درجة من الوعي بالأمن القومي لبلاده، سواء في اتخاذ القرارات، أم في إقامة العلاقات، أم في عقد الاتفاقيات والبروتوكولات.

وإذا كان مستوى الوعي بأهمية وخطورة كل ما يتصل بالأمن القومي متفاوتًا بين شخص وآخر لاعتبارات كثيرة، من أهمها: الثقافة، والحرص على المصلحة الوطنية، وحمل هم الوطن، وجعل المصلحة العليا للوطن فوق كل اعتبار؛ فإن الأمر يقتضي ما يلي:

أ- المزيد من التثقيف والتوعية بمفهوم الأمن القومي من خلال الدورات التدريبية المكثفة لكل من يتولى عملًا قياديًّا.

ب- التوعيـة بمفهـوم الأمـن القومي وضرورة الحفاظ عليه من السياسيين والمفكرين والكتاب والمثقفين ووسائل الإعلام، وبخاصة من يمتلكون الرؤية الثاقبة والوعي الناضج

بمفهوم هذا الأمن، واعتبار ذلك أحد أهم عوامل استقرار البلاد.

مع التأكيد على أن مفهوم الأمن القومي لأي بلدٍ يقتضي الإلمام بالأحوال السياسية الداخلية، والخارجية، الإقليمية، والدولية، فعمقنا العربي وعمقنا الأفريقي، وعالمنا الإسلامي، وعلاقاتنا الدولية، كل ذلك يجب وضعه في الاعتبار عند اتخاذ القرارات الهامة والحيوية، ودراسة مدى تأثيرها على هذه العلاقات، ومردودها الإيجابي أو السلبي على كل منها، مع دراسة الأولويات، ومعرفة مواطن الثقل وهوامش الحركة في كل اتجاه.

ولا شك أن العلاقات السياسية والعسكرية والاقتصادية والثقافية والفنية والإعلامية إنما يرتد أثر بعضها على الآخر؛ إذ لم يعد ممكنًا فصل أي منها عن الآخر فصلًا باتًا بحيث تتحرك كل مؤسسة وكأنها عالم خاص، إنما ينبغي أن يكون تصرف كل مؤسسة ناظرًا بعين اعتبار قوية على أثر تصرفه على المؤسسات الوطنية الأخرى، ولا شك أن هذا الأمر يقتضي حسًّا وطنيًّا عاليًا، ودربة وخبرة كبيرة، وأن نعمل جميعًا بروح الفريق، وأن ننطلق من قاعدة: «عموم الفهم وخصوصية التكاليف»؛ بأن يكون كل مسئولٍ على مستوى مسئوليته الكاملة بالمهام المسندة إليه واختصاصه بها، وعلى مستوى عالٍ من الفهم والوعي بعمل الفريق الذي يعمل معه، ومقتضيات اتخاذ القرار في المؤسسة التي ينتمي إليها.

على أن الدول لا تستقر بمجرد النيات الحسنة، دون الوعي والتخطيط واليقظة في عالم – مَن لم يتذأب فيه أكلته الذئاب، وقد كان سيدنا عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يقول: «لست بالخب ولكن الخب لا يخدعني»(١٧)، وكان قَيْسُ بنُ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «لَوْلاَ الإِسْلاَمُ، لَمَكَرْتُ مَكْرًا لاَ تُطِيقُهُ العَرَبُ»(١٨)، فلا بد مع النية الحسنة من صحة العمل وإتقانه، يقول الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣- ١٠٤]؛ ولذا

أكد القرآن الكريم على شرطي الأمانة والكفاءة؛ إذ لا تكفي إحداهما عن الأخرى، حيث يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على لسان ابنة شعيب عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]، وحيث يقول عَزَّوَجَلَّ على لسان يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥].

بناء الدول

بناء الدول لا يكون بمجرد الكلام، ولا الأحلام، ولا الأماني؛ فلا بد من جهد وعرق وبذل وتضحية، يقول أحمد شوقي(١٩):

بالعِلْمِ والمالِ يبني الناسُ ملكَهُم
لم يُبْنَ مُلْكٌ على جهلٍ وإقلالِ

ويقول الآخر(٢٠):

أروني أُمَّـة بلغت مُنـاهـا
بِـغَيْرِ العِلْـمِ أَوْ حـدِّ اليماني

إشارة إلى الجمع بين العلم والقوة مع العمل والإنتاج، فالأمم التي لا تقوم بإنتاج مقوماتها الأساسية، وتكون عالة على غيرها؛ لا تملك كلمتها ولا استقلال قرارها، فالدين والوطنية معًا يتطلبان منا الجهد والعرق والعمل والإنتاج، ولا سيما أن ديننا هو دين العمل والإتقان، يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢]، ويقول سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [الجمعة: ٩-١١]، ويقول نبينا ﷺ: «مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ الله دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ»(٢١).

ولم يطلب ديننا منا مجرد العمل إنما يطلب منا العمل المتقن؛ حيث يقول الحق سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا

نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠]، ويقول نبينا ﷺ: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ»(٢٢).

وإلى جانب العلم والعمل لا بـد من الولاء والانتمـاء للوطـن، وإيثار المصلحة العامة له على المصالح الخاصة والشخصية، وإدراك أن مصالح الأوطان من صحيح مقاصد الدين، وأن كل ما يدعم ويقوي الدولة الوطنية هو من صحيح مقاصد الأديان، وأن كل ما ينال من قوة الدولة أو كيانها إنما يتنافى مع كل الأديان والقيم الوطنية والإنسانية، ولنعلم أن التضحية في سبيل الوطن والشهادة في سبيله إنما هي من أعلى درجات الشهادة في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، وكما تبنى الأوطان بالعلم والعمل والفداء والتضحية في سبيل الوطن وحسن الانتماء إليه فإنها يجب أن تبنى أيضًا على القيم والأخلاق النبيلة، فالأمم التي لا تقوم ولا تبنى على القيم والأخلاق إنما تحمل عوامل سقوطها في أصل بنائها وأسس قيامها، فما بالكم وديننا دين القيم والأخلاق، وبعثة رسولنا ﷺ كان الهدف الأسمى منها هو إتمام مكارم الأخلاق؛ حيث يقول ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»(٢٣).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ الله ﷺ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الجَنَّةَ، فَقَالَ: «تَقْوَى الله وَحُسْنُ الخُلُقِ»، وَسُئِلَ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ، فَقَالَ: «الفَمُ وَالفَرْجُ»(٢٤)، ويقول ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَكْمَلِ المؤمنينَ إِيمَانًا: أَحسَنُهُمْ خُلُقًا، وَأَلْطَفُهُمْ بِأَهْلِهِ»(٢٥)، ويقول ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ القِيَامَةِ أَحاسَنُكُمْ أَخلاقًا»(٢٦)، وقال معاذ ابن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كَانَ آخِرُ مَا أَوْصَى بِهِ رَسُولُ الله ﷺ حِينَ جَعَلْتُ رِجْلِي فِي الغَرْزِ: أَحْسِنْ خُلُقَكَ لِلنَّاسِ»(٢٧)، وقال ﷺ: «مَا مِنْ شَيءٍ أَثْقَلُ فِي الميزانِ مِنْ حُسْنِ الخُلُقِ»(٢٨)، ويقول نبينا ﷺ: «اتَّقِ الله حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»(٢٩)، ويقول الشاعر(٣٠):

إِنَّما الأممُ الأخـلاق ما بَقِيَت
فَإِنْ هُمُ ذَهَبَتْ أَخْلَاقُهُمْ ذَهَبُوا

التعددية السياسية والسلطات الموازية

يجمع هذا العنوان - وعن قصد - بين أمرين يكادان يكونان متناقضين من حيث القبول والرفض، أحدهما لا غنى عنه لإثراء العملية الديمقراطية، والآخر يشكل خطرًا بالغًا على كيان الدول، ويهدد بانهيارها، أو ضعفها، أو تمزقها.

أما التعددية السياسية فهي مطلب ديمقراطي عادل، فعالم القطب الواحد ودول الحزب الواحد غالبًا ما يؤول بها الحال إلى لون من الدكتاتورية، أو الضعف والاسترخاء؛ لعدم وجود منافسة حقيقية تدفع المنافس إلى استنفاد أقصى ما في طاقته في الوفاء بحق ما يسند إليه من مهام وتكاليف.

أما وجود سلطات موازية في أي دولة، أو وجود جماعات ضغط ذات مصالح خاصة بها، أيًا كان شكل هذه السلطات والجماعات؛ فإن ذلك يُشكِّل خطرًا على بنيان الدول وتماسك كيانها، وبخاصة تلك السلطات التي تتستر بعباءة الدين، وتحاول أن تستمد قوتها ونفوذها من خلال المتاجرة به.

والمقياس الوحيد الذي تقيس به أي دولة أو مجتمع مدى وجود سلطات موازية أو عدم وجودها هو مدى قدرتها على إنفاذ القانون على الجميع، وبلا أي حسابات أو استثناءات، وبلا تردُّدٍ أو توجُّسٍ، وألا يُسمح لأي جماعة أو شخص بالتمترس[31] بأتباعه للالتفاف على القانون أو تعطيله بالقوة، وأن يسلك الجميع الطرق القانونية في التعبير عن مطالبهم، وأن يلتزموا بما تقتضيه القوانين واللوائح المنظمة في كل مجالٍ من المجالات، مؤكدين أننا لا نجيز الاحتيال على القانون، وأن مبدأ الغاية تبرر الوسيلة الذي تنطلق منه الجماعات المتطرفة ينحرف بالمجتمع عن جادة الصواب، ويهوي به إلى مزالق خطيرة تعصف به.

فأي كيان يشعر بأنه فوق القانون وفوق المحاسبة، ويصل الأمر إلى التحسس والتوجس من محاسبته، يُعد سلطة موازية تشكل خطرًا أو ضغطًا على دولة القانون وعلى إنفاذه، وتطبيق العدالة الشاملة على الجميع وبلا أي

استثناءات هو الحل الأمثل لإنفاذ دولة القانون، وهذا سيدنا رسول الله ﷺ يقول: «إنما أَهلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُم أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ، وَإِنِّي وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا»[٣٢].

وهذا سيدنا أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول عند توليه الخلافة: «إِنِّي قَدْ وُلِّيتُ عَلَيْكُمْ وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ، فَإِنْ ضَعُفْتُ فَقَوِّمُونِي، وَإِنْ أَحْسَنْتُ فَأَعِينُونِي، الصِّدْقُ أَمَانَةٌ، وَالْكَذِبُ خِيَانَةٌ، الضَّعِيفُ فِيكُمُ القَوِيُّ عِنْدِي حَتَّى أُزِيحَ عَلَيْهِ حَقَّهُ إِنْ شَاءَ اللهُ، وَالْقَوِيُّ فِيكُمُ الضَّعِيفُ عِنْدِي حَتَّى آخُذَ مِنْهُ الحَقَّ إِنْ شَاءَ اللهُ، أَطِيعُونِي مَا أَطَعْتُ اللهَ وَرَسُولَهُ، فَإِذَا عَصَيْتُ اللهَ وَرَسُولَهُ فَلَا طَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ»[٣٣].

وهذا سيدنا عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يكتب إلى أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رسالته التاريخية في شئون القضاء، فيقول: «أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ القَضَاءَ فَرِيضَةٌ مُحْكَمَةٌ وَسُنَّةٌ مُتَّبَعَةٌ، فَافْهَمْ إِذَا أُدْلِيَ إِلَيْكَ فَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُ تَكَلُّمٌ بِحَقٍّ لَا نَفَاذَ لَهُ، وَآسِ بَيْنَ النَّاسِ فِي وَجْهِكَ وَمَجْلِسِكَ وَقَضَائِكَ، حَتَّى لَا يَيْأَسَ الضَّعِيفُ مِنْ عَدْلِكَ، وَلَا يَطْمَعَ الشَّرِيفُ فِي حَيْفِكَ»[٣٤].

فقد طلب سيدنا عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من واليه على الكوفة أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يسوّي بين الناس في مجلس القضاء مساواة كاملة بقوله: «وَآسِ بَيْنَ النَّاسِ فِي وَجْهِكَ وَمَجْلِسِكَ»، أي: حتى في طريقة إجلاسهم والنظر إليهم، فلا تستقبل واحدًا منهم بإكرام والآخر بغير ذلك، أو تنادي أحدًا باسمه مجردًا والآخر بلقبه أو كنيته، وذلك حتى لا يطمع القوي في المحاباة أو المجاملة أو ييأس الضعيف من الحق والعدل.

فبالعدالة الشاملة وغير الانتقائية وبإنفاذ القانون على الجميع وإعلاء دولته واحترام سيادة القضاء؛ يكون الأمن النفسي، والاستقرار المجتمعي.

وأخطر ما يتعلق بالسلطة الموازية هو تلك

الجماعات أو الفصائل المذهبية أو العرقية أو الطائفية التي تحاول أن تستمد قوتها وعوامل نفوذها من دول أخرى، تجعل ولاءها الأول والأخير لها، تعمل لحسابها من جهة وتستقوي بها من جهة أخرى.

العدالة الإدارية

العدل نور لصاحبه في الدنيا والآخرة، والظلم ظلمات يوم القيامة، ولذا جعل نبينا ﷺ الإمام العادل في مقدمة السبعة الذين يظلهم الله عَزَّوَجَلَّ في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، فقال ﷺ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الإِمَامُ العَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي المَسَاجِدِ، وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ، أَخْفَى حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ»[٣٥]، ونهى نبينا ﷺ عن الظلم بجميع أنواعه حتى في تحصيل الزكاة، فقال ﷺ لسيدنا معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين بعثه إلى اليمن: «فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ»[٣٦]، إنّ العدل ميزان الله عَزَّوَجَلَّ الّذي وضعه للخلق، ونصبه للحقّ، فلا تخالفه في ميزانه، ولا تعارضه في سلطانه.

على أن هذا العدل الذي ننشده ليس مسئولية رئيس الدولة وحده ولا السلطة الأعلى في أي مؤسسة وحدها، فإن المسئولية في تحقيق العدالة تقع على كل من ولّاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أمر مجموعة من الناس في أي مجال من المجالات، يقول ﷺ: «كلُّكم راعٍ، وكلُّكم مسئولٌ عنْ رَعِيَّتِهِ»[٣٧]، فمدير المدرسة إلى مدير الإدارة، إلى مدير المديرية، إلى وكيل الوزارة، إلى رئيس القطاع، كل في مجاله وميدانه مسئول عن تحقيق العدالة بين مرءوسيه وبين المستفيدين من الخدمة التي تقدمها المؤسسة، وكذلك الحال في القسم والكلية والجامعة، وكذلك الأمر بالوحدة الصحية، فالمستشفى، فالإدارة الطبية، فالمديرية، فالقطاع الطبي، وكذلك الحال في

الزراعة، والأوقاف، والإسكان، والكهرباء، وسائر الوحدات المحلية، والخدمية، والإدارية.

إن تحقيق العدل الإداري بين الموظفين، وتحقيق العدل في تقديم الخدمات، وفي التعيينات، وفي الترقيات، وفي السفر، وفي الإيفاد والبعثات، ووضع ضوابط واضحة وحاسمة وصارمة وشفافة ودقيقة أمر في غاية الأهمية، ويسهم في تحقق الرضا المجتمعي، وقوة الإيمان بالدولة، ويعمّق الولاء والانتماء لها، في حين أن الإقصاء الإداري بلا سبب حقيقي واضح ومعلوم يؤدي إلى السخط والاحتقان، أما الظلم فهو محض ظلمات؛ حيث يقول الحق سبحانه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [إبراهيم: ٤٢]، ويقول تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧- ٢٩]، ويقول ﷺ: «اتَّقُوا الظُّلْمَ؛ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَاتَّقُوا الشُّحَّ؛ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ»[٣٨].

العواصم والحدود

العلاقة بين عواصم الدول وحدودها هي علاقة تكامل لا علاقة صراع، ولا ينبغي أن تكون؛ إذ لا غنى لأي دولة عن أن يكون لها عاصمة هي القلب والمركز، وأطراف وحدود بمثابة الأجنحة التي لا تعلو الدول ولا ترتفع بدونها، لكن المركز يستحوذ في كثير من دول العالم على بؤرة الاهتمام، فالشواهد والواقع المعاش يؤكدان استحواذ المركز عبر التاريخ على أعلى درجات الاهتمام، غير أن مستوى هذا الاهتمام يختلف بين الدول المتحضرة والدول المتخلفة، فالدول المتحضـرة لا يمكن أن تهمل جزءًا من أطرافها أرضًا أو سكانًا فتتركه هملًا أو فرصة للضياع أو الإهمال أو الاعتداء، أو حتى مجرد التفكير في الانفلات أو الانفصال، وقد دخل كعب الأشقري على أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فأنشده قوله[٣٩]:

إِنْ كُنْتَ تَحْفظُ مَا يليك فَإِنَّمَـا

عُمَّال أَرْضِك بِالبِلَادِ ذِئَـاب

لَنْ يَسْتجِيبُوا للذي تَدْعُـو لَهُ

حتَّى تجلد بالسيُوفِ رِقَـاب

على أن تنمية الأطراف والمناطق الحدودية لا تقع على عاتق الحكومات وحدها أو القيادة السياسية وحدها، إذ إن العناية والاهتمام بهذه الأطراف والعمل على تنميتها مسئولية تضامنية بين جميع مؤسسات الدولة، سواء المؤسسات الرسمية، أم منظمات المجتمع المدني، أم رجال الأعمال، فالاستثمار، والتعليم، والصحة، والإسكان، والثقافة، والأوقاف، والآثار، وسائر الوزارات والهيئات، والجمعيات العاملة في مجال الخدمات الاجتماعية، ورجال الأعمال الوطنيون، كل هؤلاء يجب أن يولوا اهتمامًا خاصًّا بجميع أطراف الدولة وبخاصة الحدودية منها، وجَعْل ذلك أولوية، واعتباره قضية أمن قومي من جهة، وقضية تنموية من جهة أخرى، إذ ينبغي أن نعمل على تحويل كل أطراف الدولة ومناطقها الحدودية إلى مناطق جاذبة لا طاردة، ففي حالة عدم اهتمام دولة ما بأطرافها يضطر أبناء هذه الأطراف إلى التوجه نحو المركز والتمركز به، مما يشكل ضغطًا غير عادي على المركز وضواحيه، ويخلق كثيرًا من الأحياء العشوائية حوله، ويسهم في صنع نظام طبقي تنتج عنه مع مرور الزمن أمراض ومشكلات اجتماعية تحتاج إلى حلول غير تقليدية لعلاجها.

أما في ظل اهتمام الدول بالاستثمار في أطرافها ومناطقها الحدودية، وتوفير الخدمات اللازمة لأبنائها من: الإسكان، والصحة، والتعليم، والثقافة، وسائر الخدمات التي تتطلبها مقومات الحياة المستقرة بأرضهم وموطن نشأتهم، مع توفر فرص العمل والإنتاج؛ فإن ذلك كله يؤدي إلى ارتباط أبناء هذه المناطق بأرضهم، وحفاظهم على كل ذرة رمل أو تراب من ثراها الندي، مع ولاء وانتماء وطني خالص.

وفي حالة توفر عوامل جذب وحوافز

للعمل بهذه المناطق والاستثمار الجاد فيها؛ فإن هذه المناطق ستتحول إلى مناطق جاذبة، مما يحدث توازنًا كبيرًا في التوزيع الجغرافي والسكاني، ويوفر حياة كريمة لأبناء هذه المناطق، ويخفف الضغط على المركز وعلى ما يُقدم به من خدمات لا غنى عنها للمقيمين به، أو ما تتطلبه طبيعة العواصم ومركز الثقل السياسي والاقتصادي بالعالم كله، من الرقي بها إلى درجة تجعل منها عامل جذب سياحيّ، وإبهار حضاري، ودلالة على عظمة الشعوب ورقيها.

قيام الدول وسقوطها

لا شيء أخطر في تاريخ البشرية من المراحل الانتقالية في تاريخ الدول، حتى كتب العديد من الباحثين الكثير من الرسائل حول سقوط دول وقيام أخرى تنظيرًا وتطبيقًا، ولم يأت الخطر الحقيقي على أي دولة من خارجها مثلما كانت عوامل سقوطها نابعة من داخلها، سواء بخيانة بعض أبنائها وعمالتهم واستخدامهم لضرب دولهم، أم بسقطات أبنائها وخروجهم عن طريق الجادة إلى طريق الانحراف أو البغي والطغيان والاستكبار؛ حيث يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦]، ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥]، ويقول سبحانه في شأن قوم سيدنا صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧]، ويقول الله تعالى في قوم سيدنا لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَٱنظُرْ كَيْفَ

كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠- ٨٤].

فالحكم الرشيد هو الذي يقوم على العدل، ويرتكز على القيم والأخلاق؛ ذلك أن الأمم والحضارات التي لا تقوم على القيم والأخلاق إنها تحمل عوامل سقوطها وانهيارها في أصل بنيانها، يقول الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح: ٢٣].

وقد حاول بعض من كتبوا في شأن الدول أن يبينوا عوامل استقرار الدول وعوامل انهيارها وسقوطها؛ فذكر بعضهم أن من أهم الأمور التي تؤدي إلى انهيار الدول مايلي:

- الأمر الأول: انتشار الفساد بكل أشكاله من المجاملة والرشوة والمحسوبية وتقديم الولاء على الكفاءة؛ إذ لا يسخط الناس في حياتهم من شيء قدر سخطهم من الفساد وإحساسهم بالغبن؛ لذا يجب على أي حكم رشيد أن يجعل لمحاربة الفساد بكل صوره وأشكاله أولوية.

- الأمر الثاني: شيوع الظلم، سواء على مستوى الأفراد بغياب الأمن أو غياب القضاء العادل أو غياب العدالة في الحصول على الفرص المتكافئة أيًا كان نوعها، أم على المستوى الطبقي الذي يقوم على استبعاد الفقراء والكادحين وتهميشهم مع ازدرائهم والاستخفاف بهم؛ وهو يتطلب تضافر كافة المؤسسات الرسمية والاجتماعية والأهلية لحماية الطبقات الأكثر فقرًا واحتياجًا من خلال الرعاية الاجتماعية المتكاملة من منظور ديني ووطني، فكلاهما يدعوان إلى التكافل والتراحم، فنحن في سفينة واحدة لا منجاة فيها لأحدٍ بمفرده؛ حيث يقول نبينا ﷺ: «مَثَلُ القَائِمِ عَلَى حُدُودِ الله وَالوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ المَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا، وَنَجَوْا جَمِيعًا»[١٠٠].



- الأمر الثالث: غياب الأمن، وضعف سلطة الدولة، وقيام العصابات أو الجماعات أو الميليشيات بفرض سطوتها على المجتمع أو على بعض المواطنين، مما يفقد المظلومين المقهورين الولاء للدولة؛ لذا فإن دعم المؤسسات العسكرية والأمنية لحفظ الوطن من الأخطار المحدقة به في الداخل والخارج يُعد مطلبًا شرعيًا ووطنيًا، على أن يكون أمن المواطن والحفاظ على كرامته أولوية لأي نظام يبحث عن الاستقرار وتحقيق الولاء والانتماء الوطني.

- الأمر الرابع: تدهور القيم، فإن الحضارات قد تضعف أو تذبل أو تمرض، وأطباؤها هم العلماء والمفكرون والفلاسفة وحماة القيم والباحثون عنها، مع التأكيد على أهمية إعداد وانتقاء واختيار من يشكّلون فكر وثقافة المجتمع، وإذا كانت الحروب تنشأ في الباطن قبل الظاهر، وتنمو في العقل قبل أن تنمو على الأرض؛ فيكون التعامل مع أصل الداء والمرض في الباطن، وهو دور العلماء والمفكرين والمثقفين والمربين والتربويين والوعاظ، ومن ثمة فإنه لا بد من حسن انتقائهم، وحسن إعدادهم، وتأهيلهم ورعايتهم الرعاية المناسبة للمهام الثقيلة الملقاة على عاتقهم.

- الأمر الخامس: تدهور الأحوال المعيشية للأفراد بما يخل باحتياجاتهم الأساسية، فمع ضرورة تقدير الأفراد للظروف والتحديات التي تمر بها أوطانهم، ومع أننا نذكر بأن أصحاب النبي ﷺ صبروا على الحصار الاقتصادي حتى أكلوا ورق الشجر من شدة الجوع، فإننا يجب أن نواجه التحديات بمزيدٍ من العمل والإنتاج والجد والاجتهاد وحسن التكافل الاجتماعي ورعاية الضعفاء والمهمشين، والضرب بيدٍ من حديد على أيدي المغالين والمحتكرين، وحسن التدبير، فنحن نحتاج إلى عملٍ بلا كلل، وإنفاقٍ في غير سرف، وتكافلٍ وتراحمٍ بين أبناء المجتمع؛ بما يعبر بنا جميعًا إلى بر الأمان، ولا شك أن على رجال الأعمال في كل دولة ومؤسسات المجتمع المدني دورًا هامًا في إحداث التوازن وسد الحوائج الأساسية للمحتاجين.

الأديان ومصالح العباد

الدين فطرة الله عَزَّوَجَلَّ التي فطر الناس عليها؛ حيث يقول الحق سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠]، ويقول تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وعَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ: «أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ، مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا، كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالٌ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا»[١].

على أن الشرائع السماوية كلها إنما جاءت لسعادة البشرية، فالمقاصد العليا للأديان إنما تعمل في ضوء جلب المصلحة أو درء المفسدة أو على تحقيقهما معًا، وأهل العلم والفقه يؤكدون أن المصالح العليا للشرائع قائمة على حفظ الدين والنفس والعقل والمال والعرض، فكل ما يؤدي إلى حفظها فهو مصلحة، وكل ما يضر بها فهو مفسدة ودفعه مصلحة.

يقول العز بن عبد السلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا يخفى على عاقل أن تحصيل المصالح المحضة، ودرء المفاسد المحضة عن نفس الإنسان وعن غيره محمودٌ حسنٌ، وأن تقديم أرجح المصالح فأرجحها محمودٌ حسنٌ، وأن درء أفسد المفاسد فأفسدها محمودٌ حسنٌ، وأن تقديم المصالح الراجحة على المرجوحة محمودٌ حسنٌ، وأن درء المفاسد الراجحة على المصالح المرجوحة محمودٌ حسنٌ»[٢]، وقد اتفقت الشرائع على تحريم الدماء، والأعراض، والأموال، وعلى تحصيل الأفضل فالأفضل



من الأقوال والأعمال.

وقد أجمعت الشرائع السماوية على جملة كبيرة من القيم والمبادئ الإنسانية، من أهمها: حفظ النفس البشرية وحرمة الاعتداء عليها، حيث يقول تعالى: ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

ومن القيم التي أجمعت عليها الشرائع السماوية كلها: العدل، والتسامح، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، والصدق في الأقوال والأفعال، وبر الوالدين، وحرمة مال اليتيم، ومراعاة حق الجوار، والكلمة الطيبة؛ وذلك لأن مصدر التشريع السماوي واحد، ولهذا قال نبينا ﷺ: «الأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ»(٤٣).

وأروني أي شريعة من الشرائع أباحت قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، أو أباحت عقوق الوالدين، أو أكل السحت، أو أكل مال اليتيم، أو أكل حق العامل أو الأجير.

وأروني أي شريعة أباحت الكذب، أو الغدر، أو الخيانة، أو خُلف العهد، أو مقابلة الحسنة بالسيئة؛ بل على العكس فإن جميع الشرائع السماوية قد اتفقت وأجمعت على هذه القيم الإنسانية السامية، من خرج عليها فإنه لم يخرج على مقتضى الأديان فحسب، وإنما يخرج على مقتضى الإنسانية وينسلخ من آدميته ومن الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها.

ولهذا قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١-١٥٣]، «هذه آيات محكمات لم ينسخهن شيء من جميع الكتب، وهي محرمات على بني آدم جميعًا، وهن أم الكتاب - أي : أصله وأساسه - ، من عمل بهن دخل الجنة، ومن تركهن دخل النار»(٤٤).

فالدين والدولة لا يتناقضان؛ بل يرسخان معًا أسس المواطنة المتكافئة في الحقوق والواجبات، وأن نعمل معًا لخير بلدنا وخير الناس أجمعين، وأن نحب الخير لغيرنا كما نحبه لأنفسنا، الأديان رحمة، الأديان سماحة، الأديان إنسانية، الأديان عطاء.

الدين والدولة يتطلبان منا جميعًا التكافل المجتمعي، وألَّا يكون بيننا جائع ولا محروم، ولا عارٍ، ولا مشرد، ولا محتاج.

الدين والدولة يدفعان إلى العمل والإنتاج والتميز والإتقان، ويطاردان البطالة والكسل، والإرهاب والإهمال، والفساد والإفساد، والتدمير والتخريب، وإثارة القلاقل والفتن، والعمالة والخيانة.

المقاصد العامة والأحكام الفرعية

هناك من يقفون عند ظواهر النصوص لا يتجاوزون الظاهر الحرفي لها إلى فهم مقاصدها ومراميها، أو إدراك ما تحمله تلك المقاصد السامية من وجوه الحكمة واليسر والسعة، فضلًا عن عدم فهمهم للمقاصد العامة للشرع الحنيف، فيحملون الناس على العنت والمشقة، إما جهلًا وسوء فهم، وإما إخراجًا للنصوص عن سياقها عن قصد وسوء طوية.

وقد أكد العلماء والفقهاء والأصوليون على أهمية فهم المقاصد العامة للتشريع، فهي الميزان الدقيق الذي تنضبط به الفتوى، وتستقيم به أمور الخلق، وتتحقق به مصالح البلاد والعباد، فالأحكام في جملتها بنيت على جلب المصلحة أو درء المفسدة أو عليهما معًا، يقول الإمام الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بالاستقراء وجدنا الشارع قاصدًا لمصالح العباد، والأحكام العادية تدور عليها حيثما دارت، فترى الشيء الواحد يُمنَع في حال لا تكون فيه



مصلحة، فإذا كان فيه مصلحة جاز(**).

وكثيرٌ من الأحكام الجزئية الفرعية لا يمكن الحكم فيهـا إلا من خلال فهم المقاصد العامة للتشـريع، وفي ضوء فهم القواعد الأصولية وقواعد الفقه الكلية.

وقد اجتهد علماؤنا وفقهاؤنا العظام في تقرير عددٍ من المبادئ والمقاصد العامة في صورة قواعد كلية وأخرى فرعية، على نحو قولهم: «الأمور بمقاصدها»، و «لا ضرر ولا ضرار»، و«الضـرر يُزال»، و«الضرر لا يزال بضـرر أكبر منه»، و«يتحمل الضـرر الخاص لدفع الضـرر العام»، و«درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة»، و«لا تُدفع المفسدة اليسيرة بضياع المصلحة الكبيرة»، و«المشقة تجلب التيسير»، و «لا ينكر تغير الأحكام بتغير الزمان»، و«الأصل في المنافع الإباحة والأصل في المضار التحريم»، و«الضرورات تبيح المحظورات»، و«ما أُبيح للضـرورة يقدر بقدرها»، و«العادة محُكّمة»، و«المعروف عرفًا كالمشـروط شرطًا»، و«المنكر لا يُزال بمنكر أعظم منه»، و«اليقين لا يزال بالشك»، وأن كل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث؛ فليست من الشـريعة في شيء، فلا يكفي لمن يتصدى لقضايا العلم الشرعي أن يكون ملمًّا ببعض القواعد دون بعض، ولا أن يكون مجرد حافظ للقواعد غير فاهم لمعانيها ومراميها ولا مدرك لدقائقها، فيقف عند قولهم: «الضرر يزال»، دون أن يدرك أن الضرر لا يُزال بضرر مثله أو أكبر منه، وأن الضرر الخاص يُتحمل لدفع الضرر العام، أو يقف عند حدود قولهم: «درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة»، دون أن يدرك أن درء المفسدة اليسيرة لا يدفع بتضييع المصلحة الكبيرة، وأنه إذا تعارضت مفسدتان دُفعت الأشد بالأخف، بل عليه أن يسبر أغوار هذه القواعد بما يمكنه من الحكم الدقيق على الأمور، علمًا بأن المقاصد العامة قائمة على مراعاة مصالح البلاد والعباد، متمثلة في الكليات الست، وهي الحفاظ على:

الدين، والوطن، والنفس، والمال، والعقل، والعرض والشرف، فحيث تكون مصلحة البلاد والعباد فثمة شرع الله عَزَّوَجَلَّ، قال تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

عقد المواطنة

لا شك أن كثيرًا من المشكلات العصرية وحالات الشقاق التي تصل إلى حد الاحتراب والاقتتال المجتمعي أو الدولي أحيانًا يمكن أن يُحَلّ الكثير منها بإقرار مبدأ المواطنة المتكافئة، وترسيخ فقه المواطنة بديلًا لفقه الأقلية والأكثرية، فمصطلح الأقلية والأكثرية يشعرك ابتداء بأن هناك فريقين؛ أحدهما قوي والآخر ضعيف ولو بالمقياس العددي، أما مبدأ المواطنة المتكافئة فتذوب فيه العصبيات الدينية والعرقية والطائفية والمذهبية والقبلية، وسائر العصبيات الخاطئة المدمرة.

كما أن المواطنة الحقيقية تعني حسن الولاء والانتماء للوطن، والحرص على أمن الدولة الوطنية، واستقرارها، وتقدمها، ونهضتها، ورقيها، وتعني الدولة الوطنية احترام عقد المواطنة بين الشخص والدولة، وتعني الالتزام الكامل بالحقوق والواجبات المتكافئة بين أبناء الوطن جميعًا دون أي تفرقة على أساس الدين أو اللون أو العرق أو الجنس أو اللغة.

وأن مشروعية الدولة الوطنية أمر غير قابل للجدل أو التشكيك؛ بل هو أصلٌ راسخٌ لا غنى عنه في واقعنا المعاصر، حتى أكد بعض العلماء والمفكرين أن الدفاع عن الأوطان مقدمٌ في بعض الأحيان على الدفاع عن الأديان؛ لأن الدين لا بد له من وطنٍ يحمله ويحميه، وإلا لما قرر الفقهاء أن العدو إذا دخل بلدًا من بلاد المسلمين صار الجهاد ودفع العدو فرض عين على أهل هذا البلد، رجالهم ونسائهم، كبيرهم وصغيرهم، قويهم وضعيفهم، مسلحهم وأعزلهم، كلٌّ وفق استطاعته ومكنته، ولو لم يكن الدفاع عن الديار مقصدًا من أهم مقاصد الشرع لكان لهم أن يتركوا الأوطان وأن ينجوا بأنفسهم



وبدينهم.

ونؤكد أن الوعي بالوطن والتحديات التي تواجه الدولة الوطنية يقتضي الإحاطة والإلمام بما يحاك له من مؤامرات تستهدف إنهاك الدولة، وبخطورة الإرهابيين والعملاء والخونة، والعمل على تخليص الوطن من شرورهم وآثامهم.

وأن العمـل على تقويـة شـوكة الدولة الوطنيـة وتـرسيخ دعائمهـا مطلب شرعي ووطني، وأن كل من يعمل على تقويض بنيان الدولة، أو تعطيل مسيرتها، أو تدمير بناها التحتية، أو ترويع الآمنين بها، إنما هو مجرم في حق دينه ووطنه معًا.

على أن المواطنة ليست مِنَّة ولا فضلًا من أحدٍ على أحدٍ، إنما هي حق، بل التزامات وحقوق متكافئة ومتساوية، فكل حقٍّ يقابله واجبٌ، ولا شك أن مبدأ الحق والواجب أو الحق مقابل الواجب أحد أهم المبادئ العادلة التي تسهم في إصلاح المجتمع، سواء أكانت في الحقوق والواجبات المتبادلة بين الآباء والأبناء، أم بين الأزواج، أم بين الجيران، أم بين الأصدقاء، أم بين الشركاء في الوطن، أم بين المواطن والدولة، أم بين العمال وأرباب العمل، أم بين المعلم والمتعلم.

فما أحوجنا إلى ترسيخ مبدأ الحق مقابل الواجب في كل مجالات حياتنا وعلاقاتنا، إذ لا يمكن للحياة ولا العلاقات أن تستقيم من جانبٍ واحدٍ، فيكون أحد الشقين معتدلًا والآخر مائلًا، إنما تستقيم الأمور باستواء الجانبين معًا، والوفاء بالحقوق والواجبات معًا، نؤدي الذي علينا حتى يبارك الله عَزَّوَجَلَّ في الذي لنا.

على أن فقه المواطنة يقتضي إعلاء مبدأ الكفاءة، وإتاحة الفرص المتساوية بين المواطنين جميعًا دون تمييز بينهم، ففي مجال العمل العام والعمل المجتمعي لا صراعات ولا إقصاءات على أساس الدين أو الجنس أو العرق، فالفرص متساوية والواجبات متكافئة.

ومن أهم ما يجب أن نلفت النظر إليه هو دمج واستيعاب والعناية بكبار السن وبذوي

الاحتياجات الخاصة باعتبارهم مواطنين كاملي الحقوق والواجبات، وعدم النظر إلى أيٍّ من ذوي الاحتياجات الخاصة نظرة تمييز، فالمجتمع بكل أبنائه؛ بتكافلهم وتكاملهم وتعاونهم ومشاركتهم جميعًا في بنائه، وكون كل فرد من أفراده إضافة إيجابية لا رقمًا مخصومًا من رصيده، فهو لهم جميعًا وبهم جميعًا، وبهذه الروح تبنى الأوطان، وتزدهر وتتقدم حتى تكون في مصاف الأمم الراقية المتقدمة.

الآداب العامة

الأمم المتحضرة والدول الراقية هي التي تجعل مراعاة الآداب العامة منهج حياة، ولا تعد هذه الآداب من نافلة القول أو على هامش الحياة.

الآداب العامة لا تنفك من منظومة القيم والأخلاق والإنسانية من النظافة، والنظام، والمروءة، والشهامة، والنبل، واحترام الكبير، وإكرام المرأة، والشفقة بالصغير والضعيف، وذوي الهمم، والذوق الرفيع، قال أحد الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: «يا رسول الله فَمَنْ أَحَبُّ عِبَادِ اللهِ إِلَى اللهِ؟ قَالَ: أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا»[٦].

ولا شك أن الحياء كخلق أحد أهم أعمدة الآداب العامة؛ حيث يقول نبينا ﷺ: «إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ، إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ»[٧]، ويقول ﷺ: «مَنْ سَأَلَ النَّاسَ وَلَهُ مَا يُغْنِيهِ جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَمَسْأَلَتُهُ فِي وَجْهِهِ خُمُوشٌ، أَوْ خُدُوشٌ، أَوْ كُدُوحٌ»[٨]، ويقول الشاعر[٩]:

إذا قَلَّ ماءُ الوجهِ قَلَّ حياؤُهُ
ولا خَيْـرَ في وجـهٍ إذا قـلَّ مـاؤُهُ

حَيَاءَكَ فاحْفَظْهُ عَلَيْـــكَ
وَإنَّما يدلُّ عَلَى فِعْلِ الكَرِيمِ حَيَاؤُهُ

ويقول عنترة[١٠]:

يُخْبِرْكِ مَنْ شَهِدَ الـوَقِيـــعَةَ أَنَّني
أَغْشَى الْوَغَى وَأَعفُّ عِنْدَ المَغْنَمِ

ويقول الإمام علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[١١]:

لنقلُ الصـخر من قُلَلِ الجبـال
أَحَـبُّ إِلَيَّ مِنْ مِنَنِ الرِّجَـالِ

يَقُولُ النَّاسُ لِي: في الكَسْبِ عارٌ
فقلتُ: الـعـارُ في ذُلِّ السُّـؤَالِ



ومن الآداب العامة: الحفاظ على الطرقات والأماكن العامة وعدم الظهور فيها بما لا يليق، وتركها أفضل مما كانت، والإسهام في نظافتها وتجميلها، وكذلك أفنية المنازل ومداخلها وأسطحها، يقول نبينا ﷺ: «الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ»(٥٢).

ومن الآداب العامة: تخير الكلمة في مخاطبة الناس، بحيث تكون بالتي هي أحسن، يقول الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣].

ومن الآداب العامة: عدم استخدام ما يخص أي شخصٍ دون إذن، ولو كان ذلك شيئًا يسيرًا من قلم، ومناشف، ومسبحة، ونحو ذلك.

ومن الآداب العامة: احترام الخصوصيات، وعدم تدخل الإنسان فيما لا يعنيه؛ حيث يقول نبينا ﷺ: «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ»(٥٣)، وقد قالوا: من تدخَّل فيما لا يعنيه سمع ما لا يرضيه.

ومن الآداب العامة: عدم الحديث في شيء دون علم أو دراية؛ حتى لا يجعل الإنسان نفسه مجالًا للنكتة، أو التندر، أو السخرية.

ومن الآداب العامة: مراعاة الذوق العام في الحركة واللباس، والحفاظ على آداب الطعام والشراب والنوم، والتحلِّي بكل مقومات المروءة والشهامة والنبل، فعن عبدِ الله ابنِ بُسْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كان رسولُ الله ﷺ إذا أتى بابَ قومٍ لم يستقبلِ البابَ مِن تِلقاءِ وجهِه، ولكن مِن رُكْنه الأيمنِ أو الأيسرِ، ويقول: «السلامُ عليكم، السلامُ عليكم»(٥٤).

ومن الآداب العامة: إعانة الضعيف والأخذ بيده، فعَنْ أَبِي سَلَّامٍ، قال: قَالَ أَبُو ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عَلَى كُلِّ نَفْسٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ طَلَعَتْ فِيهِ الشَّمْسُ صَدَقَةٌ مِنْهُ عَلَى نَفْسِهِ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، مِنْ أَيْنَ أَتَصَدَّقُ وَلَيْسَ لَنَا أَمْوَالٌ؟ قَالَ: «لِأَنَّ مِنْ أَبْوَابِ الصَّدَقَةِ التَّكْبِيرَ، وَسُبْحَانَ الله، وَالْحَمْدُ لله، وَلَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَأَسْتَغْفِرُ الله،

وَتَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنْهى عَنِ الْمُنْكَرِ، وَتَعْزِلُ الشَّوْكَةَ عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ وَالْعَظْمَ وَالْحَجَرَ، وَتَهْدِي الأَعْمَى، وَتُسْمِعُ الأَصَمَّ وَالأَبْكَمَ حَتَّى يَفْقَهَ، وَتُدِلُّ الْمُسْتَدِلَّ عَلَى حَاجَةٍ لَهُ قَدْ عَلِمْتَ مَكَانَهَا، وَتَسْعَى بِشِدَّةِ سَاقَيْكَ إِلَى اللَّهْفَانِ الْمُسْتَغِيثِ، وَتَرْفَعُ بِشِدَّةِ ذِرَاعَيْكَ مَعَ الضَّعِيفِ، كُلُّ ذَلِكَ مِنْ أَبْوَابِ الصَّدَقَةِ مِنْكَ عَلَى نَفْسِكَ، وَلَكَ فِي جِمَاعِكَ زَوْجَتَكَ أَجْرٌ»، قَالَ أَبُو ذَرٍّ: كَيْفَ يَكُونُ لِي أَجْرٌ فِي شَهْوَتِي؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ وَلَدٌ فَأَدْرَكَ وَرَجَوْتَ خَيْرَهُ فَمَاتَ، أَكُنْتَ تَحْتَسِبُ بِهِ؟» قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: «فَأَنْتَ خَلَقْتَهُ؟»، قَالَ: بَلِ الله خَلَقَهُ، قَالَ: «فَأَنْتَ هَدَيْتَهُ؟»، قَالَ: بَلِ الله هَدَاهُ، قَالَ: «فَأَنْتَ تَرْزُقُهُ؟»، قَالَ: بَلِ الله كَانَ يَرْزُقُهُ، قَالَ: «كَذَلِكَ فَضَعْهُ فِي حَلَالِهِ وَجَنِّبْهُ حَرَامَهُ، فَإِنْ شَاءَ الله أَحْيَاهُ، وَإِنْ شَاءَ أَمَاتَهُ، وَلَكَ أَجْرٌ»(٥٠).

السلام الذي نبحث عنه

السلام يعني الأمان، وهو نعمة من أجلِّ نعم الله التي امتن بها على خلقه؛ حيث يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ [قريش: ٤]، ويقول الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢]، ويقول نبينا ﷺ: «مَنْ أَصْبَحَ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ طَعَامُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا»(٥١).

والأمن كالصحة، فكما أن الصحة تاج على رءوس الأصحاء لا يعلم قدره إلا من فقد صحته أو جانبًا منها، فإن أمن الإنسان في وطنه على نفسه وماله وعرضه تاج على رءوس الوطنيين الشرفاء، لا يستشعر عظمته إلا من ابتلوا بالخوف والتشرد داخل أوطانهم أو خارجها، فلا حياة حقيقية بلا وطن، ولا وطن بلا أمن، نسأل الله السلامة، وأن يحفظ لنا أمننا وأوطاننا ودماءنا وأعراضنا وأموالنا.

فالأمن والأمان والسلم والسلام غاية كل



نبيل وشريف، وتحقيق السلام مطلب ديني ووطني وغاية إنسانية مشتركة، فألفاظ: السلم، والسلام، والسلامة، والإسلام، كلها تنبع من جذر لغوي واحد هو (سلم)[٥٧]، وأهم ما يميز هذا الجذر اللغوي دلالته على معاني السلم والمسالمة، وفي هذا السياق يأتي حديث نبينا ﷺ: «الْمُسْلِمُ مَن سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِن لِسانِهِ ويَدِهِ»[٥٨]، وفي رواية: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»[٥٩]، وهو ما يعني انتفاء وقوع أي أذى منه لأي إنسان على ظهر البسيطة، ذلك لأن الأذى إما أن يكون قولًا، وإما أن يكون فعلًا، واللسان رمز للقول، واليد رمز للفعل: كتابة أو رسمًا أو ضربًا أو نحو ذلك، وإذا انتفى وقوع الأذى قولًا أو فعلًا انتفى وقوعه مطلقًا، وهكذا يكون المسلم مفتاحًا لكل خير مغلاقًا لكل أذى أو شر، سلمًا مع الكون كله، مع البشر والحجر والشجر، مع الإنسان والحيوان والجماد، فديننا دين السلام، وربنا عَزَّوَجَلَّ هو السلام، ومنه السلام، وهو الملك القدوس السلام، ونبينا ﷺ هو نبي السلام الذي أمرنا بإفشاء السلام وجعله ثقافة أمة؛ حيث يقول ﷺ: «لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ»[٦٠]، ويقول ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصِلُوا الأَرْحَامَ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ»[٦١]، وتحيتنا في الإسلام هي السلام، والجنة هي دار السلام، وتحية أهل الجنة في الجنة سلام، وتحية الملائكة لهم فيها سلام، وفي الحديث عن ليلة القدر يقول الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ [الفجر: ٥]، ولم يقل: هي سلام، فجعل السلام عمدة وأصلًا تدور عليه حركة الكون والحياة، ونهانا ديننا الحنيف أن نسيء الظن بمن ألقى إلينا السلام، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ [النساء: ٩٤]؛ بل نهانا أن نقبض أيدينا عمن مد يده وبسطها لنا بالسلام، فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ

عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الأنفال:٦١].

غير أن السلام الذي ننشده ونبحث عنه هو السلام العادل، سلام الأقوياء الشجعان الذي له درع وسيف وقوة تحفظه وتحميه، فقراءة السياق القرآني تؤكد أن السلام لا يتحقق إلا للأقوياء، فقبل قوله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا﴾ جاء قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ [الأنفال: ٦٠]، و «ما» هنا هي ما الغائية وليست الابتدائية، والمعنى هنا أقصى ما تستطيعون من إعداد، وإذا كان نبينا ﷺ قد قال: «أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ»(١١)، وإذا كان الرمي في سياق عصره ﷺ رميًا بالنبال والسهام، فإنه قد أضحى في عصرنا الحاضر رميًا بالراجمات والقاذفات وعابرات القارات والمُسيرات، مما يُحتم علينا الأخذ ببناء قوة عصرية حديثة تحمي ولا تبغي، فقوة الردع أهم من مواجهة الحرب، فالدول التي تمتلك القوة تحقق ردعًا قد لا يُدخلها حربًا أصلًا، ما دام هدفها هو السلام وحماية أمنها لا البغي ولا العدوان على غيرها، وما دامت قوتها قوة رشيدة تحمي ولا تبغي، ثم بعد ذلك كله تأتي آية السلام؛ لتؤكد أن السلام الحقيقي هو السلام القائم على العدل، والذي له قوة تحميه، فيقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦١].

والسلام هو البديل الحقيقي للحرب ولظلم الإنسان لأخيه الإنسان سواء أكان ظلمًا مباشرًا أم غير مباشر، بقصد أو بدون قصد، فالسلام لا يعني فقط عدم المواجهة في الحروب التقليدية، والسلام الإنساني الذي ننشده أوسع من ذلك بكثير، فاحتكار بعض الدول للدواء مثلًا في أزمة انتشار وباء، أو للغذاء لمن يحتاج إليه ظلم فادح، وعدم احترام بعض الدول لاتفاقيات المناخ غير عابئة بتأثيرات التغيرات المناخية على الدول المعرضة لمخاطر هذه التغيرات ظلم فادح من الإنسان لأخيه الإنسان، ولأبناء هذه الدول.

ونؤكد أن السلام لا يصنعه ولا يملكه

الجبناء ولا الضعفاء، إنما يحمل السلام ويصنعه الأقوياء، فشجاعة السلام لا تقل أبدًا عن شجاعة الحرب، وهو ما نبعث به رسالة واضحة لكل عقلاء العالم، نقول لهم: تعالوا لنعالج معًا تداعيات انتشار أيٍّ من الأوبئة والفيروسات والتأثيرات السلبية للتغيرات المناخية، ونجعل من مبادرات السلام الحقيقية بديلًا لظلم الإنسان لأخيه الإنسان بقصد أو بغير قصد، تعالوا معًا لكلمة سواء لننبذ كل مؤججات الحرب والاقتتال ونُحل محلها أُطر التعاون والتفاهم والتكامل والسلام.

التطرف الحاد والمضاد

التطرف تطرف على أية حال، حادًّا كان أو مضادًّا، غلوًّا كان أو تفريطًا، فهو الذهاب إلى الطرف بعيدًا عن الوسط، وقد قال الإمام الأوزاعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما من أمرٍ أمَرَ الله به إلّا عارض الشّيطان فيه بخصلتين ولا يبالي أيّهما أصاب: الغلوّ أو التّقصير»(٦٣).

ديننا السمح الحنيف قائم على الوسطية والاعتدال في أسمى معانيها، في كل شيء حتى مجال العبادات، فلما رأى نبينا ﷺ حبلًا مشدودًا في المسجد بين ساريتين – عمودين – سأل ﷺ: «ما هذا؟ قالوا: حبل لزينبَ تُصلِّي فإذا كسِلَتْ أو فتَرَتْ أمسكت به، قال: حُلُّوه، ثمَّ قال: لِيُصَلِّ أحدُكم نشاطَه فإذا كسِل أو فتَرَ فليقعُدْ»(٦٤)، ولما رأى ﷺ سيدنا سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يتوضأ فيسرف في استخدام الماء، فَقَالَ: «مَا هَذَا السَّرَفُ يَا سَعْدُ؟»، قَالَ: أَفِي الْوُضُوءِ سَرَفٌ؟، قَالَ: نَعَمْ، وَإِنْ كُنْتَ عَلَى نَهْرٍ جَارٍ»(٦٥).

وحتى الإنفاق سواء أكان إنفاقًا على النفس أم على الغير تحت أي مسمى، فالوسطية فيه مطلبٌ راسخٌ؛ حيث يقول الحق سبحانه في كتابه العزيز: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾ [الفرقان: ٦٧]، ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].

وقد أكد القرآن الكريم على الوسطية في كل أبعادها؛ حيث يقول الحق سُبۡحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠]، ويقول الله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ﴾ [البقرة: ٦٨]، ويقول الحكماء: لا تكن رطبًا فتُعصَر ولا يابسًا فتُكسَر.

فالرسالات السماوية جميعها أنزلت رحمة للناس؛ حيث يقول الحق سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿طه ۝ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١- ٢]، ويقول نبينا ﷺ: «تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا: كِتَابَ الله وَسُنَّتِي»[٦٦].

الأديان يسر، وسماحة، وتراحم، وتعاون، وتكافل، فحيث تكون مصالح البلاد والعباد فتلك مقاصد الأديان العامة.

غير أن البشرية بصفة عامة قد ابتليت بتطرفين متناقضين في حدية بالغة؛ الأول: يقتل ويخرب ويدمر ويسفك الدماء باسم الأديان وتحت رايتها، محرفًا النصوص ومُخْرِجًا لها عن سياقها، والأديان براء من كل ذلك، والآخر: يذهب إلى أقصى الطرف الآخر تفريطًا أو انحلالًا، فالتطرف منبوذٌ ومرفوضٌ على كل حال، سواء أكان غلوًّا وإفراطًا وتشددًا على نحو متطرف ومتاجر بالدين، أم كان تفريطًا وانحلالًا وخروجًا على جادة القيم والأخلاق، أو هدمًا للثوابت.

فخطر التفريط كخطر الإفراط؛ حيث يقول الحق سبحانه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ۝ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ۝ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ١٢٤- ١٢٧]، وليس المقصود بالضنك هنا الفقر، إنما حياة الكدر التي لا هناء فيها[٦٧]، ولطالما حدثنا القرآن الكريم عن الأمم والقرى التي كفرت بأنعم الله عَزَّوَجَلَّ، وكذبت رسله، وسلكت طريق الانحراف والشذوذ- كفعل قرى قوم لوط- فلما أسرفت في شذوذها كانت العاقبة، كما أوضح القرآن الكريم في قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا



﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۝ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٢- ٨٣].

فقه الدعوة (١)

الدعوة علم وفن وخبرة ودربة، لا يُكْتَفَى فيها بمجرد التحصيل العلمي، إنما تحتاج إلى مقومات عديدة، لا شك أن في مقدمتها إخلاص النية فيها لله عَزَّوَجَلَّ؛ حيث يقول الحق سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]، فلا يتاجر الداعي بدعوته، ولا يجعلها مطية إلى الدنيا.

فالأنبياء جميعًا قد أكدوا على عدم طلب الأجر على دعوتهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ حيث يقول الحق سبحانه على لسان سيدنا نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۚ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ إِنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [هود: ٢٩]، وهو عين ما جاء على لسان سيدنا هود عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الشعراء: ١٢٧]، وعلى لسان سيدنا صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٥]، وعلى لسان سيدنا لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٤]، وعلى لسان سيدنا شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٠]، ويقول الحق على لسان سيدنا محمد ﷺ: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [سبأ: ٤٧].

ومن أهم عوامل نجاح الدعوة: مراعاة حال المدعو وثقافته، ومدى قدرته على الفهم واستيعاب ما يُلْقَى إليه، وكان سيدنا علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ؟»[٦٨]، لأنك إذا خاطبت إنسانًا بما لا يستوعب ربما قال لك: لا أصدق ذلك.

ومنها: مراعاة ظروف البيئة المحيطة وعادات الناس وتقاليدهم وظروف زمانهم ومكانهم، وهو ما أكد عليه أهل العلم من أن

الفتوى قد تتغير بتغير الزمان أو المكان أو الأحوال، وأن ما كان راجحًا في عصرٍ قد يصبح مرجوحًا في عصـرٍ آخر، وما كان مرجوحًا قد يصبح راجحًا إذا تغيرت الظروف والأحوال أو البيئات، وعلى العالم والواعظ والمجتهد والمفتي مراعاة كل ذلك.

ومن أهم ما ينبغي أن يراعيه الداعي إلى الله عَزَّوَجَلَّ سد ذرائع المتربصين بالدعوة والدعاة، وذلك بانتقاء الألفاظ واختيار الكلمات، والنأي بالخطاب الدعوي عن كل ما هو مُلبس من العبارات أو الألفاظ التي تحتمل كثيرًا من الوجوه والتأويلات، حتى لا يترك للمتربصين فرصة يأتون من قبلها.

كما أنه لا بد من التفرقة بوضوح شديد بين ما هو جائز وما هو واقع، وما يمكن أن يطرح مما هو جائز وما لا ينبغي طرحه للعامة على أقل تقدير، فليس كل مباح مستساغ لدى جميع الخلق وفي جميع البيئات، فينبغي مراعاة تغير الزمان والمكان في ذلك بفطنة وحنكة وذكاء، يراعي الداعي فيه حالة الرقي والتقدم والمدنية المتسارعة في عالم اليوم، وكل ما يتصل بذلك من عوامل الحضارة والتطور الإنساني وما تقتضيه النظم البروتوكولية الحديثة والعصرية.

فقه الدعوة (٢)

التفقه في دين الله عَزَّوَجَلَّ وحسن فهمه منة ونعمة عظيمة؛ حيث يقول نبينا ﷺ: «مَن يُرِدِ الله به خَيْرًا يُفَقِّهْهُ في الدِّينِ، وإنَّما أنا قاسِمٌ والله يُعْطِي، ولَنْ تَزالَ هذِه الأُمَّةُ قائِمَةً علَى أمْرِ الله، لا يَضُرُّهُمْ مَن خالَفَهُمْ، حتَّى يَأْتِيَ أمْرُ الله»(٦٩).

والدعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ تتطلب الحكمة البالغة؛ حيث يقول الحق: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

على أن هذه الحكمة والموعظة الحسنة تجعل موقف الداعي ممن يراه عاصيًا بمنزلة الطبيب وليس بمنزلة القاضي، ولا الجلاد، فدور العلماء هو البيان وليس الهداية ولا الحساب ولا المعاقبة، فالعقاب الدنيوي سبيله القانون، والعقاب الأخروي أمره إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ حيث



يقول نبينا ﷺ: «كانَ رجلانِ في بني إسرائيلَ مُتواخيَينِ، فكانَ أحدُهما يذنِبُ والآخَرُ مجتهدٌ في العبادةِ، فكانَ لا يزالُ المُجتهدُ يرى الآخرَ على الذّنبِ فيقولُ: أقصِر، فوجدَهُ يومًا على ذنبٍ فقالَ لهُ: أقصِر، فقالَ: خلِّني وربِّي أبعثتَ عليَّ رقيبًا، فقال: واللهِ لا يغفرُ اللهُ لكَ، أو لا يُدخِلُكَ اللهُ الجنَّةَ، فقبضَ أرواحَهما، فاجتمعا عندَ ربِّ العالمينَ، فقالَ لهذا المُجتهدِ: أكنتَ بي عالِمًا؟ أو كنتَ على ما في يدي قادِرًا؟ وقالَ للمذنبِ: اذهب فادخلِ الجنَّةَ برحمتي، وقالَ للآخرِ: اذهبوا بهِ إلى النّارِ»، قال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والّذي نفسي بيدِهِ لَتكلَّمَ بكلمةٍ أوبقَت دنياهُ آخرتَهُ(٧٠).

والدعوة تحتاج إلى بصر وبصيرة؛ حيث يقول الحق على لسان نبينا محمد ﷺ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

والبصيرة في الدعوة تتطلب الرفق بالمدعو كما علمنا نبينا ﷺ في دعوته التطبيقية، فعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الحَكَمِ السُّلَمِيِّ، قَالَ: بَيْنَا أَنَا أُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ القَوْمِ، فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللهُ، فَرَمَانِي القَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ، فَقُلْتُ: وَاثُكْلَ أُمِّيَاهْ، مَا شَأْنُكُمْ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ؟ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِي لَكِنِّي سَكَتُّ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي، مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ، فَوَاللهِ مَا كَهَرَنِي وَلَا ضَرَبَنِي وَلَا شَتَمَنِي، قَالَ: «إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ القُرْآنِ»(٧١).

غير أن هناك أناسًا لا علم لهم ولا فقه، ولا هُمْ من المجتهدين، ولا حتى من أهل الاختصاص أو دارسي العلوم الشرعية من مظانها المعتبرة نصَّبُوا أنفسهم قضاة أو جلادين، فأسرعوا في رمي مجتمعاتهم بالتبديع، ثم التجهيل، فالتكفير، حتى وصل الأمر بغلاتهم إلى التفجير واستباحة الدماء؛ مما يتطلب حركة سريعة وقوية وغير هيّابة لمواجهة الجمود والفكر المتطرف معًا، حتى

نخلِّص المجتمع والإنسانية من خطر التطرف الفكري وما يتبعه من الإرهاب، وسفك الدماء، وترويع الآمنين، وهدم الأوطان، وتخريب العامر، فالله عَزَّوَجَلَّ لا يحب الفساد ولا المفسدين؛ حيث يقول الحق عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، ويقول تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧]، فديننا دين البناء والتعمير، ودعوتنا يجب أن تكون كذلك، وأن تكون بالحكمة والموعظة الحسنة.

النص المقدس والفكر البشري

النص المقدس شيء والفكر البشري شيء آخر، ولا يجوز إنزال أحدهما منزلة الآخر، فإنزال المقدس منزلة الفكر البشري جناية على الدين وعلى النص المقدس، وإنزال اجتهادات العلماء والفقهاء والمفكرين والكتاب منزلة النص المقدس سبيل الجمود والتحجر والخروج عن طريق الجادة.

ومع أن عالمنا المعاصر يموج بثقافات متعددة، ما بين مدارس فكرية وعلمية وفلسفية كلها تثري حياتنا الواقعية، فإن من أصيبوا بالجمود الفكري يقفون عند مراحل محددة من الفكر البشري لا يتجاوزونها، وينحازون لكل قديم لمجرد قدمه فحسب، حتى في الفكر والأدب والإبداع، فهم يُؤْثرون كل قديم على كل حديث، على شاكلة ما رواه ابن قتيبة وغيره من أن أحد الشعراء أنشد الأصمعي بيتين، فقال له الأصمعي: إن هذا هو الديباج الخسرواني؛ أي: الشعر الجيد الذي يمتدح ويشاد به، ثم استرسل الأصمعي: لمن تنشدني؟ فأجاب الشاعر: بأنهما من شعره أنشدهما لليلته، وهنا غيّر الأصمعي رأيه على الفور، قائلًا: إن أثر التكلف عليهما لبيّن واضح[٧٢]، وما ذاك إلا لعصبيته للقديم دون سواه، بغض النظر عن الجودة أو عدمها.

وهو ما تصدَّى له كثير من علمائنا كُتَّابًا ومفكرين وفلاسفة بالنقد والتفنيد، مؤكدين أن الله عَزَّوَجَلَّ لم يؤثر بالعلم، ولا بالفقه، ولا بالاجتهاد، ولا بالشعر، ولا بالإبداع قومًا دون قوم، أو زمانًا دون زمانٍ، أو مكانًا



دون مكانٍ، ولذا فإنهم لا يقدمون القديم لمجرد قدمه، ولا يبخسون الحديث أو المعاصر حقه لمجرد حداثته أو معاصرته، إنما الميزان عندهم منطقي موضوعي، وهو ألا ننظر إلى من قال وإنما إلى ما قال، فالحكم على العمل لا على صاحبه، وعلى النص لا على القائل، وعلى الإبداع لا على المبدع، ولكل جواد كبوة، ولكل عالم زلة، ولكل مبدع سقطة أو هفوة، والكمال لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وحده، والعصمة لأنبيائه ورسله.

وفي المقابل ثمة فريق آخر أسرف في حداثته وإطلاق العنان للعقل البشري حتى ذهب إلى رفع القداسة عن المقدس، وإنزال النصوص المقدسة منزلة النصوص البشرية القابلة للنقد والتفنيد.

ويذهب البعض - وبخاصة في الجماعات المتطرفة - إلى إنزال شيوخهم وأمرائهم ومرشديهم منزلة القرآن الكريم أو أشد منزلة جهلًا وحمقًا، فأكثر شباب الجماعات المتطرفة يجعلون كلام مرشدهم فوق كل اعتبار، وهو المقدس الذي لا يرد، ولا مجال للتفكير أو إعمال العقل فيه، على أن أحدهم قد يجادلك في فهمك للنص القرآني إن تناقض مع شيء من كلام شيخه، أو مما دُسَّ له عبر كتبهم ومحاضراتهم وتفسيراتهم وتأويلاتهم، ولا يسمح لك أن تناقضه أو تناقشه في كلام شيخه المقدس لديه، فقضية تأليه البشر، أو تقديسهم، أو رفعهم إلى درجة المهديين المنتظرين عند هؤلاء المتطرفين أمر في غاية الخطورة على التفكير المنطقي السليم.

على أننا نفرق - تفريقًا واضحًا لا لبس فيه - بين إنزال الناس منازلهم وإكرام العلماء وبين تقديس البشر، أو محاولة تقديسهم، أو إضفاء هالة من التقديس عليهم تُصَوِّرُ نقد كلامهم على أنه نقد للإسلام وطعن في فهم صحيح الكتاب والسنة، مع أن كل البشر بعد المعصوم ﷺ يؤخذ منهم ويرد عليهم في ضوء أدب الحوار ومراعاة أصوله؛ ولذا نؤكد دائمًا أن مؤسساتنا الدينية ليست مؤسسات كهنوتية ولا ينبغي أن تكون أو تقترب من

ذلك، كما أنها ليست محاكم تفتيش، فمهمتها البيان لا الحساب.

إن الحاجة ملحة إلى مزيد من إعمال العقل في فهم النص في ضوء معطيات الواقع والحفاظ على ثوابت الشرع الشريف، وإلى مزيد من الاهتمام بالأبعاد الثقافية المختلفة، والتوازن في حياتنا بين دراسة العلوم التطبيقية والبحثية ودراسة علوم النفس والاجتماع والفلسفة والآداب والتاريخ والحضارة والعمران، فالمجتمعات في حاجة إلى هذا وذلك، وإلى كل فكر إنساني يفيد البشرية في شئون دينها أو شئون دنياها.

فلسفة الحياة والموت

ديننا دين مفعم بالحياة وعمارة الكون، ولم يجعل من فلسفة الموت عائقًا لعمارة الأرض وصناعة الحضارات، بل جعل منها أكبر دافع للعمل والإنتاج وبناء الدول؛ حيث يقول نبينا ﷺ: «إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ»(٧٣).

فحتى مع تيقن الموت نحن مطالبون بعمارة الكون، وإذا لم تدرك ثمرة عملك في الدنيا فستدركها في الآخرة، ألم يقل نبينا ﷺ: «إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»(٧٤)، حيث يمتد الثواب بامتداد هذا النفع، ويقول نبينا ﷺ: «سَبْعٌ يَجْرِي لِلْعَبْدِ أَجْرُهُنَّ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ وهُو فِي قَبْرِهِ: مَنْ عَلَّمَ عِلْمًا، أَوْ كَرَى نَهْرًا، أَوْ حَفَرَ بِئْرًا، أَوْ غَرَسَ نَخْلًا، أَوْ بَنَى مَسْجِدًا، أَوْ وَرَّثَ مُصْحَفًا، أَوْ تَرَكَ وَلَدًا يَسْتَغْفِرُ لَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ»(٧٥)، والثواب هنا أيضًا ممتد بامتداد النفع.

فالموت للمؤمن ليس عقدة وليس عائقًا؛ لأن المؤمن يدرك أنه سيجني ثمرة عمله إما في الدنيا، وإما في الآخرة، وإما فيهما معًا؛ ليقينه بأن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لا يضيع أجر من أحسن عملًا؛ حيث يقول الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].

أما تذكر الموت لدى غير المؤمن فمن

الممكن أن يكون وسيلة يأس وإحباط، أو انصراف عن العمل؛ لظنه أنه قد لا يستفيد من جهده، كونه لا يفكر إلا فيما يستفيد هو منه أو ينتفع به في عاجل أمره.

وأما الموت عند المؤمن فدافع قوي له لعمارة الكون وصناعة الحضارة، ومحفز له على العمل والإتقان؛ حيث يتزود المؤمن بعمارة الدنيا لرضا ربه عنه في الدنيا والآخرة، وهو مطالبٌ أيضًا بأن يذر ورثته أغنياء؛ حيث يقول نبينا ﷺ: «إِنَّكَ إِنْ تَذَرْ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ»(٧٦).

ذلك أن الموت عند المؤمن انتقال لا انتهاء؛ حيث يعمل المؤمن على أن يأخذ من دنياه لآخرته، وزاده الحقيقي هو عمله الذي قدمه، سواء أكان لنفسه، أم لأبنائه، أم لوطنه، أم لأمته.

كما أن تذكر الموت يدفع المؤمن لحسن المراقبة في سره وعلنه، راقبناه أم لم نراقبه؛ لأنه يراقب من لا تأخذه سنة ولا نوم؛ حيث يقول الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ويقول تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

* * *

الهوامش:

(١) انظر: الأشباه والنظائر للسيوطي، ص ٧، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١ هـ وسنن الدارقطني، ١٠/ ٣٣٩، حديث رقم: ٤٥٩٥.

(٢) انظر: التحبير شرح التحرير للمرادي، ٨/ ٣٨٥١، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢١ هـ.

(٣) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب المظالم والغصب، باب نصر المظلوم، حديث رقم: ٢٤٤٦، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب البر والصلة، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم، حديث رقم: ٢٥٨٥.

(٤) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة النّاس والبهائم، حديث رقم: ٦٠١١، وصحيح مسلم، كتاب البر والصلة، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، حديث رقم: ٢٥٨٦، واللفظ له.

(٥) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الرّقاق، باب حفظ اللّسان، حديث رقم: ٦٤٧٨، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب التكلّم بالكلمة يهوي بها في النّار، حديث رقم: ٢٩٨٨.

(٦) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الرّقاق، باب حفظ اللّسان، حديث رقم: ٦٤٧٥، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الحثّ على إكرام الجار والضّيف، حديث رقم: ٧٤.

(٧) سنن الترمذي، أبواب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصّلاة، حديث رقم: ٢٦١٦، وقال: حديث حسن صحيح.

(٨) سنن الدارمي، المقدمة، باب الفُتْيَا وما فيه من الشّدّة، حديث رقم: ١٥٩.

(٩) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب العلم، باب كيف يقبض العلم، حديث رقم: ١٠٠، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزّمان، حديث رقم: ٢٦٧٣.

(١٠) سنن الترمذي، أبواب الأحكام عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في القاضي يصيب ويخطئ، حديث رقم: ١٣٢٦.

(١١) حروب الجيل الخامس هي: حروب فكرية تهدف إلى احتلال عقول البشر بدلًا من احتلال الأرض؛ لإسقاط الدول من الداخل، وتكسيرها وتفتيتها إلى مجموعات يحارب بعضها بعضًا.

(١٢) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب العلم، باب كيف يُقْبَضُ العلم، حديث رقم: ١٠٠، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزّمان، حديث رقم: ٢٦٧٣.

(١٣) الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، لأبي القاسم الحسن بن بشر الآمدي، المتوفى سنة ٣٧٠ هـ تحقيق: السيد أحمد صقر، ص٤١٣ وما بعدها بتصرف، دار المعارف، ومكتبة الخانجي، ١٩٩٤ م.

(١٤) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة، حديث رقم: ١٨٢٥.

(١٥) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب من سئل علمًا وهو مشتغلٌ في حديثه، فأتَمَّ الحديث ثم أجاب السّائل، حديث رقم: ٥٩.

(١٦) معين الحكام فيما يتردد بين الخصمين من الأحكام لأبي الحسن علاء الدين، علي بن خليل الطرابلسي الحنفي المتوفى سنة ٨٤٤هـ ص ١٧٧ بتصرف، دار الفكر.



(١٧) العقد الفريد لأبي عمر، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه، المعروف بابن عبد ربه الأندلسي، المتوفى سنة ٣٢٨هـ ١/ ٤٣، دار الكتب العلمية، بيروت، وسراج الملوك لأبي بكر الطرطوشي المالكي، المتوفى سنة ٥٢٠هـ ص ٦٨، المطبوعات العربية، ١٢٨٩هـ.

(١٨) سير أعلام النبلاء لشمس الدين، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، المتوفى سنة ٧٤٨هـ ٣/ ١٠٨، مؤسسة الرسالة، بيروت.

(١٩) الشوقيات، أحمد شوقي، ١/ ١٨٥، دار العودة، بيروت، ١٩٨٨م.

(٢٠) ينظر: البلاغة العربية، للشاعر عبد الرحمن حنبكة عيداني،١/ ٥٣٠، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٦ هـ.

(٢١) صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب كسب الرّجل وعمله بيده، حديث رقم: ٢٠٧٢.

(٢٢) مسند أبي يعلى، ٧/ ٣٤٩، حديث رقم: ٤٣٨٦، طبعة دار المأمون، دمشق.

(٢٣) الأدب المفرد للبخاري، باب حُسْنِ الخُلُقِ، حديث رقم: ٢٧٣، ومسند البزار، ١٥/ ٣٦٤، حديث رقم: ٨٩٤٩، واللفظ له.

(٢٤) سنن الترمذي، أبواب البرّ والصّلة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في حُسْنِ الخُلُقِ، حديث رقم: ٢٠٠٤، وقال: حديث صحيح غريب.

(٢٥) مسند أحمد، ٤٠/ ٢٤٢، حديث رقم: ٢٤٢٠٤، مؤسسة الرسالة.

(٢٦) سنن الترمذي، أبواب البرّ والصّلة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في معالي الأخلاق، حديث رقم: ٢٠١٨.

(٢٧) موطأ مالك، كتاب القدر، باب ما جاء في حسن الخلق، ٢/ ٩٠٢، وشعب الإيمان للبيهقي، السابع والخمسون من شعب الإيمان، حسن الخلق، حديث رقم: ٧٦٦٦.

(٢٨) سنن أبي داود، كتاب الأدب، بابٌ في حُسْنِ الخُلُقِ، حديث رقم: ٤٧٩٩.

(٢٩) سنن الترمذي، أبواب البرّ والصّلة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في معاشرة النّاس، حديث رقم: ١٩٨٧.

(٣٠) انظر: الشوقيات لأحمد شوقي، ١/ ٢٥٩.

(٣١) مُتَمَتْرِسٌ وَرَاءَ المَتَارِيسِ: قَابِعٌ بِتَحَفُّزٍ وَحَذَرٍ. انظر: معجم الغني، عبد الغني أبو العزم، الجزء ٤، كلمة: متمترس، الطبعة الأولى، مؤسسة الغني للنشر، الرباط.

(٣٢) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، حديث رقم: ٣٤٧٥، وصحيح مسلم، كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره، حديث رقم: ١٦٨٨، واللفظ له.

(٣٣) جامع معمر بن راشد، باب لا طاعة في معصية، حديث رقم: ٢٠٧٠٢، ومصنف عبد الرزاق، ٩/ ١٧٠، حديث رقم: ٢١٦٢٦.

(٣٤) السنن الكبرى للبيهقي، كتاب الشهادات، باب لا يُحِيلُ حُكمُ القاضي على المقضي له، والمقضيِّ عليه، حديث رقم: ٢٠٥٣٧، وسنن الدار قطني، كتابٌ في الأقضية والأحكام وغير ذلك، باب كتاب عمر إلى أبي موسى الأشعري، حديث رقم: ٤٤٧٢.

(٣٥) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصّلاة وفضل المساجد، حديث رقم: ٦٦٠، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصّدقة، حديث رقم: ١٠٣١.

(٣٦) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد في الفقراء حيث كانوا، حديث رقم: ١٤٩٦، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، حديث رقم: ١٩.

(٣٧) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب النّكاح، بابٌ المرأة راعيةٌ في بيت زوجها، حديث رقم: ٥٢٠٠، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، حديث رقم: ١٨٢٩.

(٣٨) صحيح مسلم، كتاب البرّ والصّلة والآداب، باب تحريم الظّلم، حديث رقم: ٢٥٧٨.

(٣٩) البيان والتبيين، لعمرو بن بحر بن محبوب الكناني، أبو عثمان الجاحظ، المتوفى ٢٥٥هـ ٣/ ٢٣٣، دار ومكتبة الهلال، بيروت.

(٤٠) صحيح البخاري، كتاب الشّركة، باب هل يقرع في القسمة والاستهام فيه، حديث رقم: ٢٤٩٣.

(٤١) صحيح مسلم، كتاب الجنّة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصّفات التي يُعْرَفُ بها في الدّنيا أهل الجنّة وأهل النّار، حديث رقم: ٢٨٦٥.

(٤٢) قواعد الأحكام في مصالح الأنام للعز بن عبد السلام، ١/ ٥، الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٩٩١ م.

(٤٣) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿واذكر في الكتاب مريم﴾، حديث رقم: ٣٤٤٣.

(٤٤) تفسير البغوي (معالم التنزيل)، ٢ / ١٤٢، دار المعرفة، لبنان.

(٤٥) الموافقات لإبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، المتوفى سنة ٧٩٠هـ ٣/ ٥٢٠، دار ابن عفان، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

(٤٦) المستدرك للحاكم، كتاب الطِّبِّ، حديث رقم: ٨٢١٤.

(٤٧) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، حديث رقم: ٣٤٨٤.

(٤٨) سنن الترمذي، أبواب الزكاة، باب من تحلّ له الزّكاة، حديث رقم: ٦٥٠. وكدوح (بضمتين): آثار قشر الجلد بنحو عود.

(٤٩) انظر: لب الآداب لأسامة بن منقذ، ١/ ٢٨٥، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مكتبة السنة، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧ م، ونسبه محققه لصالح بن عبد القدوس.

(٥٠) شرح المعلقات التسع لأبي عمرو الشيباني، ص ٢١٥ وما بعدها، تحقيق: عبد المجيد همو، مؤسسة الأعلمي، بيروت، ط١، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.

(٥١) ديوان علي بن أبي طالب، ص٣٤٠، ونزهة الأبصار بطرائف الأخبار والأشعار لعبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن درهم، المتوفى سنة ١٣٦٢هـ ص ٢٤٧، دار العباد، بيروت.

(٥٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب شعب الإيمان، حديث رقم: ٣٥.

(٥٣) سنن الترمذي، أبواب الزّهد، بابٌ فيمن تكَلَّمَ بكلمةٍ يضحك بها النّاس، حديث رقم: ٢٣١٧، وقال: حديث صحيح.

(٥٤) سنن أبي داود، أبواب النوم، باب كم مرة يسلّم الرجل في الاستئذان؟، حديث رقم: ٥١٨٦.

(٥٥) مسند أحمد، ٣٥/ ٣٨٣، حديث رقم: ٢١٤٨٤.

(٥٦) سنن الترمذي، أبواب الزهد، بابٌ في التّوكّل على الله، حديث رقم: ٢٣٤٦، واللفظ له، والأدب المفرد للبخاري، باب من أصبح آمنًا في سربه، حديث رقم: ٣٠٠، واللفظ من الأدب المفرد.

(٥٧) ينظر: لسان العرب والمصباح المنير مادة (سلم).

(٥٨) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب المسلم من سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده، حديث رقم: ١٠، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان تفاضل الإسلام، وأي أموره أفضل، حديث رقم: ٤٠.

(٥٩) مسند أحمد، ١١/ ٦٥٨، حديث رقم: ٧٠٨٦.

(٦٠) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أنّه لا يدخل الجنّة إلّا المؤمنون، وأنّ محبّة المؤمنين من الإيمان، وأنّ إفشاء السّلام سببًا لحصولها، حديث رقم: ٥٤.

(٦١) سنن ابن ماجه، كتاب الأطعمة، باب إطعام الطّعام، حديث رقم: ٣٢٥١.

(٦٢) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضل الرّمي والحثّ عليه، وذمّ من علمه ثمّ نسيه، حديث رقم ١٩١٧.

(٦٣) انظر: كشف الخفا للعجلوني، ١/ ٤٤٨، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

(٦٤) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب التهجد، باب فضل الطّهور باللّيل والنّهار، حديث رقم:١١٥٠، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب صلاة المسافر وقصرها، باب أمر من نعس في صلاته، حديث رقم: ٧٨٤.

(٦٥) مسند أحمد، ١١/ ٦٣٦، حديث رقم: ٧٠٦٥.

(٦٦) المستدرك للحاكم، كِتَابُ العِلْمِ، حديث رقم: ٣١٩.

(٦٧) تفسير ابن كثير، تفسير سورة طه، ٥ / ٢٨٣ بتصرف.

(٦٨) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب من خصّ بالعلم قومًا دون قومٍ كراهية أن لا يفهموا، حديث رقم: ١٢٧.

(٦٩) متفق عليه: صحيح البخاري كتاب العلم، بابٌ من يرد الله به خيرًا يفقّهه في الدّين، حديث رقم: ٧١، وصحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة، حديث رقم: ١٠٣٧، واللفظ له.

(٧٠) سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب النهي عن البغي، حديث رقم: ٤٩٠١.

(٧١) صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصّلاة، باب تحريم الكلام في الصّلاة، ونسخ ما كان من إباحته، حديث رقم: ٥٣٧.

(٧٢) انظر: الوساطة بين المتنبي وخصومه، القاضي الجرجاني، ص ٥٠ بتصرف.

(٧٣) مسند أحمد ٢٠/ ٢٩٦، حديث رقم: ١٢٩٨١.

(٧٤) صحيح مسلم، كتاب الوصيّة، باب ما يلحق الإنسان من الثّواب بعد وفاته، حديث رقم: ١٦٣١.

(٧٥) مسند البزار، ١٣/ ٤٨٣، حديث رقم: ٧٢٨٩.

(٧٦) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الوصايا، باب أن يترك ورثته أغنياء خيرٌ من أن يتكفّفوا النّاس، حديث رقم: ٢٧٤٢، وصحيح مسلم، كتاب الوصيّة، باب الوصيّة بالثّلث، حديث رقم: ١٦٢٨، واللفظ له.

مقالات في التجديد

دور العقل في فهم النص

لا غِنى عن إعمال العقل في فهم صحيح النص وفي تطبيقاته، وفي إنزال الحكم الشرعي على مناطه من الواقع العملي، كما أنه لا بد من إعادة قراءة النص في ضوء مستجدات العصر، ولنأخذ أنموذجين لكي يتضح ما نرمي إليه:

الأنموذج الأول: التوكل على الله:

ومن ذلك قول النبي ﷺ للأعرابي الذي سأله عن ناقته: أَعْقِلُها وأتوَكَّلُ أو أطلِقُها وأتوَكَّلُ؟ فقالَ ﷺ: «اعقِلها وتوَكَّلْ»[1]، على أن التوازن بين الأخذ بالأسباب والتسليم بقضاء الله عَزَّوَجَلَّ وقدره لا يقف عند حدود عقل الناقة مع حسن التوكل؛ إنما يشمل كل جوانب الحياة، فعلى الطالب أن يجتهد في مذاكرته ثم يحسن التوكل على الله عَزَّوَجَلَّ في أمر نتيجته، وعلى الزارع أن يأخذ بأسباب العلم في زراعته ويحسن القيام عليها ثم يحسن التوكل على الله في نتاجها.

وفي ظروف مواجهة فيروس كورونا نقول: ارتد الكمامة وتوكّل، نظف يديك وتوكّل، تجنب المصافحة وتوكّل، حقق التباعد الاجتماعي وتوكّل، خذ بجميع الأمور الاحترازية والإجراءات العلمية والطبية وتوكّل، وهكذا في سائر الأمور الحياتية، وبهذا نكون قد فهمنا وحققنا وطبقنا معنى قول نبينا ﷺ: «اعقلها وتوكّل».

الأنموذج الثاني: القصد في المشي:

يقول الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على لسان لقمان عَلَيْهِ السَّلَامُ في وصيته لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ۝١٧ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ۝١٨ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٧-١٩].

فالقصد في المشي هو الاعتدال وعدم

الخيلاء فيه، وذلك لا يقف عند حدود الماشي على قدميه، إنما يعني القصد في المشي وعدم الاختيال مطلقًا، سواء أكان الإنسان ماشيًا على قدميه أم مستقلًّا دراجته أم راكبًا سيارته، بل إن الاختيال بالسيارة أشد جرمًا من الاختيال بالمشي على القدمين؛ لما في الثاني من كسر نفوس الفقراء، وأسوأ ما في ذلك أن يصل الاستعلاء بالنفس إلى تجاوز القوانين المنظمة للمرور والسير، مع أن الالتزام بقواعد المرور العامة إنما هو للحفاظ على حياتك وحياة الآخرين؛ مما يتطلب أن تلتزم بالسرعات المقررة وبإشارات المرور وتعليماته، وبآدابه، وأحكامه، دون أن يستعلي أحد على الآخرين بسيارته الفارهة أو بدراجته الأحدث.

والحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧]، فالغاية والمقصد إنما هو النهي عن التكبر على خلق الله عَزَّوَجَلَّ والاستعلاء عليهم بأي نوع من أنواع الاستعلاء، والمشي في الآية هنا ليس مقصودًا به المشي على القدمين فقط، وإنما المقصود به النهي عن مطلق الاختيال والعجب والغرور بالنفس، وقد سئل أحدهم: ما السيئة التي لا تنفع معها حسنة؟ فقال: الكبر.

يقول الشاعر [١]:

ولا تمشِ فوق الأرضِ إلَّا تواضعًا
فكم تحتها قومٌ هم منك أرفعُ
فإن كنتَ في عزٍّ وخيرٍ ومنعةٍ
فكم مات مِن قومٍ هم منك أمنعُ

ونؤكد على أهمية فهم مرامي النصوص ومقاصدها، ونحذر من المتحجرين الذين يقفون عند ظواهر النصوص لا يتجاوزن الظاهر الحرفي لها؛ فيقعون في العنت والمشقة على أنفسهم وعلى من يحاولون حملهم على هذا الفهم المتحجر.

حتمية التجديد

مما لا شك فيه أن الإقدام على التجديد في فهم وعرض القضايا الفقهية، والنظر في المستجدات العصرية، وفي بعض القضايا القابلة للاجتهاد، يحتاج إلى رؤية ودراية وفهم



عميق، وشجاعة وجرأة محسوبة، وحسن تقدير للأمور في آن واحد.

كما أنه يحتاج من صاحبه إلى إخلاص النيّة لله عَزَّوَجَلَّ بما يعينه على حسن الفهم وعلى تحمل النقد والسهام اللاذعة ممن أغلقوا باب الاجتهاد، وأقسموا جهد أيمانهم أن الأمة لم ولن تلد مجتهدًا بعد، وأنها عقمت عقمًا لا براء منه، متناسين أو متجاهلين أن الله عَزَّوَجَلَّ لم يخص بالعلم ولا بالفقه قومًا دون قوم، أو زمانًا دون زمان، وأن الخير في أمة محمد ﷺ إلى يوم القيامة.

ولكي نقطع الطريق على أي مزايدات، فإنني أؤكد على الثوابت والأمور التالية:

١- أن ما ثبت بدليل قطعي الثبوت والدلالة، وما أجمعت عليه الأمة وصار معلومًا من الدين بالضرورة كأصول العقائد، وفرائض الإسلام من وجوب الصلاة، والصيام، والزكاة، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلًا، كل ذلك لا مجال للخلاف فيه، فهي أمور توقيفية لا تتغير بتغيّر الزمان والمكان والأحوال والأشخاص، فمجال الاجتهاد هو كل حكم شرعي ليس فيه دليل قطعي، يقول الإمام أبو حامد الغزالي[٢] رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه المستصفى: «ووجوب الصلوات الخمس والزكوات وما اتفقت عليه الأمة من جليات الشرع فيه أدلة قطعية يأثم فيها المخالف، فليس ذلك محل الاجتهاد»[١].

٢- أننا ننظر بكل التقدير والاحترام لآراء الأئمة المجتهدين، مثل: الإمام أبي حنيفة، والإمام مالك، والإمام الشافعي، والإمام أحمد، ومَن كان على شاكلتهم من العلماء والفقهاء المعتبرين في اجتهادهم، نرى أنهم جميعًا أهل علم وفضل، فقد بذل كلٌّ منهم وسعه في الاجتهاد والاستنباط في ضوء معطيات عصره، وتلقت الأمة مذاهبهم بالرضا والقبول.

٣- نؤمن أيضًا أن بعض الفتاوى ناسبت عصرها وزمانها، أو مكانها، أو أحوال المستفتين، وأن ما كان راجحًا في عصر وفق ما اقتضته المصلحة في ذلك العصر قد يكون

مرجوحًا في عصر آخر إذا تغيرت ظروف هذا العصر وتغير وجه المصلحة فيه، وأن المفْتَى به في عصر معين، وفي بيئة معينة، وفي ظل ظروف معينة، قد يصبح غيره أولى منه في الإفتاء به إذا تغيّر العصر، أو تغيّرت البيئة، أو تغيّرت الظروف، ما دام ذلك كله في ضوء الدليل الشرعي المعتبر، والمقاصد العامة للشريعة؛ ما دام الأمر صادرًا عن من هو - أو من هم- أهل للاجتهاد والنظر.

وقد ذكر الإمام القرافي[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه الإحكام: أنه ينبغي للمفتي إذا ورد عليه مستفتٍ لا يعلم أنه من أهل البلد الذي منه المفتي وموضع الفتيا ألا يُفتيه بما عادته أن يفتي به حتى يسأله عن بلده، وهل حدث لهم عرف في ذلك البلد في هذا اللفظ اللغوي أم لا؟[2].

٤- أننا نؤمن بالرأي والرأي الآخر، وبإمكانية تعدد الصواب في بعض القضايا الخلافيّة، في ضوء تعدد ظروف الفتوى وملابساتها ومقدماتها، وإذا كان بعض سلفنا الصالح قد قال: رأيي صواب يحتمل الخطأ ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب، فإننا نذهب أبعد من ذلك فنقول: إن كلا الرأيين قد يكونان على صواب، غير أن أحدهما راجح والآخر مرجوح؛ فنأخذ بما نراه راجحًا مع عدم تخطئتنا لما نراه مرجوحًا، ما دام صاحبه أهلًا للاجتهاد، ولرأيه حظ من النظر والدليل الشرعي المعتبر، فالأقوال الراجحة ليست معصومة، والأقوال المرجوحة ليست مهدرة ولا مهدومة.

٥- أنَّ تسارع وتيرة الحياة العصرية في شتى الجوانب العلمية، والاقتصادية، والتكنولوجية، إضافة إلى التقلبات والتكتلات والتحالفات والمتغيّرات السياسية والاقتصادية والحياتية والاجتماعية، كل ذلك يحتم على العلماء والفقهاء إعادة النظر في ضوء كل هذه المتغيّرات؛ للخروج من دوائر الجمود التي تحاول بعض التيارات المتشددة فرضها من خلال فرض رؤيتها الجامدة المنغلقة على المجتمع.

٦- أن الإسلام فتح باب الاجتهاد واسعًا، فقد أقر نبينا محمد ﷺ مبدأ الاجتهاد حتى في



حياته ﷺ، فعندما بعث ﷺ سيدنا مُعاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى اليَمَنِ قَالَ لَهُ: «كَيْفَ تَقْضِي إِذَا عَرَضَ لَكَ قَضَاءٌ؟»، قَالَ: أَقْضِي بِكِتَابِ الله، قَالَ: «فَإِنْ لَمْ تَجِدْهُ في كِتَابِ الله؟»، قَالَ: أَقْضِي بِسُنَّةِ رَسُولِ الله ﷺ، قَالَ: «فَإِنْ لَمْ تَجِدْهُ في سُنَّةِ رَسُولِ الله»، قَالَ: أَجْتَهِدُ رأيي ولاَ آلُو، قَالَ: فَضَرَبَ بِيَدِهِ في صدري وَقَالَ: «الحَمْدُ لله الَّذِي وَفَّقَ رَسُولَ رَسُولِ الله لِمَا يُرْضِي رَسُولَ الله»(٧)، والمراد بقوله: «ولا آلو» أي: لا أقصر في الاجتهاد والنظر في المسألة.

ولا شك أن هذا الحديث النبوي الشريف يعد عمدة في فتح باب الاجتهاد وإعمال العقل إلى يوم القيامة؛ حيث بدأ سيدنا معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالنظر في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، فإن وجد في المسألة مناط الفتوى حُكمًا من كتاب الله تعالى ينطبق عليها واقعًا حَكَمَ فيها بما ورد في كتاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، سواء أكان حكمًا قطعي الثبوت والدلالة، أم كان حكمًا قطعي الثبوت ظني الدلالة، أي مما يحتاج إلى إعمال العقل في استخلاص الحكم، مع تحقق المناط وانطباق النص على الواقع، فإن لم يجد في المسألة نصًا قرآنيًا لا قطعي الدلالة ولا ظنيها انتقل إلى سنة رسول الله ﷺ؛ سواء أكان الانتقال لتفسير النص القرآني، أو بيان مجمله، أو تقييد مطلقه، أو تخصيص عمومه، أم كان حديثًا منشئًا لحكم تفصيلي في ضوء المقاصد العامة للتشريع المتضمنة في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، فإن لم يجد حديثًا قاطعًا بالحكم في المسألة أو لم يجد فيها حديثًا أصلًا، عمد إلى إعمال العقل وقياس الأشباه والنظائر، واجتهد رأيه دون تقصير.

ولنا في ذلك وقفات:

الأولى: أن سيدنا معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان قد بعثه النبي ﷺ إلى اليمن في حياته ﷺ، ولم يقل له سيدنا معاذ: إذا لم أجد حكمًا في المسألة في كتاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ولا في سنة رسول الله ﷺ أنتظر أو أتوقف حتى أرجع إليك أو سأرسل إليك رسولًا، ولم يطلب النبي ﷺ منه ذلك، بل أطلق له حرية الاجتهاد في حياته ﷺ، ولم يطلب منه حتى مراجعته وعرض ما يقضي به عليه؛ بل ترك له مساحة واسعة

للاجتهاد والنظر، قائلًا له: «الحَمْدُ لله الَّذِي وَفَّقَ رَسُولَ رَسُولِ الله لِمَا يُرْضِي رَسُولَ الله».

الثانية: أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا»(٨)، وطبعي أن هذا التجديد لا يكون إلا بالاجتهاد والنظر ومراعاة ظروف العصر ومستجداته، وقراءة الواقع قراءة جديدة في ضوء المقاصد العامة للتشريع.

الثالثة: لقد سار الصحابة (رضوان الله عليهم) على نهج النبي ﷺ من بعده، فهذا سيدنا عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يبعث برسالته التاريخية في القضاء إلى سيدنا أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان مما ورد فيها: «من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى أبي موسى الأشعري: أما بعد فإنَّ القضاء فَريضةٌ محكمة وسُنَّة متبعة، فافهَمْ إذا أُدْلِيَ إليك، فإنه لا ينفع تكلُّمٌ بحق لا نفاذَ له، وآسِ بين الناس في مجلسك ووَجهك حَتَّى لا يطمَعَ شريفٌ في حَيْفك ولا ييأس ضعيفٌ من عدلك... الفَهمَ الفهمَ عندما يتلجلج في صدرك مما لم يبلغْك في كتاب الله ولا في سنَّة النبيّ ﷺ، واعرف الأمثالَ والأشباه وقِسِ الأمورَ عند ذلك، ثم اعمِد إلى أحبِّها إلى الله وأشبَهها بالحقّ فيما ترى»(٩).

ولم يطلب عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ التوقف حتى يرجع إليه أيضًا، كما أنه لم يطلب منه حتى يَجْمَعَ الناس على المسألة، وإن كان ذلك مما هو مستحب ومندوب فيما يحتاج إلى ذلك، غير أن ولي الأمر أو المجتهد إنما يفعل ذلك متى احتاج إليه، مع تأكيدنا على أن رأي الحاكم يقطع الخلاف في المختلف فيه للمصلحة المعتبرة في ضوء المقاصد العامة للشرع الحنيف.

٧- لا بد أن نضع في اعتبارنا أن أي تغيير أو تجديد في تناول قضايا الخطاب الديني عبر تاريخ البشرية لا يمكن أن يكون موضع إجماعٍ أو اتفاقٍ قبل الاختبار لمدد، أو فترات زمنية تطول وتقصر وفق قناعات المجددين وصمودهم واجتهادهم وقدرتهم على الإقناع برؤاهم الفكرية الجديدة، وأن التقليديين

والمحافظين والمستفيدين من الأوضاع المستقرة لا يمكن أن يسلِّموا بالسرعة والسهولة التي يطمح إليها المجددون، وبمقدار عقلانية المجددين وعدم شطط المحسوبين عليهم في الذهاب إلى أقصى الطرف الآخر يكون استعداد المجتمع لتقبل أفكارهم، بقطعهم الطريق على أصحاب الفكر الجامد والمتحجر من طعنهم في مقتل.

٨- نؤكد على أن التجديد الذي نسعى إليه يجب أن ينضبط بميزاني الشرع والعقل، وألَّا يُترك نهبًا لغير المؤهلين وغير المتخصصين أو المتطاولين الذين يريدون هدم الثوابت تحت دعوى التجديد، فالميزان دقيق، والمسألة في غاية الدقة والخطورة، لما يكتنفها من تحديات في الداخل والخارج، فالمتخصص المؤهل إذا اجتهد فأخطأ له أجر، وإن اجتهد فأصاب فله أجران؛ الأول: لاجتهاده، والآخر: لإصابته، أما من تجرأ على الفتوى بغير علم؛ فإن أصاب فعليه وزر، وإن أخطأ فعليه وزران؛ الأول: لاقتحامه ما ليس له بأهل، والآخر: لما يترتب على خطئه من آثار كان المجتمع والدين معًا في غنى عنها، في ظل أوقات تحتاج إلى من يبني لا من يهدم.

كما نؤكد أن المساس بثوابت العقيدة والتجرؤ عليها وإنكار ما استقر منها في وجدان الأمة لا يخدم سوى قوى التطرف والإرهاب؛ لأن الجماعات المتطرفة تستغل مثل هذه السقطات لترويج شائعات التفريط في الثوابت؛ مما ينبغي التنبه له والحذر منه، فإذا أردنا أن نقضي على التشدد من جذوره فلا بد أن نقضي على التسيب من جذوره، فلكل فعل رد فعل مساوٍ له في المقدار ومضاد له في الاتجاه، ويقولون: لكل شيء طرفان ووسط، فإن أنت أمسكت بأحد الطرفين مال الآخر، وإن أنت أمسكت بالوسط استقام لك الطرفان، ولذا قال الإمام الأوزاعي[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما من أمْرٍ أمَرَ الله به إلّا عارض الشّيطان فيه بخصلتين ولا يبالي أيّها أصاب: الغلوّ أو التّقصير»[2]، فنحن مع التيسير لا مع التعسير ولا التسيب، ومع السماحة لا التفريط، ومع الالتزام الديني

والقيمي والأخلاقي دون أي تشدد أو تطرف أو جمود أو انغلاق، فبين التشدد والالتزام خيط جد دقيق، وبين التيسير والتسيب خيط جد دقيق، والعاقل من يدرك هذه الفروق الدقيقة، ويقف عند حدودها فَاقِهًا لها، غير غافل عنها، وقد نقل الإمام السيوطي في كتابه الإتقان في علوم القرآن(١) عن الماوردي أنه قال: سَمِعْتُ أَبَا إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمَ بْنَ مُضَارِبِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: سَأَلْتُ الْحُسَيْنَ بْنَ الفَضْلِ فَقُلْتُ: إِنَّكَ تُخْرِجُ أَمْثَالَ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ مِنَ الْقُرْآنِ فَهَلْ تَجِدُ فِي كِتَابِ الله «خَيْرُ الأُمُورِ أَوْسَاطُهَا»؟ قَالَ: نَعَمْ فِي أَرْبَعَةِ مَوَاضِعَ؛ قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ﴾ [البقرة: ٦٨]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠].

٩- نؤكد على أهمية ثقافة التفكير في سائر جوانب الحياة الفكرية والسياسية والاقتصادية والإدارية، والخروج من دائرة القوالب الجاهزة والأنماط الجامدة إلى رؤية تتسم بالفكر وإعمال العقل، وعلينا جميعًا أن نعمل على تحريك هذا الجمود من خلال العمل على نشر ثقافة التفكير من خلال الصالونات الثقافية، والمنتديات، والحلقات النقاشية، فإن هناك من يعتبر مجرد التفكير في التجديد هو خروج على الثوابت وهدم لها؛ حتى وإن لم يكن للأمر المجتهد فيه أدنى صلة بالثوابت، أو بما هو معلوم من الدين بالضرورة، وما هو قطعي الثبوت قطعي الدلالة، فقد تَبَنَّى منهج الجمود، والتكفير، والتخوين، والإخراج من الدين أناسٌ لا علم لهم ولا فقه، ولا هم من المجتهدين ولا حتى من أهل الاختصاص، أو دارسي العلوم الشرعية من مظانها المعتبرة، مسرعين في رمي المجتمع بالتبديع، ثم التجهيل، فالتكفير، حتى وصل الأمر بغلاتهم إلى التفجير واستباحة



الدماء؛ مما يتطلب حركة سريعة وقوية وغير هيّابة لمواجهة الجمود والفكر المتطرف معًا، حتى نخلص المجتمع والإنسانية من خطر التطرف الفكري وما يتبعه من تبني الإرهاب منهجًا وسلوكًا.

الفقه والفهم

يقال: فقه الرجل بكسر القاف إذا فهم، وفقَه بالفتح القاف إذا سبق غيره في الفهم، وفقُه بالضم إذا صار الفقه له لازمة وملكة وسجية.

ويقول نبينا ﷺ: «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَيُعْطِي اللهُ، وَلَنْ يَزَالَ أَمْرُ هَذِهِ الأُمَّةِ مُسْتَقِيمًا حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ، أَوْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ»(١٣)، أي ويعطي الله عَزَّوَجَلَّ العلم والفقه والفهم، وقد قالوا: من عمل بما علم ورثه الله عَزَّوَجَلَّ علم مالم يكن يعلم؛ حيث يقول الحق سبحانه في شأن الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥]، ويقول سبحانه: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٨ - ٧٩] حيث عبر الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بلفظ «ففهمناها» ولم يقل علمناها، لأن العلم شيء والفهم شيء آخر.

ويقول سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى على لسان يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٣٧]، وقال رجل للقاضي شريح: علمني القضاء، فقال له شريح: القضاء فقه، القضاء لا يُعلَّم.

ولا يظن من حفظ بعض المسائل من بعض الكتب أنه قد صار حجة أو فقيهًا أو مرجعًا يُرجع إليه ويُنزل على قوله أو رأيه، فالأمر أبعد وأعمق، إذ لو كان الأمر واقفًا عند حدود معرفة بعض الأحكام الجزئية بمعزل عن

أصولها وسياقها وزمانها ومكانها وقواعدها الكلية والأصولية لكان الخطب هينًا والأمر جد يسير، غير أن الأمر أبعد من ذلك وأدق، فعندما دخل الإمام علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ المسجد ووجد رجلًا يتصدر مجلس العلم سأله عن الناسخ والمنسوخ فلم يدر جوابًا، فقال عليّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: هذا ليس بعالم، هذا رجل يقول: أنا فلان بن فلان فاعرفوني.

فثمة إلى جانب معرفة القواعد الأصولية، وقواعد الفقه الكلية، وعلم الحديث رواية ودراية، وعلوم القرآن وما يتفرع عنها ويدور حولها من دراسات قرآنية وأسرار بيانية وبلاغية، هناك فقه الواقع، وفقه الأولويات، وفقه المقاصد، وفقه النوازل، وفقه المتاح، وفقه الموازنات، مما لا غنى عنه للمفتي فضلًا عن المجتهد، غير أننا ابتلينا في زماننا هذا برويبضات لا هم في العير ولا في النفير يريدون أن يتصدروا مجالس العلم عنوة، وأن يعتلوا المنابر اقتتالًا، وأن يكونوا في الصدارة زورًا وبهتانًا، يبحث بعضهم عن كل شاذ أو غريب، لا يعنيه أول ما يعنيه إلا أن يجاري السفهاء، أو يجادل العلماء، أو يماري الأمراء، أو يصرف إليه قلوب العامة والدهماء، أو يسوق نفسه لدى الباحثين عن طالبي الشهرة وحب الظهور لإحداث لون من الإثارة أو الجدل، لعله يحظى لديهم بمغنم أي مغنم، ولو كان على حساب دينه أو وطنه أو كرامته أو مروءته لا يلوي على شيء، على عكس ما نراه في أخلاقيات العلماء الفاهمين لدينهم المعتزين بعلمهم وفقههم، على نحو ما يصوره العالم الأديب الأريب القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني ؛ حيث يقول(١):

إذا قِيلَ: هذا مَشْربٌ قُلْتُ: قَدْ أَرَى ... ولَكِنَّ نَفْسَ الحُرِّ تَحْتَمِلُ الظَّمَا

ولَمْ أَقْضِ حَقَّ العِلْمِ إِنْ كَانَ كُلَّمَا ... بَدَا طَمَعٌ صَيَّرْتُهُ لِي سُلَّمَا

أَأَشْقَى بِهِ غَرْسًا وأَجْنِيهِ ذِلَّةً ... إِذَنْ فَاتِّبَاعُ الجَهْلِ قَدْ كَانَ أَحزمَا

ولَوْ أَنَّ أَهْلَ العِلْمِ صَانُوهُ صَانَهُم ... ولَوْ عَظَّمُوهُ فِيْ النُّفُوسِ لعُظِّمَا

مع التأكيد على أن ليس للإنسان إلا ما

كتب، يقول نبينا ﷺ: «مَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ، فَرَّقَ اللهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلاَّ مَا كُتِبَ لَهُ، وَمَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ نِيَّتَهُ، جَمَعَ اللهُ لَهُ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ»[١٥]، ويقول الحق سبحانه: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

مخاطر الجمود الشكلي عند ظواهر بعض السنن والمستحبات

لا شك أن الجمود عند ظواهر النصوص والمعنى الحرفي لها دون فهم مقاصدها ومراميها وغاياتها قصور رؤية وضيق أفق؛ يوقع صاحبه في كثير من العنت والمشقة والانعزال عن الواقع وربما مصادمته، في حين أننا لو أمعنا النظر في فهم المقاصد العامة للتشريع، وقرأنا السنة النبوية المشرفة بما تحمله من وجوه الحكمة واليسر قراءة مقاصدية واعية؛ لأبرزنا عظمة ديننا العظيم وجوهره السمح النقي، وغيّرنا تلك الصورة السلبية التي سببتها أو سوقتها الأفهام والتفسيرات الخاطئة للجماعات الإرهابية والمتطرفة والمتشددة، ورؤى أصحاب الأفهام السقيمة الجامدة المتحجرة على حد سواء، ورحم الله الحسن البصري حين قال: «إنّ قومًا طلبوا العبادة وتركوا العلم حتّى خرجوا بأسيافهم على أمّة محمّد ﷺ، ولو طلبوا العلم لحجزهم عن ذلك»[١٦].

فنحن في حاجة إلى خطاب ديني مستنير يرتكز على فهم المقاصد العامة للشرع الحنيف.

وقد أكد العلماء والفقهاء والأصوليون على أهمية فهم المقاصد العامة للتشريع، فهي الميزان الدقيق الذي تنضبط به الفتوى ومسيرة تجديد الخطاب الديني معًا.

ولا شك أننا في حاجة إلى قراءة مقاصدية عصرية للسنة النبوية، تتواكب مع روح العصر ومستجداته، وتقرب السنة النبوية العظيمة إلى الناس بدلًا من تلك الأفهام والتأويلات التي تنفر الناس من السنة، بل من الدين نفسه، ولا تقربهم منها ولا منه.

أخطاء وخطايا في تناول الخطاب الديني

لا شك أن أي تغيير أو تجديد في تناول قضايا الخطاب الديني عبر تاريخ البشرية – كما ذكرت سابقًا – لا يمكن أن يكون موضع إجماع أو اتفاق قبل الاختبار لمدد أو فترات زمنية، تطول وتقصر وفق قناعات المجددين وصمودهم، واجتهادهم، وقدرتهم على الإقناع برؤاهم الفكرية الجديدة، وأن التقليديين والمحافظين والمستفيدين من الأوضاع المستقرة لا يمكن أن يسلموا بالسرعة والسهولة التي يطمح إليها المجددون، وبمقدار عقلانية المجددين، وعدم شطط المحسوبين عليهم في الذهاب إلى أقصى الطرف الآخر يكون استعداد المجتمع لتقبل أفكارهم، بقطعهم الطريق على أصحاب الفكر الجامد والمتحجر من طعنهم في مقتل، غير أن الوسطية التي نبحث عنها جميعًا ويدَّعيها كل فريق لنفسه صارت حائرة غاية الحيرة بين طرفي النقيض، ويأتي تناولنا لهذا الموضوع من ثلاثة جوانب عامة هي: مفهوم المقدس، وخطورة الخروج عن الموضوعي إلى الشخصي، وحرية المعتقد وحدود حرية الرأي.

أما الجانب الأول: فهو مفهوم المقدس والنظرة إليه ما بين مقدس للقديم على إطلاقه لمجرد قدمه، بحيث يكاد ينزل أقوال بعض الفقهاء منزلة النص المقدس، حتى تلك الأقوال التي ناسبت زمانها ومكانها وعصرها، وأصبح واقعنا يتطلب اجتهادًا جديدًا يناسب عصرنا ومعطياته ومتطلباته، حتى رأينا من يكاد يقدس أقوال بعض المفسرين والمؤرخين وما ورد بكتب الأنساب، وكتب السير والملاحم، على عَلَّات بعضها.

وفي أقصى الطرف الآخر نجد من يتطاول تطاولًا سافرًا على أمور هي من الثوابت أو في منزلتها على الأقل، متخذًا من شعار التجديد الذي يصل عند البعض إلى درجة الهدم مجالًا للاعتداء على الثوابت، قد يكون عن ضيق أفق أحيانًا أو عن نفعية وسوء قصد لا نثبته ولا ننفيه؛ لأن القلوب بيد الله تعالى، والنيات عنده

سبحانه مرجعها ومقصدها.

ومع تأكيدنا الشديد أننا في حاجة إلى التجديد وإعمال العقل، وأننا ضد الجمود الفكري، والتحجر عند القديم، والتمترس عنده وغلق باب الاجتهاد، وضيق الأفق أو انغلاقه أو انسداده، وضد تكفير المثقفين أو اتهامهم في وطنيتهم إلا بحكم قضائي نهائي وباتّ، فإنني أذكر أن جميع أصحاب المعتقدات لا يقبلون النيل من ثوابتهم، ولا الاعتداء عليها حتى ولو كانت بيّنة البطلان بالعقل والنقل عند غيرهم.

أما الجانب الثاني: ويعد من أكبر أخطاء وخطايا تناول الخطاب الديني، فهو الخروج من الموضوعي إلى الشخصي، والإسفاف إلى درجة ما يشبه السباب والسباب المتبادل إن لم يكن سبًّا وقذفًا صراحًا، سواء أكان فيما بين المتحاورين أم المتناظرين، بالتطاول على العلماء والمفكرين، فعندما يتحدث أي مفكر في قضية موضوعية مراعيًا أدب الحديث وأدب الحوار وأسس النقد العلمي الموضوعي وأصوله، فهذا تعبير عن الرأي يقابل ويناقش بالحجة والرأي والعقل والمنطق، أما عندما يخرج هذا المفكر أو الباحث أو الناقد عن التناول الموضوعي إلى التطاول على الأشخاص، سواء أكانوا من المعاصرين أم من أصحاب الرأي والفكر والأثر في تراثنا الديني أو العلمي أو الثقافي؛ فإن ذلك يُعد أمرًا غير مقبول، وقد لا يمكن الصبر أو السكوت عليه، وقد يكون مسار استفزاز لمن هم على قناعة واعتداد بفكر هؤلاء الرجال، وقد ينبري لهم بعض من يرون أن الدفاع عن هؤلاء العظماء واجب شرعي أو عقلي أو إنساني، وتحدث معركة كلامية أو جدلية جديدة أو قديمة متجددة، ربما تشغل الساحة عن رؤى أهم، وقضايا أولى بالتناول في تلك المرحلة من تاريخنا الوطني.

أما الجانب الثالث: فهو ما يتصل بالفهم الصحيح والفهم الخاطئ لحرية الرأي، فإننا نفرق بين حرية المعتقد وحرية الرأي، كما نفرق بين الحرية المنضبطة بضوابط الشرع أو العقل

أو القانون وبين الفوضى التي لا حدود لها، فمع أن ديننا الحنيف لم يحمل الناس حملًا أو إكراهًا على الدخول فيه؛ حيث يقول الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود: ١١٨]، ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ القصص: ٥٦]، ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ﴾ [الشورى: ٤٨]، ويقول سبحانه: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ۝ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٣-٤]، فقد أصّل الإسلام لحرية المعتقد تأصيلًا واضحًا يؤكد سماحته وسعة أفقه، لكن هذا شيء ومفهوم حرية الرأي الذي لا ينبغي أن يصبح انفلاتًا أو فوضى - تطاولًا على الثوابت أو المقدسات أو الأشخاص باسم حرية الرأي - شيء آخر، على أننا في حاجة ملحة إلى العمل لا الجدل، وأن نجتمع على المتفق عليه، ويعذر بعضنا بعضًا فيما يقبل الرأي والرأي الآخر من المختلف فيه، وألا ننجرّ إلى لغة السب والقذف، أو السباب المتبادل وما يشبهه؛ حفاظًا على الذوق المجتمعي العام الذي لا يقبل عقلاؤه الإسفاف، الذي يُعد غريبًا على ذوقنا، وقيمنا، وحضارتنا العربية والإسلامية الأصيلة الراقية.

جوهر رسالة الإسلام وضرورة فهم مقاصده

الإسلام عدل كله، رحمة كله، سماحة كله، تيسير كله، إنسانية كله، وأهل العلم قديمًا وحديثًا على أن كل ما يحقق هذه الغايات الكبرى هو من صميم الإسلام، وما يصطدم بها أو يتصادم معها إنما يتصادم مع الإسلام وغاياته ومقاصده، فالإسلام دين مكارم الأخلاق، ورسالته أتت لإتمام هذه المكارم؛ حيث يقول نبينا ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ»(١٧)، فحيث يكون الصدقُ، والوفاءُ، والأمانةُ، والبرُّ، وصلةُ الرحم، والجودُ،



والكرمُ، والنجدةُ، والشهامةُ، والمروءةُ، وكفُّ الأذى عن الناس، وإماطةُ الأذى عن الطريق، وإغاثةُ الملهوف، ونجدةُ المستغيث، وتفريجُ كروب المكروبين، يكون صحيح الإسلام ومقصده، وحيث تجد الكذبَ والغدرَ، والخيانةَ، وخلف الوعد، وقطيعةَ الأرحام، والفجورَ في الخصومة، والأثرةَ، والأنانيةَ، وضيقَ الصدر، فانفض يدك ممن يتصف بهذه الصفات ومن تديُّنهم الشكلي، واعلم أنهم عبءٌ ثقيلٌ على الدين الذي يحسبون أنفسهم عليه؛ لأنهم بهذه الأخلاق وتلك الصفات منفِّرون غيرُ مبشرين، صادُّون عن دين الحق لا دعاة إليه، وإن زعموا عكس ذلك وأقسموا واجتهدوا، فلا خير فيهم، ولا وزن لقسمهم، وإن أعجبك قولهم وأدهشتك بلاغتهم فتذكر قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ٢٠٤ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ٢٠٥ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ [البقرة: ٢٠٤-٢٠٦]، وقوله سبحانه: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ١ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ٣ * وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ [المنافقون: ١ - ٤].

إن الإسلام دين العمل والإنتاج والإتقان ونفع البشرية، فحيث يكون العمل والإنتاج والإتقان ونفع البشرية يكون التطبيق العملي لمنهج الإسلام، وحيث تكون البطالة والكسل والتخلف عن ركب الحضارة فكبِّرْ على من يتصف بذلك أربعًا، وإن تسمَّى بأسماء المسلمين وحسب نفسه عليهم، فهو عبء على دين الله عَزَّوَجَلَّ وعالة على خلقه.

وأهل العلم والفقه في القديم والحديث على أن المقاصد العليا للشريعة تدور في جملتها حول تحقيق مصالح العباد، فحيث تكون المصلحة

فثمة شرع الله عَزَّوَجَلَّ، يقول الإمام أبو حامد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: نَعْني بالمصلحة المحافظة على مقصود الشرع، ومقصود الشرع من الخلق خمسة، وهو أن يحفظ عليهم دينهم ونفسهم وعقلهم ونسلهم ومالهم، فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة، وكل ما يفوت هذه الأصول الخمسة فهو مفسدة، ودفعه مصلحة[١٨].

ويقول الشاطبي[١٩] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الشريعة كلها ترجع إلى حفظ مصالح العباد ودرء مفاسدهم، وعلى ذلك دلت أدلتها عمومًا وخصوصًا، دل على ذلك الاستقراء، فكل فرد جاء مخالفًا فليس بمعتبر شرعًا[٢٠].

ويقول ابن القيم[٢١] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل، فالشريعة عدل الله تعالى بين عباده، ورحمته بين خلقه، وظله في أرضه، وحكمته الدالة عليه وعلى صدق رسوله ﷺ[٢٢].

ويقول العز بن عبد السلام[٢٣] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: التكاليف كلها راجعة إلى مصالح العباد في دنياهم وأخراهم، والله عَزَّوَجَلَّ غني عن عبادة الكل، ولا تنفعه طاعة الطائعين، ولا تضره معصية العاصين، بل لو كانوا كلهم على أفجر قلب رجل واحد منهم لم ينقص ذلك من ملكه شيئًا، ولو كانوا كلهم على أتقى قلب رجل واحد منهم لم يزد ذلك في ملكه شيئًا، ولم يبلغوا ضره فيضروه ولا نفعه فينفعوه، وكلٌّ ضالٌّ إلا من هداه الله، وجائعٌ إلا من أطعمه الله، وعارٍ إلا من كساه[٢٤].

وعلى الجملة: فإن فهم جوهر الإسلام، ومعرفة أسرار رسالته السمحة، والوقوف على مقاصده وغاياته السامية، وتطبيق ذلك كله في ضوء مستجدات العصر ومتطلباته، يعد ضرورة ملحة لمواجهة التحديات، وكبح جماح الجماعات الإرهابية والمتطرفة، ومحاصرة الفكر



المتطرف، وكسر دوائر التحجر والجمود والانغلاق وسوء الفهم وضيق الأفق، والخروج من هذا الضيق إلى عالم أرحب وأوسع وأيسر، وأكثر نضجًا ووعيًا، وبصرًا وبصيرة، وتحقيقًا لمصالح البلاد والعباد، ونشر القيم الإنسانية الراقية التي تحقق أمن وأمان وسلام واستقرار وسعادة الإنسانية جمعاء، فخير الناس أنفعهم للناس، وما استحق أن يولد من عاش لنفسه فقط.

البصيرة في الدعوة والفتوى

يقول الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في كتابه العزيز مخاطبًا نبينا ﷺ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]، والبصيرة تعني العلم والدراية والرؤية والبينة، وقد حذر نبينا ﷺ من التجرؤ على الفتوى، أو على القول في دين الله عَزَّوَجَلَّ بغير علم ولا بينة ولا بصيرة، فقال لمن أفتوا الرجل بدون علم فاغتسل على جرحه فمات: «قَتَلُوهُ قَتَلَهُمُ الله، أَلَا سَأَلُوا إِذَا لَمْ يَعْلَمُوا؛ فَإِنَّمَا شِفَاءُ العِيِّ السُّؤَالُ، إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيهِ أَنْ يَتَيَمَّمَ وَيَعْصِرَ، أَوْ يَعْصِبَ عَلَى جَرْحِهِ ثُمَّ يَمْسَحَ عَلَيْهِ وَيَغْسِلَ سَائِرَ جَسَدِهِ»[١٠].

ويقول نبينا ﷺ: «إِنَّ الله لَا يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبَادِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا»[١١]، وكان أصحاب النبي ﷺ يُسألون فيحيل الواحد منهم إلى الذي يليه، حتى يرجع السؤال للأول مرة ثانية، إذ كانوا يستشعرون عظم أمر الفتوى.

فشأن الإفتاء عظيم، وأمره جلل؛ إذ ينبغي للمفتي أن يكون عالمًا بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ وسنة نبيه ﷺ، وأن يكون عارفًا بمسائل الإجماع، عالمًا بلسان العرب، عالمًا بعلم أصول الفقه، عارفًا بالناسخ والمنسوخ، وفقه الأولويات، وفقه الواقع وأحوال الناس وأعرافهم.

غير أن هناك أناسًا لا علم لهم ولا فقه، ولا هُمْ من المجتهدين ولا حتى من أهل الاختصاص، أو دارسي العلوم الشرعية من مظانها المعتبرة يسرعون في رمي المجتمع

بالتبديع، ثم التجهيل، فالتكفير، حتى وصل الأمر بغلاتهم إلى التفجير واستباحة الدماء؛ مما يتطلب حركة سريعة وقوية وغير هيّابة لمواجهة الجمود والفكر المتطرف معًا، حتى نُخلِّص المجتمع والإنسانية من خطر التطرف الفكري وما يتبعه من تبني الإرهاب منهجًا وسلوكًا.

أما في مجال الدعوة فإن البصيرة تقتضي الحكمة والموعظة الحسنة، حيث يقول الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

وهو ما علمنا إياه نبينا ﷺ في دعوته التطبيقية، فعن معاوية بن الحكم السلمي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: بيْنَا أنَا أُصلِّي مع رَسولِ الله ﷺ إِذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ، فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللهُ فَرَمَانِي الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ، فَقُلْتُ: وَاثُكْلَ أُمِّيَاهْ، مَا شَأْنُكُمْ؟ تَنْظُرُونَ إِلَيَّ، فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى أَفْخَاذِهِمْ، فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ يُصَمِّتُونَنِي لَكِنِّي سَكَتُّ، فَلَمَّا صَلَّى رَسُولُ الله ﷺ، فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي، مَا رَأَيْتُ مُعَلِّمًا قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْهُ، فَوَاللهِ مَا كَهَرَنِي وَلَا ضَرَبَنِي وَلَا شَتَمَنِي، قَالَ: «إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلَامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّكْبِيرُ وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ»[٢٧].

فما أحوجنا إلى التأدب بأدب الإسلام في الفتوى بعدم الجرأة عليها بدون علم، ولا تأهل، ولا اختصاص، وفي الدعوة بأن تكون دائمًا بالحكمة والموعظة الحسنة، فدور العلماء هو البلاغ لا الهداية والحساب، فأمر الهداية والحساب إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وحده.

والفتوى أمانة ثقيلة تحتاج إلى تأهيل خاص وإعداد علمي شرعي ولغوي مبكر، يسهم في صنع وصقل موهبة الفقيه والمفتي، وليس مجرد هواية أو ثقافة عامة، وليست الفتوى كلأ مباحًا لغير المؤهلين، وإذا كان نبينا ﷺ يقول: «إِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ»[٢٨]، فأي خطر أشد من إقحام غير المؤهلين وغير المتخصصين لأنفسهم في مجال الإفتاء أو

السماح لهم بذلك؟!

وإذا كانت الحكمة تقتضي وضع كل شيء في موضعه، ووصفه بما يناسبه لا بوصف غيره، فإن إطلاق كلمة الفقيه أو المفتي على من هو غير جدير بها يُشَكِّل خطرًا جسيمًا على الأمن الفكري للدول والمجتمعات، فكلٌّ من الفقه والفتوى صناعة ثقيلة تتطلب أدواتٍ كثيرة، في مقدمتها: دراسة العلوم المتعلقة بالقرآن الكريم، وبخاصة التفسير وعلوم القرآن؛ إذ لا يمكن أن تُطلق على إنسان صفة فقيه أو مفتٍ وهو لا يعرف الناسخ من المنسوخ، ولا المطلق من المقيد، ولا المجمل من المفصَّل، ولا المحكم من المتشابه، ولا العلاقة بين اللفظ والسبب.

كما ينبغي أن يكون الفقيه عالمًا بسنة سيدنا رسول الله ﷺ ودرجة الحكم على الحديث، وماذا ينبغي أن يصنع من الترجيح أو التوفيق عند تعارض ظاهر بعض الألفاظ، فكيف إذا كان لا يميز بين الثابت والمتغير، وبين سنن العبادات وأعمال العادات؟!

ولا بد للفقيه من إتقان علوم اللغة العربية، فلا فهمَ صحيحًا للكتاب والسنة إلا بالبراعة فيها، ولا غنى له أيضًا عن علم أصول الفقه، ومعرفة الأدلة المتفق عليها، والأدلة المختلف فيها، وآراء الأصوليين والفقهاء في كل دليل من الأدلة المختلف فيها، وطرق الاستنباط منها.

كما أنه لا يمكن للفقيه أن يصقل مواهبه دون دراسة دقيقة لآراء الفقهاء المتقدمين من الصحابة، والتابعين، وتابعي التابعين، وأصحاب المذاهب الأربعة: الإمام أبي حنيفة، والإمام مالك، والإمام الشافعي، والإمام أحمد، وكبار فقهاء المذاهب.

الجاهلية والصحوة

إن من أهم المفاهيم التي يجب أن تصحح مفهوم الجاهلية ومفهوم الصحوة؛ حيث اتخذت الجماعات المتطرفة من المغالطات وتزييف الوعي وتحميل بعض الألفاظ والمصطلحات دلالات أيديولوجية خاصة بها، وألحت على ذلك إلحاحًا مقيتًا، وعملت بكل ما تملك من إمكانات على تسويق هذه المفاهيم المغلوطة

للألفاظ والمصطلحات، حتى اكتسب بعضها مع الوقت عند العامة تلك المعاني التي أرادت الجماعات المتطرفة تحميلها إياها.

أما مصطلح الجاهلية فقد حاولت الجماعات المتطرفة إطلاقه على بعض مجتمعاتنا المؤمنة المعاصرة ظلمًا وزورًا، سواء من جهة الشكل أم من جهة المضمون:

أما من حيث الشكل أو من حيث اللغة؛ فالجاهلية التي أُطْلقت على الفترة التي سبقت ظهور الإسلام، فهي ليست من الجهل ضد العلم، ولم يقل أحد: إنها من الجهل نقيض الإيمان؛ إنما هي من الجهل نقيض الحلم لا العلم.

ولما قال نبينا ﷺ لسيدنا أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ، إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ، جَعَلَهُمُ الله تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَن كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدَيْهِ، فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ ما يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ عليه»[٢٩]، كان ذلك عندما عيَّر سيدنا أبو ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سيدنا بلالًا بقوله: يا بن السوداء، وكان مقصد سيدنا رسول الله ﷺ بقوله: «إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ»؛ أي: إنك امْرُؤٌ فيك بقايا عصبية جاهلية، وشيء من تسرعها في الاعتداء على الآخرين والنيل من الآخر دون حق.

وأما من حيث المضمون، فمن يقول - مثلًا - عن مصر الأزهر، مصر المساجد والمآذن، مصر القرآن، مصر العلم والعلماء، مصر التي يدرس بأزهرها الشريف نحو مليوني طالب وطالبة، ويستضيف عشرات الآلاف من الطلاب الوافدين من مختلف دول العالم لدراسة صحيح الدين، بلد يطوف علماؤه وأئمته مختلف دول العالم لنشر صحيح الدين، بلد يحتضن القرآن الكريم وأهله ويكرم حفظته: إنه مجتمع جاهلي، فلا يمكن أن يقول ذلك إلا حاقد أو حاسد أو جاحد، أو مأجور أو مستغل، وعلى حد قول الإمام البوصيري[٣٠]:

قد تنكرُ العينُ ضوءَ الشمسِ من رمدٍ
وينْكِرُ الفَمُ طَعْمَ الماءِ منْ سَقَمِ

أما عن مصطلح الصحوة لدى الجماعات



المتطرفة والمتشددة فيحصرونه في أمرين، الأول: الشكل والمظهر مهما كان المضمون والجوهر، والآخر: عدد أعضاء هذه التنظيمات.

ونحن نرى أن الصحوة الحقيقية هي أن نملك أمرنا وكلمتنا، وننتج غذاءنا ودواءنا وكساءنا وسلاحنا، ونرفع مستوى بلدنا ومواطنينا علميًّا وثقافيًّا ومهنيًّا واقتصاديًّا ومعيشيًّا، وأن نملك جيشًا قويًّا وشرطة قويّة واقتصادًا قويًّا، فجيش قوي واقتصاد قوي يعني بلدًا ذا مكانة ومواطنًا ذا كرامة.

مؤكدين أنه لن يحترم الناس ديننا ما لم نتفوق في أمور دنيانا، فإن تفوقنا في أمور دنيانا احترم الناس ديننا ودنيانا.

حماية المجتمع من التطرف

لا شك أن التطرف يشكل خطرًا على الهوية الدينية، وعلى الهوية الوطنية، فمن ناحية الهوية الدينية؛ فإن الجماعات الضالة المتطرفة قد حاولت اختطاف الخطاب الديني، وتوظيفه أيديولوجيًّا لخدمة مطامعها ومطامع من يمولها، ويستخدمها لهدم دول المنطقة وتفتيت كيانها وتمزيق بنيانها، ذلك أن أي أحد يسمع أن دينًا أو جماعةً تستبيح الذبح والحرق والتنكيل بالبشر؛ لا يسعه إلا أن يكفر بهذه الجماعة وبما تدعيه من دين افتراء على الله تعالى ورسله الكرام وسائر كتبه المنزلة، وأما من جهة الوطن فهذه الجماعات المارقة لا تؤمن بوطن ولا بدولة وطنية، بل إنها صُنِعَت لهدم الأوطان، فالأرض في منظورهم لا تعد عِرْضًا، ولا تمثل شاغلًا ولا همًّا، في حين أن الإسلام أوجب الدفاع عن الأوطان، وافتداءها بكل ما يملك بنوها من نفس ومال.

ومما لا شك فيه أننا في حاجة ماسة إلى تفكيك الفكر المتطرف والجماعات المتطرفة معًا، غير أن تفكيك الفكر يأتي في المقدمة؛ ذلك أنك قد تفكك جماعة إرهابية أو متطرفة فتخرج عليك جماعة أخرى أعتى وأشد، فإذا نجحنا في تفكيك الفكر المتطرف وكشف زيفه وزيغه وفساده وإفساده وأباطيله؛ فإننا نكون قد أتينا على المشكلة من جذورها.

فيجب أن تقوم استراتيجية المواجهة على

محورين أساسيين:

المحور الأول: تفكيك الفكر المتطرف، ودحض أباطيل المتطرفين، وتفنيد حججهم، والعمل على نشر قيم التسامح، وترسيخ أسس المواطنة المتكافئة، وترسيخ مشروعية الدولة الوطنية، وحتمية الاصطفاف الوطني للقضاء على الإرهاب والفكر المتطرف.

أما المحور الثاني من استراتيجية المواجهة فيقوم على ثلاث ركائز: الأولى: حسن تدريب وتأهيل العاملين في الحقل الدعوي من خلال البرامج التدريبية والتأهيلية التي تمكنهم من أداء رسالتهم بكفاءة ومهارة عالية.

أما الركيزة الثانية: فتقوم على تفعيل استراتيجية التواصل المباشر والحوار والإقناع والاقتناع، من خلال تكثيف الندوات والدروس واللقاءات الحوارية المفتوحة مع طلاب الجامعات، وطلاب المدارس، والنوادي الرياضية والاجتماعية، والمصانع، وقصور الثقافة، مع العمل الجاد والدءوب المستمر لتصحيح المفاهيم المغلوطة والرد على شبهات المتطرفين في النجوع والقرى.

وأما الركيزة الثالثة: فتقوم وتبنى على مشروع فكري ضخم يعمد إلى إعادة نظرة شاملة وعامة وغير انتقائية لكل جوانب تراثنا العلمي والفكري، بما يتناسب مع طبيعة العصر ويراعي مستجداته في ضوء الحفاظ على الثوابت التي لا تقبل ولا نقبل المساس بها، وفي إطار المقاصد العامة للتشريع.

وفي سبيل ذلك لا بد أن نكشف ونعري هذه الجماعات المتطرفة، ونبيّن عمالتها وخيانتها لدينها وأمتها، وأن نبرز شهادات من استطاعوا الإفلات من جحيم هذه الجماعات الإرهابية الضالة، وأن ما يعدون به الشباب كذبًا وزورًا من الحياة الرغدة هو محض كذب لا وجود له على أرض الواقع، فمن يلتحق بهم مصيرهم التفخيخ والتفجير، وإن فكّر مجرد تفكير في الهروب من جحيم هذه الجماعات كان جزاؤه الذبح أو الحرق أو الموت سحلًا.

كما يجب تفنيد أباطيلهم في استحلال الدماء والأموال والأعراض والحكم على



الناس بالكفر حتى يسوغوا لأنفسهم قتلهم واستباحة نسائهم وأموالهم، وهو ما حذر منه الحق تعالى؛ حيث يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء الآية ٩٤].

وكذلك دعوتهم الضالة إلى القتل وسفك الدماء تحت مسمى الجهاد زورًا وبهتانًا وافتراء على الله ورسوله، مع أن ما يقومون به هو بغي وعدوان لا علاقة له بالجهاد، وليس من الجهاد مما يدعون إليه في شيء.

إن الجهاد في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ أوسع من أن يكون قتالًا، فهناك جهاد النفس بحملها على الطاعة وكفها عن المعصية، والتزامها بمكارم الأخلاق من الصدق والأمانة والوفاء بالعهد وسائر الأخلاق الكريمة.

أما الجهاد الذي هو بمعنى القتال فإنما شُرع للدفاع عن الوطن، وعن الدول أن تُستباح، وليس لآحاد الناس أو لحزب أو لجماعة أو لفصيل أو لقبيلة إعلان هذا الجهاد، إنما هو حق لولي الأمر وفق من أناط به دستور كل دولة وأعطاه الحق في إعلان حالة الحرب والسلم، سواء أعطاه الدستور لرئيس الدولة، أم لمجلس أمنها القومي، أم للرئيس بعد أخذ رأي برلمانها، المهم أن قضية إعلان حالة الحرب ليست ملكًا للأفراد أو الجماعات، وإلا أصبح الأمر فوضى لا دولة، وعدنا إلى حياة الجاهلية، حيث يقول الشاعر[٣١]:

لا يَصلُحُ الناسُ فَوضى لا سَراةَ لَهُم
وَلا سَراةَ إِذا جُهّالُهُم سادوا

فما أحوجنا إلى الفكر المستنير، والفهم الصحيح للدين، وتصحيح المفاهيم الخاطئة، واسترداد الخطاب الديني ممن حاولوا اختطافه، وإلى أن نواجه الجهل بالعلم، والظلمات بالنور، والباطل بالحق، والفساد والتخريب بمزيد من البناء والتعمير، وأن نعمل على ترسيخ الولاء للأوطان من جهة، وترسيخ أسس المواطنة وفقه العيش المشترك على أسس إنسانية خالصة

من جهة أخرى، وأن ندرك أن العالم كله في سفينة واحدة، ولن يهلك منه أحد دون الآخر، وأن أي خرق في السفينة يمكن أن يهلك أهلها جميعًا، يقول نبينا ﷺ: «مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا؛ كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا، وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا»[٣٢].

العبادات والعادات

إن من الخطأ الفادح الخلطَ بين سنن العبادات وأعمال العادات، وإلباسَ أعمال العادات ثوب سنن العبادات؛ بل الأدهى والأمرُّ من ذلك هو الانغلاق والتحجر والإصرار غير المبرر على ذلك، مع أن الأصل في السنة أن من فعلها فله أجرها وثوابها ومن لم يفعلها فاته هذا الأجر والثواب، فقد سُئِلَ النبي ﷺ عن الإسلام فقَالَ ﷺ: «خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ»، قَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهُنَّ؟ قَالَ: «لا، إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ»، فَقَالَ رسولُ الله ﷺ: «وَصِيامُ شَهْرِ رَمَضَانَ»، قَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهُ؟ قَالَ: «لا، إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ»، قَالَ: وَذَكَرَ لَهُ رسول الله ﷺ الزَّكَاةَ، فَقَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا؟ قَالَ: «لا، إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ»، فَأَدْبَرَ الرَّجُلُ وَهُوَ يَقُولُ: وَاللهِ لا أَزِيدُ عَلَى هَذَا وَلاَ أَنْقُصُ، فَقَالَ رسول الله ﷺ: «أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ»[٣٣]، وقال ﷺ: «اضْمَنُوا لِي سِتًّا مِنْ أَنْفُسِكُمْ، أَضْمَنْ لَكُمُ الْجَنَّةَ؛ اصْدُقُوا إِذَا حَدَّثْتُمْ، وَأَوْفُوا إِذَا وَعَدْتُمْ، وَأَدُّوا إِذَا اؤْتُمِنْتُمْ، وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ، وَغُضُّوا أَبْصَارَكُمْ، وَكُفُّوا أَيْدِيَكُمْ»[٣٤]، ولما سئل ﷺ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ قَالَ: «تَقْوَى اللهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ»[٣٥].

وأكثر إجاباته ﷺ على أسئلة من كانوا يسألون عن دخول الجنة كانت تدور حول أداء الفرائض، واجتناب الكبائر، والحرص على مكارم الأخلاق، وكل ما ينفع الناس، فعندما سأله ﷺ أحد الناس أن يدله على عمل يدخله الجنة أجابه ﷺ بقوله: «أَمِطِ الأَذَى عَنْ طَرِيقِ

النَّاسِ»[٣٦]، ويقول ﷺ: «وتُميطُ الأذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ»[٣٧]؛ ذلك أن الإسلام جاء لتحقيق مصالح البلاد والعباد ونشر كل ما يحقق الأمن والسلام الاجتماعي وسعادة البشرية في آن واحد.

ومع تأكيدنا على الحرص على الالتزام بالسنة النبوية رغبة في عظيم الأجر والثواب، فإننا يجب أن نفرق بوضوح بين ما هو من سنن العبادات وما يندرج في أعمال العادات، فحثه ﷺ على صيام يوم عرفة أو يوم عاشوراء أمر تعبدي يدخل في سنن العبادات، وكذلك بدؤه ﷺ الوضوء بغسل يديه ثم تمضمضه واستنشاقه فهو أيضًا سنة من سنن العبادات؛ لأن ذلك كله من شئون العبادات، أما ما يتصل باللباس ووسائل السفر ونحوه، فهو من باب العادات وما كان متاحًا على عهده ﷺ.

فكما لا يمكن لعاقل أن يقول: لن أركب السيارة أو الطائرة اليوم وسأسافر بالجمل كما كان النبي ﷺ يفعل، فإنه ليس من المعقول أيضًا القول بأن هذا اللباس أو ذاك غير موافق للسنة النبوية المشرفة، ما دام هذا الثوب يستر العورة.

ومرجع العادات إلى العرف، وما يراه الناس ملائمًا لعصرهم وبيئاتهم وطبيعة عملهم، ما لم يخالف ثابت الشرع الحنيف.

وبما أن عورة الرجل هي ما بين سرَّتِهِ وركبته، فكل ما يستر هذه العورة غير شفاف ولا مجسد لها فلا حرج فيه ولا إنكار على أصحابه، سواء ارتدى الشخص بدلة أم جلبابًا، والأمر يحكمه العرف والعادة، فالعادة محكمة كما نص الفقهاء.

ولا حرج أن يكون لعلماء الدين لباسهم الذي يميزهم عن سواهم، وكذلك الحال في الأطباء، والمحامين، ورجال الجيش والشرطة، أو القضاء، لكن أن نجعل من هذا اللباس أو ذاك دينًا وما سواه ليس دينًا فهو ما لم يقل به أحدٌ من أهل العلم.

ويجب أن نفهم ما ورد من آراء بعض العلماء في ضوء عادات قومهم وزمانهم ومكانهم، فإذا كان الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ قد

عدَّ غطاء رأس الرجل من لوازم مروءته[38] فإنه إنما راعى ظروف بيئته وعصره، وقد رأينا في عقود ماضية وعاينا في بعض البيئات المعاصرة من يعُدُّ عدم غطاء الرأس مخلًّا بالمروءة؛ لأن عادة القوم جرت به، أما أن نجعل ذلك دينًا وعلامة من علامات الصلاح والتقوى، ومن يخالف ذلك يُتَّهم في دينه، أو أن نحاول حمل الناس على ذلك باعتباره دينًا أو سنة أو كلام فقيه واجب الاتباع؛ فهذا عين الجهل والتحجر والجمود.

ومما يؤكد أن الأمر يتصل بالعادة والبيئة والعصر ما ذكره الإمام الشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ في موافقاته؛ حيث قال: كشف رأس الرجل يختلف بحسب البقاع في الواقع، فهو لذوي المروءات قبيح في البلاد المشرقية وغير قبيح في البلاد المغربية، فالحكم الشرعي يختلف باختلاف ذلك؛ فيكون عند أهل المشرق قادحًا في العدالة، وعند أهل المغرب غير قادح[39].

ولا شك أن الإمام الشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ قد راعى ظروف عصره لا ظروف عصرنا، وقد أكد هو على ذلك؛ حيث قال: إن الأصل في العادات الالتفات إلى المعاني، وبالاستقراء وجدنا الشارع قاصدًا لمصالح العباد والأحكام العادية تدور عليه حيثما دار، فترى الشيء الواحد يُمنَع في حال لا تكون فيه مصلحة، فإذا كان فيه مصلحة جاز[40].

ويقرر الإمام القرافي رَحِمَهُ اللَّهُ: أن إجراءَ الأحكام التي مُدْرَكُها العوائدُ مع تغيُّرِ تلك العوائد فهو خلافُ الإجماع وجهالةٌ في الدّين... بل لو خرجنا نحن من ذلك البلد إلى بلَدٍ آخر، عوائدُهم على خلافِ عادةِ البلد الذي كنا فيه؛ أفتيناهم بعادةِ بلدهم، ولم نعتبر عادةَ البلد الذي كنا فيه، وكذلك إذا قَدِمَ علينا أحدٌ من بلدٍ عادَتُه مُضَادَّةٌ للبلد الذي نحن فيه؛ لم نُفتِه إلَّا بعادةِ بلدِه دون عادةِ بلدنا[41].

ويقـول ابن القيـم رَحِمَهُ اللَّهُ: ومن أفتى النّاس بمجـرّد المنقول في الكتب على اختلاف عرفهم وعوائدهم وأزمنتهم وأمكنتهم وأحوالهم وقرائن أحوالهم؛ فقد ضلّ وأضلّ[42].

ويقول ابن عابدين رَحِمَهُ اللَّهُ: إن المسائل



الفقهية إما أن تكون ثابتة بصريح النص، وإما أن تكون ثابتة بضربٍ من الاجتهاد والرأي، وكثير منها يبنيه المجتهد على ما كان في عرف زمانه؛ بحيث لو كان في زمان العرف الحادث لقال بخلاف ما قاله أولًا؛ ولهذا قالوا في شروط الاجتهاد: إنه لا بد من معرفة عادات الناس، فكثير من الأحكام تختلف باختلاف الزمان لتغير عرف أهله[٤٣].

الضيق والسعة بين العلماء والجهلاء

لعل أهم فارق بين العلماء والجهلاء هو مدى فهم هؤلاء وأولئك لقضايا الحل والحرمة، والضيق والسعة، فالعالم يدرك أن الأصل في الأشياء الحل والإباحة، وأن التحريم والمنع هو استثناء من الأصل، يقول الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥]، ويقول نبينا ﷺ: « إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ فَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا، وَحَرَّمَ حُرُمَاتٍ فَلَا تَنْتَهِكُوهَا، وَحَدَّ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ غَيْرِ نِسْيَانٍ فَلَا تَبْحَثُوا عَنْهَا»[٤٤]، ويقول ﷺ: «مَا أَحَلَّ اللهُ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ حَلَالٌ، وَمَا حَرَّمَ فَهُوَ حَرَامٌ، وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ عَفْوٌ، فَاقْبَلُوا مِنَ اللهِ عَافِيَتَهُ»، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤][٤٥].

فالجهلاء يجعلون الأصل في كل شيء التحريم والمنع، ويطلقون مصطلحات التحريم، والتفسيق، والتبديع، والتكفير؛ دون وعي، غير مدركين ما يترتب على ذلك من آثار، وغير مفرقين بين التحريم والكراهية، ولا حتى ما هو خلاف الأولى، فصعَّبوا على الناس حياتهم، ونفَّروهم من دين الله عَزَّوَجَلَّ وهو ما حذر منه نبينا ﷺ؛ حيث يقول ﷺ: «بَشِّرُوا وَلَا تُنَفِّرُوا»[٤٦]، ويقول: «إِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ، وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ»[٤٧]، وقوله ﷺ لسيدنا معاذ ابن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندما شكا بعض الناس إليه ﷺ أنه يطيل بهم الصلاة: «يا مُعاذُ، أفتَّانٌ أنت؟ »[٤٨].

أما الفريق الآخر وهم العلماء فقد أدركوا

بما لا يدع أي مجال للشك أو الارتياب أو حتى الجدل أن الأديان إنما جاءت لسعادة الناس لا لشقائهم، حيث يقول الحق سبحانه: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾ [طه: ١- ٢]، ويقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾ [الحج: ٧٨]، ويقول سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وفَقِهُوا أن الفقه رخصة من ثقة، وأن الفقه هو التيسير بدليل، وأن النبي ﷺ ما خُيِّر بين أمرين إلَّا أخذ أيسرَهما ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد النَّاس منه"، فأخذوا الناس إلى طريق الشريعة السمحاء النقية التي لا تنال منها المطامع ولا الأهواء ولا التوظيف الأيديولوجي، مع تأكيدنا أن هذا التيسير الذي نريده شيء وأن التسيب والانفلات شيء آخر، فالتيسير الذي نريده هو التيسير المنضبط بضوابط الشرع، لا ذلكم التسيب المبني على الهوى.

فَتَحْت مسمى الالتزام والأحوط والاحتياط فتحت أبواب التشدد التي ساقت وجرفت الكثيرين في طريق التطرف، حتى ظن الجاهلون أن التحوط في التدين يقتضي الأخذ بالأشد، وأن من يتشدد أكثر هو الأكثر تدينًا وخوفًا من الله عَزَّوَجَلَّ، وتحت مسمى التيسير فُتِحَت بعض أبواب الخروج عن الجادة، وديننا يريدها وسطية سوية، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، فلا إفراط ولا تفريط.

تصرفات النبي ﷺ في إدارة الدولة

النبي ﷺ لم يكن نبيًّا فحسب، إنما كان ﷺ نبيًّا ورسولًا وحاكمًا وقائدًا عسكريًّا، فما تصرف فيه باعتباره نبيًّا ورسولًا فيما يتصل بشئون العقائد والعبادات والقيم والأخلاق وصح نسبته إليه ﷺ؛ أُخذ على النحو الذي بينه ﷺ لأصحابه، ولا يختلف أمر البيان فيه باختلاف الزمان أو المكان كونه من الأمور الثابتة، سواء اتصل بأمر الفرائض كصوم رمضان، والصلاة، والزكاة، والحج، أم اتصل بأمر السنن الثابتة عنه ﷺ كصوم عرفة أو صوم عاشوراء.

أما ما تصرف فيه النبي ﷺ بصفته نبيًا وحاكمًا، أو بصفته نبيًا وقائدًا عسكريًا، أو بصفته نبيًا وقاضيًا، فهو تصرف باعتبارين: باعتباره ﷺ نبيًا واعتباره ﷺ حاكمًا، أو قائدًا، أو قاضيًا(٥٠).

وإذا كان أمر النبوة والرسالة قد ختم بقول الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقوله ﷺ: «فُضِّلْتُ عَلَى الأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الغَنَائِمُ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الخَلْقِ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ»(٥١)، فإن ما تصرف فيه النبي ﷺ باعتباره حاكمًا أو قائدًا عسكريًا أو قاضيًا بقي من شروط وضرورات التصرف فيه توفر الصفة الأخرى، وهي كون المتصرف حاكمًا أو قائدًا عسكريًا أو قاضيًا بحسب الأحوال، ولنأخذ أنموذجًا لكل صفة من هذه الصفات:

- مما تصرف فيه النبي ﷺ باعتباره رسولًا وحاكمًا معًا قوله ﷺ: «مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيْتَةً فَهِيَ لَهُ»(٥٢)، يقول الإمام أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا منه ﷺ تصرف بالإمامة - أي بصفته حاكمًا - فلا يجوز لأحد أن يحيي أرضًا إلا بإذن الإمام؛ لأن فيه تمليكًا، فأشبه الإقطاعات، والإقطاع يتوقف على إذن الإمام فكذلك الإحياء»(٥٣).

وعليه فلا يجوز لأحدٍ أن يضع يده على قطعة من الأرض ويقول: أحييتها فهي لي وبيني وبينكم حديث رسول الله ﷺ، نقول له: إن رسول الله ﷺ تصرف في ذلك بصفته حاكمًا، فلا يجوز لغير الحاكم إصدار مثل هذا القرار المتعلق بالحق العام، أو المال العام، أو الملك العام، وإلا لصارت الأمور إلى الفوضى وفتح أبواب لا تسد من الفتن والاعتداء على الملك العام، وربما الاحتراب والاقتتال بين الناس، إنما يجب أن يلتزم في ذلك بما تنظمه الدساتير والقوانين التي تنظم شئون البلاد والعباد.

- ومما تصرف فيه النبي ﷺ باعتباره قائدًا عسكريًا قوله ﷺ: «مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا لَهُ عَلَيْهِ بَيِّنَةٌ

فَلَهُ سَلَبُهُ» (١)، فلا يجوز لأحد الآن أن يفعل ذلك، فإذا قتل إرهابيًّا في مواجهة إرهابية فلا يجوز له أن يقول: أنا أولى بسلاحه أو سيارته وهاتفه وما كان معه من أموال؛ لأن تصرف رسول الله ﷺ كان بصفته حاكمًا وقائدًا عسكريًّا، إنما يلتزم في ذلك بما تنظمه القوانين والدساتير العصرية ونظام الدولة وقواتها المسلحة.

- ومما تصرف فيه النبي ﷺ باعتباره قاضيًا قوله ﷺ في قضية الخلع؛ حيث أتت امرأة ثابت ابن قيس النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، ثابت ابن قيس ما أعتب عليه في خلق ولا دين، ولكني أكره الكفر في الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «أَتَرُدِّينَ عَلَيْهِ حَدِيقَتَهُ»، قالت: نعم، قال رسول الله ﷺ: «اقْبَلِ الحَدِيقَةَ وَطَلِّقْهَا تَطْلِيقَةً» (٢)، فقد تصرف ﷺ باعتباره نبيًّا وقاضيًا، وهو أيضًا من الأمور التي ينظمها القانون في عصرنا، ويجب الالتزام فيها بما ينظمه القانون، وهو ما يعرف في الفقه الإسلامي بتطليق القاضي، وله ضوابطه الشرعية والقانونية.

تصرفات الحاكم وخطورة الافتئات عليها

مما لا شك فيه أن قضية «تصرفات الحاكم» من أخطر القضايا التي لعبت عليها أو بها جماعات أهل الشر، سواء بالافتئات عليها أم بمحاولة تشويه تصرفاته، ولو كان في عدل سيدنا عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فهناك أمران في غاية الخطورة أضرا بالخطاب الديني الرشيد، هما: الجهل والمغالطة، أما الأول: فَدَاءٌ يجب مداواته بالعلم، وأما الثاني: فَدَاءٌ خطير يحتاج إلى تعرية أصحابه، وكشف ما وراء مغالطتهم من عمالة، أو متاجرة بالدين.

وقد أدرك علماؤنا القدماء طبيعة الفرق بين ما هو من اختصاص الحاكم، وما هو من اختصاص العالم، وفرّقوا بدقة بين ما تصرف فيه النبي ﷺ بصفة النبوة والرسالة من شئون العقائد والعبادات والقيم والأخلاق، وما تصرف فيه ﷺ باعتبار الحكم أو القضاء، فالنبي ﷺ لم يكن نبيًّا ورسولًا فحسب - كما ذكرت سابقًا - إنما كان نبيًّا ورسولًا

وحاكمًا وقاضيًا وقائدًا عسكريًا.

وما تصرف فيه النبي ﷺ باعتباره قاضيًا لا يُبنى الأمر فيه على رأي العالم، ولا حتى رأي القاضي المجرد من الأدلة والقرائن والشهود، إنما يُبنى على ما يقتضيه أمر القضاء من البينة أو الشهود وسائر القرائن المعتبرة، وقد رجَّح جمهور الأصوليين والفقهاء عدم جواز قضاء القاضي بمجرد علمه دون إقامة الدليل، أو وجود الشهود، أو توفر القرائن.

ومن أهم القضايا التي ترجع إلى رأي الحاكم - لا إلى رأي القاضي، ولا رأي العالم، ولا أحد غير الحاكم - قضية إعلان حالات الحرب والسلم المعبر عنها في كتب الفقه بالجهاد الذي هو بمعنى القتال، والذي شُرِّع للدفاع عن الأوطان والدول من أن تُستباح، فليس لآحاد الناس أو لحزب أو لجماعة أو لفصيل أو لقبيلة إعلان هذا الجهاد، إنما هو حقٌّ لولي الأمر وفق من أناط به دستور كل دولة، وأعطاه الحق في إعلان حالة الحرب والسلم، سواء أعطاه الدستور لرئيس الدولة، أم لمجلس أمنها القومي، أم للرئيس بعد أخذ رأي برلمانها.

والخلاصة: أن قضية إعلان حالة الحرب ليست ملكًا للأفراد أو الجماعات، إنما هي من تصرفات الحاكم التي لا يجوز الافتئات عليه فيها، وإلا أصبح الأمر فوضى لا دولة.

حق الجوار الدولي

حق الجوار حقٌّ أصيل في الإسلام، حيث يقول الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦]، وقد سأل رجل سيدنا رسول ﷺ أن يدله على عمل يدخله الجنة، فقال له النبي ﷺ: «كُنْ مُحْسِنًا»، فَقَالَ: كَيْفَ أَعْلَمُ أَنِّي مُحْسِنٌ؟ قَالَ: «سَلْ جِيرَانَكَ، فَإِنْ قَالُوا: إِنَّكَ مُحْسِنٌ، فَإِنَّكَ مُحْسِنٌ، وَإِنْ قَالُوا: إِنَّكَ مُسِيءٌ، فَإِنَّكَ مُسِيءٌ» (٥٠)، وكانت العرب قديمًا تعرف حق الجيران، وفي أمثالهم: «جارٌ

كجار أبي دؤاد»[٥٧]، وكان هذا الرجل من خيرة الجيران لجيرانه؛ كان إذا مات أحد جيرانه وداه، أي: دفع لأهله ما يعادل دية رجل، وإذا فُقد لجاره شيء أخلفه عليه من ماله.

وعندما جاء بعض الناس إلى سيدنا رسول الله ﷺ وذكروا له امرأة صوّامة قوّامة، تصوم النهار وتقوم الليل إلا أنها تؤذي جيرانها بلسانها، قال ﷺ: « هِيَ فِي النَّارِ »[٥٨]، وقال ﷺ: «خَيْرُ الْأَصْحَابِ عِنْدَ الله خَيْرُهُمْ لِصَاحِبِهِ، وَخَيْرُ الْجِيرَانِ عِنْدَ الله خَيْرُهُمْ لِجَارِهِ»[٥٩]، وقال ﷺ: «مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ»[٦٠].

ويقول نبينا ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ»[٦١]، ويقول ﷺ: «وَالله لَا يُؤْمِنُ، وَالله لَا يُؤْمِنُ، وَالله لَا يُؤْمِنُ» قِيلَ: وَمَنْ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: الَّذِي لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَايِقَهُ»[٦٢]، أي: الذي لا يأمن جاره شره.

فمن حق الجار أنه إذا مرض عدته، وإن أصابه خير هنأته، وإن أصابته مصيبة عزيته، وإن استعان بك أعنته، وإذا استغاث بك أغثته، وأن تكُفَّ عنه الشر لا أن تؤذيه أنت بأي لون من ألوان الشر قولًا أو فعلًا، مع ضرورة مراعاة أعلى درجات المروءة معه، وقد جعل سيدنا عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شهادة الجار لجاره أو عليه من أعلى درجات التزكية أو الجرح؛ لأن الإنسان وإن خدع بعض الناس بعض الوقت فإنه لا يمكن أن يخدع جيرانه كل الوقت[٦٣].

وكان سيدنا أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول لزوجه: إذا طهيتِ طعامًا فأكثري المرق حتى نرسل لجيراننا منه، وعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «يَا أَبَا ذَرٍّ إِذَا طَبَخْتَ مَرَقَةً فَأَكْثِرْ مَاءَهَا، وَتَعَاهَدْ جِيرَانَكَ»[٦٤].

وعَنْ مُجَاهِدٍ، أَنَّ عَبْدَ الله بْنَ عَمْرٍو ذُبِحَتْ لَهُ شَاةٌ فِي أَهْلِهِ، فَلَمَّا جَاءَ قَالَ: أَهْدَيْتُمْ لِجَارِنَا الْيَهُودِيِّ؟ أَهْدَيْتُمْ لِجَارِنَا الْيَهُودِيِّ؟ سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: « مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ»[٦٥]، حيث إن النبي ﷺ قد أوصانا بحسن الجوار على إطلاقه، ومعاملة جميع الجيران بما يستوجبه حق الجوار.



على أن الذي نؤكد عليه أن حق الجوار ليس حقًّا للأفراد فحسب، إنما هو حقٌّ للدول أيضًا، فكما أن للجوار الفردي حقًّا فإن لجوار الدول حقوقًا، من أهمها: حفظ الحدود، وحفظ العهود والمواثيق والاتفاقيات، وألا يُؤْتَى جارك من قِبلك، وأن تغيثه إذا استغاث بك.

هويتنا الواقية في زمن العولمة

يريد أعداؤنا أن نكون مسخًا أو طمسًا، بلا هوية، بلا معالم، بلا لون أو طعم أو رائحة، هكذا يريدون لنا أن نذوب في الآخرين؛ ليذوب تميزنا، وتنطمس حضارتنا وهويتنا، مما يتطلب منا اليقظة والمقاومة لمحاولات التذويب.

ولا شك أن ثمة عناصر هامة وعلامات فارقة هي تلك التي تشكل الهوية الواقية للأمم والشعوب، في مقدمتها: الدين بكل آفاقه الواسعة، والوطن بكل أبعاده ومقوماته: بداية من الجغرافيا وانتهاء بقوة الدولة، إضافة إلى اللغة، والثقافة، والتاريخ بكل ما يحمله من إرث حضاري.

على أن هناك أممًا وشعوبًا ودولًا محدثة تريد أن تقفز فوق التاريخ، غير أنها لا تريد أن تؤمن بالتطور الزمني ولا بالتراكم الحضاري، فلا تجد من منظورها سبيلًا للقفز فوق التاريخ إلا بالعمل على هدم حضارات الآخرين، ومحاولة القضاء عليها أو تشويهها، فإن لم تستطع فبالعمل على إذابة هويتها في هويات محدثة تفصمها عن كل ما شكَّل هويتها العظيمة عبر التاريخ، وقد قالوا: من لا ماضي له فلا حاضر له ولا مستقبل.

ومع أننا لا نأخذ هذه العبارة على علاتها، فإننا نؤمن بأهمية أن نتخذ من تاريخنا العريق ما ننطلق به في حاضرنا، ونسهم به في صنع مستقبلنا وهويتنا الواقية في زمن العولمة والتيارات الثقافية والفكرية والأيديولوجية الطاحنة الجارفة، وفي مواجهة موجات الشتات ومحاولات التشتيت أو التشويه الفكري.

لقد حرص نبينا ﷺ على أن يكون للمسلمين هويتهم، فنهاهم عن اللهث خلف مظاهر الآخرين الشكلية والتشبه بهم، كما نهى الرجال عن التشبه بالنساء، والنساء عن التشبه

بالرجال، وحرم على رجال أمته لبس الذهب والحرير في حين أحلها لنسائها، فقال ﷺ: «لَعَنَ اللهُ الْمُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ، وَلَعَنَ الْمُتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ»[66]، حفاظًا على هوية الرجل وهوية المرأة، مع عدم الانتقاص من هوية أي منهما.

وفي الجوانب الإنسانية أكد ديننا الحنيف على حفظ العهود والمواثيق الدولية، وعدم الغدر حتى بأعدى الأعداء، وعدم أخذهم غيلة أو غدرًا، حيث يقول الحق عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨]، ويقول نبينا ﷺ: «نَفِي لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ وَنَسْتَعِينُ اللهَ عَلَيْهِمْ»[67]، ويقول ﷺ: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَلَّةٌ مِنْ نِفَاقٍ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»[68].

كما أكد ديننا الحنيف على احترام آدمية الإنسان كونه إنسانًا بغض النظر عن دينه أو لونه أو جنسه أو عرقه، حيث يقول الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]، فكرّم الإنسان على إطلاق إنسانيته، ولم يقل: كرمنا المسلمين وحدهم، أو المؤمنين وحدهم، أو الموحدين وحدهم، وأمرنا أن نقول للناس كل الناس حسنًا، فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]، وحرم قتل النفس كل نفس بغير حق، فقال سبحانه: ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسَۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًاۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ [المائدة: ٣٢].

هذه الهوية هي التي عبر عنها سيدنا جعفر ابن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندما سأله النجاشي ملك الحبشة: عن هويته وأصحابه، فأجابه في ثبات ويقين: أَيُّهَا الْمَلِكُ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ، يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى

بَعَثَ اللهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا، نَعْرِفُ نَسَبَهُ، وَصِدْقَهُ، وَأَمَانَتَهُ، وَعَفَافَهُ، فَدَعَانَا إِلَى اللهِ لِنُوَحِّدَهُ وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ الْحِجَارَةِ والأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، والكَفِّ عَنْ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنْ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالَ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ»[69].

ولعل من أهم سمات هويتنا الواقية في زمن العولمة الجارفة هو بناؤها الأيديولوجي على القيم والأخلاق، فقد بُني موروثنا الحضاري والثقافي على القيم والأخلاق، ولخص نبينا ﷺ الهدف الأسمى لرسالته الخاتمة بقوله ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ»[70]، فتعلمنا أن الغايات الشريفة لا يمكن أن تتحقق إلا بالوسائل الشريفة، وأن الانتهازية ومبدأ الغاية تبرر الوسيلة يمكن نقضهما بسهولة، وعلى أقل تقدير تجاوزهما؛ لأن من نكث فإنما ينكث على نفسه؛ حيث يقول تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠].

كما تعلمنا أن الدول التي لا تُبْنَى على القيم والأخلاق تحمل عوامل انهيارها وسقوطها في أصل بنائها وأسس قيامها، وأن الأمم الراقية لا يمكن أن تنزلق إلى ما لا يليق بتاريخها وحضارتـها وقيـمها الأخلاقيـة والإنسانيـة الراسخة.

اللغة والهوية

اللغة هي الوعاء الحامل للمعاني والثقافات، ولا شك أنها أحد أهم عوامل تشكيل الهوية، والتأثير في بناء الشخصية، فمن يعرف لسانين ويتكلم لغتين يجمع ثقافتين، ومن يتحدث ثلاث لغات يجمع ثلاث ثقافات، ويقرأ نتاج عقول كثيرة، غير أن لغة الإنسان الأم تظل أحد أهم العوامل في تشكيل ثقافته، فالذي لا يدرك أسرار لغته لا يمكن أن يدرك كنه ثقافة قومه، ولا أن يسبر أغوارها، مع خصوصية بالغة للغة العربية، فهي لغة القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة.

وفهم الكتاب والسنة فرض واجب،

ولا يتم إلا بتعلم اللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، يقول الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣]، ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢ – ١٩٥]، ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٨– ١٩٩]، ويقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، ويقول نبينا ﷺ: «أَنَا أَفْصَحُ الْعَرَبِ، بِيَدَ أَنِّي مِنْ قُرَيْشٍ»[٧١]، وكان سيدنا عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «تعلموا العربية فإنها تزيد في المروءة»[٧٢]، وعن يَحْيَى بْن أَبِي كثير، أن كاتبًا لأبي موسى كتب إِلَى عُمَر بْن الخطاب من أبي موسى كتابًا فيه لحن، فكتب إليه عُمَر: إذا أتاك كتابي هَذَا فاضرب كاتبك سوطًا واعزله عن عملك[٧٣]، ومرَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على قوم يخطئون الرمي، فلامهم، فقالوا: «إنا قوم متعلمين» بنصب كلمة متعلمين في موضع يستلزم رفعها، فقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والله لذنبكم في لحنكم أشد علي من ذنبكم في رميكم[٧٤].

وقد علل يوهان فك لخلود العربية بقوله: إن لغة القرآن قد صارت في شعور كل مسلم - أيًا كانت لغته الأصلية - جزءًا لا ينفصل عن حقيقة الإسلام[٧٥].

ويقول بروكلمان: فبفضل القرآن بلغت العربية من الاتساع مدى لا تكاد تعرفه لغة أخرى من لغات الدنيا، والمسلمون جميعًا مؤمنون بأن العربية وحدها هي اللسان الذي أُحِل لهم أن يستعملوه في صلواتهم، وبهذا اكتسبت العربية من زمان طويل مكانة رفيعة فاقت جميع لغات الدنيا الأخرى[٧٦].

وبلغ حب المسلمين للعربية - لغة دينهم - مبلغًا يُعبر عنه البيروني الخوارزمي بقوله: ديننا واللغة العربية توأمان، والله لأن أُهجَى بالعربية أحب إليَّ من أن أمدح بالفارسية، ولذا لم نجد



أمة من الأمم حفظت فى صدورها من اللغة مقدار ما حفظه المسلمون من كتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ(٧٧).

ولأجل خدمة كتاب الله عَزَّوَجَلَّ قامت حول القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة دراسات لغوية وبيانية وبلاغية عديدة، حتى أن من أرّخوا لعلوم البلاغة أكدوا أنها إنما نشأت في الأصل خدمة لكتاب الله عَزَّوَجَلَّ، فعندما سئل أبو عبيدة معمر بن المثنى عن قول الحق جَلَّ وَعَلَا: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الصافات: ٦٥]، وكيف شبه القرآن الكريم ما لا نعلم من طلع شجرة الزقوم بما لا نعلم ولم نر من رءوس الشياطين، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنما خاطب القرآن الكريم العرب على قدر كلامهم، ألم تسمع قول امرئ القيس(٧٨):

أَيَقتُلُني وَالمَشرَفِيُّ مُضاجِعي
وَمَسنونَةٌ زُرقٌ كَأَنيابِ أَغوالِ

والعرب لم تر الغول قط، ولكن ذكرها كان يخيفهم ويرعبهم، وكذلك الشأن في ذكر رءوس الشياطين، فتم التعبير بها لتذهب النفس في معنى الجملة كل مذهب، بحيث يتصور كل إنسان رءوس الشيطان بما يخيفه هو، فما يخيف زيدًا ليس بالضرورة هو ما يخيف عمرًا، ولو كان المشبه به معلومًا لربما أخاف بعض الناس دون بعض، أما إبهامه هنا فأمر في غاية البلاغة والبيان، وهو الأمر الذي دعا أبا عبيدة معمر بن المثنى إلى الشروع في مؤلفه البلاغي كتاب «مجاز القرآن».

ولا ينكر أحد أن التمكن في اللغة العربية باب كبير لحسن فهم كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وسنة نبيه ﷺ؛ بل إن الأصوليين والفقهاء وغيرهم عدوا التمكن في اللغة العربية وأدواتها أحد أهم شروط الاجتهاد، وبلا شك هو أحد أهم شروط المفسر وشارح كتب السنة، كما أن التمكن في اللغة العربية يؤدي إلى مزيد من ثقة المتحدث بنفسه.

وقد أكد الفقهاء على أن الناظر في الشريعة والمتكلم فيها أصولًا وفروعًا لا بد أن يكون متمكنًا من اللغة العربية ولا يتكلم في شيء من ذلك حتى يكون عربيًا أو كالعربي في كونه

عارفًا بلسان العرب، بالغًا فيه مبالغ العرب، أو مبالغ الأئمة المتقدمين كالخليل، وسيبويه، والكسائي، والفراء، ومن أشبههم وداناهم»[79].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: كُنْتُ لَا أَدْرِي مَا معنى: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٤]؛ حَتَّى أَتَانِي أَعْرَابِيَّانِ يَخْتَصِمَانِ فِي بِئْرٍ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: أَنَا فَطَرْتُهَا؛ أَيْ: أَنَا ابْتَدَأْتُهَا، وَفِيمَا يُرْوَى عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَأَلَ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ عَنْ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ [النحل: ٤٧]، فأخبره رجل من هذيل أن التخوف عندهم هو التنقص، وأشباه ذلك كثير»[80].

وعدم المعرفة باللغة العربية ودلالاتها، وعدم التعمق في فهم النص ومعرفة ما يتعلق به، والاقتصار في العمل على الأخذ بظاهره دون معرفة دقائقه وأسراره؛ يوقع في خطأ جسيم، وقد يصل الحال بصاحبه إلى استباحة الدماء[81].

وأؤكد أن في تراثنا اللغوي والأدبي والنقدي من الفكر والثراء والتنوع ما يحتم علينا إعادة قراءة هذا التراث قراءة جديدة عصرية؛ يمكن أن تشكل أساسًا قويًا ومتينًا لبناء نظرية عربية في النقد الأدبي، لا تنفصل عن تاريخها ولا عن هويتها ولا عن واقعها، بل يمكن أن تكون - حال نضجها - أحد أهم ملامح هويتنا الواقية وخصوصيتنا الثقافية في زمن العولمة والتيارات النقدية والفكرية والثقافية الجارفة»[82].

وأؤكد أننا - على سبيل المثال لا الحصر - لو أعدنا قراءة تراثنا النقدي قراءة واعية منصفة لوقفنا على كثير من كنوزه ونفائسه، و اتضح لنا - بما لا يدع مجالًا للشك - أن الحياة الأدبية العربية في عصرها الذهبي كانت تموج بتيارات وحركات نقدية لا تقل حيوية وأهمية عن حركة الحياة الأدبية والنقدية في القرنين: العشرين والحادي والعشرين؛ سواء في أوروبا أم في عالمنا العربي، وأن القضايا التي تناولها النقاد العرب القدماء لم تمت بموتهم؛ فإن الكثير منها ما زال حاضرًا بقوة في ثقافتنا الأدبية والنقدية، وما زال قادرًا على تشكيل منطلق قوي ومتين لنظرية عربية حديثة في

النقد الأدبي تنظر بعين الاعتبار إلى الماضي والحاضر معًا، بحيث لا تنكفئ على القديم ولا تنسلخ منه، ولا تنعزل عن الحاضر والآخر الثقافي، ولا تذوب في هذا الآخر ذوبانًا يفقدها خصوصيتها وتميزها، بل تنتقي من هـذا وذاك النافع والمفيد، الذي يتناسب مع حضارتنا وقيمنا وثقافتنا العربية والإسلامية، بحيث تصبح هذه النظرية - عند نضجها - هويتنا الواقية في مواجهة تيارات العولمة الجارفة العاتية(٨٣).

الإعلام والهوية

الإعلام صناعة وفن ورسالة، ولا ينكر دوره وأهميته إلا مغيَّب عن الواقع، فلا شك أن الإعلام الهادف الرشيد أحد أهم مكونات الشخصية السوية، ومما لا شك فيه - أيضًا - أن الإعلام واحد من الأسلحة العصرية في المعارك والقضايا الفكرية والثقافية، وتجييش الرأي العام أو تهيئته، وأن فقه المرحلة يحتاج إلى التوازن بين الإعلام الكاشف والإعلام الباني، فلا يمكن لأحدٍ أن ينكر دور الإعلام الرشيد في بناء المجتمعات والدول بصفة عامة، وبناء الفكر الرشيد بصفة خاصة، كما لا يمكن لأحدٍ أن يتجاهل خطر استخدام بعض وسائل الإعلام ومواقع التواصل في العمل على هدم الدول أو إفشالها، وبخاصة الإعلام المموَّل من المنظمات أو الدول الراعية للإرهاب.

الإعلام بصفة عامة جزء من الوطن ومن أهم مكوناته، والإعلاميون هم نخبة من أبنائه ومثقفيه ومستنيريه، فمن يبصّر بقضايا الوطن الحقيقية ويواجه مخططات أعدائه إن لم يكونوا هم في الطليعة من ذلك؟.

الإعلام الرشيد جزء من الحل وليس جزءًا من المشكلة، ولا يمكن أن يكون، كما أننا نؤمن بأن الإعلام ليس مجرد مصـور فوتوغرافي للأحداث، فإن مهمة الإعلام أكبر من ذلك بكثير، فله - إلى جانب مهامه في التوعية والبناء والتثقيف - مهام رقابية كاشفة لا تقل أثرًا عن دور كثير من الجهات الرقابية التي تعمل على مواجهة الفساد بكل صوره وألوانه، ماديًّا كان أو معنويًّا، وليس لأحد أن يعمل على تجريد

الإعلام من اختصاصاته، أو يعمل على تحويله عن طبيعته، أو يصرفه عن مهامه ومساره الصحيح، إلا إذا كان لديه ما يخشى من المواجهة به، غير أن ثمة فرقًا كبيرًا وشاسعًا بين الإعلام الموضوعي البنَّاء والإعلام الإثاري أو الهدَّام.

ونرى أن الإعلام الرشيد لا يمكن أن يقوم على مجرد تصيد الأخطاء، أو حتى مجرد رصدها، وينتهي دوره عند هذا الحد معتبرًا الإثارة غاية لا وسيلة.

الإعلام الرشيد هو ذلكم الإعلام الذي يسهم في اقتراح الحلول، ومعالجة المشكلات، ويهيئ الطريق وينيره أمام القائمين على شئون البلاد والعباد والمؤسسات، وهو الذي يذكر الإنجاز كما يبرز الإخفاق، والذي يشد على عضد المجتهدين كما ينعي باللائمة على المقصرين.

الإعلام الرشيد هو الذي يعي طبيعة كل مرحلة وما تقتضيه المصلحة الوطنية، واختيار الأوقات المناسبة لمعالجة القضايا.

الإعلام الرشيد يعني الموضوعية دون تهويل أو تهوين، أو إفراط أو تفريط.

الإعلام الرشيد هو الذي يسمو صاحبه فوق الانطباعات الشخصية إلى درجة المعالجة الموضوعية، وهو الذي ينصف المختلف معه عندما يحسن أو يكون الحق في جانبه، كما ينصف المتفق معه أو حتى الموالي له.

الإعلام الرشيد هو الذي يحدد أهدافه ويعمل على تحقيقها، ويرتب أولوياته ويعمل على إنجازها، ويتخذ من كل ما يؤدي إلى البناء والتعمير ومواجهة الفساد والانحراف ومحاولات إفشال الدولة خطًّا ثابتًا.

ذلكم هو الإعلام الذي نفخر به عندما نطلق عليه مصطلح الإعلام الوطني، أو الإعلام الرشيد، أو الإعلام النبيل، أو الإعلام الهادف، أو الإعلام البنَّاء، وذلكم هو الذي يبقى ويضمن لصاحبه أو لمؤسسته خلودًا حقيقيًّا لا زيف فيه، ويسهم في بناء الشخصية القويمة، وتشكيل الهوية الوطنية المبهرة.

وحتى إعلام المعارضة، فهناك المعارضة

المنصفة الشريفة التي تقول لمن أحسن: أحسنت، ولمن قصر: قصرت، لا إعلام التصيد والتنكر وقلب الحقائق، الذي يعمل على قلب الحسنات إلى سيئات على نحو ما نرى من إعلام الجماعات الإرهابية، مما يجعلنا في حاجة ملحة إلى إعمال آلة إعلام البناء في مواجهة آلات إعلام الهدم ومحاولات إفشال الدول.

وعليه فإننا نحذر من الانسياق خلف إعلام الجماعات الإرهابية، وكتائبها الإلكترونية، وأبواقها الإعلامية، وكل من يسير في كنفها على طريق الهدم، والتشويه، والكذب والافتراء، وقلب الحقائق، بل إن واجبنا أن نتعاون على كشف هؤلاء المجرمين وفضحهم وبيان عمالتهم وخيانتهم، وأن نحذر بوضوح وشفافية من هؤلاء الخونة العملاء المأجورين ومن أبواقهم ومواقعهم المحرضة على الفتن، وهدم الأوطان، وخدمة مخططات الأعداء، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

على أن مفهوم الإعلام العصري يتجاوز عالم الصحافة والتلفاز إلى آفاق أوسع وأرحب، تشمل كل آليات التواصل الحديثة والعصرية مقروءة، ومسموعة، ومرئية، بشتى الآليات والأدوات والوسائل.

مع تأكيدنا على أهمية الإخلاص والتجرد والبعد عن الأهواء وتصفية الحسابات، فإن الوقوع في آفات الهوى والميل وعدم الإنصاف طامة كبرى يجب الترفُّع عنها، وذلك أن بعض النفوس المريضة لا تعرف سوى الهدم طريقًا، على حد ما قرره الإمام علي بن عبد العزيز الجرجاني في مقدمة كتابه: «الوساطة بين المتنبي وخصومه»؛ حيث ذكر أن أهل النقص فريقان: فريق يعمل على جبر نقيصته وستر عورته، وهذا أمر حسن؛ لأنه قد شغل بأمر نفسه، ويعمل على إصلاح حاله وشأنه، أما الفريق الآخر من أهل النقص فقد قعد به عن الكمال عجزه أو اختياره، أي ضعفه أو كسله، فلم يجد شيئًا أجبر لنقصه وأستر لعورته من انتقاص الأماجد وحسد الأفاضل، ظنًّا أن ذلك قد يجرهم إلى مثل نقيصته، أو ينزل بهم

إلى مستوى درجته[٨١].

وقد امتهن بعض الناس حتى في العصور المتقدمة المدح والهجاء صنعة يتكسبون بها، وإذا كان التكسب بالمديح والثناء أمرًا معروفًا حتى لدى شعراء الجاهلية فيمن عرفوا بمدرسة الصنعة أو التكسب بالشعر كزهير بن أبي سلمى، والنابغة الذبياني، وغيرهما، فإن هناك من عُرف بالتكسب بالهجاء حتى في عصر صدر الإسلام، كالحطيئة الذي كان يبتز الناس بهجائه وتعرضه لهم، حتى إن الخليفة عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ هدده تهديدًا شديدًا إن لم يكف عن أعراض الناس، فقال: إذن يموت عيالي يا أمير المؤمنين، فاشترى منه عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أعراض الناس بأربعين ألف درهم على ألا يتعرض لهجاء أحد، فكف الحطيئة عن هجاء الناس طوال خلافة عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ثم عاد إليه بعد وفاته.

وكل هذا لا يمكن أن يصنع حضارة حقيقية أو يقدم للمجتمع الكفاءات التي تستحق الثناء والتقدير الحقيقي، بل إن هذا النقد قد يسهم في الهدم، أما النقد الحقيقي المتجرد الموضوعي، المبني على أسس علمية وعلى الخبرة والدربة والممارسة وكثرة التحصيل وعلى الإنصاف، بأن تقول لمن أحسن: أحسنت، ولمن أساء – بأدب وموضوعية –: أسأت وقصرت، وربما تضع يده على وجه الخلل وعلى طرق الإصلاح؛ فهذا هو النقد الهادف الذي يبني ولا يهدم، وينصف ويشجع، وفي الوقت نفسه يبيِّن ويحذِّر.

فإذا كانت القيادة مسئولية وأمانة، فإن ممارسة النقد والتحليل أيضًا مسئولية وأمانة، وكلنا مسئولون أمام الله عَزَّوَجَلَّ، كل عن الأمانة التي ولَّاه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إياها، كما أننا مسئولون عن بناء وطننا، والعمل على نهضته ورقيه من خلال سبل البناء والإصلاح لا الهدم والنقض، ولا النفعية أو حب الظهور، على أن الغالبية العظمى صارت تميز الغث من السمين، وصدق الله العظيم إذ يقول في كتابه الكريم: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

الهوية والصورة الذهنية للأفـــراد والـمجتـمـعـات

الصورة الذهنية لأي شخص أو مجتمع تنعكس سلبًا أو إيجابًا على قبوله أو رفضه، على التعامل معه أو ضده، وترتبط إلى حدٍّ كبيرٍ بموروثه الحضاري والفكري والثقافي، ومدى اعتزازه بهويته وارتباطه بها، وحرصه عليها.

ولا يقف أثر الصورة الذهنية عند مجرد النظر العاطفي إلى شخصٍ أو دولةٍ أو أمةٍ، إنما ينعكس ذلك مبـاشرًا على مصالح الأفـراد أو الدول وعلاقاتها، فصورة ذهنية عن دولة جادة متقنة مبدعة سينعكس إيجابًا على فتح الأسواق العالمية أمام منتجاتها، والحرص على الإفادة من خبرات أبنائها، أمة تحترم عهودها ومواثيقها ستكون موضع احترامٍ وتقديرٍ دولي، وتستطيع أن تبني شراكات دولية واسعة، ودولة لا عهد لها ولا ذمة ستكون موضع ارتياب دولي، إن لم تصبح عرضة لعزلة دولية كبيرة تنعكس سلبًا على مصالحها ومصالح أبنائها.

والصورة الذهنية منها ما هو عارضٌ خاطفٌ، ومنها ما هو مترسخٌ ومتجذرٌ في الذاكرة، غير أن بناء الصورة الذهنية لشخصٍ أو شعبٍ يحتاج إلى مساحات أوسع من الزمن وجهد ملموس على الأرض.

الصورة الذهنية الخاطفة أو العارضة قد تكون محدودة التأثير، غير أن تراكم هذه الصور يؤدي بلا شك إلى بناء صورة ذهنية راسخة متجذرة تكون ذات أثرٍ بالغٍ في الحكم على الأفراد أو الشعوب.

الصورة الذهنيـة الخاطفـة تكون وليـدة موقف أو لحظة؛ كحسن مقابلة السائح، أو إنهاء إجراءات استقباله بسهولة ويسر في جميع خطوات التعامل معه، بدءًا من الحصول على إذن الدخول إلى إنهاء إجراءات استقباله بالمطـارات والموانئ، فالفنـادق، فالمتاحف، فسائر التعاملات.

وقد تتكون الصورة الذهنية لدى السائح بنظرته إلى مستوى النظافة والنظام، واللمسات الجمالية، والطراز المعماري لدى الشعب المضيف.

وقد تتكـون الصورة الذهنيـة عن الدول

والشعوب من خلال السلع التي تنتجها تلك الدول والشعوب، ومستوى جودتها، ومهارة صانعيها، وحرفييها، وأطبائها، ومهندسيها، ومعلميها، وعلمائها، وأدبائها، ومفكريها.

وأرى أن الجانب السلوكي من أهم الجوانب المؤثرة في بناء الصور الذهنية، وقد قالوا: حال رجل في ألف رجل خير من قول ألف رجل في رجل، فالناس لا يصدقون الكاذب وإن خطب فيهم ألف خطبة وخطبة عن الصدق، ولا يأتمنون الخائن أو الغادر وإن أعطاهم ألف عهد وميثاق وحدثهم ألف حديث وحديث عن الأمانة والوفاء؛ لذا يجب أن يكون لنا وجه واحد ظاهره كباطنه، وليس لنا وجهان أحدهما ظاهر والآخر خفي، إذ يمكن للإنسان أن يخدع بعض الناس لبعض الوقت لكن لا يمكن لأي إنسان مهما كان ذكاؤه ومهما كانت حصافته وحيطته ودهاؤه أن يخدع كل الناس كل الوقت.

ولا شك أن المستوى الثقافي والمعرفي لأي شخص إنما ينعكس على الصورة الذهنية عنه، فكلما كان الإنسان منطقيًّا في خطابه كان أكثر إقناعًا، أما إذا كان ظاهرة صوتية يعتمد على الجعجعة التي لا طحن لها، دون سند من العقل والفكر والحقيقة، فإنه لا يمكن أن يقنع أحدًا ولو تذرع بجيش من وسائل الإعلام أو الكتائب الإلكترونية الحديثة؛ لأن الحق أبلج والباطل لجلج، حتى وإن توهم أنه ربح جولة أو جولات بعلو الصوت أو تجاوز حدود اللياقة في الحوار كوسيلة لإسكات الخصم أو المخالف، فإنه يظل مجرد ظاهرة صوتية لا أثر لها، وإن كان من أثرٍ فهو أثرٌ سلبي يصم الآذان عنه لما يلحقها من أذى صوته غير المنضبط.

وإذا أردنا إعادة بناء الصورة الذهنية لرجل الدين أو عالم الدين، فيجب بناؤها على أساس سليم علميًّا ومهاريًّا وفكريًّا وتربويًّا، يجب أن نحرر الخطاب الديني من أصحاب الأهواء والأفهام السقيمة على حدٍّ سواء، وأن نتحول بقضية الخطاب الديني من كونه وظيفة إلى رسالة، وأن يتم التركيز على الكيف لا الكم، فإذا ما بدأ الباحث بتعلم العلوم الدينية فإن



ذلك يتطلب دراسته لمكون ثقافي عام لا يقل عن أربعين في المائة؛ بما يؤهله لفهم الواقع الذي يعيشه بكل جوانبه، ويحقق بناء العقلية الجامعة دينيًّا وثقافيًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا وفكريًّا وقانونيًّا وإنسانيًّا، ولا مانع أيضًا في ضوء نظرية التقابلية أن يتم النظر في قبول الحاصلين على شهادات علمية في التخصصات المختلفة، ممن لديهم الاستعداد لدراسة العلوم الدينية، في برامج تأهيل متقدمة في مجال الثقافة الإسلامية على أيدي العلماء المتخصصين، ثم نقوم بعمل مزج وتدريب مشترك لهؤلاء وأولئك؛ بما يتيح فرصًا واسعة للاحتكاك المباشر والحوار المباشر بين هؤلاء وأولئك، مما يسهم في التقارب بدل التنافر، وقد قالوا: من جهل شيئًا عاداه.

وعلينا - كلٌّ في مجاله وميدانه - أن نعمل على تصحيح الصورة الذهنية عن ديننا من خلال نشر الفكر الوسطي المستنير، وتفكيك الفكر المتطرف، والتمسك بأخلاق الإسلام ومثله العليا، وأن نعمل كذلك على تصحيح الصورة الذهنية عن أوطاننا من خلال العمل والإتقان والإبداع والابتكار والسلوك القويم معًا.

وإذا أردنا أن نبني صورة ذهنية مشرقة لوطن أو أمة، أو نحافظ عليها، فلن يكون ذلك بغير العلم والعمل، والإبداع والإتقان، والعطاء الإنساني المتميز في مختلف المجالات، وفي خدمة الإنسانية، فضلًا عن اعتزاز أبناء الوطن بهويتهم الوطنية، واستعدادهم غير المحدود للتضحية في سبيل وطنهم والحفاظ على هويتهم.

أبجديات الحوار

يقول الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥]، ويقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا

مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

الحوار (على زنة فِعال)، والمحاورة (على زنة مُفاعلة): يقتضيان المشاركة، ولا يقعان من طرف واحد، يقال: تحاور محمد وعلي، أو توافقا، أو تشاركا، أو تطاوعا، أي: حاور، أو وافق، أو شارك، أو طاوع كل منهما صاحبه، ولا يُتصوَّر أن يحاور الإنسان نفسه.

وعليه فالحوار يقتضي أن تُعامل الآخر بما تحب أن يُعاملك به، وأن تنصت إليه قدر ما تحب أن ينصت إليك، وأن تأخذ إليه الخطوات التي تنتظر منه أن يخطوها نحوك، وإلا فحاور نفسك، واسمع صوت نفسك، ولا تنتظر أن يسمع الآخرون صوتك.

الحوار الناجح هو القائم على الحق، المبني على الصدق لا على الكذب، ولا التزييف، ولا السفسطة، ولا المغالطة، ولا مجرد المغالبة لذات المغالبة.

فالحوار لا يعني الشقاق، ولا يمت للعصبية العمياء بصلة، ولا يجعل من المتغيرات ثوابت، ولا يقدس غير المقدس، ولا يرمي الناس بالإفك والبهتان، ولا يخرج عن الموضوعية إلى غيرها قصد إحراج المحاور، أو إسكات صوته بالباطل، كأن يحاور شخص شخصًا آخر في قضية فكرية فإذا هو يتحول إلى هجوم شخصي عليه، أو على أسرته، أو قبيلته، أو حزبه، أو دولته، عجزًا منه عن مقارعة الحجة بالحجة، وهروبًا من الموضوعية التي لا قِبَل له بها إلى السباب والفحش الذي قد لا يجيد غيرهما.

كل ذلك والحوار شيء آخر؛ وانظر إلى أدب أبي الأنبياء سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في محاورته لأبيه، حيث يقول أبوه: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا﴾ [مريم: ٤٦]، فيجيبه سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في غاية البر والأدب: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا﴾ [مريم: ٤٧]، وفي الحوار الذي دار بينه وبين نمرود بن كنعان كما حكى القرآن الكريم على لسانه: ﴿قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ﴾ [البقرة: ٢٥٨]،

وهنا لم يرد عليه سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بالنفي المباشر، إنما انتقل إلى أمر آخر قائلاً: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، وكأنه يقول له: إن كنت تحيي وتميت حقًا كما تقول فأت بالشمس من المغرب بدل المشرق، فبهت الذي كفر.

وهذا نبي الله سيدنا عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ينتقي ألفاظه انتقاءً فيقول: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾ [المائدة: ١١٦]، ولم يقل: لم أقله، تأدبًا مع ربه عَزَّوَجَلَّ.

ومن أبجديات الحوار حسن الاستماع للآخر، وعدم مقاطعته، أو إبداء عدم الرغبة في سماعه، أو التأفف من كلامه، أو الإشاحة في وجهه، وإظهار التبرم منه غمزًا، أو لمزًا، أو سخرية، أو تهكمًا إشاريًا، أو حتى تبسمًا ساخرًا ينم عن عدم تقدير المحاور، أو إظهار عدم الاقتناع بما يقول تهوينًا لشأنه، ناهيك عن ارتفاع الصوت واشتداد الصخب والجلبة، فضلًا عن سوء الأدب في الحوار.

الحوار الهادف ينأى بصاحبه عن كل أشكال الجمود والاستعلاء، ويحمله على احترام الرأي الآخر وتقديره، على حد قول الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب؛ بل إننا لنذهب أبعد من ذلك - كما ذكرت سابقًا - فنرى أن كلا الرأيين قد يكونان على صواب، غير أن أحدهما راجح والآخر مرجوح، فالأقوال الراجحة ليست معصومة، كما أن الأقوال المرجوحة ليست مهدومة، طالما أن لصاحبها حظًا من النظر والحجة والدليل المعتبر.

وإن أخطر ما يعوق الحوار أمران هما: الأدلجة والنفعية؛ فأما الأدلجة فإن العالم أو الكاتب أو المحاور المؤدلج تحمله عصبيته العمياء للجماعة التي ينتمي إليها إما على عدم رؤية الحق، وإما على التعامي عنه، إذ يمكن لأحدهم أن يحاورك، أو يجادلك، أو يقبل نقاشك في مفهوم آية من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، أو حديث صحيح من سنة سيدنا رسول الله ﷺ، ولا يقبل منك أن تحاوره أو تناقشه أو تراجعه

في كلام جماعته المقدس لديه.

وأما النفعيون والمتاجرون بالأديان والقيم والمبادئ فلا يدافعون أبدًا عن الحق، ولا ينتظر منهم ذلك، إنما يدافعون عن مصالحهم ومنافعهم فحسب ولا شيء آخر.

وبما أن الجزاء في الدنيا والآخرة من جنس العمل، لقي سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ من أدب ولده إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ ما فاق أدبه هو مع أبيه، على نحو ما صوره لنا القرآن الكريم في سورة «الصافات»، حيث دعا سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ ربه أن يرزقه الولد الصالح؛ فَمَنَّ عليه الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بسيدنا إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم بشره الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بسيدنا إسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ، وفي شأن ولده إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول الحق سبحانه على لسان سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ۝ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠-١٠٢].

ونلاحظ أن سيدنا إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ قد خاطب والده بنفس اللفظ والأدب الذي خاطب به سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أباه ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ [الصافات: ١٠٢]، فَهُمَا عليهما السلام كما قال الحق سبحانه: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ٣٤]، وفي الأثر: افعل ما شِئتَ كما تَدينُ تُدانُ.

أدب الحياة الخاصة

الإسلام دين الفطرة السليمة، حيث يقول الحق سبحانه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

ولا شك أن الإسلام قائم على كل ما ينمي الذوق، ويرسخ القيم الإنسانية السوية، ويسهم في تكوين الرقي الشخصي والمجتمعي، وينشر القيم الحضارية، ويؤدي إلى تأصيلها وتجذيرها في نفوس الناس جميعًا.

ولا شك أن للمرء من حياته ما تعود، فإذا ما تعود الإنسان على التحضر والرقي فيما بينه



وبين نفسه صار ذلك سمة وسجية وطبعًا له فيما بينه وبين الناس، أما إذا حافظ الإنسان على مظاهر التحضر أمام الناس وخالف ذلك فيما بينه وبين نفسه دخل في باب النفاق النفسي والاجتماعي وما يعرف بانفصام الشخصية، وربما خانه طبعه وما تعوده من مخالفة الذوق والرقي في خلوته فبدا ظاهرًا جليًّا عفويًّا ولو بدون قصد فيما بينه وبين الناس.

ومن هنا كان حرص الإسلام على تعليم الإنسان القيم الراقية وتعويده عليها منذ نعومة أظافره سواء فيما بينه وبين نفسه أم فيما بينه وبين الناس، وهذا نبينا ﷺ عندما يرى صبيًّا تطيش يده في إناء الطعام، فيعلمه ويوجهه بما يهذب ذوقه وطبعه، فيقول ﷺ: «يَا غُلَامُ، سَمِّ اللهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ»[٨٥]، سواء أكان ذلك فيما بينه وبين نفسه أم حال مشاركته الناس طعامهم، ويقول ﷺ: «أَغْلِقُوا الْبَابَ، وَأَوْكِئُوا السِّقَاءَ، وَأَكْفِئُوا الْإِنَاءَ، أَوْ خَمِّرُوا الْإِنَاءَ، وَأَطْفِئُوا الْمِصْبَاحَ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَفْتَحُ غَلَقًا، وَلَا يَحِلُّ وِكَاءً، وَلَا يَكْشِفُ آنِيَةً»[٨٦].

على أن في قوله ﷺ: «وَأَطْفِئُوا الْمِصْبَاحَ» ما يشير إشارة واضحة إلى ضرورة ترشيد الطاقة، وقد نهى ﷺ عن الإسراف سرًّا وعلنًا، خلوًّا أو مجتمعًا، مما يؤصل في نفس الإنسان ثقافة الترشيد والبعد عن الإسراف والتبذير.

هذا وقد نجد بعض الناس هاشًّا باشًّا بين الناس بحيث يغبطه من لا يعرف حقيقته، فإذا ما عاد إلى أهل بيته لبس ثوبًا آخر وجلدًا آخر وبدا بوجه آخر يتناقض تماما مع ما يعرف به بين الناس من البشاشة وطلاقة الوجه، بحيث يقف القاعد ويسكت الناطق من أبنائه وأهل بيته خوفًا لا أدبًا.

مع تأكيدنا أن الإنسان إذا هذَّب ما بينه وبين نفسه وسيطر عليها طواعية، مراقبة لله عَزَّوَجَلَّ واحترامًا لذاته كان أكثر سيطرة عليها وأملك لزمامها بين الناس وفي المناسبات العامة، أما إذا كان غير ذلك فالطبع يغلب التطبع، وليس الجمال كالتجمل، مما قد يكشف حقيقته ويعرضه لمواقف محرجة فيما لا يحب أحد أن يحرج فيه.

الحق الواجب

لا شك أن مبدأ الحق والواجب، أو الحق مقابل الواجب، أحد أهم المبادئ العادلة التي تسهم في إصلاح المجتمع، فهناك الحقوق والواجبات المتبادلة بين الآباء والأبناء، وبين الأزواج، وبين الجيران، وبين الأصدقاء، وبين الشركاء، وبين المواطن والدولة، وبين العمال وأرباب العمل، وبين المعلم والمتعلم.

وقد أشارت بعض النصوص القرآنية والنبوية إلى هذه التبادلية، وإلى ضرورة الوفاء بالحقوق والواجبات معًا؛ حيث يقول الحق سبحانه في العلاقات بين الزوجين: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، ويقول الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَى في الحديث القدسي: «ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِ أَجْرَه»(٨٧)، وعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ ﷺ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلاَّ مُؤَخِّرَةُ الرَّحْلِ فَقَالَ: يَا مُعَاذُ بْن جَبَلٍ قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ الله وَسَعْدَيْكَ. ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ: يَا مُعَاذُ بْن جَبَلٍ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ الله وَسَعْدَيْكَ. ثُمَّ سَارَ سَاعَةَ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُعَاذُ بْن جَبَلٍ، قُلْتُ لَبَّيْكَ رَسُولَ الله وَسَعْدَيْكَ. قَالَ: هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الله عَلَى الْعِبَادِ؟ قَالَ: قُلْتُ: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: فَإِنَّ حَقَّ الله عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، ثُمَّ سَارَ سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: يَا مُعَاذُ بْن جَبَلٍ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ الله وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى الله إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ؟. قَالَ: قُلْتُ الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: أَنْ لاَ يُعَذِّبَهُمْ»(٨٨).

وعن سيدنا علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال في خطبة له خطبها بصفين: أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ جَعَلَ الله سُبْحَانَهُ لِي عَلَيْكُمْ حَقًّا بِوِلاَيَةِ أَمْرِكُمْ، وَلَكُمْ عَلَيَّ مِنَ الْحَقِّ مِثْلُ الَّذِي لِي عَلَيْكُمْ، وَالْحَقُّ أَوْسَعُ الْأَشْيَاءِ فِي التَّوَاصُفِ وَأَضْيَقُهَا فِي التَّنَاصُفِ، لاَ يَجْرِي لِأَحَدٍ إِلاَّ جَرَى عَلَيْهِ، وَلاَ يَجْرِي عَلَيْهِ إِلاَّ جَرَى لَهُ، وَلَوْ كَانَ لِأَحَدٍ أَنْ يَجْرِيَ لَهُ وَلاَ يَجْرِيَ عَلَيْهِ لَكَانَ ذَلِكَ خَالِصاً لله سُبْحَانَهُ(٨٩).

ورأى بعض الناس رجلًا مسنًّا يزرع نخلة



لا ينتظر أن يجني شيئًا من ثمارها في حياته، فقيل له: وهل تنتظر أن تدرك جني شيء من ثمارها؟ فقال الرجل: زرع من قبلنا فحصدنا، ونحن نزرع ليحصد من بعدنا، «افعل ما شئت كما تدين تدان».

والقاعدة: أن من أخذ الأجر حاسبه الله على العمل، وأن العقد شريعة المتعاقدين، وقد أمرنا رب العزة بالوفاء بالعقود، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]، وحذرنا تَبَارَكَ وَتَعَالَى من خيانة الأمانات في العمل أو في غيره، فقال جل شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧]، وحثنا نبينا ﷺ على إتقان العمل؛ فقال: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ»[١٠].

وديننا قائم على الإتقان، والإحسان، ومراقبة الله عَزَّوَجَلَّ في السر والعلن قبل مراقبة الخلق، لأن الخلق إن غفلوا عن المراقبة أو المتابعة، فهناك من لا يغفل ولا تأخذه سنة ولا نوم، حيث يقول الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧]، ويقول سبحانه: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام: ٥٩]، ويقول على لسان لقمان عَلَيْهِ السَّلَامُ مخاطبًا ولده: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ﴾ [لقمان: ١٦].

فما أحوجنا إلى ترسيخ مبدأ الحق مقابل الواجب في كل مجالات حياتنا وعلاقاتنا، وبخاصة في مجال العمل، إذ لا يمكن للحياة ولا العلاقات أن تستقيم من جانب واحد، فيكون أحد الشقين معتدلًا والآخر مائلًا، إنما تستقيم الأمور باستواء الجانبين معًا، والوفاء بالحقوق والواجبات معا، نؤدي الذي علينا حتى يبارك الله عَزَّوَجَلَّ في الذي لنا.

الهوامش:

(١) سنن الترمذي، كتاب صفة القيامة والرّقائق والورع عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في صفة أواني الحوض، باب منه، حديث رقم: ٢٥١٧، وقال: حديث غريب.

(٢) انظر: روضة العقلاء ونزهة الفضلاء لمحمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي المتوفى سنة ٣٥٤هـ ص ٦١، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت، قال: أنشدني الكريزي، وهو: الشاعر منصور بن محمد الكريزي شاعر عباسي، وله جملة قصائد ومقطوعات نقلها عنه معاصره مؤلف (روضة العقلاء).

(٣) هو: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥هـ فيلسوف، متصوف، له نحو مائتي مصنف، لُقّب بـ «حجّة الإسلام»، من أهم مؤلفاته: إحياء علوم الدين، والاقتصاد في الاعتقاد. انظر: طبقات الشافعية الكبرى للسبكي، ٦/ ١٩١، تحقيق: د/ محمود محمد الطناحي، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ والأعلام للزركلي، ٧/ ٢٢.

(٤) المستصفى لأبي حامد الغزالي، ص ٣٤٥، تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

(٥) هو: أبو العباس: شهاب الدين أحمد بن إدريس المالكي، الشهير بالقرافي، مصري المولد والمنشأ والوفاة، له مصنفات جليلة في الفقه والأصول، توفي عام: ٦٨٤هـ انظر: الأعلام للزركلي، ١/ ٩٥.

(٦) راجع: الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام للإمام القرافي، ص ٢٣٢، دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.

(٧) السنن الكبرى للبيهقي، كتاب آداب القاضي، باب ما يقضي به القاضي، ويُفتي به المُفتي؛ فإنه غير جائزٍ له أن يُقلِّد أحدًا من أهل دهره، ولا أن يحكم أو يُفتي بالاستحسان، حديث رقم: ٢٠٣٣٩.

(٨) سنن أبي داود، كتاب الملاحم، باب ما يذكر في قرن المائة، حديث رقم: ٤٢٩٣.

(٩) انظر: سنن الدارقطني، كتاب في الأقضية والأحكام وغير ذلك، كتاب عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى أبي موسى، حديث رقم: ٤٤٧٢ بنحوه، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى.

(١٠) هو: الإمام الحافظ أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد الأوزاعي، إمام أهل الشام في زمانه، وُلد في بعلبك سنة ٨٨هـ وكان من كبار الأئمة المدافعين عن الإسلام والسُّنَّة النبوية، توفي في بيروت سنة ١٥٧هـ. انظر: سير أعلام النبلاء، ٧/ ١٠٧.

(١١) انظر: المقاصد الحسنة للسخاوي، ص ٣٣٢، دار الكتاب العربي.

(١٢) انظر: الإتقان في علوم القرآن للإمام السيوطي، ٤/ ٤٨، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

(١٣) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب العلم، باب من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين، حديث رقم: ٧١، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة، حديث رقم: ١٠٣٧.

(١٤) التذكرة السعدية في الأشعار العربية، محمد بن عبد الرحمن بن عبد المجيد العبيدي، ص٣٧.

(١٥) سنن ابن ماجه، كتاب الزهد، باب الهم بالدنيا حديث رقم: ٤١٠٥.

(١٦) الاعتصام للشاطبي، ص٦٨٣.

(١٧) السنن الكبرى للبيهقي، كتاب الشهادات، جماع أبواب من تجوز شهادته ومن لا تجوز، من الأحرار البالغين العاقلين المسلمين، باب بيان مكارم الأخلاق ومعاليها التي من كان متخلقًا بها كان من أهل المروءة، ١٠/ ٣٢٣، حديث رقم: ٢٠٧٨٢، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

(١٨) انظر: المستصفى من علم الأصول للغزالي، ص١٧٤، دار الكتب العلمية، جدير بالذكر أننا أضفنا لهذه الأصول الخمسة أصلًا سادسًا وهو الوطن، وقد أصّلنا لذلك في مبحث: «الكليات الست».

(١٩) هو: أبو محمد عبد الله بن علي بن أحمد بن علي اللخمي، الأندلسي، الشاطبي، المتوفى سنة ٥٣٢هـ. انظر: سير أعلام النبلاء، ٢٠/ ٩٢.

(٢٠) انظر: المصدر السابق، ٥/ ٢٣٠.

(٢١) هو: أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعي الدمشقيّ، المشهور باسم «ابن قيم الجوزية» أو «ابن القيم»، ولد سنة٦٩١هـ فقيه ومحدث ومفسر وعالم مسلم مجتهد، وواحد من أبرز أئمة المذهب الحنبلي، من أهم مؤلفاته: إعلام الموقعين، والطرق الحكمية في السياسة الشرعية، توفي سنة٧٥١هـ. انظر: الأعلام للزركلي، ٦/ ٥٦.

(٢٢) انظر: إعلام الموقعين لابن قيم الجوزية، ٣/ ٣.

(٢٣) هو: عزّ الدّين شيخ الإسلام أبو محمد عبد العزيز بن عبد السّلام، الإمام العلّامة، وحيد عصره، الملقب بسلطان العلماء، ولد سنة ٥٧٨هـ وجمع بين فنون العلم، من التفسير، والحديث، والفقه، واختلاف أقوال الناس، ومآخذهم، وبلغ رتبة الاجتهاد، توفي سنة ٦٦٠هـ. انظر: شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي، المتوفى سنة ١٠٨٩هـ ٧/ ٥٢٢، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

(٢٤) انظر: قواعد الأحكام في مصالح الأنام لأبي محمد عز الدين بن عبد السلام، ٢/ ٦٣، دار المعارف، بيروت.

(٢٥) سنن أبي داود، كتاب الطهارة، باب في المجروح يتيمم، حديث رقم: ٣٣٦.

(٢٦) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب العلم، باب كيف يقبض العلم، حديث رقم: ١٠٠، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان، حديث رقم: ٢٦٧٣.

(٢٧) صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصّلاة، ونسخ ما كان من إباحته، حديث رقم: ٥٣٧.

(٢٨) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب من سئل علمًا وهو مشتغلٌ في حديثه، فأتمّ الحديث ثمّ أجاب السّائل، حديث رقم: ٥٩.

(٢٩) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب: المعاصي من أمر الجاهليّة، ولا يُكَفَّرُ صاحبها بارتكابها إلّا بالشّرك، حديث رقم: ٣٠، وصحيح مسلم، كتاب الأيمان، باب إطعام المملوك ممّا يأكل، وإلباسه ممّا يلبس، ولا يُكَلِّفْهُ ما يغلبه، حديث رقم: ١٦٦١، واللفظ له.

(٣٠) انظر: ديوان البوصيري لشرف الدين محمد بن سعيد بن حمّاد الجنوني الصنهاجي، المتوفى سنة ٦٩٦ هـ ص ٢٤٧، الحلبي.

(٣١) انظر: ديوان أبي الأسود الدؤلي، تحقيق: الشيخ محمد حسن آل ياسين، ص ٣٨، مكتبة النهضة، بغداد. والسراة: جمع سري، وهو: النفيس الشريف، وقيل: السخي ذو المروءة، وجمع الجمع: سروات. انظر: النهاية في غريب الحديث الأثير، مادة (سرى)، ٢/ ٣٦٣، وانظر: مقاييس اللغة لابن فارس، مادة (سرو).

(٣٢) صحيح البخاري: كتاب الشركة، باب هل يُقْرَعُ في القِسمة والاستهام فيه، حديث رقم: ٢٤٩٣.

(٣٣) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الإِيمَانِ، باب الزكاة من الإسلام، حديث رقم: ٤٦، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الصّلوات التي هي أحد أركان الإسلام، حديث رقم: ١١، واللفظ له.

(٣٤) مسند أحمد، ٣٧/ ٤١٧، حديث رقم: ٢٢٧٥٧.

(٣٥) سنن الترمذي، كتاب البرّ والصّلة، باب ما جاء في حسن الخلق، حديث رقم: ٢٠٠٤، وقال: حديث صحيح غريب.

(٣٦) الأدب المفرد للإمام البخاري، باب إماطة الأذى، ص ٨٩، حديث رقم: ٢٢٨، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية، بيروت.

(٣٧) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب من أخذ بالركاب ونحوه، حديث رقم: ٢٩٨٩، وصحيح مسلم، كتاب الزّكاة، باب بيان أنّ اسم الصّدقة يقع على كلّ نوعٍ من المعروف، حديث رقم: ١٠٠٩، واللفظ له.

(٣٨) انظر: المهذب في فقه الإمام الشافعي لأبي إسحاق الشيرازي، ٣/ ٤٣٨، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٣٩) انظر: الموافقات للإمام الشاطبي، ٢/ ٤٨٩.

(٤٠) انظر: المصدر السابق، ٢/ ٥٢٠.

(٤١) انظر: الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام للإمام القرافي، ص ٢١٨.

(٤٢) انظر: إعلام الموقعين لابن القيم، ٣/ ٦٦، دار الكتب العلمية.

(٤٣) انظر: رسائل ابن عابدين «رسالة العرف»، ٢/ ١٧٢، دار الكتب العلمية.

(٤٤) سنن الدارقطني، كِتَابُ الرَّضَاعِ، حديث رقم: ٤٣٩٦.

(٤٥) مسند الشاميين للطبراني، ٣/ ٢٠٩، حديث رقم: ٢١٠٢.

(٤٦) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب العلم، باب ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا، حديث رقم: ٦٩، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب في الأمر بالتيسير وترك التعسير، حديث رقم: ١٧٣٢.

(٤٧) صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب صَبِّ المَاءِ عَلَى البَوْلِ فِي المَسْجِدِ، حديث رقم: ٢٢٠.

(٤٨) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الأذان، بَابُ مَنْ شكا إمامه إذا طَوَّلَ، حديث رقم: ٧٠٥، وصحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب القراءة في العشاء، حديث رقم: ٤٦٥.

(٤٩) أصله في صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب مباعدته ﷺ للآثام، واختياره من المباح أسهله وانتقامه لله عند انتهاك حرماته، حديث رقم: ٢٣٢٧، ولفظه: عن عائشة زوج النبيّ ﷺ أنها قالت: «مَا خُيِّرَ رَسُولُ الله ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إِلَّا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا مَا لَمْ يَكُنْ إِثْمًا، فَإِنْ كَانَ إِثْمًا كَانَ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنْهُ، وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ الله ﷺ لِنَفْسِهِ، إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ الله عَزَّوَجَلَّ».

(٥٠) راجع في ذلك: الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام للقرافي، ص ٩٩ وما بعدها.

(٥١) صحيح مسلم، كتاب المَسَاجِدِ ومواضع الصّلاة، باب جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، حديث رقم: ٥٢٣.

(٥٢) سنن أبي داود، كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب في إحياء الموات، حديث رقم: ٣٣٠٧.

(٥٣) انظر: الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام للقرافي، ص ١١١.

(٥٤) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب فرض الخمس، باب مَنْ لم يُخَمِّسِ الأَسْلاَبَ، وَمَنْ قتل قتيلًا فله سلبه من غير أن يُخَمِّس، وحكم الإمام فيه، حديث رقم: ٣١٤٢، وصحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب استحقاق القاتل سلب القتيل، حديث رقم: ١٧٥١.

(٥٥) صحيح البخاري، كتاب الطلاق، باب الخلع وكيف الطلاق فيه، حديث رقم: ٥٢٧٣.

(٥٦) شعب الإيمان للبيهقي، الشعبة السابعة والخمسون، حديث رقم: ٧٩٢٥، واللفظ له، وانظر: المستدرك على الصحيحين للحاكم، كتاب الجنائز، حديث رقم: ١٣٩٩، وقال: «هذا حديثٌ صحيحٌ على شرط الشّيخين، ولم يخرّجاه».

(٥٧) تصحيفات المحدثين لأبي أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد بن إسماعيل العسكري، المتوفى سنة ٣٨٢هـ ٢/ ٨٤٠، المحقق: محمود أحمد ميرة، المطبعة العربية الحديثة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ.

(٥٨) مسند أحمد، ١٥/ ٤٢١، حديث رقم: ٩٦٧٥.

(٥٩) سنن الترمذي، أبواب البرّ والصّلة، باب ما جاء في حقّ الجوار، حديث رقم: ١٩٤٤، وقال: حديث حسن.

(٦٠) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الوصاة بالجار، حديث رقم: ٦٠١٥، وصحيح مسلم، كتاب البرّ والصّلة والآداب، باب الوصيّة بالجار والإحسان إليه، حديث رقم: ٢٦٢٤.

(٦١) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، حديث رقم: ٦٠١٨، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الحثّ على إكرام الجار والضيف، ولزوم الصمت إلا عن الخير وكون ذلك كله من الإيمان، حديث رقم: ٧٥.

(٦٢) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب إثم من لا يأمن جاره بوايقه، حديث رقم: ٦٠١٦، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان تحريم إيذاء الجار، حديث رقم: ٧٣.

(٦٣) ذكر نحوه ابن قتيبة الدينوري في المجالسة وجواهر العلم، وهو: أبو بكر أحمد بن مروان الدينوري المالكي، المتوفى سنة ٣٣٣هـ المحقق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، جمعية التربية الإسلامية (البحرين، أم الحصم)، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ١٤١٩هـ ٣/ ٨٦، ولفظه: قَالَ رَجُلٌ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّ فُلَانًا رَجُلُ صِدْقٍ. فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: هَلْ سَافَرْتَ مَعَهُ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: فهل كان بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ مُعَامَلَةٌ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: فَهَلِ ائْتَمَنْتَهُ عَلَى شَيْءٍ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: فَأَنْتَ الَّذِي لَا عِلْمَ لَكَ بِهِ، أَرَاكَ رَأَيْتَهُ يَرْفَعُ رَأْسَهُ وَيَخْفِضُهُ فِي الْمَسْجِدِ.

(٦٤) صحيح مسلم، كتاب البرّ والصّلة والآداب، باب الوصيّة بالجار والإحسان إليه، حديث رقم: ٢٦٢٥.

(٦٥) سنن الترمذي، أبواب البرّ والصّلة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في حقّ الجوار، حديث رقم: ١٩٤٣.

(٦٦) المعجم الكبير للطبراني، ١١/ ٢٥٢، حديث رقم: ١١٦٤٨.

(٦٧) صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب الوفاء بالعهد، حديث رقم: ١٧٨٧.

(٦٨) متفق عليه: صحيح البخاري: كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، حديث رقم: ٣٤، وصحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، حديث رقم: ٥٨، واللفظ له.

(٦٩) مسند أحمد، ٣/ ٢٦٦، حديث رقم: ١٧٤٠.

(٧٠) مسند أحمد، ١٩/ ٢١٨، حديث رقم: ٨٩٥٢.

(٧١) شرح السنة للبغوي، ٤/ ٢٠٢، وذكره السيوطي في الجامع الصغير، ١/ ٤١٣ حديث رقم: ٢٦٩٦، بلفظ: «أنا أعربكم، أنا من قريش، ولساني لسان بني سعد بن بكر»، وقال: حديث صحيح.

(٧٢) شعب الإيمان للبيهقي، ٣/ ٢١٠، حديث رقم: ١٥٥٥، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٧٣) انظر: كتاب فتوح البلدان لأبي الحسن أحمد بن يحيى البلاذري، ص ٣٤١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٣هـ.

(٧٤) شعب الإيمان، السابع عشر، باب في طلب العلم، ٣/ ٢١٠، حديث رقم: ١٥٥٧، والجامع لأخلاق الراوي للخطيب البغدادي، ٢/ ٨١، دار الوفاء للطباعة والنشر.

(٧٥) انظر: الثقافة العربية الإسلامية وتجربة التفاعل مع الآخر، د/ محمد رزمان، ص ٢٦، دار الكتاب الثقافي.

(٧٦) انظر: فلسفة اللغة العربية لجُرجي زيدان، ص ١٠٤، المحرر الأدبي للنشر والتوزيع.

(٧٧) انظر: نحو وعي لغوي، لمازن المبارك، ص ١٩، مؤسسة الرسالة، ودار الفرقان.

(٧٨) انظر: ديوان امرئ القيس، ص ١٤٢، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٨٥هـ.

(٧٩) انظر: المذاهب الفقهية وأهميتها في المحافظة على الشريعة الإسلامية، د/ هاني تمام، ص ٥١، دار الإفتاء المصرية.

(٨٠) انظر: الاعتصام لإبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، المتوفى سنة ٧٩٠هـ تحقيق: سليم بن عيد الهلالي، ٢/ ٨١٠، دار ابن عفان، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

(٨١) انظر: المذاهب الفقهية وأهميتها في المحافظة على الشريعة الإسلامية، ص ٥٢.

(٨٢) راجع كتابنا: الفكر النقدي بين التراث والمعاصرة.. نحو نظرية عربية في النقد الأدبي، ص ٦، وزارة الأوقاف.

(٨٣) انظر: المرجع السابق، ص ٢٥٦.

(٨٤) انظر: الوساطة بين المتنبي وخصومه، لأبي الحسن الجرجاني، ص٣ من المقدمة، مكتبة العرفان.

(٨٥) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الأطعمة، باب التسمية على الطعام والأكل باليمين، حديث رقم: ٥٣٧٦، صحيح مسلم، كتاب الأشربة، باب آداب الطعام والشراب وأكلها، حديث رقم: ٢٠٢٢.

(٨٦) سنن الترمذي، أبواب الأطعمة، باب ما جاء في تخمير الإناء، حديث رقم: ١٨١٢، وقال: حسن صحيح.

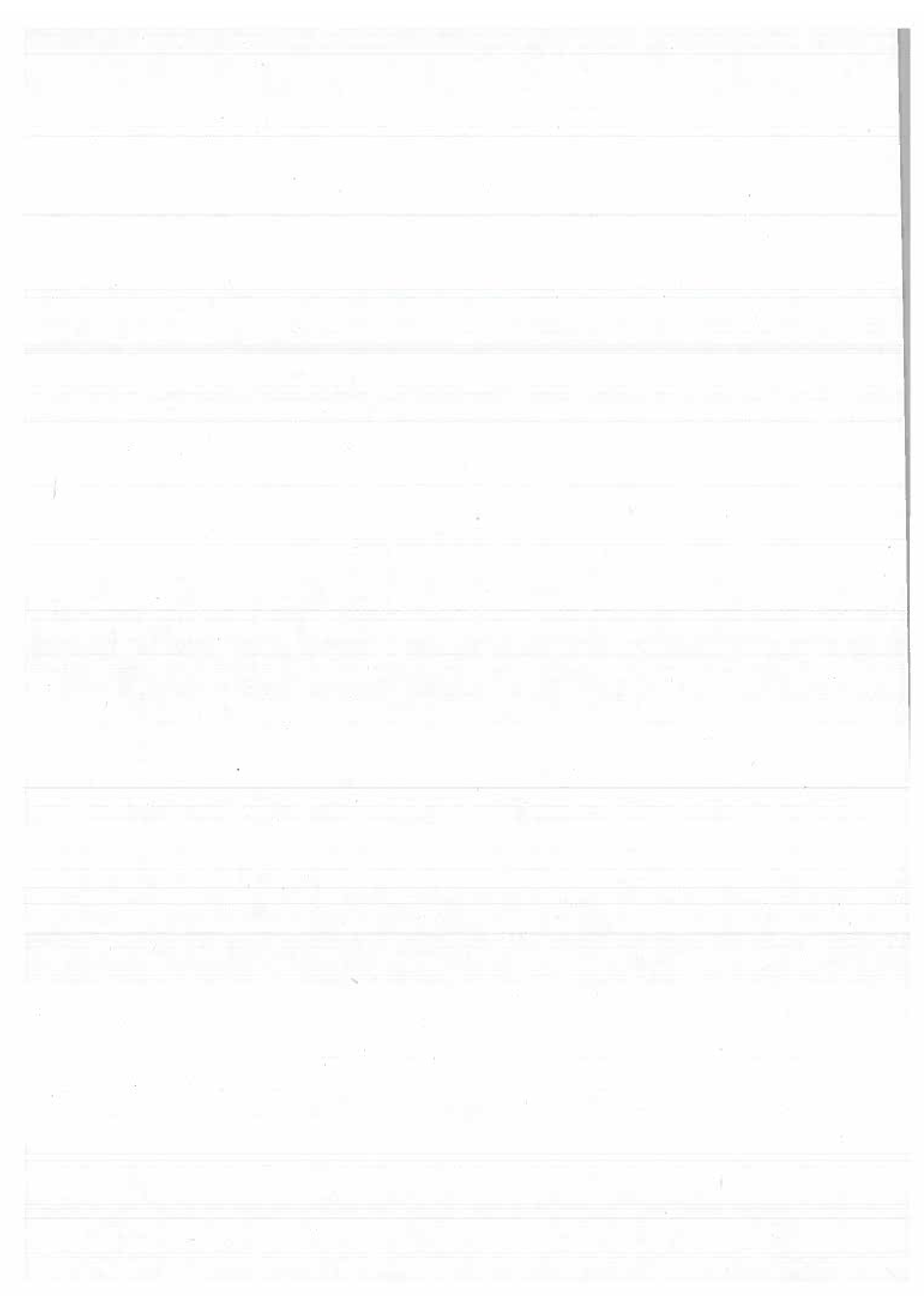
(٨٧) صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب إثم من باع حرًّا، حديث رقم: ٢٢٢٧.



(٨٨) متفق عليه، صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب اسم الفرس والحمار، حديث رقم: ٢٨٥٦، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب من لقي الله بالإيمان وهو غير شاك دخل الجنة وحرِّم على النار، حديث رقم: ٣٠٦، واللفظ له.

(٨٩) التذكرة الحمدونية، أبو المعالي بهاء الدين بن حمدون البغدادي، ١/ ٢٩٢، ٢٩٣، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

(٩٠) مسند أبي يعلى الموصلي، ٧/ ٣٤٩، حديث رقم: ٤٣٨٦.





فن الخطابة بين الماضي والحاضر

الخطابة أحد أهم فنون القول، وضروب البيان، ووسائل التأثير، وإذا كان الشعر لغة الخاصة فإن الخطابة لغة الخاصة والعامة معًا.

والخطابة أقدم الفنون الأدبية وأوسعها انتشارًا؛ إذ لا يُتصَوَّر أن يكون الشعر بتفعيلاته أو تِقنياته وتركيباته سابقًا على الخطابة بعفويتها وتلقائيتها وحاجة الناس الملحة إليها، كما لا يتصور أن تكون القصة ببنائها الفني سابقة عليها أيضًا، اللهم إلا ما كان حكيًا أو روايةَ أحداثٍ لا ترقى إلى مفهوم الفن القصصي، وإذا كان هذا حال القصة فمن باب أولى حال الرواية والمسرح.

وإذا كان فن الشعر قد نال منه في بعض العصور تكسُّب بعض الشعراء به؛ فإن الخطابة في جملتها كانت لسان حال سادة القبائل وأشرافها في العصر الجاهلي، ثم كانت في صدر الإسلام لسان حال الخلفاء الراشدين وولاتهم على الأمصار، ثم لسان حال الخلفاء والملوك والأمراء والولاة في العصرين الأموي والعباسي الأول، وصارت في العصر الحديث لسان حال الرؤساء والملوك، والقضاء الواقف والقضاء الجالس على حدٍّ سواء، إضافة إلى الخطابة الدينية والبرلمانية والاجتماعية.

أما الخطابة الدينية فقد نهضت نهضة عظيمة مع ظهور الإسلام، فَعَلَا شأنها، وارتفع قدرها، وتبوأت مكانًا عليًّا بين فنون القول وألوان البيان، حيث اتسع نطاقها، وارتفعت رايتها، ولا سيما في خطب الجمع والأعياد، وأضفى عليها الإسلام جانبًا كبيرًا من المهابة والتقدير عندما ندب المسلمين جميعًا إلى سماعها والإنصات إليها، ونهى عن اللغو أثناء سماعها، فصارت خطبة الجمعة عيد المسلمين الأسبوعي، الذي يحرصون فيه على التزود بما ينفعهم في أمور دينهم ودنياهم؛ مما يجعل مهمة

الخطيب عظيمة وثقيلة في آنٍ واحد.

وفي هذا المبحث نلقي الضوء على تاريخ الخطابة من العصر الجاهلي، إلى عصر صدر الإسلام، فالأموي، فالعباسي، فالعصر الحديث، وقد ضَمَّنت كل عصر نماذج مختارة تعبر عن حال الخطابة فيه من جهة، وتقدم زادًا علميًّا ومعرفيًّا وثقافيًّا يسهم في صقل معارف المتلقي وملكته الأدبية والبيانية من جهة أخرى.

الخطابة قبل الإسلام

أ ـ دوافع الخطابة وألوانها قبل الإسلام:

كان للخطابة في العصر الجاهلي دوافعها؛ فهي وسيلة للدعوة إلى الحرب، والقتال، والأخذ بالثأر، والانتصار للقبيلة والعصبية أو التعصب لها، والتفاخر والتباهي بأمجادها، ومفاخرة غيرها من القبائل أو منافرتها، وهي لدى العقلاء منهم وسيلة للصلح بين المتحاربين أو المتخاصمين، وللرجوع إلى صوت الحكمة والعقل، وهي إحدى وسائلهم للإقناع والتأثير على الملوك والسادة عند الوفادة عليهم، وهي نمط من أنماط حياتهم في المناسبات الاجتماعية كالزواج وغيره، وهم مع ذلك كله أرباب البلاغة والبيان، لا تنقصهم الفصاحة، ولا يتطرق إلى ألسنتهم لحن ولا عجمة.

وقد انبثقت موضوعات الخطابة في العصر الجاهلي من هذه الدوافع، وتمثلت أهم ألوانها عندهم فيما يأتي:

١- التحريض على القتال والأخذ بالثأر.

٢- إصلاح ذات البين.

٣- خطب المفاخرات والمنافرات.

٤- خطب الوفود والسفارات.

٥- خطب النكاح.

٦- خطب التوجيه والنصح والإرشاد.

ب ـ نماذج من خطبهم:

١- من خطبة قُسّ بْن سَاعِدَة الإِيَادِيّ[1]:

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَدِمَ وَفْدُ عَبْدِ القَيْسِ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «أَيُّكُمْ يَعْرِفُ القُسَّ بْنَ سَاعِدَةَ الإِيَادِيَّ؟»، قَالُوا: كُلُّنَا يَا رَسُولَ اللهِ يَعْرِفُهُ، قَالَ: «فَمَا فَعَلَ؟»، قَالُوا:

هَلَكَ، قَالَ: «مَا أَنْسَاهُ بِعُكَاظٍ فِي الشَّهْرِ الحَرَامِ وَهُوَ عَلَى جَمَلٍ أَحْمَرَ، وَهُوَ يَخْطُبُ النَّاسَ، وَهُوَ يَقُولُ:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اجْتَمِعُوا، وَاسْتَمِعُوا، وَعُوا، مَنْ عَاشَ مَاتَ، وَمَنْ مَاتَ فَاتَ، وَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ آتٍ، إِنَّ فِي السَّمَاءِ لَخَبَرًا، وَإِنَّ فِي الأَرْضِ لَعِبَرًا، مِهَادٌ مَوْضُوعٌ، وَسَقْفٌ مَرْفُوعٌ، وَنُجُومٌ تَمُورُ، وَبِحَارٌ لَا تَغُورُ، أَقْسَمَ قُسٌّ قَسَمًا حَقًّا لَئِنْ كَانَ فِي الأَرْضِ رِضًا لَيَكُونَنَّ بَعْدَهُ سَخَطٌ، إِنَّ لله لَدِينًا هُوَ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ دِينِكُمُ الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ، مَا لِي أَرَى النَّاسَ يَذْهَبُونَ وَلَا يَرْجِعُونَ؟ أَرَضُوا فَأَقَامُوا، أَمْ تُرِكُوا فَنَامُوا؟»[٢].

١- خطبة أبي طالب في زواج نبينا محمد ﷺ بالسيدة خديجة بنت خويلد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:

وهذه الخطبة تعد من أشهر خطب الزواج في أدبنا العربي، وفيها قام أبو طالب فقال:

الحمدُ لله الذي جعلَنا مِنْ ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ وزَرْعِ إسماعيل، وجَعَلَ لنا بلدًا حَرَامًا، وبَيْتًا مَحْجُوجًا، وجَعَلَنَا الحُكَّامَ على الناسِ، ثُمَّ إنَّ محمد بن عبدِ الله ابن أخي مَنْ لا يُوازَنُ بِهِ فَتى مِنْ قُرَيش إلَّا رَجَحَ عليه برًّا وفضلًا، وكرمًا وعقلًا، ومجدًا ونبلًا، وإن كان في المالِ قلَّ؛ فإنما المالُ ظلٌّ زائلٌ وعاريةٌ مُسترجعةٌ، وله في خديجة بنتِ خويلد رغبةٌ، ولها فِيهِ مِثْلُ ذَلكَ، وما أَحْبَبْتُمْ مِنَ الصَّداقِ فعليّ[٣].

٢- من خطبة هانئ بن قبيصة[٤] في التحريض على القتال:

قامَ هانئُ بنُ قبيصة الشيباني في يومِ ذِي قار[٥] يُحَرِّضُ قَوْمَهُ مِنْ بني بكرٍ عَلَى القِتَالِ، فقال: يا معشرَ بكرٍ، هَالِكٌ معذورٌ خيرٌ من ناجٍ فرورٍ، إن الحذرَ لا يُنجِي من القدرِ، وإن الصبـرَ من أسباب الظفرِ، المنيَّة ولا الدنيَّة، استقبالُ الموتِ خيرٌ من استدبارِه، الطعنُ في ثغر النحورِ أكرمُ منه في الأعجازِ والظهورِ، يا آل بكرٍ: قاتلوا فما للمنايا بُـدّ[٦].

٣- من خطبة نفيل بن عبد العزى[٧] في الحكم بين المتنافرين:

وكان حربُ بنُ أُمية قد نافرَ عبدَ المطلبِ بنَ هاشم جدّ النبي ﷺ وقد احتكما إلى نُفَيل بنِ عبد العزى، فقال نفيلٌ مخاطبًا حربًا: يا أبا عمر، أتنافرُ رَجُلًا هو أطولُ منك قامةً، وأوسم منك وسامةً، وأعظم منك هامةً، وأقل منك

لامةً، وأكثر منك ولدًا، وأجزل منك صفدًا[٨]، وأطول منك مذودًا؟!![٩]، وإني لأقولُ هذا وإن فيك لخصالًا: إنك لبعيد الغضبِ، رفيعُ الصيت في العرب، جَلد المريرة[١٠]، تحبُّك العشيرةُ، ولكنك نافرت منفرًا[١١].

٥- من خطبة المأمون الحارثي، يقول فيها:

أرعوني أسمـاعَكُم، وأصغوا إليَّ قلوبَكُمْ؛ يبلغ الوعظُ منكم حيث أُريدُ، طمح[١٢] بالأهواء الأشر[١٣]، وران[١٤] على القلوب الكدر، وطخطخ الجهل[١٥] النظر، إن فيما نرى لمعتبرًا لمن اعتبر، أرضٌ موضوعةٌ، وسماءٌ مرفوعةٌ، وشمسٌ تطلعُ وتغربُ، ونجومٌ تسري فتعزب، وقمرٌ تطْلعه النحورُ وتمحقه أدبارُ الشهورِ، وعاجزٌ مثرٌ[١٦]، وحولٌ[١٧] مكدٌ[١٨]، وشابٌ مختصرٌ[١٩]، ويفَن[٢٠] قد غبر[٢١]، وراحلون لا يئوبون، وموقوفون لا يفرطون، ومطرٌ يُرسَلُ بقدرٍ؛ فيحيي البشرَ، ويُورقُ الشجرَ، ويُطلعُ الثمرَ، ويُنبتُ الزهرَ، وماءٌ ينفجرُ من الصخرِ الأيرِ[٢٢]، فيصدع المدرَ[٢٣] عن أفنانِ الخضرِ، فيحيي الأنامَ، ويشبع السوامَ، وينمي الأنعامَ، إنَّ في ذلك لأوضحَ الدلائلِ على المُدبِّرِ الباريءِ المُصوِّرِ[٢٤].

الخطابة في عصر صدر الإسلام

أ- عوامل ازدهارها:

لقد نهضت الخطابة في صدر الإسلام نهضة عظيمة، فَعَلا شأنها، وارتفع قدرها، وتبوأت مكانًا عليًّا بين فنون القول وألوان البيان، ويرجع ذلك لعدة عوامل، أهمها:

١- تأثُّر الخطباء بروعة وبهاء الأسلوب القرآني، وكثرة استمدادهم منه، واستشهادهم أو استئناسهم به؛ إذ كانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل وفى الكلام يوم الجمع شيء من القرآن.

يقول عمران بن حطان[٢٥]: خطبت عند زياد خطبة ظننت أني لم أقصر فيها عن غاية، ولم أدع لطاعن علة، فمررت ببعض المجالس، فسمعت شيخًا يقول: هذا الفتى أخطب العرب لو كان في خطبته شيء من القرآن[٢٦].

٢- أن الإسلام فتح أمام الخطابة مجالات عديدة، فارتفعت رايتها في الجمع،



والأعياد، وصلاة الاستسقاء، والحماسة في القتال، ومجالس الصلح، والنكاح، والوعظ، والإرشاد.

٣- لم يقف تقدير الإسلام للخطابة عند توسيع نطاقها، إنما أضفى عليها شيئًا من المهابة، وجعلها داخلة في كثير من العبادات، وندب الناس إلى سماعها والإنصات إليها، فقال ﷺ: «لَا يَغْتَسِلُ رَجُلٌ يَوْمَ الجُمُعَةِ، وَيَتَطَهَّرُ مَا اسْتَطَاعَ مِنْ طُهْرٍ، وَيَدَّهِنُ مِنْ دُهْنِهِ[٢٧]، أَوْ يَمَسُّ مِنْ طِيبِ بَيْتِهِ، ثُمَّ يَخْرُجُ فَلَا يُفَرِّقُ بَيْنَ اثْنَيْنِ، ثُمَّ يُصَلِّي مَا كُتِبَ لَهُ، ثُمَّ يُنْصِتُ إِذَا تَكَلَّمَ الإِمَامُ، إِلَّا غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجُمُعَةِ الأُخْرَى»[٢٨].

وقد حذر النبي ﷺ تحذيرًا شديدًا من الكلام في أثناء خطبة الجمعة ولو كان طلبًا للإنصات، فقال ﷺ: «إِذَا قُلْتَ لِصَاحِبِكَ يَوْمَ الجُمُعَةِ: أَنْصِتْ - وَالإِمَامُ يَخْطُبُ - فَقَدْ لَغَوْتَ»[٢٩].

قال ابن حجر: ويدل على وجوب الإنصات حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «من دنا من الإمام فلغا ولم يستمع ولم ينصت كان عليه كفل من الوزر، ومن قال: صه؛ فقد لغا، ومن لغا فلا جمعة له، ثم قال: هكذا سمعت نبيكم ﷺ»[٣٠]؛ لأن الوزر لا يترتب على من فعل مباحًا ولو كان مكروهًا كراهة تنزيه[٣١].

٤- أن اتساع الأمصار الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين وَسَّع آفاق الخطابة وبسط سلطانها أكثر من ذي قبل، حيث صارت الحاجة في هذه الأمصار ماسَّة إلى الخطباء والوعاظ، سواء في خطب الجمع أم في المناسبات الاجتماعية والعامة.

٥- أن العرب كانوا لا يزالون على فطرتهم البيانية وسليقتهم العربية السليمة التي لم يتسرَّب إليها لحنٌ ولا عجمة؛ إذ كان احتكاكهم بغيرهم من الأمم ما يزال في بواكيره، ولم يصل إلى الدرجة التي يُخشى معها اللحن، إضافة إلى أنهم كانوا يعتزون بلغتهم التي هي جزء لا يتجزأ من دينهم وكيانهم.

ب - أغراض الخطابة في هذا العصر[٣٢]:

١- الحث على توحيد الله عَزَّوَجَلَّ، وبناء العقيدة الصحيحة من الإيمان بالله،

وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره حلوه ومره، والإيمان بالبعث والحساب والجنة والنار.

٢- العمل على إرساء مبادئ وقواعد الإسلام من العبادات، والمعاملات، والقيم، والأخلاق.

٣- بثُّ الحماسة، ولا سيما عند ملاقاة العدو أو الاستعداد لملاقاته.

٤- الوعظ والإرشاد.

٥- الحث على سمو العلاقات الاجتماعية، وإقامتها على أساس ديني، وذلك في شئون الصلح، والنكاح، وحق الجوار، وصلة الأرحام، وإصلاح ذات البين، وما شابه ذلك.

جـ - الأغراض التي قضت عليها الخطابة في عصر صدر الإسلام[٣٣]:

قضت الخطابة الإسلامية على كل الأغراض التي تخالف الدين وتعاليمه، ومنها:

١- الخطابة التي تدور حول المفاخرات والتباهي بالأحساب والأنساب، إذ يقول النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ عَزَّوَجَلَّ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ[٣٤] الجَاهِلِيَّةِ، وَفَخْرَهَا بِالْآبَاءِ، مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ، أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ، لَيَدَعَنَّ رِجَالٌ فَخْرَهُمْ بِأَقْوَامٍ، إِنَّمَا هُمْ فَحْمٌ مِنْ فَحْمِ جَهَنَّمَ، أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللهِ مِنَ الجِعْلَانِ[٣٥] الَّتِي تَدْفَعُ بِأَنْفِهَا النَّتِنَ»[٣٦].

وكان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول: وَاللهِ لَئِنْ جَاءَتِ الْأَعَاجِمُ بِالْأَعْمَالِ وَجِئْنَا بِغَيْرِ عَمَلٍ فَهُمْ أَوْلَى بِمُحَمَّدٍ مِنَّا يَوْمَ الْقِيَامَةِ[٣٧].

٢- الخطابة التي تدعو إلى الأخذ بالثأر، وإشعال نار الفتنة، وما يتبع ذلك من العداوة والبغضاء.

٣- الخطابة التي تدعو إلى الموبقات، وتقوم على إشاعة الفحشاء، إذ يقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

د - خصائص الخطابة في عصر صدر الإسلام:

اتسمت الخطابة في عصر صدر الإسلام بمجموعة من الخصائص والسمات، من أهمها:



١- بدؤها بالحمد والثناء والصلاة على رسول الله ﷺ، وكان خطباء السلف الصالح وأهل البيان من التابعين يسمون الخطبة التي لم تبدأ بالتحميد وتستفتح بالتمجيد: البتراء، ويسمون التي لم توشح بالقرآن وتزين بالصلاة على النبي ﷺ: الشوهاء[٣٨].

٢- كثرة الاستشهاد من القرآن الكريم وحديث النبي ﷺ على نحو ما نرى من قول الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في خطبة له: أوصيكم بتقوى الله وحده، وأن تثنوا عليه بما هو أهله، وتخلطوا الرغبة بالرهبة، والإلحاف بالمسألة[٣٩]؛ فإنّ الله أثنى على زكريّا وأهل بيته، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠][٤٠].

ومنه قول سيدنا عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في خطبة له: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَامَ فِي مِثْلِ مَقَامِي هَذَا، فَقَالَ: «أَحْسِنُوا إِلَى أَصْحَابِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ يَحْلِفُ أَحَدُهُمْ عَلَى اليَمِينِ قَبْلَ أَنْ يُسْتَحْلَفَ عَلَيْهَا، وَيَشْهَدُ عَلَى الشَّهَادَةِ قَبْلَ أَنْ يُسْتَشْهَدَ، فَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يَنَالَ بُحْبُوحَةَ الجَنَّةِ، فَلْيَلْزَمُ الجَمَاعَةَ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الوَاحِدِ، وَهُوَ مِنَ الاِثْنَيْنِ أَبْعَدُ، وَلا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ فَإِنَّ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطَانُ، وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ تَسُرُّهُ حَسَنَتُهُ وَتَسُوؤُهُ سَيِّئَتُهُ، فَهُوَ مُؤْمِنٌ»[٤١].

٣- سلوكها طريقًا دينيًّا في مثل خطب الجمعة، والعيدين، والحج، والإرشاد والتوجيه، والترغيب في الثواب والترهيب من العقاب[٤٢].

٤- عنايتها بجميع جوانب الحياة، فقد كانت لسان حال الإسلام الذي فصّل للناس كل ما يتصل بأمور دينهم ودنياهم.

٥- التأثر الشديد بأسلوب القرآن الكريم في البلاغة والإقناع.

٦- صفاء ألفاظها، وسهولة عباراتها، ومتانة أساليبها[٤٣]، وبُعْدها عن الغريب والحوشي، وتجنب السجع إلا ما يأتي عفوًا غير متكلف.

هـ- نماذج من الخطابة في هذا العصر:

١- من خطب أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

- لما بويع أبو بكر الصدّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صعد

المنبر، فنزل مرقاة من مقعد النبيّ ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

«إني وليت أمركم ولست بخيركم، ولكنه نزل القرآن وسنّ رسول الله ﷺ. اعلموا أيها الناس أنّ أكيس الكيس[44] التقى، وأنّ أحمق الحمق الفجور، وأنّ أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ له بحقّه، وأضعفكم عندي القويّ حتى آخذ منه الحقّ، إنما أنا متّبع ولست بمبتدع، فإن أحسنت فأعينوني، وإن زغت فقوّموني، أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم»[45].

- عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن عبد الله القرشيّ، عن عبد الله بن حكيم قال: خطبنا أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال:

«أما بعد، فإني أوصيكم بتقوى الله وحده وأن تثنوا عليه بما هو أهله، وتخلطوا الرغبة بالرهبة، والإلحاف بالمسألة؛ فإنّ الله أثنى على زكريّا وأهل بيته، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠].

ثم اعلموا أنكم تغدون وتروحون في أجل قد غيّب علمه عنكم، فإن استطعتم ألّا ينقضي إلا وأنتم في عمل لله فافعلوا، ولن تستطيعوا ذلك إلا بالله، فسابقوا في مهل؛ فإنّ قومًا جعلوا آجالهم لغيرهم ونسوا أنفسهم، فأنهاكم أن تكونوا أمثالهم، والوحى الوحى[46]، والنجاء النجاء! فإنّ من ورائكم طالبًا حثيثًا مرّه، سريعًا سيره»[47].

- وكان آخر كلام أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي إذا تكلم به عُرِف أنه قد فرغ من خطبته: اللهم اجعل خير زماني آخره، وخير عملي خواتمه، وخير أيامي يوم ألقاك[48].

٢- من خطب عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

- صعد عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا أيها الناس، إني داع فأمّنوا:

اللهم إني شحيح فسخّني في نوائب المعروف، قصدًا من غير سرف ولا تبذير، ولا رياء ولا سمعة، واجعلني أبتغي بذلك وجهك والدار الآخرة.

اللهم ارزقني خفض الجناح ولين الجانب



للمؤمنين، اللهم إني كثير الغفلة والنسيان، فألهمني ذكرك على كل حال، وذكر الموت في كل حين؛ اللهم إني ضعيف عن العمل بطاعتك، فارزقني النشاط فيها والقوة عليها بالنية الحسنة التي لا تكون إلا بعونك وتوفيقك.

اللهم ثبّتني باليقين والبرّ والتقوى، وذكر المقام بين يديك والحياء منك، وارزقني الخشوع فيما يرضيك عني، والمحاسبة لنفسي، وإصلاح الساعات، والحذر من الشبهات.

اللهم ارزقني التفكر والتدبر لما يتلوه لساني من كتابك، والفهم له، والمعرفة بمعانيه، والنظر في عجائبه، والعمل بذلك ما بقيت؛ إنك على كل شيء قدير.

– وكان آخر كلام عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ الذي إذا تكلم به عرف أنه فرغ من خطبته: اللهم لا تدعني في غمرة، ولا تأخذني على غرّة، ولا تجعلني من الغافلين[٩٩].

٣- من خطب عثمان بن عفان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ:

– خَطَب عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ الناس بعد ما بويع، فقال:

«أما بعد، فإني قد حملت وقد قبلت، ألا وإني متبع ولست بمبتدع، ألا وإن لكم عليّ بعد كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وسنة نبيه ﷺ ثلاثًا: اتباع من كان قبلي فيما اجتمعتم عليه وسننتم، وسن سنة أهل الخير فيما لم تسنوا عن ملأ، والكف عنكم إلا فيما استوجبتم. ألا وإن الدنيا خضرة قد شهيت إلى الناس، ومال إليها كثير منهم، فلا تركنوا إلى الدنيا، ولا تثقوا بها؛ فإنها ليست بثقة، واعلموا أنها غير تاركة إلا من تركها»[١٠٠].

– من آخر خطبة خطبها عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ:

«إن الله عَزَّوَجَلَّ إنما أعطاكم الدنيا لتطلبوا بها الآخرة، ولم يعطكموها لتركنوا إليها، إن الدنيا تفنى، والآخرة تبقى، فلا تبطرنكم الفانية، ولا تشغلنكم عن الباقية، فآثروا ما يبقى على ما يفنى، فإن الدنيا منقطعة، وإن المصير إلى الله، اتقوا الله عَزَّوَجَلَّ، فإن تقواه جنة من بأسه، ووسيلة عنده، واحذروا من الله الغير»[١٠١].

٤- من خطب علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ:

– خطب علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فقال:

«أما بعد، فإن الدنيا قد أدبرت وآذنت

بوداع، وإنّ الآخرة قد أقبلت فأشرفت باطّلاع، وإن المضمار اليوم وغدًا السّباق، ألا وإنكم في أيام أمل من ورائه أجل، فمن قصّر في أيام أمله قبل حضور أجله فقد خسر عمله.

ألا فاعملوا لله في الرّغبة كما تعملون له في الرّهبة، ألا وإنّي لم أر كالجنة نام طالبها، ولا كالنار نام هاربها.

ألا وإنه من لم ينفعه الحقّ ضرّه الباطل، ومن لم يستقم به الهدى جار به الضلال، ألا وإنكم قد أُمرتم بالظّعن[٥٢]، ودُللتم على الزاد؛ وإنّ أخوف ما أخاف عليكم اتّباع الهوى وطول الأمل»[٥٣].

– ومن خطب علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال بعد حمد الله والثناء عليه:

«أوصيكم عبادَ الله ونَفسي بتَقْوى الله ولُزوم طاعته، وتقديم العَمَل، وتَرْك الأمَل؛ فإنه من فَرّط في عمله لمْ يَنْتفع بِشيء من أمله.

أين التَّعب بالليل والنهار، والمقتحم لِلُجج البحارِ، ومَفاوِز القِفار، يَسير من وراء الجبال، وعالج الرمال[٥٤]، يَصل الغُدُوّ بالرّواح، والمَساء بالصَّباحِ، في طلب مُحقَرات الأرباح؛ هَجَمتْ عليه منيّته، فعظُمت بنفسه رَزِيته؛ فصار ما جَمع بُورًا، وما اكتسب غرورًا، ووافَى القيامةَ مَحْسورًا.

أيها اللاهي الغارّ بنفسه، كأنّي بك وقد أتاك رسولُ ربك، لا يَقْرع لك بابًا، ولا يَهاب لك حِجابًا؟ ولا يَقْبل منك بَدِيلًا، ولا يأخذ منك كَفِيلًا، ولا يرْحم لك صغيـرًا، ولا يُوقّر فيك كبيرًا؛ حتى يُؤدِّيك إلى قَعْرِ مُظلمة، أرجاؤُها مُوحشة، كفِعْله بالأمم الخالية، والقُرون الماضية.

أين مَن سعى واجتهد، وجَمع وعدّد، وبَنَى وشَيّد، وزَخرف ونَجّد، وبالقليل لم يَقْنع، وبِالكثير لم يُمتَّع؟ أضحَوْا رُفاتًا، تحت الثرى أمواتًا، وأنتم بكأسهم شاربون، ولسبيلهم سالكون. عبادَ الله، فاتّقوا الله ورَاقبوه، واعملوا لِلْيوم الذي تُسيَّر فيه الجبال، وتَنشق السماء بالغَمام، وتَتطايَرُ الكُتب عن الأيمان والشمائل»[٥٥].

الخطابة في العصر الأموي

أ ـ ازدهار فن الخطابة في هذا العصر:

ازدهرت الخطابة في هذا العصر ازدهارًا كبيرًا، وذلك لعوامل عدة، منها:



١- أن دولة بني أمية كانت دولة عربية أعرابية، وكان خلفاؤها وأمراؤها وقوادها معتزين بثقافتهم العربية الإسلامية، يعرفون للعربية مكانها، وينفرون من الخطأ أو اللحن فيها نفارهم من الضَّيْم، وقد عُرِف عددٌ كبيرٌ من السياسيين في هذا العصر بقوته وتميزه في ميدان الخطابة، وعلى رأسهم: الحجاج بن يوسف الثقفي، وزياد ابن أبيه، وخالد بن عبد الله القسري، وغيرهم.

٢- كان للصراع المحتدم بين الفرق والأحزاب السياسية أثر بالغ في إذكاء جذوة الخطابة والتفنين في القول في هذا العصر، فإلى جانب خطباء الأمويين كان لكل حزبٍ خطباؤه الذين يدافعون عنه، ويفنّدون حجج وآراء خصومه.

٣- أدى اتساع الأمصار، وكثرة الولاة والقواد في هذا العصر إلى فتح مجال أوسع وأرحب أمام الخطابة والخطباء.

٤- اتساع مجال القول وإعطاء الخطباء حقهم من الإكرام والتقدير، فإلى جانب خطباء السياسة كانت خطابة المحافل والوفود تحظى باهتمام بالغ، فقد فتح معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بابه على مصراعيه أمام الوفود بشعرائها وخطبائها، وأجزل العطاء لهؤلاء وأولئك، وعلى هذا النهج سار خلفاء بني أمية من بعده.

وإلى جانب خطباء السياسة وخطباء المحافل والوفود كان لخطباء الوعظ والقصص مكانة رفيعة، ويأتي على رأس وعاظ هذا العصر الحسن البصري(٥٦)، وفيه يقول الجاحظ: وأما الخطب الدينية فإنا لا نعرف أحدًا يتقدم الحسن البصري فيها(٥٧).

ب - نماذج من الخطابة في هذا العصر:

١- من خطب عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ(٥٨):

عَنْ عُبَيْدِ الله بْنِ عُمَرَ، أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ العَزِيزِ رَحِمَهُ اللهُ، خَطَبَ فَقَالَ:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللهَ لَمْ يَبْعَثْ بَعْدَ نَبِيِّكُمْ نَبِيًّا، وَلَمْ يُنْزِلْ بَعْدَ هَذَا الكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابًا، فَمَا أَحَلَّ اللهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ فَهُوَ حَلَالٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، وَمَا حَرَّمَ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ فَهُوَ حَرَامٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، أَلَا وَإِنِّي لَسْتُ بِقَاضٍ، وَلَكِنِّي

مُنَفِّذٌ، وَلَسْتُ بِمُبْتَدِعٍ وَلَكِنِّي مُتَّبِعٌ، وَلَسْتُ بِخَيْرٍ مِنْكُمْ، غَيْرَ أَنِّي أَثْقَلُكُمْ حِمْلًا، أَلَا وَإِنَّهُ لَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِ الله أَنْ يُطَاعَ فِي مَعْصِيَةِ الله، أَلَا هَلْ أَسْمَعْتُ؟»[59].

- من آخر خطبة خطبها عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ، حمد الله وأثنى عليه ثم قال:

أيها الناس، إنكم لم تخلقوا عبثًا، ولم تتركوا سدى، وإن لكم معادًا يحكم الله بينكم فيه، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله التي وسعت كل شيء، وحُرم جنة عرضها السماوات والأرض.

واعلموا أن الأمان غدًا لمن خاف اليوم، وباع قليلًا بكثير، وفانيًا بباقٍ؛ حتى يرد على خير الوارثين، ثم إنكم في كل يوم تشيعون غاديًا ورائحًا إلى الله قد قضى نحبه وبلغ أجله، ثم تغيبونه في صَدْع[60] في الأرض، ثم تدعونه غير موسد ولا ممهد، قد خلع الأسباب، وفارق الأحباب، وواجه الحساب، غنيًا عما ترك، فقيرًا إلى ما قدم.

وَايْم الله إني لأقول لكم هذه المقالة وما أعلم عند أحدٍ منكم أكثر مما عندي، فأستغفر الله لي ولكم، وما تبلغنا حاجة يتسع لها ما عندنا إلا سددناها، ولا أحد منكم إلا وددت أن يده مع يدي ولحمتي[61] الذين يلونني حتى يستوي عيشنا وعيشكم.

وايم الله إني لو أردت غير هذا من عيش أو غضارة[62] لكان اللسان به ناطقًا ذلولًا عالمًا بأسبابه، ولكنه مضى من الله كتاب ناطق وسنة عادلة؛ دلَّ فيها على طاعته، ونهى فيها عن معصيته. ثم بكى، فتلقى دموع عينيه بردائه ونزل[63].

٢- من خطب الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ:

- قال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ بعد حمد الله والثناء عليه:

يا بن آدم، بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعًا، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعًا، يا ابن آدم، إذا رأيت الناس في الخير فنافسهم فيه، وإذا رأيتهم في الشر فلا تغبطهم عليه.

الثواء[64] هنا قليل، والبقاء هناك طويل، أمتكم آخر الأمم، وأنتم آخر أمتكم، وقد



أسرع بخياركم، فماذا تنتظرون؟.

هيهات هيهات، ذهبت الدنيا بحاليها، وبقيت الأعمال قلائد في أعناق بني آدم، فيا لها من موعظة لو وافقت من القلوب حياة.

أما إنه والله لا أمة بعد أمتكم، ولا نبي بعد نبيكم، ولا كتاب بعد كتابكم، أنتم تسوقون الناس والساعة تسوقكم، وإنما ينتظر بأولكم أن يلحقه آخركم[٦٥].

- ومن خطبة أخرى للحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ إذ خرج يومًا على أصحابه وهم مجتمعون، فقال:

- والله لو أن رجلًا مِنْكُم أدرك من أدركت من القرن الأول، ورأى مَن رأيت من السلف الصالح؛ لأصبحَ مَهْمُومًا، وأمسى مغمومًا، وعلم أن المُجِدّ منكم كاللاعب، والمجتهد كالتارك.

أيها الناس: إنّ لله عبادًا قلوبهم محزونة، وشرورهم مأمونة، وأنفسهم عفيفة، صَبروا الأيام القلائل لما رجوه في الدهور الأطاول.

أما الليل فقائمون على أقدامهم، يتضرعون إلى ربهم؛ ويَسْعَونَ في فكاك رقابهم، تجري من الخشية دموعهم، وتخفق من الخوف قلوبهم.

وأما النهار فحلماء أتقياء أخفياء يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف، تخالهم من الخشية مرضى وما بهم من مرض، ولكنهم اختصوا بذكر النار وأهوالها.

لقد كانوا فيما أُحِلّ لهم أزهد منكم فيما حُرِّم عليكم، وكانوا أبصر بقلوبهم لدينهم منكم لدنياكم بأبصاركم، ولَهم كانوا لحسناتهم أن تردّ عليهم أخوف منكم أن تعذبوا على سيئاتكم، أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون[٦٦].

٣- من خطبة للحجاج بن يوسف الثقفي[٦٧]:

- حمد الله وأثنى عليه ثم قال:

«إنَّ الله كفانا مَئُونة الدنيا، وأمرنا بطَلَب الآخرة، فليت الله كفانا مئونة الآخرة، وأمرنا بطلب الدنيا.

ما لي أرى عُلماءكم يُدهنون[٦٨]، وجُهالكم لا يَتعلمون، وشِرارَكم لا يَتُوبون!

ما لي أراكم تَحْرِصون على ما كُفِيتم،

تُضيِّعون ما به أمِرْتم! إنَّ العِلْم يُوشك أن يُرفع، ورَفْعه ذهابُ العلماء.

ألا وإنّ الدُّنيا عَرَض حاضر، يأكل منها البَرّ والفاجِر، ألَا وإنَ الآخرةَ أجَلٌ مُستأخر، يَحكم فيه مَلِك قادر.

ألَا فاعملوا وأنتم من الله على حَذَر، واعلموا أنّكم مُلاقوه؛ ليَجْزي الذين أساءوا بما عَمِلوا، ويجزِي الذين أحسنوا بالحُسنى.

ألَا وإنَّ الخيرَ كلَّه بحذافيره في الجَنَّة، ألَا وإنَ الشر كله بحذافيرهِ في النار.

ألَا وإن مَن يَعمل مِثْقال ذَرّة خيرًا يَرَه، ومَن يَعملْ مِثْقال ذَرّة شرًّا يَرَه، وأستغفر الله لي ولكم»[٦٩].

الخطابة في العصر العباسي

في السنة الثانية والثلاثين بعد المائة من الهجرة النبوية انتقلت الخلافة من الشام إلى العراق، من بني أمية الذين كانت دولتهم عربية أعرابية إلى بني العباس الذين أقاموا دولتهم بمساندة الفرس وتأييدهم، فكان طبعيًا أن يكافئهم العباسيون بتولية بعض المناصب والأمور المهمة كإمارة الأقاليم، وقيادة الجيوش، والحجابة، والقضاء، ونحو ذلك.

وظل الفرس يعملون بمكرٍ ودهاءٍ، ويتسللون إلى المناصب الهامة حتى صار نفوذهم قويًا وبأسهم مخشيًا، وأحس بذلك الخليفة الرشيد فعجَّل بهم، ونكل برءوسهم فيما يعرف بنكبة البرامكة[٧٠]، ثم عاد نجمهم للظهور بعد أن ناصروا المأمون ووقفوا إلى جانبه في محاربة أخيه الأمين، حتى تحقق لهم بعض ما أرادوا، ولكن المأمون كان فطنًا أريبًا فانقلب بعد مقتل أخيه على السياسة الفارسية، وترك عاصمته مرو، وعاد إلى بغداد سنة ٢٠٤هـ[٧١]، غير أن النفوذ الفارسي في الدولة والجيش والحياة لم يضعف، فلما جاء المعتصم حاول السيطرة على الأمور والقضاء على نفوذ الفرس فاستعان بالأتراك الذين كانوا أشد خطرًا على الدولة العربية من الفرس، فكان كما قال المتنبي[٧٢]:

وَمَنْ يَجْعَل الضرْغَامَ بَازًا لِصَيْدِهِ
تَصَيدهُ الضرغامُ فيما تَصَيدَا



أما الحياة الثقافية فقد ازدادت عمقًا واتساعًا تبعًا لتحضر العقلية العربية ووقوفها على ثقافات الأمم الأخرى، واطّلاعها على علوم هذه الأمم وحضاراتها، وفي ظل هذه الحياة نشطت الحركة الأدبية شعرًا وخطابة وكتابة نشاطًا عظيمًا في العصر العباسي الأول وطرف يسير من العصر العباسي الثاني، حتى تغلغل فيه الأعاجم؛ فتغيرت الأمور والأحوال السياسية والثقافية والأدبية والخطابية على حدٍّ سواء.

ومن أهم العوامل التي ساعدت على ازدهار الفنون الأدبية بصفة عامة والخطابة بصفة خاصة في العصر العباسي الأول ما يلي:

١- نشاط البيئة العلمية واللغوية:

إن الحركة العلمية واللغوية التي نشأت في العصر الأموي قد نمت وازدهرت وآتت أكلها في العصر العباسي، فقد كثر أعلام اللغة والنحو والبلاغة والنقد، وكانت مجالس الخلفاء تكتظ باللغويين من أمثال: الكسائي، والأصمعي، والفراء، واليزيدي، وغيرهم، كما كانت مجالس خلفاء وولاة بني العباس فسيحة للأدباء من الشعراء والخطباء والنقاد؛ مما أسهم في ازدهار فنون القول شعرًا وخطابة وكتابة.

ومن نماذج نشاط البيئة العلمية واللغوية ما ذكره النضر بن شميل، قال: كنت أدخل على المأمون في سمره، فدخلت عليه ذات ليلة، فأجرينا الحديث إلى أن أخذ المأمون في ذكر النساء، فقال: حدثنا هشيم عن مجالد عن الشعبي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيها سَداد من عوز»، فقلت: صدق يا أمير المؤمنين هشيم، حدثنا عوف بن أبي جميلة عن الحسن بن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ قال: «إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيها سِداد من عوز»[٧٣]، قال: وكان المأمون متكئًا فاستوى جالسًا، فقال: يا نضر كيف قلت سَداد؟ قلت: يا أمير المؤمنين، السَّداد هنا لحن، قال: ويحك أتلحنني؟ قلت: إنما لحن هشيم - وكان لحّانة - فتبع أمير المؤمنين لفظه، قال: فما الفرق

بينهما؟ قلت: السداد (بفتح السين): القصد في الدين والسبيل، والسداد (بكسر السين): البلغة، وكل ما سددت به شيئًا فهو سداد، قال: وتعرف العرب هذا؟ قلت: نعم، العرجي يقول:

أَضَاعُـــونِي وأَيّ فَتًى أَضَاعُـوا
ليوم كَرِيهَـة وسِـداد ثَغْـــــر

فقال المأمون: قبّح الله من لا أدب له، ثم أطرق مليًا، ثم سأله عن أخلب بيت قالته العرب، وعن أنصف بيت، وعن أقنع بيت، والنضر يجيب بما يستحسنه المأمون، فأخذ المأمون القرطاس وكتب له كتابًا، وقال لخادمه: تبلغ معه إلى الفضل بن سهل، يقول النضر: فأتيت الفضل بالكتاب، فقال: يا نضر، إن أمير المؤمنين أمر لك بخمسين ألف درهم، فما كان السبب؟ فأخبرته، ولم أكذبه، فقال: لحنت أمير المؤمنين؟ فقلت: كلا، إنما لحن هشيم - وكان لحانة - فتبع أمير المؤمنين لفظه، وقد تتبع الفقهاء، فأمر لي الفضل بثلاثين ألفًا، فأخذت ثمانين ألفًا بحرف استفاده مني[٧٤].

٢ـ الصراعات السياسية:

لم تسلم الدولة العباسية من مناوأة الثوّار والخارجين، فقد تعرضت لثورات عديدة كدَّرت صفوها في كثير من الأوقات، وكان العلويون عدوًّا لدودًا لهذه الدولة، يتهددها ويتحين الفرصة للانقضاض عليها، ولم يكد العباسيون يستولون على مقاليد الخلافة حتى أخذ العلويون يشيعون في الناس أنهم اغتصبوها منهم، فهم ورثتها الحقيقون؛ إذ هم أبناء فاطمة بنت رسول الله ﷺ وأبناء علي ابن عمه[٧٥].

وقد توالت ثورات العلويين، وظلوا شوكة قوية في ظهر الدولة العباسية حتى أسسوا الدولة الفاطمية في بلاد المغرب، ثم استولوا على مصر والشام[٧٦].

وقد كان لهذا الصراع السياسي الدامي بين العباسيين والعلويين في أوائل هذا العصر أثر كبير في نهضة الخطابة وقوتها، فقد وقف بجانب العباسيين فريق كبير من الخطباء



يدافعون عنهم، وينكرون على العلويين حقهم في الخلافة، في حين كان لخصومهم ومناوئيهم خطباؤهم الذين يدافعون عنهم، ويؤيدون رؤاهم وقضاياهم.

ولم يكن العلويون هم العدو الأوحد للدولة العباسية، فقد كان الفرس يشكلون خطرًا كبيرًا لا يقل عن خطر العلويين، حيث توالت ثوراتهم بعد مقتل أبي مسلم الخراساني، وكانت ثورات بابك الخرمي التي اندلعت في أذربيجان سنة ٢٠١ هـ من أعنف الثورات التي هبّت في وجه الدولة العباسية(٧٧).

وهناك أعداء آخرون كانوا يثورون على الدولة بين الحين والحين، كتلك البقية التي بقيت من الخوارج، وإن كانت شوكتهم قد ضعفت في هذا العصر؛ نظرًا لكثرة ما تلقوه من ضربات في العصر الأموي(٧٨).

على أننا لا ننسى الصراع الدامي بين الأمويين والعباسيين، والذي انتهى باستيلاء بني العباس على مقاليد الحكم، وإن كان هذا الصراع قد حسم سياسيًا لصالح بني العباس، فإن محاولات الحشد المجتمعي والسجال الفكري قد ظلت آثارها ممتدة لعقود، وكانت واضحة أشد الوضوح في أوائل العصر العباسي الأول.

كما أن الصراعات التي دارت بين العباسيين أنفسهم كانت ذات أثر واضح في إذكاء جذوة الشعر، فحين احتدم الصراع بين الأمين والمأمون كان لكل منهما خطباؤه الذين يؤيدونه ويوالونه قولًا وعملًا.

وقد أسهمت كل هذه الصراعات في إذكاء فنون القول، ولا سيما الشعر والخطابة اللذين حاول كل فريق أن يستخدمها لتقوية موقفه، وحشد المؤيدين له، وتفنيد حجج خصومه.

٣ـ ازدهار حركة التأليف والترجمة:

اتسعت في هذا العصر آفاق العرب نتيجة احتكاكهم بالشعوب الأخرى، ونشطت حركة الترجمة في نقل علوم وآداب هذه الشعوب؛ مما كان له أثر واضح في نهضة الحركة العلمية والفكرية بصفة عامة، وبالطبع انعكس ذلك على ثقافة الخطباء، وتجلّى أثره في نمط

خطبهم وقدرتهم على التفنن فيها، وأخذنا نرى الخطب الطوال التي صارت سمةً أكثر بروزًا منها في أي عصر مضى.

٤- اتساع نطاق الكتابة والتدوين وظهور جماعات الوراقين:

أسهم اتساع نطاق الكتابة والتدوين وظهور جماعات الوراقين في تسجيل الخطب الطوال التي كان يصعب على الذاكرة الحافظة الاحتفاظ بها لوقت طويل، على عكس الشعر الأيسر حفظًا من الخطابة؛ نظرًا لإيقاعاته المؤثرة المعينة بطبيعتها على الحفظ أكثر من أي فنٍ أدبيٍّ آخر.

أ- نماذج من الخطابة في هذا العصر:

١- من خطب الخليفة المهدي(٧٩):

- الحمد لله الذي ارتضى الحمد لنفسه، ورضي به من خلقه، أحمده على آلائه، وأمجّده لبلائه، وأستعينه، وأؤمن به، وأتوكل عليه توكّل راضٍ بقضائه، وصابرٍ لبلائه.

وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده المصطفى، ونبيه المجتبى، ورسوله إلى خلقه، وأمينه على وحيه؛ أرسله بعد انقطاع الرجاء، وطموس العلم، واقتراب من الساعة، إلى أمّة جاهلية أمية، أهل عداوة وتضاغن، وفرقة وتباين، قد استهوتهم شياطينهم، وغلب عليهم قرناؤهم، فاستشعروا الرّدى، وسلكوا العمى، يبشّر من أطاعه بالجنة وكريم ثوابها، وينذر من عصاه بالنار وأليم عقابها ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٢].

أوصيكم عباد الله بتقوى الله، فإن الاقتصار عليها سلامة، والترك لها ندامة؛ وأحثّكم على إجلال عظمته، وتوقير كبريائه وقدرته، والانتهاء إلى ما يقرّب من رحمته وينجي من سخطه، وينال به ما لديه من كريم الثواب وجزيل المآب.

فاجتنبوا ما خوّفكم الله من شديد العقاب، وأليم العذاب، ووعيد الحساب؛ يوم توقفون بين يدي الجبار، وتعرضون فيه على النار، ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ



وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥]، ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧]، ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ١٢٣]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣]؛ فإن الدنيا دار غرور، وبلاء وشرور، واضمحلال وزوال، وتقلّب وانتقال؛ قد أفنت من كان قبلكم، وهي عائدة عليكم وعلى من بعدكم؛ من ركض إليها صرعته، ومن وثق بها خانته، ومن أملها كذبته، ومن رجاها خذلته، عزّها وغناها فقر، والسعيد من تركها، والشقيّ فيها من آثرها، والمغبون فيها من باع حظّه من دار آخرته بها.

فالله عباد الله، والتوبة مقبولة، والرحمة مبسوطة، وبادروا بالأعمال الزكية في هذه الأيام الخالية قبل أن يؤخذ بالكظم، وتندموا فلا تقالون بالندم، في يوم حسرة وتأسّف وكآبة وتلهف؛ يوم ليس كالأيام، وموقف ضنك المقام.

إن أحسن الحديث وأبلغ الموعظة كتاب الله؛ يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، أعوذ بالله العظيم من الشيطان الرجيم، بِسْمِ الله الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ١ - ٨].

أوصيكم عباد الله بما أوصاكم الله به، وأنهاكم عما نهاكم الله عنه، وأرضى لكم طاعة الله، وأستغفر الله لي ولكم»[٨٠].

٢- من خطب هارون الرشيد[٨١]:

الحمد لله، نحمده على نعمه، ونستعينه على طاعته، ونستنصره على أعدائه، ونؤمن به حقًّا، ونتوكل عليه مفوّضين إليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، بعثه الله على فترة من الرسل،

ودروس من العلم، وإدبار من الدنيا، وإقبال من الآخرة؛ بشيرًا بالنعيم المقيم؛ ونذيرًا بين يدي عذاب أليم، فبلّغ الرسالة، ونصح الأمّة، وجاهد في الله، فأدّى عن الله وعده ووعيده حتى أتاه اليقين؛ فعلى النّبي من الله صلاة ورحمة وسلام.

أوصيكم عباد الله بتقوى الله؛ فإن في التقوى تكفير السيئات، وتضعيف الحسنات، وفوزًا بالجنة، ونجاة من النار؛ وأحذركم يومًا تشخص فيه الأبصار، وتبلى فيه الأسرار، يوم البعث، ويوم التغابن، ويوم التلاق، ويوم التناد، يوم لا يستعتب من سيئة ولا يزداد في حسنة؛ قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ⑱ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٨ - ١٩]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

عباد الله، إنكم لم تخلقوا عبثًا، ولن تتركوا سدى؛ حصّنوا إيمانكم بالأمانة، ودينكم بالورع، وصلاتكم بالزكاة؛ فقد جاء في الخبر أن النبي ﷺ قال: «لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ»[٨٢]، إنكم سفر مجتازون، وأنتم عن قريب تنتقلون من دار فناء إلى دار بقاء، فسارعوا إلى المغفرة بالتوبة، وإلى الرحمة بالتقوى، وإلى الهدى بالإنابة، فإن الله تعالى ذكره أوجب رحمته للمتقين، ومغفرته للتائبين، وهداه للمنيبين، قال الله عَزَّوَجَلَّ وقوله الحق: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقال: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢].

وإياكم والأماني، فقد غرّت وأوردت وأبقت كثيرًا حتى أكذبتهم مناياهم، فتناوشوا التوبة من مكان بعيد، وحيل بينهم وبين ما يشتهون؛ فأخبركم ربّكم عن المثلات فيهم، وصرف الآيات، وضرب الأمثال، فرغّب بالوعد، وقدّم إليكم الوعيد، وقد رأيتم وقائعه بالقرون الخوالي جيلًا فجيلًا، وعهدتم



الآباء والأبناء والأحبة والعشائر باختطاف الموت إياهم من بيوتكم، ومن بين أظهركم، لا تدفعون عنهم، ولا تحولون دونهم، فزالت عنهم الدنيا، وانقطعت بهم الأسباب، فأسلمتهم إلى أعمالهم عند الموقف والحساب والعقاب ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

إنّ أحسن الحديث وأبلغ الموعظة كتاب الله، يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، أعوذ بالله العظيم من الشيطان الرجيم إنه هو السميع العليم، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١ - ٤]، آمركم بما أمركم الله به، وأنهاكم عما نهاكم الله عنه، وأستغفر الله لي ولكم(٨٣).

٣- من خطب المأمون(٨٤):

- خطب المأمون في يوم جمعة فقال:

«الحمد لله مستخلص الحمد لنفسه، ومستوجبه على خلقه، أحمده وأستعينه، وأؤمن به، وأتوكل عليه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

أوصيكم عباد الله ونفسي بتقوى الله وحده، والعمل لما عنده، والتنجّز لوعده، والخوف لوعيده؛ فإنه لا يسلم إلا من اتقاه ورجاه، وعمل له وأرضاه.

فاتقوا الله عباد الله، وبادروا آجالكم بأعمالكم؛ وابتاعوا ما يبقى بما يزول عنكم ويفنى، وترحلوا عن الدنيا فقد جدّ بكم، واستعدّوا للموت فقد أظلّكم، وكونوا كقوم صِيح فيهم فانتبهوا، وعلموا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا، فإن الله عَزَّوَجَلَّ لم يخلقكم عبثًا، ولم يترككم سدى، وما بين أحدكم وبين الجنة والنار إلا الموت أن ينزل به.

وإن غاية تنقصها اللحظة وتهدمها الساعة الواحدة؛ لجديرة بقصر المدّة، وإن غائبًا يحدوه الجديدان: الليل والنهار؛ لجدير بسرعة الأوبة، وإن قادمًا يحل بالفوز أو بالشقوة؛ لمستحق

لأفضل العدّة، فاتقى عبد ربَّه، ونصح نفسه وقدّم توبته، وغَلَبَ شهوته؛ فإن أجله مستور عنه، وأمله خادع له، والشيطان موكّل به يزيّن له المعصية ليركبها، ويمنّيه التوبة ليسوّفها، حتى تهجم عليه منيته أغفل ما يكون عنها،فيا لها حسرة على كل ذي غفلة أن يكون عمره عليه حجة، أو تؤدّيه أيامه إلى شقوة.

نسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن لا تبطره نعمة، ولا تقصّر به عن طاعة ربه غفلة، ولا يحل به بعد الموت فزعة، إنه سميع الدعاء، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير، فعّال لما يريد»[85].

- وخطب المأمون أيضًا يوم عيد الأضحى، فقال بعد التكبير والتحميد:

«إن يومكم هذا يوم أبان الله فضله، وأوجب تشريفه، وعظّم حرمته، ووفّق له من خلقه صفوته، وابتلى فيه خليله، وفدى فيه من الذبح العظيم نبيّه، وجعله خاتم الأيام المعلومات من العشر، ومقدّم الأيام المعدودات من النفر، يوم حرام من أيام عظام في شهر حرام، يوم الحج الأكبر، يوم دعا الله إلى مشهده، ونزل القرآن العظيم بتعظيمه، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧].

فتقرّبوا إلى الله في هذا اليوم بذبائحكم، وعظّموا شعائر الله، واجعلوها من طيّب أموالكم، وبصحة التقوى من قلوبكم، فإنه يقول: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]، ثم التكبير والتحميد، والصلاة على النبي ﷺ، والوصية بالتقوى، ثم ذكر الموت.

ثم قال: وما من بعده إلا الجنة أو النار، عظم قدر الدارين، وارتفع جزاء العملين، وطالت مدة الفريقين؛ الله الله، فوالله إنه الجدّ لا اللّعب، والحقّ لا الكذب، وما هو إلا الموت والبعث والميزان والحساب والصراط والقصاص والثواب والعقاب؛ فمن نجا يومئذ فقد فاز، ومن هوى يومئذ فقد خاب، الخير كلّه في الجنة، والشـرّ كله في النار»[86].



ضَعف الخطابة في العصر العباسي الثاني مع غلبة الأعاجم عليه:

مع دخول العصر العباسي الثاني خفت صوت الخطابة السياسية، فلم يعد صوت الخلفاء فيها عاليًا، وتنحّى أغلب خلفاء العصر العباسي الثاني عن خطب الجمع والمناسبات الدينية إلا ما كان من الخليفة المهتدي الذي وَلِي الخلافة (٢٥٥- ٢٥٦هـ)، أو الخليفة الراضي الذي تولَّى الخلافة (٣٢٢-٣٢٩هـ)، كما انتهت تقريبًا خطب المحافل والوفود التي كانت تفد على خلفاء بني أمية، وفي جانب من صدر دولة بني العباس، حيث اعتمدت الدولة العباسية في قوامها على الأعاجم أكثر من العرب، فلم يعد لخطابة المحافل والوفود موضع يُذكر، ولا سيما في العصر العباسي الثاني.

وكادت الخطابة تنزوي في المساجد ومجالس القُصّاص والوُعّاظ والمناسبات الاجتماعية؛ كخطب عقد الزواج، والصلح بين الناس، ونحو ذلك.

الخطابة في العصر الحديث

يؤرخ كثير من الكُتّاب للنهضة الأدبية الحديثة بقدوم الحملة الفرنسية إلى مصر سنة ١٧٩٨م، على أننا نؤكد أن هذا التأريخ لا يعدو سبيل التقريب، فإن بوادر اليقظة العربية كانت قد بدأت في الظهور في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي قبل قدوم الحملة الفرنسية إلى مصر، فقد بدأ العرب يعملون على الخلاص من الحكم العثماني الغاشم الذي حرم العرب من حقوقهم السياسية، وأهل العلم والثقافة، ولم تمكث الحملة الفرنسية في مصر إلا نحو ثلاثة أعوام، وهي فترة قصيرة في حساب التاريخ، ولا يمكن أن تؤدي – وحدها – إلى نتائج حيوية أو آثار عميقة في الثقافة والحضارة، وإن كانت قد ظهرت معالم نهضة ثقافية بعد جلاء الفرنسيين؛ فإن هذه النهضة تعد أثرًا من آثار اليقظة العربية التي ظهرت بوادرها قبل قدوم الفرنسيين[٨٧].

يقول الرئيس الراحل «جمال عبد الناصر» في الميثاق: ولم تكن الحملة الفرنسية على مصر مع

مطلع القرن التاسع عشر هي التي صنعت اليقظة المصرية في ذلك الوقت - كما يقول بعض المؤرخين - فإن الحملة الفرنسية حين جاءت إلى مصر وجدت الأزهر يموج بتيارات جديدة تتعدى جدرانه إلى الحياة في مصر كلها، كما وجدت أن الشعب المصري يرفض الاستعمار العثماني المُقَنَّع باسم الخلافة، ولقد وجدت هذه الحملة مقاومة عنيفة لسيطرة المماليك، كما واجهت تمردًا مستمرًّا على محاولاتهم لفرض الظلم على الشعب المصري»[88].

ولا يعني ذلك تجاهل أثر الحملة الفرنسية في النهضة العلمية والأدبية الحديثة في مصر، إنما يعني وضع هذا الأثر في مكانه الصحيح؛ باعتباره واحدًا من عوامل هذه النهضة، وليس العامل الأوحد الذي لولاه ما كانت النهضة من أصلها.

أ- عوامل ازدهار الحياة الثقافية في العصر الحديث:

تعددت العوامل التي أثَّرت في الحياة الثقافية والفكرية في العصر الحديث: شعرًا ونثرًا، وخطابة وكتابة، ومن أهمها:

١- الاتصال بالحضارة الغربية:

وقد تمثل هذا الاتصال في طرق متعددة، منها ما يلي:

- الحملة الفرنسية:

لفتت الحملة الفرنسية أنظار المصريين إلى الحضارة الغربية، فقد اصطحب نابليون معه كل عدد الاستعمار والاستغلال والإيقاظ، فقد حرص على أن يزود حملته العسكرية بطائفة من العلماء البارعين المتخصصين في مختلف العلوم التاريخية والطبيعية والرياضية، ولم يلبث حين نزل مصر أن أسس المجمع العلمي المصري على غرار المجمع العلمي الفرنسي، وانبعث العلماء الذين قدموا معه يدرسون مصر من جميع جوانبها، وكان ثمرة ذلك تسعة مجلدات طبعت في فرنسا (١٨٠٩-١٨٢٥م) تحت عنوان: «وصف مصر»، وهي أساس كل المعلومات التي عرفت في أوروبا عن مصر الحديثة.

وقد أنشأ نابليون إلى جانب هذا المجمع



العلمي معامل، ومكتبة، ومطبعة، وكانت معاملهم تعنى بالبحث العلمي التجريبي، وكان الفرنسيون يستدعون المصريين لرؤية ما يُجرون من تجارب كيميائية لا عهد لهم بها، فيعجبون وينبهرون(٨٩).

كما أنشأ نابليون مسرحًا للتمثيل، وكانوا يمثلون فيه رواية فرنسية كل عشر ليالٍ، ومدارس لأبناء الفرنسيين، وصحيفتين، ومصانع، ومعملًا للورق، وأسس مراصد فلكية؛ مما أثار دهشة المصريين، ولفت أنظارهم بشدة إلى مظاهر هذه الحضارة الوافدة.

على أننا لا ننسى ما روي عن شراسة رجال هذه الحملة، وتجاوزاتهم في حق الشعب المصري، ونهبهم القرى الآمنة، وإفزاع أهلها، وفرض الضرائب على الأوقاف الخيرية التي كان يصرف ريعها على المساجد وطلاب العلم، وفرض ضرائب على المنازل؛ مما جعل قلوب المصريين تنفر من نابليون وحملته، وتنظر إليه نظرة الغاصب المستبد، فثار المصريون على نابليون وحملته في أكتوبر سنة ١٧٩٨م، فأخمد ثورتهم في قسوة عارمة، وعنف وغلظة، وانتهك حرمة المساجد الإسلامية؛ مما زاد من كراهية المصريين له ولحملته، وزادهم عزيمة وإصرارًا على طرد المستعمر الغاصب(٩٠)، فتمكنوا من طرده سنة ١٨٠١م، ولم يقضِ الفرنسيون في مصر سوى ثلاثة أعوام لم يهدأ في أثنائها بالهم، ولم تستقر أقدامهم؛ لما لاقوه من كفاح هذا الشعب المجاهد الوطني الأصيل.

- البعثات العلمية:

انتاب مصر بعد خروج الفرنسيين منها سنة ١٨٠١م طوارئ مختلفة انتهت بتعيين محمد علي واليًا على مصر سنة ١٨٠٥م، فأخذ يعمل على توطيد الحكم لنفسه، وكان همّه منصرفًا في أوائل ولايته إلى المطامع السياسية بالحرب والفتوح، فلما استقر له الأمر حاول الأخذ بأسباب المدنية الحديثة؛ فأنشأ المدارس، واستقدم الخبراء والمعلمين، وأرسل البعوث إلى باريس وغيرها من البلاد الأوروبية(٩١).

وكان محمد علي شديد العناية بأعضاء هذه

البعثات، يتقصَّى أخبارهم، ويتابع أمرهم، ويكتب لهم من حين لآخر يحثهم على العمل والاجتهاد، وينبههم إلى واجباتهم، ويلومهم ويعنفهم إن بلغه عنهم شيء من التقصير، ويتعجلهم في قطف ثمار تحصيلهم؛ وذلك لشدة حاجته إلى جهدهم في النهضة التي كان يريدها، ويعمل لها.

وكان أعضاء هذه البعثات يعودون مُزوَّدين بثقافات واسعة، ومتعددة، فكان منهم الأطباء والمهندسون والضباط والأدباء، وقد استطاعوا أن ينقلوا إلى اللغة العربية عشرات الكتب في العلوم المختلفة؛ مما أحدث نهضة علمية انعكس صداها – بلا شك – على الأدب والنقد.

ومن أبرز المبعوثين: «رفاعة الطهطاوي» الذي ألَّف وترجم ما يزيد على عشرين كتابًا في فنون مختلفة، و«علي مبارك» صاحب الخطط التوفيقية، فقد مكث في بعثته أربع سنوات درس فيها فن الهندسة والحرب، ثم عاد إلى مصر ضابطًا بالجيش، ثم قدَّم للحكومة المصرية مشروعًا بنظام المدارس المصرية، فعهدت إليه برئاسة ديوانها، فكان أول من نظم المدارس المصرية، ومن أعماله العظيمة: إنشاء دار الكتب، وإنشاء مدرسة دار العلوم، وتجديد مدينة القاهرة وأمهات مدن القطر؛ بإنشاء شوارعها وميادينها العظيمة، وإنشاء كثير من الترع والجسور؛ كترعتي الإبراهيمية والإسماعيلية، وكانت وفاته سنة ١٣١١هـ[٩٢].

- حركة الترجمة:

اقتضت النهضة الحديثة في عهد محمد علي أن تنقل علوم الغرب إلى اللغة العربية؛ فأسست مدرسة الإدارة والألسن سنة ١٨٣٦م، وعهد بالإشراف عليها إلى رفاعة الطهطاوي، وكان أثر هذه المدرسة في حركة الترجمة واضحًا، فقد أربى عدد الكتب المترجمة على ألفي كتاب في مختلف العلوم.

وكان طبعيًّا أن تُعْنَى حركة الترجمة في أول أمرها بالعلوم التي تتطلبها النهضة كالطب، والهندسة، وفنون الحرب، والطبيعيات، ونحو ذلك مما تقتضيه الحياة المدنية التي كان محمد علي يعمل على إرساء قواعدها.



ومع أن نقل الفنون والآداب قد تأخر بعض الوقت فإن اللغة العربية قد أفادت من حركة الترجمة، وصارت غنية بالمصطلحات العلمية والأدبية، وأخذ النثر يتخلص من القيود البديعية الثقيلة التي كان مكبلًا بها؛ لأن الاهتمام بالمعاني شغل الكُتَّاب- إلى حد ما - عن الزخارف اللفظية.

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر نشطت حركة المترجمات الأدبية، فترجم سليمان البستاني «إلياذة هوميروس»، وترجم أحمد حسن الزيات «آلام فرتر» لجيته الألماني، و«رفائيل» للامارتين الفرنسي، كما ترجم العديد من روايات وأشعار أعلام الأدباء الغربيين من أمثال: شكسبير، وهوجو، ودوماس، وموليير، ولافونتين، وغيرهم.

كما كان لنزوح بعض الأدباء السوريين إلى مصر أثر واضح في نشاط حركة الترجمة، فقد قام أديب إسحاق وسليم نقاش بتأسيس مسرح عربي، وأخذا يترجمان له، وكان يعقوب صنوع قد سبقهما إلى تأسيس مسرح بالقاهرة، واتجه كذلك إلى الأدب الأوروبي.

وقد أَثَّرت الترجمة في الأدب وصناعة القول تأثيرًا ملحوظًا في القالب والمعاني والأغراض والأسلوب، وظهر من يُؤْثِرون المعاني على اللفظ في الشعر والنثر، واختفت بعض أغراض الشعر الغنائي كالفخر والحماسة والهجاء، ولم يبقَ من الهجاء إلا مداعبات لطيفة فيها تهكم وسخرية وتصوير لا يتناول المحارم والأعراض، ولا يقذع أو يفحش، وتميَّز بعض الكتاب بالتحليل والدراسات النفسية، والإفادة من علم الاجتماع والتاريخ وغيرهما في الموضوعات الأدبية التي يتعرضون لها[٩٣].

٢ـ دور الأزهر الشريف:

يرجع تاريخ الأزهر الشريف إلى سنة ٣٥٩هـ حين أسسه جوهر الصقلي قائد المعز لدين الله الفاطمي، واستمر العمل في بنائه نحو عامين، وأقيمت أول جمعة فيه سنة ٣٦١هـ، فقد كان الغرض من بنائه أن يكون مسجدًا للعبادة، ومركزًا للدعوة إلى المذهب الشيعي، ولكنه سرعان ما تحول إلى معهد للدراسة بأمر

من يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله الفاطمي، وقد استمرت هذه الدراسة ما يزيد على قرنين من الزمان، حتى جاء صلاح الدين الأيوبي فأغلق الجامع الأزهر منعًا لدراسة المذهب الشيعي الذي يخالف مذهبه السني، فظل الجامع الأزهر مغلقًا نحو قرن من الزمان، حتى جاء الظاهر بيبرس فجدد من شبابه، وأعاد إليه حياته العلمية سنة ٦٦٥هـ، لكن على المذهب السني لا المذهب الشيعي.

وقد تتابعت الدول على الأزهر وهو ينهض برسالته في خدمة الدين واللغة، حتى في أحلك العصور وأحرج الأوقات، فقد حاول العثمانيون - عندما حكموا مصر - أن يفرضوا اللغة التركية على أهلها، فأغلقوا المدارس، وسلبوا أوقافها، وعطلوا ديوان الإنشاء، فظل الأزهر يناهض ظلمهم، ويعمل جاهدًا على إشعاع التراث الديني، وحفظ اللغة العربية من طغيان التركية، وقد تخرَّج في هذه الفترة الحالكة وهذا الظلام الدامس علماء أجلاء من أمثال: الشيخ محمد الخراشي، والشيخ عبد الله الشرقاوي، والشيخ أحمد الدمنهوري، والشيخ العطار، وغيرهم، وقد أشار شوقي إلى هذه الفترة بقوله[٩٤]:

ظُلُمـــاتٌ لا تَرى في جُنحِهـا
غَيرَ هَذا الأَزهَرِ السَمحِ شِهابـا

قَسَم لَولاهُ لَم يَبـقَ بِهـا
رَجُـلٌ يَقـرَأُ أَو يَدري الكِتابـا

حَفِـظَ الدينَ مَلِيّـا وَمَضى
يُنقِـذُ الدُنيا فَلَم يَملِك ذَهابـا

فلما قامت النهضة الحديثة كان الأزهر أعظم عماد لها، فقد كان علماؤه وأبناؤه من أعظم روَّاد هذه النهضة وقادتها، فمنهم من كان يدعو إلى التجديد ومواكبة روح العصر ومتطلباته، ومنهم من كان يقوم بالتدريس في المدارس التي أنشئت في عهد محمد علي، ومنهم من كان يقوم بتحرير الصحف، ومنهم من سافر في البعثات التي أرسلها محمد علي إلى أوروبا، بل كان أحد رجالها رفاعة الطهطاوي على رأس أول بعث علمي أرسله محمد علي إلى باريس سنة ١٢٤١هـ وقد مرَّ بنا قول الرئيس الراحل / جمال عبد الناصر: إن الحملة الفرنسية



حين جاءت إلى مصر وجدت الأزهر يموج بتيارات جديدة تتعدى جدرانه إلى الحياة في مصر كلها[95].

لقد كان الأزهر - وما زال، وسيظل بمشيئة الله تعالى - يحمل لواء الدين واللغة، ولله درّ شوقي إذ يقول[96]:

قم في فم الدنيا وحيّ الأزهرا
وانثر على سمع الزمان الجوهرا
واجعل مكان الدرّ-إن فصلته
في مدحه - خرز السماء النيرا[97]
واذكره بعد المسجدين معظما
لمساجد الله الثلاث مكبرا
واخشع مليًّا واقض حقّ أئمة
طلعوا به زهرا وماجوا أبحرا[98]
كانوا أجَلّ من الملوك جلالة
وأعز سلطانًا وأفخم مفخرا
زمن المخاوف كان فيه جنابهم
حرم الأمان وكان ظلهم الذَّرا[99]

ويتجه شوقي إلى الملك فؤاد فيوصيه بالإحسان إلى الأكْفاء من طلاب الأزهر، فيقول[100]:

نظرًا وإحسانًا إلى عميانه
وكن المسيح مداويًا ومجبرا
والله ما تدري لعل كفيفهم
يومًا يكون أبا العلاء المبصرا
لو تشتريه بنصف ملكك لم تجد
غبنًا وجلّ المُشترِي والمُشترَى
إن فاتهم من نور وجهك فائت
لم يعدموا لوجوه برّك منظرا
لمسوا نداك كمن يشاهد مزنة
ويد الضرير وراءها عين ترى
زدهم أبا الفاروق إنك خيّرٌ
من خير ولد الكريمُ الخيّرا

٣ـ اتساع نطاق التعليم:

ذكرنا في حديثنا عن الأزهر الشريف أن العثمانيين- في محاولة منهم للقضاء على اللغة العربية وفرض اللغة التركية على البلاد - أغلقوا المدارس التي كانت قائمة في عهد المماليك، فلم يبق إلا الأزهر الذي حفظه الله عَزَّوَجَلَّ من كيدهم، فلما استقر الأمر لمحمد علي

أسس أول مدرسة حربية سنة ١٨١٥م، واتخذ من قصر ابن العيني مقرًّا لها، وكان كل طلابها في أول الأمر من الأجانب، غير أنهم لم ينجحوا، فاتجه محمد علي إلى المصريين، ونقل المدرسة إلى أبي زعبل، واستقدم لها الأساتذة من الغرب وبخاصة باريس.

ورأى محمد علي أن الجيش في حاجة إلى أطباء يأسون جراحات الجند، ويقاومون الأوبئة، ويعنون بالمرضى؛ فأنشأ مدرسة الطب سنة ١٨٢٦م في جهة أبي زعبل، وأقام بجوارها مستشفى كبيرًا لمعالجة المرضى، ولتمرين وتدريب طلاب هذه المدرسة، واستقدم لها أساتذة من الغرب، وجعل رئاستها إلى الدكتور «كلوت بك» الفرنسي، وكان طلاب هذه المدرسة من المصريين وغيرهم، وقد اختير كثير منهم من بين نوابغ طلاب الأزهر، ثم نقلت هذه المدرسة إلى قصر ابن العيني سنة ١٨٣٨م.

ثم رأى محمد علي أن تشمل نهضته جميع نواحي الحياة، فأكثر من إنشاء المدارس العالية والابتدائية، وقد بدأ بالمدارس العالية حتى يجد بجانبه جماعة من المتخصصين في العلوم المختلفة يشرفون على مراحل التعليم الأخرى، ويسيرون بالنهضة سريعًا، فأسس مدرسة للصيدلة، وأخرى للهندسة في القلعة ثم نقلت إلى بولاق، كما أسس مدرسة للولادة والتمريض، ورأى أن الحاجة ماسة إلى أساتذة متخصصين للتدريس في هذه المدارس، فاستقدم لها أساتذة من الغرب، ثم أدرك أن النهضة الحقّة لا تتم إلا على يد أبناء البلاد أنفسهم؛ فأكثر من البعثات[١٠١] التي عاد أبناؤها ليقوموا بالتدريس في هذه المدارس، فكانوا نواة نهضة علمية حقيقية.

ثم كثرت المدارس في عهد إسماعيل بعد خمودها في عهدي عباس الأول وسعيد، وفي سنة ١٩٠٨م أسست أول جامعة مصرية، وكانت تسمى بالجامعة الأهلية، ويقوم بالتدريس فيها أساتذة من مصر والغرب، حتى أصبحت جامعة رسمية سنة ١٩٢٥م، ثم أخذت هذه الجامعة تتسع وتتشعب حتى اشتملت على



العديد من الكليات الأدبية ككليات دار العلوم، والآداب، والدراسات العربية، والتربية، مما كان له أثر واضح في النهضة العلمية والأدبية.

كما نظمت الدراسة بالأزهر فصارت له معاهده وكلياته المنتشرة في ربوع القطر، والتي أسهمت إسهامًا واضحًا في النهضة العلمية والأدبية وإحياء التراث، وقد ظل الأزهر عبر قرون طويلة – وما زال – يحمل لواء الدفاع عن الدين واللغة، والذود عن حماها بكل إيمان وبسالة وإصرار، نسأل الله تعالى أن يحفظه، وأن يبارك في مسيرته، وأن يهيئ له من أبنائه المخلصين من يعيد له مجده، ويرد كيد مناوئيه في نحورهم.

٤ـ الطباعة:

كان نسخ الكتب وبيعها – المعروف بالوراقة – هو الأسلوب الوحيد في إظهار الكتب ونشرها إلى أن هدى الله العقل البشري إلى الطباعة، فكانت من أعظم المخترعات التي أفاد منها المجتمع الإنساني.

وأقدم مطبعة ظهرت في مصر هي مطبعة الحملة الفرنسية التي جاء بها نابليون معه سنة ١٧٩٨م لطبع المنشورات والأوامر باللغة العربية، وقد بدأوا بذلك وهم على سفنهم في عرض البحر، فلما وطئت أقدامهم الإسكندرية قاموا بتوزيع تلك المنشورات على المصريين، ثم قاموا بطبع صحيفتين باللغة الفرنسية ونشرة باللغة العربية تسمى «التنبيه»، كما طبعوا كتاب التهجية العربية والتركية والفارسية سنة ١٧٩٨م، ثم كتاب القراءة العربية، ثم معجمًا فرنسيًّا عربيًّا، ثم كتابًا في اللهجة المصرية العامية.

ثم ظلت مصر بعد خروج الفرنسيين منها نحو عشرين عامًا بلا طباعة، حتى استقر الأمر لمحمد علي فأنشأ أول مطبعة مصرية سنة ١٨٢١م[١٠٢]، وكانت تعرف بالمطبعة الأميرية أو مطبعة الباشا، وتعرف – أيضًا – بمطبعة بولاق لوجودها في هذا الحي القاهري المصري.

وكانت هذه المطبعة – في بداية أمرها – تقوم بطبع الكتب عن اللغات الأجنبية في العلوم الحديثة؛ كالرياضيات والطبيعيات، والطب، والجراحة، والفنون الحربية، أما الكتب الأدبية

فتأخر طبعها قليلًا، ومن أول ما طبع منها: كليلة ودمنة، وخزانة الأدب، ومقدمة ابن خلدون، ومقامات الحريري، والقاموس المحيط، والأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، كما كانت هذه المطبعة تقوم بطبع صحيفة «الوقائع المصرية» التي صدر أول عدد منها سنة ١٨٢٨م.

ثم أخذت المطابع العربية تظهر الواحدة تلو الأخرى حتى كثرت وتعددت، فيسرت سبل الحصول على الكتاب، وقامت بنشر أمهات الكتب، وأسهمت إسهامًا كبيرًا في إحياء التراث الأدبي، وقد أحسن الرواد الأوائل اختيار ما طبع من كتب التراث، فقدَّموا للعقل البشري في مصر وغيرها من البلاد العربية والإسلامية أطيب موارد الثقافة، فكان لذلك أثره الواضح في نبوغ كثير من الأدباء والشعراء والنقاد في مصر وغيرها من الأقطار.

٥ ـ الصحافة:

تعد الصحافة واحدًا من أهم أسس النهضة الأدبية الحديثة، وعاملًا من أهم العوامل في مقاومة اللهجات العامية، وانتشار اللغة الفصحى، ومجالًا واسعًا لنشر المقالات والبحوث الأدبية، والعلمية، والسياسية، والتاريخية، والاجتماعية، كما أن لها أكبر الأثر في ظهور وازدهار فن المقال، وفي تخليص الأسلوب الأدبي من قيود الصنعة وأثقال الزينة اللفظية.

وكانت الصحافة في أول عهدها رسمية حكومية تعنى بنشر أخبار الدولة وقوانينها، ثم تحولت إلى موارد للعلوم والآداب والسياسة والاجتماع، تشبع كل رغبة، وتفيد كل طالب، وقد نشأ في ظلها كثير من الكتاب والأدباء والسياسيين الذين كان لهم دورٌ بارزٌ في النهضة العلمية والأدبية، وقد جمعت بعض المقالات التي نشرت بها فصارت كتبًا رائعة مفيدة في أسلوب اللغة وصناعة الأدب، ومن هذه الكتب: «وحي القلم» للرافعي، و «حديث الأربعاء» لطه حسين، و «فيض الخاطر» لأحمد أمين، و «حصاد الهشيم» للمازني، و «مطالعات في الكتب والحياة» للعقاد.



وتعد صحيفة الوقائع المصرية التي صدرت في عهد محمد علي سنة ١٨٢٨م أول صحيفة عربية عامة[١٠٣]، وقد حرر أول عدد منها باللغة التركية، ثم عهد في تحريرها والإشراف عليها إلى الشيخ العطار، فحررت فصولها بالعربية والتركية معًا، ثم اقتصر بعد ذلك على تحريرها باللغة العربية.

كما تعد «حديقة الأخبار» لصاحبها خليل الخوري أول صحيفة عربية تصدر في «سوريا» سنة ١٨٥٨م، ثم خطت الصحافة العربية خطوة كبيرة سنة ١٨٦٠م بظهور صحيفة «الجوائب» في «الأستانة» لصاحبها أحمد فارس الشدياق، أحد أركان النهضة العربية الحديثة، وقد كان للجوائب شأنٌ عظيمٌ عند أدباء العرب، ونفوذٌ لدى ولاة الأمور بالأستانة وغيرها، وكانت ميدانًا لأقدم أدباء ذلك العصر للمناظرة والمناضلة، وظلت هذه الصحيفة تصدر حتى سنة ١٨٨٤م[١٠٤].

وبعد صدور صحيفة الجوائب بعام واحد صدرت في تونس صحيفة «الرائد التونسي» سنة ١٨٦١م، ثم أخذت الصحف تظهر وتتوالى في سوريا، والمغرب، ومصر، ومن أول الصحف التي ظهرت بمصر بعد «الوقائع المصرية»: صحيفة وادي النيل (القديمة)، ثم تلتها صحف أخرى مثل: الإسكندرية، الزمان، الاعتدال، الفلاح، الأهرام، المقطم، المؤيد، اللواء، العلم، الجريدة، الشعب، حتى وصلت إلى الحد الذي نراه اليوم؛ مما كان له أكبر الأثر في النهضة الفكرية والأدبية والنقدية.

٦ـ عوامل أخرى:

إلى جانب العوامل التي مرَّ ذكرها كانت هناك عوامل أخرى أثرت في النهضة الأدبية الحديثة، منها ما يلي:

ـ إنشاء دار الكتب المصرية:

وقد أسسها علي مبارك سنة ١٨٧٠م، فكان لها أثرٌ كبيرٌ في نشر الثقافة العربية وإحياء التراث، فقد قدَّمت للباحثين والطلاب ما كان محبوسًا في التكايا وقصور الحكام، مقصورًا عليهم بعيدًا عن أيدي الشعب وطلاب العلم والمعرفة[١٠٥].

- المجامع والجمعيات العلمية والأدبية:

وكان لهذه الهيئات العلمية أثرٌ كبيرٌ في خدمة اللغة العربية، وفي تعريب المصطلحات العلمية والفنية، ونشر التراث العربي، ومن أبرز الهيئات: المجمع العلمي العربي بدمشق، والمجمع العلمي العراقي ببغداد، والمجمع اللغوي بمصر، والجمعية السورية ببيروت، وجمعية المعارف التي أسسها علي مبارك بالقاهرة سنة ١٨٦٨م، فقامت بطبع المخطوطات من تراثنا القديم للجاحظ، والآمدي، وعبد القاهر الجرجاني، وبشَّار، وأبي نواس، والبحتري، وغيرهم، فأصبح هذا التراث في متناول الجميع؛ ينير الفكر، ويهذب الذوق، ويسلم به اللسان من اللحن ومن العامية[١٠٦].

- تكوين الأندية والمنتديات العلمية:

وقد كانت هذه الأماكن مجالًا واسعًا لعرض القضايا، وتبادل الآراء، كما كانت ساحة فسيحة للحوار والمناقشة، «وقد كان هناك من هذه الأماكن ما يعرف باسم الندوة أو الصالون الأدبي، وهو المكان الذي يعتاد أرباب الفكر والرأي على ارتياده لإثارة القضايا والمسائل، وعرضها للبحث والدرس، وقد كانت ندوة «مي زيادة» ميدانًا يتنافس كثيرٌ من الأدباء الكبار على غشيانه، والاختلاف إليه، والظهور على خشبة مسرحه»[١٠٧]، كما كانت ندوة الإمام محمد عبده في بيته بعين شمس قبلة أنظار المفكرين والأدباء ورجال السياسة، وقد نشأ وترعرع في ظلها كثير من الشعراء والكتاب.

- الإعلام المرئي:

وأخيرًا اتساع نطاق الإعلام المرئي، سواء عبر القنوات والأقمار الصناعية أو عبر تقنيات التواصل الحديثة.

يضاف إلى ذلك كثرة عدد المساجد، والحاجة الماسة إلى آلاف الخطباء؛ مما أثرى هذا الفن، وأسهم في بروز كثير من أعلامه.

وقد تنوعت الخطابة في هذا العصر ما بين سياسية، ودينية، وقضائية، وبرلمانية، واجتماعية، وبرز في كل فنٍّ من فنونها أعلامٌ كبارٌ يُشَار إليهم بالبنان.



أ- نماذج من الخطابة في هذا العصر:

١- من خطب مصطفى كامل[١٠٨]:

- خطب مصطفى كامل في حفل وطنيٍّ بالإسكندرية سنة ١٩٠٠م خطبة رائعة قال فيها:

سادتي وأبناء وطني الأعزاء، كلما جئت إلى الإسكندرية، ورأيت هذه الحياة الحقيقية التي جعلت لكم مقامًا محمودًا بين بني مصر، أعود شاعرًا بأن في هذه المدينة الزاهرة أساتذة في الوطنية، عنهم تؤخذ دروس محبة الأوطان، ومنهم تعرف الأمة حقوقها وواجباتها، وهذا ما أخرني في السنين الأخيرة عن الوقوف أمامكم هـذا الموقف، ومناجاتكم في شئون الوطن العزيز.

إني أشد الناس أملا في مستقبل أمتي وبلادي، وأرى الشعب الذي أنا منه جديرًا بالرفعة والسمو، حقيقًا بالمجد والحرية والاستقلال.

ولولا هذا الأمل وهذا الاعتقاد لكنت فارقت الحياة، وتركت الدنيا غير آسفٍ على أحدٍ، وكيف لا أكون ذا أمل، وهذه أمتي أجد فيها روحًا جديدة، وحياة صادقة، ووطنية ناشئة قوية؟! ومن منكم لا يرى ما أرى؟ هل ينكر أحدٌ شعور الأمة بحالها وانتباهها من رقدتها، وقيامها من وهدتها وعملها لخيرها وسعادتها؟!

قد يظن بعض الناس أن الدين ينافي الوطنية، أو أن الدعوة إلى الدين ليست من الوطنية في شيء، ولكني أرى أن الدين والوطنية توأمان متلازمان، وأن الرجل الذي يتمكن الدين من فؤاده، يحب وطنه حبًّا صادقًا، ويفديه بروحه وما تملك يداه، ولست فيما أقول معتمدًا على أقوال السالفين، الذين ربما اتهمهم أبناء العصر الحديث بالتعصب والجهالة، ولكني أستشهد على صحة هذا المبدأ بكلمة «بسمارك» أكبر ساسة هذا العصر، وهو خير رجلٍ خدم بلاده ورفع شأنها، فقد قال هذا الرجل العظيم بأعلى صوته: لو نزعتم العقيدة من فؤادي لنزعتم محبة الوطن معها[١٠٩]".

٢- من خطب سعد زغلول[١١٠]:

- خَطَب سعد زغلول في حفل أعضاء مجلس الشيوخ، الذي أقامه له هؤلاء الأعضاء

بعد انتخابهم لأول مرة سنة ١٩٢٤م، خطبة رائعة قال فيها:

أيها السادة، شيوخنا الكرام: أشكر حضراتكم على هذه الحفلة المملوءة وقارًا، وعلى هذا التكريم الجامع لأسباب البهجة والسرور، وأشعر في نفسي بخجل شديد عندما أتصور أن شخصي الضعيف هو موضوع هذا الاحتفال الشائق، وأنه المعنيُّ بمدح خطبائكم والمقصود من ثنائكم، اعتقادًا مني أني دون ما تصفون، ولا شك أنكم تغرفون لي من بحار فضلكم، وأنكم إنما تنظرون إليّ بالنظرة العاطفة، لا بالنظرة الكاشفة، جزاكم الله أحسن الجزاء، وأقدرني على أن أستحق هذا الثناء.

وبعد؛ فإني أهنئكم من كل قلبي بالثقة التي اكتسبتموها من البلاد لأن تؤلفوا مجلس الشيوخ في أول برلمان في بلادنا على الطراز الحديث، وأعد نفسي سعيدة بأني أول وزير مصري لحكومة دستورية، تستمد قوتها من إرادة الشعب، وتستند في بقائها على ثقة نوابه، ستصبح هذه المبادئ بعد يوم واحد نافذة المفعول فينا، ويصبح أمر الكل للكل، ويشعر كل مصري أن حياته وحريته وشرفه وماله وولده - كل ذلك - تحت حماية القانون، وأن على القانون حارسًا قويًّا أمينًا هو البرلمان، وأن البرلمان تحت حراسة أمة يقظة، والكل في ذمة الله وعنايته.

بعد يومٍ واحدٍ تجد الوزارة نفسها مسئولة أمام نواب البلاد، وأن عليها أن تبرِّر أعمالها العامة أمامكم، كما تبررها أمام ضمائرها الخاصة، وتشعر من جهة أخرى بخفة ثقل المسئولية الملقاة عليها؛ لوجود قوة بجانبها تقاسمها هذه المسئولية، كما تشاطرها النظر في إدارة أمور البلاد.

بعد يومٍ واحدٍ يحلّ احترام الحكومة محلّ الخوف منها، ويشتد القرب منها بعد البعد عنها؛ إذ يستيقن الكل أنها ليست إلا قسمًا من الأمة تخصص لخدمتها العامة، حسب القانون والمبادئ الديمقراطية، وأن لكلِّ واحدٍ حصته فيها؛ فيبذل الكل جهودهم في معاونتها على

القيام بمهمتها الخطيرة.

وأكبر هذه المهات شأنًا، وأخطرها قدرًا، وأشغلها لعقلي ولبي، هي مهمة الاستقلال التام لمصر والسودان، يتلو هذه المهمة مهمة القيام بالإصلاحات الداخلية، وحلّ ما عقده الماضي من المشكلات، وتذليل ما أقامته السياسات من العقبات في طريقنا، وما هذا بالهنات الهينات.

فعلى الذين يحملهم فرط الحب للبلاد على تعجلنا أن يتريثوا بنا ويتمهلوا؛ لأن طبيعة الأشياء تأبى الطفرة، ولكل شيء وقته ووسائله، وعليهم أن يعتقدوا كل الاعتقاد أن هناك عقولًا مشغولة بهذه المهام، وعزائم معقودة على معالجتها، وأن التأخير فيها ليس قصورًا أو تقصيرًا، ولكنه جري مع الطبيعة على حكمها.

وليتأكدوا أننا نزداد كل يوم قوة في الإرادة، ومضاءً في العزم، وثباتًا في الخطة، وغيرة على الصالح العام، فليصبروا، إن الله مع الصابرين، وليثقوا بنا، إننا لا نقصد إلا خيرهم، ولا نفتر طرفة عن خدمتهم، ولا نترك فرصة تمر حتى ننتهزها لبلوغ المراد، حقَّق الله أملنا، ووفقنا جميعًا إلى الرشاد[111].

٣- من خطب مكرم عبيد[112]:

- من خطبة له في مجموعة من الشباب سنة ١٩٢٣م:

بقيت لي كلمة أخيرة، عن تلك الدسيسة المنكرة التي يقوم بها المستعمرون في هذه الأيام؛ للتفريق بين المسلمين والأقباط، يقولون أقباط ومسلمون! كلا، بل هم مصريون ومصريون وآباء وأمهات وبنون.

أيقال هذا القول في مصر، وعن مصر التي علمت العالم والشرق خاصة معنى الاتحاد المقدس؟!

وإني لأذكر أنه في وقت خروج المنشقين من الوفد دبَّ الضعف في نفسي، فذهبت مع بعض أصدقائي إلى الرئيس، وقلت له: إنه لا يصح أن تكون الأغلبية في الوفد من الأقباط، فغضب الرئيس كل الغضب، وقال: ماذا تقول؟ فإني لا أعرفك أنت وإخوانك كأقباط

بل أنتم مصريون وكفى.

وما اتحادنا إلا اتحاد قلوبنا ونفوسنا ومشاعرنا، ولن يفصلها فاصل بعد أن جمعها الواحد القهار»[113].

- من خطبة له خطبها عام ١٩٢٤م:

أما الأمل فكلمة سهلة ولكنها عاطفة صعبة، فمن الهين على الإنسان أن يؤمل خيرًا، ولكن استمرار الأمل من أشق الأمور وأثقلها على النفس، وذلك لأن الأمل ككل عاطفة في الحياة يحتاج إلى تغذية يومية، ولا غذاء للأمل إلا بالعمل، أما مجرد الأمل دون العمل فهو الوهم، وهو الأحلام الطائشة التي لا تغني ولا تشبع من جوع، إذن فلا بد من العمل لتغذية الأمل واستمراره، وكما أن الأمل هو القوة الدافعة للعمل فالعمل هو القوة الحافظة له»[114].

- من خطبة له خطبها بمدينة الإسكندرية:

أيها المواطنون الكرام: ليس لي بإزاء هذا الشعور الوطني المحتشد، والإخلاص البريء المتقد، إلا أن أحني الرأس إكبارًا وإجلالًا لتلك الوطنية المصرية العجيبة.

مرحى لهذه الأمة العريقة الجد، الفتية الولد، ربيبة المجد، حليفة الأبد، مرحى لأمة كلما أرادوا لها فناء اشتقَّت من عناصره خلودًا، أو أنزلوا بها ظلمًا اتخذت من أعوانه جنودًا، أو استلانوا لها قناة ثبت الله أقدامها، فبرزت أقوى يقينًا وأصلب عودًا، مرحى لأمة تعبت الحوادث في مرادها»[115].

٤- من خطب طه حسين[116]:

- خطب طه حسين في حفل تكريم العقاد الذي كان قد أقيم له سنة ١٩٣٤م بمناسبة نظمه «النشيد القومي» خطبة رائعة، وهي الخطبة التي بايع فيها طه حسين العقاد بإمارة الشعر، وفيها يقول:

نحن حين ندرس الشعر مضطرون إلى أن ندع ميولنا، وأهواءنا، وعواطفنا، وإلى أن نحكم عقولنا وذوقنا وحده، ونحن إذن من هذه الناحية بخلاء بالمدح، بخلاء بالثناء، لا نقدم المدح إلا بمقدار، ولا نثني إلا بشيء كثير من الاحتياط؛ لأننا نزعم أننا أمناء على الفن، وأن النقد يضطرنا إلى أن نتجنب الغلو



والإسراف، ومع هذا فإني أريد أن أكون منصفًا مسرفًا في الإنصاف إن صحَّ هذا التعبير، وأريد أن لا أتحرَّج في المدح أو الثناء، ولكني على كل حال أعلن إليكم راضيًا سعيدًا أني مضطر أن أثني على العقاد الشاعر من غير تحفّظٍ أو احتياط.

لنا نحن النقاد مع العقاد مواقف، يا لها من مواقف، نختصم فيها حول المعنى اختصامًا مرهقًا عنيفًا، ونختصم معه في اللفظ اختصامًا نضيق نحن به ويضيق به الناس، ولكننا حين نحتدم معه في معنى أو لفظ، أو حين نشتط عليه في النقد، لا نزيد على أن نعترف له أنه الشاعر الفذ، ولولا أنه الشاعر الفذ لما خاصمناه.

أما أنا أيها السادة فسعيدٌ بهذه الفرصة التي أتيحت لي، ومكَّنتني من أن أعلن رأيي في صراحة، وأن أقول - وقد يكره هذا مني كثير من الناس-: أني لا أؤمن في هذا العصر الحديث بشاعرٍ عربي كما أؤمن بالعقاد، أنا أعرف حق المعرفة وأقدر كما ينبغي نتيجة هذه المقالة التي أعلنها سعيدًا مغتبطًا، أعلم هذا حق العلم، وأعلنه مقتنعًا به محتملًا تبعاته، وقد تعودت احتمال التبعات الأدبية.

تسألونني لماذا أؤمن بالعقاد في الشعر الحديث، وأؤمن به وحده؟ وجوابي يسير جدًا، لماذا؟ لأنني أجد عند العقاد ما لا أجده عند غيره من الشعراء، وإن شئتم فإنني لا أجد عند العقاد ما أجده عند غيره من الشعراء؛ لأني حين أسمع شعر العقاد، أو حين أخلو إلى شعر العقاد، فإنما أسمع نفسي أو أخلو إلى نفسي، إنما أرى صورة قلبي، وصورة قلب الجيل الذي نعيش فيه، وحين أسمع لشعر العقاد، إنما أسمع الحياة المصرية الحديثة، وأتبين المستقبل الرائع للأدب العربي الحديث، إنما أرى شيئًا لا أراه عند غيره من الشعراء، تستطيعون أن تنظروا في أي ديوان من دواوين العقاد، لا أطلب منكم أن تقرأوا شعر العقاد الآن، إنما انظروا في الفهرست وحده، فسترون من هذه النظرة اليسيرة في هذه الصفحات القليلة أن العقاد شيء آخر، وأن شعر العقاد شيء آخر، وأنه أرسل ليتحدث إلى نفوسكم أحاديث

لم يتحدث بها أحدٌ من قبل.

ثم لماذا أيضًا؟ لماذا أُكْبِر العقاد، وأؤمن به وحده دون غيره من الشعراء في هذا العصر؟

لأن العقاد - أيها السادة - يصوّر لي هذا المثل الأعلى في الشعر الذي أحببته، وتمنيت وجاهدت في أن يحبه الشباب، هذا المثل الأعلى الذي يجمع بين جمال العربي القديم وبين أمل المصري الحديث، هذا المثل الذي ليس محافظًا مسرفًا في المحافظة، وليس مجددًا مسرفًا في التجديد، إنما هو مزاج مقتصد منهما، هو حلقة اتصال، هو صلة خصبة بين مجدنا القديم، وما نطمع فيه من مجدنا الحديث.

كنا أيها السادة نشفق على الشعر العربي، وكنا نخاف عليه أن يرتحل سلطانه عن مصر، وكنا نتحدث حين مات الشاعران العظيمان شوقي وحافظ، كنا نتحدث عن علم الشعر العربي المصري أين يكون؟ ومن يرفعه للشعراء والأدباء يستظلون به؟ كنا نسأل هذا السؤال، وكنت أنا أسأل هذا السؤال، لماذا؟ لأني كنت أرى شعر العقاد - على علو مكانته وجلال خطره - شعرًا خاصًا مقصورًا على المثقفين والمترفين في الأدب، وكنت أسأل: هل آن للشعر القديم المحافظ المسرف في المحافظة أن يستقر وأن يحتفظ بمجده؟ وهل آن للشعر الجديد الذي يصور مجد العرب وأمل المصريين أن ينشط ويقوى؟

انتظرت فلم أجد للمقلدين حركة أو نشاطًا، فإذا المدرسة القديمة قد ماتت بموت شوقي وحافظ، وإذا المدرسة الجديدة قد أخذت تؤدي حقها، وتنهض بواجبها، فترضي المصريين والعرب جميعًا، وإذا الشعر الجديد يفرض نفسه على العرب فرضًا، وإذا الشعور المصري، والقلب المصري، والعواطف المصرية أصبحت لا ترضى أن تُصَوَّر كما كان يصورها حافظ وشوقي، إنما تريد وتأبى إلا أن تُصَوَّر تصويرًا جديدًا، هذا التصوير الذي حمل الملايين على إكبار العقاد كما قال أحد الخطباء، إذن لا بأس على الشعر العربي، والأدب العربي، وعلى مكانة مصر في الشعر والأدب.

ضعوا لواءَ في الشعر في يد العقاد، وقولوا



للأدباء والشعراء: أسرعوا واستظلوا بهذا اللواء، فقد رفعه لكم صاحبه(١١٧).

موسوعة الخطب العصرية:

إيمانًا منا في وزارة الأوقاف المصرية بأهمية الخطابة ولا سيما الخطابة الدينية في بناء الوعي وبناء الشخصية، وحتمية التجديد في مختلف المسارات، كان اهتمامنا شديدًا بتطوير رسالة خطبة الجمعة، فأخرجنا «موسوعة الخطب العصرية» في ثمانية أجزاء، من إعداد الإدارة العامة للفتوى وبحوث الدعوة بديوان عام الوزارة، بإشرافنا ومراجعتنا.

وتأكيدًا منا على أهمية مواكبة الخطابة الدينية لظروف عصرها وبيئتها وواقعها، أخرجنا كتاب: «مائة خطبة عصرية في قضايا الساعة» في جزءين، من إعداد الإدارة العامة للفتوى وبحوث الدعوة، بإشرافنا ومراجعتنا أيضًا، متضمنًا معالجة علمية ودعوية هادفة لمائة موضوع من صميم الواقع المعاش، نضع مختارات منها بين يدي القارئ الكريم؛ ليدرك مدى تطور الخطابة الدينية وتفاعلها مع قضايا الواقع:

١- من خطبة النفع العام في ميزان الشرع الحنيف:

إن المتأمل في أحكام الشريعة الإسلامية يجد أنها جاءت لتحقيق مصالح البلاد والعباد، فكل ما يحقق النفع العام للناس يكون موافقًا للشرع وإن لم يرد فيه نصٌّ صريح، وكل ما يصطدم مع مصالح الناس ومنافعهم فلا أصل له في الشرع الشريف.

إن الدين الإسلامي الحنيف لا يَعْرِف الفردية أو الأنانية أو السلبية، وإنما يدعو إلى النفع العام، والعطاء الصادق، وينادي بالتعاون على البِرِّ والتقوى في إطارٍ من المحبة والإيثار؛ حتى يحقق المجتمع الرقي المنشود، والتكافل المحمود، ويكون سعي الفرد فيه من أجل المجموع، فيتحقق الخير للفرد والمجموع معًا، ويتعمق في قلوب أبناء الوطن إحساس الجسد الواحد الذي إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى، ولله درّ شوقي حيث قال(١١٨):

بِــلادٌ ماتَ فِتيَتُهــا لِتَحيــا
وَزالـوا دونَ قَومِهِــمُ لِيَبقَــوا

ولا شك أن المتدبر لكتاب الله عَزَّوَجَلَّ يدرك يقينًا أن المقصد العام والكلي من تشريع الأحكام للناس هو تحقيق مصالحهم بجلب النفع والخير لهم، ودفع الضر والشر عنهم، فما أرسل الله عَزَّوَجَلَّ نبيًّا ولا رسولًا إلا لإسعاد قومه وتحقيق الخير لهم دون انتظار لمقابل أو منفعة دنيوية، قال تعالى على لسان نبيه نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًاۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ [هود: ٢٩]، وقال سبحانه على لسان نبيه هود عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [هود: ٥١]، وهذا خليل الرحمن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ يتضرع إلى ربه عَزَّوَجَلَّ بدعاءٍ يبين مدى حرصه على نفع الناس ودوام الخير لهم قائلاً: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة: ١٢٦]، فمن المعلوم أن المقصود من البلد هنا أهلها، كما دعا لهم بالرزق الذي يغنيهم عن غيرهم؛ لأن البلد إذا كان آمنا، ومطالب الناس الحياتية متوفرة فيه، ساعد ذلك أهله على طاعة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بنفوسٍ مستقرة؛ وقلوبٍ مطمئنة، تسعى لتحقيق مراد الله عَزَّوَجَلَّ من الخلق بعمارة الأرض وإصلاحها.

ولقد جاءت الشريعة المحمدية لتُعلي من شأن هذا المبدأ الإنساني والإصلاحي القويم، والسيرة النبوية المطهرة وحياة الصحابة الكرام زاخرة بالمواقف العظيمة التي تدل على ذلك.

فعن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ فِي سَفَرٍ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ جَاءَ رَجُلٌ عَلَى رَاحِلَةٍ لَهُ قَالَ: فَجَعَلَ يَصْرِفُ بَصَرَهُ يَمِينًا وَشِمَالًا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لاَ ظَهْرَ لَهُ، وَمَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلَى مَنْ لَا زَادَ لَهُ»، قَالَ: فَذَكَرَ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ مَا ذَكَرَ حَتَّى رَأَيْنَا أَنَّهُ لاَ حَقَّ لأَحَدٍ مِنَّا فِي فَضْلٍ»[١١١].

وفي عهد سيدنا عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حينما ضاق المسجد الحرام على الناس، أجبر

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أصحاب البيوت المجاورة للمسجد على بيع دورهم، وقال لهم: «إنما أنتم الذين نزلتم على الكعبة، ولم تنزل الكعبة عليكم»(١٢٠)، وكذلك فعل سيدنا عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذا الأمر مرة أخرى، وقال: «إنما جرأكم عليَّ حلمي، فقد فعل عمر بكم ذلك فلم تكلموا»(١٢١)؛ مما يدل على جواز نزع الملكية الفردية لمصلحة المرافق العامة؛ كتوسيع الطرق والمقابر وإقامة المساجد وإنشاء الحصون، والمؤسسات العامة كالمشافي، والمدارس، والملاجئ، ونحوها؛ لأن المصلحة العامة مقدمة على المصلحة الخاصة.

لقد راعى الإسلام ترتيب الأولويات حتى في الأعمال الصالحة، فأمر عند المفاضلة بين عملين، وكل منهما خير، بتقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة أو الشخصية؛ ذلك أن المصلحة العامة نفعها مُتعدٍّ، أما المصلحة الشخصية فنفعها لا يتجاوز صاحبها، فلو أن رجلًا يعمل في مؤسسة ما ويتقاضى على عمله هذا أجرًا فيقضي ليله في الصلاة والقيام، ثم إذا جاء النهار ذهب إلى عمله متعبًا مرهقًا ولم يقم بواجبه المنوط به، وتعطلت بسببه مصالح هذه المؤسسة، ومصالح من تقوم المؤسسة بخدمتهم، أليس ذلك تضييعًا للأمانة، وأكلًا لأموال الناس بالباطل، وتفريطًا في المسئولية التي كُلف بها؟ وهو بذلك قد أضاع الواجبات من أجل أداء النوافل، وهذا لا شك عدم فهمٍ لمقاصد الدين.

فما أحوجنا إلى فهم ديننا فهمًا صحيحًا، وإدراكنا لواقعنا إدراكًا واعيًا يجعلنا نقدِّر حجم المخاطر التي تحيط بنا، ويحملنا على تقديم النفع العام والمصلحة العامة على المصلحة الشخصية بكل إخلاصٍ وتجرد؛ امتثالاً لتعاليم ديننا الحنيف، ورغبة في تقدم وطننا ورفعته، والنهوض والرقي به إلى المكانة التي تليق به وبأبنائه.

٢- من خطبة حُرْمة التلاعب بأقوات الناس وحاجاتهم الأساسية:

إن الإسلام بوسطيته وشمولية منهجه جاء بما يتماشى مع حياة أتباعه الاجتماعية، ويتوافق

مع تطلعاتهم المعيشية واحتياجاتهم الدنيوية، فلا يصطدم مع طبيعتهم البشرية بل يهذبها ويصونُ كيانها، ولا يقف حائلًا دون رغباتهم الإنسانية بل يشبعها وينظم دوافعها دون ميل أو حيف، قال تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ»(١٢٢).

ومن ثمَّ حثت الشريعة الإسلامية التاجر المسلم على السهولة واليسر، والسماحة وحسن المعاملة، ونُبل الأخلاق في البيع والشراء، لا يُغالي في الرِّبح، ولا يبالغ في التكسُّب، فذلك سبب إلى وجود البركة في الرزق، والسعة في الأموال، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «رَحِمَ اللهُ رَجُلًا سَمْحًا إِذَا بَاعَ وَإِذَا اشْتَرَى وَإِذَا اقْتَضَى»(١٢٣)، وفي رواية أخرى: «غَفَرَ اللهُ لِرَجُلٍ كَانَ قَبْلَكُمْ، كَانَ سَهْلًا إِذَا بَاعَ، سَهْلًا إِذَا اشْتَرَى، سَهْلًا إِذَا اقْتَضَى»(١٢٤).

وفي المقابل حرَّمت الشريعة الإسلامية كل صور المعاملات المحرَّمة التي تؤدي إلى الكسب الخبيث، والتي من شأنها أن توغر الصدور، وتفسد العلاقة بين المسلمين، ومن ذلك:

الغش بجميع صوره: فقد أكد القرآن الكريم حرمة هذه الآفة الخطيرة، وتوعَّد عليها بالويل والخسران لمن يتلاعب بالوزن والكيل، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ١ - ٣].

ومن الغش: دسُّ الرديء في ثنايا الجيد، وبيعه جميعًا بقيمة الجيد دون بيان الواقع والحقيقة، وكذلك إخفاء العيب الموجود في السلعة، فإن باع بيعًا يعلَم أنَّ فيه عيوبًا قد لا يطَّلع المشتري عليها إلّا بعد حين يُعتبر بهذا آكلًا للحرام؛ لأن الواجب عليه أن ينصَحَ للناس، وأن يحبَّ لهم ما يحبُّه لنفسه، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَرَّ عَلَى صُبْرَةِ طَعَامٍ، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا، فَنَالَتْ أَصَابِعُهُ بَلَلًا، فَقَالَ: «ما هذا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ؟»، قَالَ:

أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «أَفَلاَ جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ كي يَرَاهُ النَّاسُ»، ثُمَّ قَالَ: «مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي»(١٢٥).

وكذلك من المكاسب الخبيثة التي حرَّمها الإسلام ونهى عنها: احتكار السلع الأساسية التي يحتاجها الناس، ورفع أسعارها، وتلاعب بعض التجار بأقوات الناس وضروريات حياتهم، سواء كان طعامًا أو لباسًا أو دواءً أو عقارًا، أو غير ذلك مما يحتاجه الناس؛ فذلك مما تستنكفه الفطر السليمة وتترفَّع عنه الطبيعة الإنسانية، وقبل ذلك تحرِّمه الأديان السماوية؛ ذلك لأنه مسبب للفرقة مستنبت للكراهية والضغينة، كما أنه إضرار بالناس، والنبي ﷺ يقول: «لا ضَرَرَ ولا ضِرَارَ»(١٢٦).

وقد تضافرت الأحاديث النبوية على التشنيع على المحتكرين لأرزاق وأقوات الناس بغية المغالاة في أسعارها، ومن ذلك: قوله ﷺ: «مَنِ احْتَكَرَ حُكْرَةً يُرِيدُ أَنْ يُغْلِيَ بِهَا عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَهُوَ خَاطِئٌ»، وفي روايةٍ: «وقد بَرِئَتْ مِنْهُ ذِمَّةُ الله ورسوله»(١٢٧).

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنِ احْتَكَرَ طَعَامًا أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، فَقَدْ بَرِئَ مِنَ الله، وَالله بَرِيءٌ مِنْهُ، وَأَيُّمَا أَهْلِ عَرْصَةٍ ظَلَّ فِيهِمُ امْرُؤٌ جَائِعًا فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُمْ ذِمَّةُ الله»(١٢٨).

ومما لا شك فيه أن احتكار السلع يحمل في طياته بذور الهلاك والدمار، وليعلم المحتكر أن هذا الربح الزائد الذي يجنيه من احتكاره حرام؛ لأنه ليس نظير زيادة في البضاعة ولا في صفاتها، ولا نظير خدمة خاصة يقدمها البائع، إنما هو إلجاء أصحاب الحاجات إلى شراء حاجاتهم بأكثر من أثمانها الحقيقية؛ من أجل ذلك كان المحتكر للسلعة ملعونًا، وخاطئًا، وقد برئت منه ذمة الله ورسوله، وتوعَّده الله بالعقاب الأليم، فعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «الْجَالِبُ مَرْزُوقٌ وَالْمُحْتَكِرُ مَلْعُونٌ»(١٢٩)، وعن عُمَرَ بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «مَنِ احْتَكَرَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ طَعَامًا ضَرَبَهُ اللهُ بِالْجُذَامِ وَالإِفْلاَسِ»(١٣٠).

أما التاجر الذي يرأف بالناس يرأف الله به،

ومن يرحمهم يرحمه الله، ومن ييسر عليهم ييسر الله عليه، ومن صدق في بيعه وشرائه نال الأجر العظيم والثواب الجزيل، ويكفيه شرفًا وفخرًا أن ينال الجنة بفضل الله تعالى ورحمته، فقد رُوي عن أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «التَّاجِرُ الصَّدُوقُ الأَمِينُ مَعَ النَّبِيِّينَ، وَالصِّدِّيقِينَ، وَالشُّهَدَاءِ»(١٣١).

٣- من خطبة مبدأ الحق مقابل الواجب وسيلة لإصلاح المجتمع:

إن الإنسان مدنيٌّ بفطرته، لا يستطيع أن يعيش بمعزل عن غيره، ولا يقضي حاجته وحده، وإقامة الحياة وإنشاء الحضارة والعمران يتطلب التعايش بين الناس، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحُجُرَات: ١٣]، وهذا التعايش لن يتم ولا يكون سلميًّا متوازنًا إلا إذا قام على مبدأ معرفة الحق مقابل الواجب، وهو مبدأٌ إسلاميٌّ أصيل.

إن معرفة الإنسان حقوقَه وواجباتِه تجعله إنسانًا إيجابيًّا في مجتمعه، نافعًا لوطنه، لا يصطدم مع الآخرين من حوله.

وإذا اعتمدت الأمة مبدأ السهولة والمطالبة بالحقوق وأغفلت مبدأ القيام بالواجب فإنها أسرع إلى الزوال، فحرصُ الإنسانِ على حقه وتركُه واجبَه هو الأثرة والأنانية، وقد قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّهَا سَتكُونُ بَعْدِى أَثَرَةٌ وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا»، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، كَيْفَ تَأْمُرُ مَنْ أَدْرَكَ مِنَّا ذَلِكَ؟ قَالَ: «تُؤَدُّونَ الْحَقَّ الَّذِى عَلَيْكُمْ وَتَسْأَلُونَ الله الَّذِى لَكُمْ»(١٣٢).

إن الحق ليس هدية تعطى ولا غنيمة تغتصب، وإنما هو نتيجة حتمية للقيام بالواجب، ولكل سعيٍ أثرُه ومنفعته وإن قَلَّ، وهي حقوق متبادلة بين الأفراد، يعم نفعها على الجميع ولا تأتي في صالح فردٍ دون الآخر، فهناك مثلًا حقوق للآباء والأمهات في أعناق الأبناء يجب أداؤها ومراعاتها، وفي مقابلها حقوقٌ للأبناء في أعناق الآباء والأمهات.

وهناك الحقوق والواجبات المتبادلة بين أفراد الأسرة الواحدة، فللزوج حقوق على الزوجة، وللزوجة حقوق على الزوج، والله



سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٨]، وقد بيَّن النبي ﷺ ذلك بقوله: «أَلَا إِنَّ لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ حَقًّا وَلِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا، فَأَمَّا حَقُّكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ فَلَا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ مَنْ تَكْرَهُونَ، وَلَا يَأْذَنَّ فِي بُيُوتِكُمْ مَنْ تَكْرَهُونَ، أَلَا وَإِنَّ حَقَّهُنَّ عَلَيْكُمْ أَنْ تُحْسِنُوا إِلَيْهِنَّ فِي كِسْوَتِهِنَّ وَطَعَامِهِنَّ»(١٣٣).

كما فرض الإسلام حقوقًا متبادلة بين المسلم وأخيه المسلم، بيَّنها النبي ﷺ في أحاديث عديدة، منها قوله ﷺ: «حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ»، قِيلَ: مَا هُنَّ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «إِذَا لَقِيتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، وَإِذَا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ، وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ، وَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ الله فَشَمِّتْهُ، وَإِذَا مَرِضَ فَعُدْهُ، وَإِذَا مَاتَ فَاتَّبِعْهُ»(١٣٤).

وكذا حقوق الجار التي جعلها النبي ﷺ شرطًا للإيمان فقال: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُحْسِنْ إِلَى جَارِهِ»(١٣٥).

وهناك حقوق وواجبات متبادلة بين المعلم والتلميذ، وبين صاحب العمل والعامل، وضرورة توفية أجره، وفي هذا يقول الرسول ﷺ فيما يرويه عن ربه سبحانه: «قَالَ الله: ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِ أَجْرَهُ»(١٣٦).

والمواطنون لهم حقوق على الدولة، منها: حمايتهم وحماية ممتلكاتهم، وتوفير الأمن والاستقرار، وضمان المسكن الملائم، والتملك، والعمل، وحرية التنقل، وحرية الرأي، وضمان التعليم، والصحة، وإقامة المرافق العامة كالنقل والمواصلات، وتوفير المياه النظيفة، وضمان حرية العبادة، وتحقيق العدل بين الناس.

أمّا الواجبات التي على المواطن تجاه وطنه - وتُعدُّ من الأمانات التي يجب عليه أن يقوم بها؛ لأنه سيُسأل عنها يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [البَقَرَة: ٢٨١] - فمنها: المحافظة على المال العام، واحترام القوانين المنظمة للأعمال والطريق، ونشر ثقافة

التراحم والتسامح والمحبة بين أبناء الوطن جميعًا، فرسالة الإسلام قد لخّصها القرآن الكريم عندما حدد أهدافَ مهمةِ النبي الكريم ﷺ، رسول الرحمة والإنسانية، فقال الحق تبارك تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ومن حق الوطن على أبنائه كذلك: المشاركة في تنميته زراعيًّا، واقتصاديًّا، وسياسيًّا، وعلميًّا، ودعم المنتجات الوطنية، واحترام الآخر مع اختلاف انتمائه الديني، أو الثقافي، أو السياسي، وعدم اللجوء إلى العنف والإرهاب، أو إشاعة الفوضى والتخريب وحمل السلاح في وجه المواطنين المسالمين الآمنين، أو حراس الوطن وحماته من الجيش والشرطة، أو الخروج عن إطار القانون، أو الإفساد والفساد الاجتماعي، وغير ذلك من الواجبات اللازمة على المواطن تجاه وطنه.

إن هذه الحقوق والواجبات في الأصل عبادة يتوجه بها العباد إلى الله تعالى قبل كل شيء، فمثلًا صلة الرحم وبر الآباء عبادة يتقرب بها الإنسان إلى الله تعالى، فالجزاء عليها من الله عَزَّوَجَلَّ لا من العبد، ولهذا حين جاء رجل إلى النبي ﷺ قائلًا: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ لِي قَرَابَةً أَصِلُهُمْ وَيَقْطَعُونِي، وَأُحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَيُسِيئُونَ إِلَيَّ، وَأَحْلُمُ عَنْهُمْ وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ، فَقَالَ: «لَئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمُ الْمَلَّ، وَلَا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ الله ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ»[١٣٧]، وإن نظرنا إلى العمل مثلًا لوجدنا الله تعالى يحب إتقان العمل، كما أخبر بذلك النبي ﷺ: «إِنَّ الله يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يُتْقِنَهُ»[١٣٨].

وهكذا إن لم يؤدَّ إليك ما هو لك فليس هذا مسوغًا أن تهمل وتترك ما هو واجب عليك، بل أدِّ ما عليك وقم بواجبك قاصدًا وجه الله تعالى، فهو المكافئ والمجازي والمحاسب، فإن الإنسان إذا أدى ما عليه فالله مثيبه ومكرمه ولا يضيع أجره، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].



ولنعلم أنه ما ضاعت أمة ولا هلك مجتمع إلا حينما تغافل الناس وتركوا مبدأ الحق مقابل الواجب، فالبعد عن هذا المبدأ بُعْدٌ عن تحقيق العدالة الاجتماعية، وطريقٌ لنشر الفوضى والأنانية والكثير من العلل الباطنة والظاهرة، وهذا يؤدي إلى تقويض بنيان المجتمع، وهذا ما يأباه العاقل لوطنه، فما بالكم بالمؤمن المخلص؟!

٤- من خطبة مفهوم المواطنة والانتماء وواجبنا تجاه السائحين والزائرين والمقيمين:

لقد جُبِل الإنسان بفطرته على حب الوطن والانتماء إليه، وهذا ما حثَّت عليه الشرائع السماوية، وأكده ديننا الحنيف، ولعلَّ خير دليلٍ على ذلك: ما أعلنه نبينا ﷺ عن حبِّه ووفائه لوطنه مكة المكرمة، وهو يغادرها مهاجرًا إلى المدينة، فعن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَا أَطْيَبَكِ مِنْ بَلَدَةٍ وَأَحَبَّكِ إِلَيَّ، وَلَوْلا أَنَّ قَوْمِي أَخْرَجُونِي مِنْكِ، مَا سَكَنْتُ غَيْرَكِ»[١٣٩]، وفي رواية: أنه ﷺ وَقَفَ عَلَى الْحَزْوَرَةِ - موضع بمكة- فَقَالَ لمكة: «عَلِمْتُ أَنَّكِ خَيْرُ أَرْضِ الله، وَأَحَبُّ الأَرْضِ إِلَى الله عَزَّوَجَلَّ، وَلَوْلا أَنَّ أَهْلَكِ أَخْرَجُونِي مِنْكِ مَا خَرَجْتُ»[١٤٠].

ولقد تجسَّد مفهوم المواطنة من خلال وثيقة المدينة التي كانت بمثابة الدستور الأول المنظم للعلاقات بين البشر، والتي تعد أفضل أنموذج في فقه التعايش السلمي بين البشر جميعًا على اختلاف أديانهم وأعراقهم؛ لذا حققت نجاحًا على أرض الواقع.

على أن المواطنة تتضمن حقوقًا وواجبات، فمن حقوقها:

* حرية العقيدة والعبادة وممارسة الشعائر الدينية لكل أبناء الوطن الواحد، وأساس هذه الحرية قوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البَقَرَة: ٢٥٦]، ويقول سبحانه: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ وَتَمَّتۡ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ [هُود: ١١٨- ١١٩].

* المحافظة على الدماء والأموال والأعراض، فالأمن على الحياة مطلب إنسانيٌّ أكد عليه

الإسلام حتى مع غير المسلمين؛ لذا جعل الله عَزَّوَجَلَّ قتلَ نفسٍ واحدةٍ بمثابةِ قتلٍ للناسِ جميعًا، فقال تعالى: ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا﴾ [المائدة: ٣٢]، والأمر لا يقف عند حد القتل المادي فقط، بل يشمل أيضًا القتل المعنوي في شتَّى صوره وأشكاله، سواء أكان ذلك بالإذلال، أم بالقهر والتعذيب، أم بسلب الحرية، أم بغير ذلك من الصور.

وقد نهى الشارع عن أكل أموال الناس بالباطل لحرمتها، فأوجب قطع يد السارق، وحذر الأمة من أن يأكل بعضهم مال بعض، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡ﴾ [النساء: ٢٩].

وكذلك حفظ الشارع للأعراض حرمتها فأوجب صيانتها، وتوعد المخالف باللعنة، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [النور: ٢٣]، كذلك نهى الشارع عن الاقتراب من الفاحشة، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا﴾ [الإسراء: ٣٢].

* العدل والإنصاف بين أبناء الوطن الواحد في ضوء أسس المواطنة المتكافئة، والتعايش السلمي، واحترام الحقوق والواجبات المتبادلة تجاه الوطن والمواطن، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ [النساء: ٥٨]، والإنسان مطالب بأن يعدل حتى مع أعدائه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

وكما أن المواطنة تمنح المواطنَ حقوقًا فإنها تلزمه ببعض الواجبات، منها:

* التضحية من أجل الوطن، وللتضحية صورٌ متعددة، منها: التضحية بالنفس، وهي



أعلى وأغلى صور التضحية من أجل المحافظة على الأوطان، فحراسة الأوطان والدفاع عنها واجبٌ شرعيٌّ وضرورة وطنية عدّها الشرع من أفضل الأعمال عند الله عَزَّوَجَلَّ، وقد بشر النبي ﷺ حراس الوطن الذين يضحون بأنفسهم دفاعًا عن الوطن بقوله: «عَيْنَانِ لَا تَمَسُّهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ الله، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ الله»(١٤١).

وجديرٌ بالذكر أن هناك فرقًا بين التضحية بالنفس في سبيل الدين والوطن وبين من يفجر نفسه لإيذاء الآخرين، فليس هناك شرعٌ يبيح أو يجيز ذلك، فمفجر نفسه سواء أصاب غيره أم لم يصب منتحر، يعجل بنفسه إلى الهلاك في الدنيا والآخرة.

* العمل الجاد المثمر، واستثمار ثروات الوطن من أجل تحقيق نهضته وازدهاره، ولن يتحقق ذلك إلا برجالٍ مخلصين قادرين، يشاركون في تشجيع الاستثمار، وتنمية المجتمع، وفي الوقوف بجانب الفقراء والمحتاجين، فهذا واجبٌ وطنيٌّ ومطلب شرعيٌّ يتحتم عليهم أن يقوموا به، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].

* تقديم مصلحة الوطن العامة على المصلحة الخاصة، والمشاركة في المحافظة على أمنه واستقراره، والتصدي بحزمٍ لكل حملات التخريب والإفساد، وهذا لا يكون إلا بوحدة الصف والهدف، وأن نكون جميعًا على قلب رجل واحد، قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣].

إن الانتماء للوطن يحتم على المواطن الوفاء بكل حقوقه وعهوده ومواثيقه وقوانينه، ومن أهمها:

الحفاظ على كل من دخل بلدنا سائحًا، أو زائرًا، أو مقيمًا؛ لأن الإذن الذي يحصل عليه بدخول بلدنا إنما هو بمثابة عهد أمانٍ وضمانٍ من أن يؤذَى أو يعتدَى عليه بأي نوعٍ من أنواع الاعتداء، وأن الاعتداء على أيٍّ من السائحين، أو الزائرين، أو المقيمين، إنما هو خيانة دينية وطنية، وجريمة نكراء.

ونؤكد أن السياح والمقيمين لهم جميعًا أمان الله وأمان رسوله ﷺ وأمان الوطن، ولهم حق الحماية الكاملة، وأن الاعتداء على أي منهم قولًا أو فعلًا أمرًا يرفضه الشرع الحنيف ويجرِّمه القانون، ويستوجب أشد العقوبات، فقد أمرنا الله تعالى بالوفاء بالعقود، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ﴾ [النحل: ٩١]، وقال ﷺ: «الْمُسْلِمُونَ عِنْدَ شُرُوطِهِمْ إِلاَّ شَرْطًا حَرَّمَ حَلالًا، أَوْ شَرْطًا أَحَلَّ حَرَامًا»(١٤٢).

ومن ثمّ فإن التعامل مع السائحين والمقيمين والزائرين لبلادنا ينبغي أن يكون بالحسنى، مع وجوب حمايتهم وكفِّ الأذى عنهم؛ لأن الخروج على ذلك إنما هو خروج على مقتضيات الشرع والوطنية والإنسانية السوية.

(٥) من خطبة تقديم المصلحة العامة على الخاصة وأثره في استقرار المجتمعات وبناء الدول:

لا خلاف بين العقلاء وأولي الألباب في أنّ ما يحقق النفع العام للبلاد والعباد مقدمٌ على ما يحقق النفع الخاص لشخصٍ بعينه أو مجموعةٍ من الأشخاص؛ ذلك أن المصلحة العامة تجلب الخير والنفع للناس، وتدفع عنهم الشر والمفاسد، وتحقق حماية الوطن واستقراره وسلامة أراضيه، ولا شك أن تحقيق صلاح الأمة وعموم المجتمع هو ما يقتضيه فقه الأولويات، ولقد جاء الشرع الحنيف بما يتوافق مع العقل ويتناسب معه، حيث رغب في تقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة.

لقد أكد القرآن الكريم على أن الحفاظ على المصلحة العامة وتقديمها على المصالح الخاصة هو منهج الرسل والأنبياء جميعًا، يقول سبحانه على لسان سيدنا شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ٨٨ وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾ [هود: ٨٨ – ٨٩].

ومن أروع الأمثلة في ذلك ما جاء عن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: «يَا



رَسُولَ الله، هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ فَقَالَ: «لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي، فَقَالَ: إِنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ»، قَالَ: «فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ الله قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ، وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ، فَمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبَيْنِ»، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ الله مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ الله وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»(١١٣)، وقد كان للنبي ﷺ ما أراد، وأخرج الله عَزَّوَجَلَّ من أصلابهم رجالًا وَحَّدُوا الله، وحملوا راية السلام والإسلام للعالم أجمع.

وقد رَبَّى النبيُّ ﷺ أصحابه على هذه القيم والمبادئ التي من خلالها يرتقي الإنسان بنفسه، ويكون عنصرًا مفيدًا في مجتمعه، يعرف ما له وما عليه، فيتحقق الأمن والأمان والكفاية والاستقرار في المجتمع.

فهذا هو أبو طلحة الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يتصدق بأحب ماله إلى قلبه ويجعله صدقة جارية، فقد كَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَكْثَرَ الأَنْصَارِ بِالْمَدِينَةِ مَالًا مِنْ نَخْلٍ، وَكَانَ أَحَبُّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بَيْرُحَاءَ، وَكَانَتْ مُسْتَقْبِلَةَ الْمَسْجِدِ، وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَدْخُلُهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٍ، فَلَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢] قَامَ أَبُو طَلْحَةَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرُحَاءَ، وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لله، أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ الله، فَضَعْهَا يَا رَسُولَ الله حَيْثُ أَرَاكَ الله، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «بَخٍ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، وَقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الأَقْرَبِينَ»، فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: أَفْعَلُ يَا رَسُولَ الله،

فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ»[١١٤].

إن المتأمل في كثير من التشريعات الإسلامية يرى أنها تحثُّ وترغِّب وتعمِّق مبدأ تقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة، ومن صور ذلك ما يلي:

* في مجال التجارة: نهى النبي ﷺ عن الاحتكار والاستغلال، فقَالَ ﷺ: «مَنِ احْتَكَرَ فَهُوَ خَاطِئٌ»[١١٥]، فالمحتكر وإن كان ظنه أن في ذلك تحقيق مصلحة شخصية له بنمو ربحه وتكثير ماله، إلا أن ذلك لما كان فيه ضرر على المجتمع وتضييق على الناس، كان في نظر الشارع يستحق العقوبة؛ مراعاة لتقديم المصلحة العامة على المصلحة الشخصية.

* في مجال التكافل المجتمعي: نهى النبي ﷺ عن ادخار الغـذاء وتخزينـه إذا كان المجتمـع في حاجة إليه، فعَنْ سَلَمَةَ بْنِ الأَكْوَعِ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ ضَحَّى مِنْكُمْ فَلَا يُصْبِحَنَّ بَعْدَ ثَالِثَةٍ وَبَقِيَ فِي بَيْتِهِ مِنْهُ شَيْءٌ»، فَلَمَّا كَانَ العَامُ المُقْبِلُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، نَفْعَلُ كَمَا فَعَلْنَا العَامَ المَاضِي؟ قَالَ: «كُلُوا وَأَطْعِمُوا وَادَّخِرُوا، فَإِنَّ ذَلِكَ العَامَ كَانَ بِالنَّاسِ جَهْدٌ، فَأَرَدْتُ أَنْ تُعِينُوا فِيهَا»[١١٦].

* في مجال المعاهدات الخارجية: ردَّ النبي ﷺ أبا بصير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بعد صلح الحديبية وفقًا للمعاهدة التي كانت بينه ﷺ وبين قريش مع احتمال تعرض هذا الصحابي للأذى؛ حفاظًا على العهد الذي عاهد عليه قريشًا، وهذا من باب الوفاء بالعهد من جهة، ومن باب تقديم وتغليب المصلحة العامة من جهة أخرى.

على أننا نؤكد أنَّ من المصالح العامة تلبية حاجات المجتمع الضرورية ومراعاة فقه الواقع وتقديم فقه الأولويات، ولإعلاء المصلحة العامة أعلى الإسلام من شأن الوصية والصدقة الجارية، فقال نبينا ﷺ: «ما حَقُّ امرئٍ مُسلمٍ له شيءٌ يُوصي فيه، يبيتُ لَيلَتينِ إلَّا ووصيتُه مكتوبةٌ عنده»[١١٧]، وقال ﷺ: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»[١١٨]، وقال ﷺ: «سَبْعٌ يَجْرِي أَجْرُهَا لِلْعَبْدِ بَعْدَ مَوْتِهِ وَهُوَ فِي قَبْرِهِ، مَنْ عَلَّمَ عِلْمًا، أَوْ أَجْرَى



نَهْـرًا، أَوْ حَفَرَ بِئْـرًا، أَوْ غَرَسَ نَخْلًا، أَوْ بَنَى مَسْجِدًا، أَوْ وَرَّثَ مُصْحَفًا، أَوْ تَرَكَ وَلَـدًا يَسْتَغْفِرُ لَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ»(٤٤٩).

وختامًا.. فقد يظن بعض من لا علاقة لهم بالعلم، ولا الأدب، ولا البلاغة، ولا الفصاحة، أن الخطابة صنعة من لا صنعة له، كما صار الحال مع بعض من يظن أن القصة والمقالة كذلك.

وقد أغرى ما آل إليه حال الخطابة من الضعف في حقبٍ سابقة بركوب مركب وعرٍ وناقة غير ذلول، فضلُّوا وأَضَلُّوا، فكان لابد من إعطاء القوس باريها، والرمح راميها، فقررنا منع غير المؤهلين من صعود المنبر؛ حفاظًا على المنبر وعلى الأمن الفكري للمجتمع من جهالة الجهلاء، وتنطع المتشددين، وأباطيل المتطرفين.

وفي المقابل حاولنا أن نأخذ وبقوة بأيدي أبنائنا الأئمة إلى طريق الجادة من خلال برامج التدريب والتأهيل التي تحولت بهم من مناهج الحفظ والتلقين إلى مناهج الفهم والتفكير، وبيان أن الخطابة علمٌ وفنٌ، تتطلب قدرات خاصة، وخضنا بهم في غمار الحياة، فعالجنا معهم موضوعات العصر وقضاياه، وأخرجنا «موسوعة الخطب العصرية» في ثمانية أجزاء، و«مائة خطبة عصرية في قضايا الساعة» في جزءين، فعالجت هذه الخطب موضوعات في غاية الأهمية والحيوية، منها على سبيل المثال:

١- أهمية التخطيط في حياة الفرد والمجتمع.

٢- حماية الشأن العام والمصلحة العامة.

٣- مفهوم عهد الأمان في العصر الحاضر.

٤- فروض الكفايات ودورها في تحقيق التوازن المجتمعي.

٥- ترتيب الأولويات وأثره في حياة الفرد والمجتمع.

٦- رعاية المسنين وحماية حقوقهم.

٧- الضوابط الشرعية للإنجاب، وحق الطفل في الرعاية والنشأة الكريمة.

٨- خطورة الإدمان والمخدرات على الفرد والمجتمع.

٩- ضوابط الأسواق وآدابها.

١٠- الإتقان سبيل الأمم المتحضرة.

١١- النفع العام في ميزان الشرع الشريف.

١٢- حرمة التلاعب بأقوات الناس وحاجاتهم الأساسية.

١٣- مبدأ الحق مقابل الواجب وسيلة لإصلاح المجتمع.

١٤- مفهوم المواطنة والانتماء وواجبنا تجاه السائحين والزائرين والمقيمين.

١٥- تقديم المصلحة العامة على الخاصة وأثره في استقرار المجتمعات وبناء الدول.

ولنجاح الخطبة مقومات، من أهمها: حسن اختيار الموضوع، ومواكبته لظروف عصره، وتفاعله مع أحداثه وقضاياه لا قضايا غيره، ولا قضايا بيئة غير بيئته، وكلما مسَّت الخطبة حياة الناس كانت ألصق بهم وأكثر تأثيرًا فيهم.

ومنها: قناعة الخطيب بما يقول وإيمانه به، يقولون: ما خرج من القلب استقر في القلب، وما خرج من اللسان لا يكاد يجاوز الآذان، ففاقد الشيء لا يعطيه، والشعور الصادق يتعدى، أما المفتعل أو الكاذب فلا صدى له، وليست النائحة كالثكلى.

ومن أهمها ولا سيما في عصرنا الحاضر: عدم الإطالة التي تصل بالمستمع إلى الإملال ولو في أدنى درجاته.

ومنها: إعداد الخطيب لموضوعه إعدادًا جيدًا، وترتيبه لأفكاره، وعدم اعتماده على خبرته أو مخزونه الفكري والثقافي فحسب، وعدم استهانته بثقافة المتلقين، أو عدم تقديره لثقافتهم ووعيهم، كما أن عليه أن يقدم جديدًا سواء في المضمون والأفكار التي يتناولها أو في طريقة عرضه لموضوع خطبته.

ومنها: حسن اللمحة والإشارة، وتمثيل المعاني، والتماهي مع كل موقفٍ بما يناسبه من الانفعالات ودرجات الصوت وطبقاته، والقدرة على الإقناع بالحجة والبرهان.

ومن أهمها: مدى قابلية ما يعرضه للتطبيق وإمكانية تحويله إلى عمل، بحيث لا مجرد كلام وجدل، فالعاقل من يعمد إلى ما يترتب عليه عمل لا ما يسوق أو يجر إلى المراء والجدل، وأن



يكون هدف الخطيب في تحديد مرامي خطبه شديد الوضوح بلا تعقيد ولا تكلف ولا التواء، ولا تقعر في الكلام، ولا في طبقات الصوت.

ومن أهمها ولا سيما في مجال الخطابة الدينية: أن يكون الخطيب قدوة بين مستمعيه ومحيطه المجتمعي، فقد قالوا: حال رجلٍ في ألفٍ خير من كلام ألفٍ لرجل، وقديمًا قال سيدنا عثمان ابن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنتم إلى خطيب فعَّال أحوج منكم إلى خطيب قوَّال، ويقول أبو الأسود الدؤلي رَحِمَهُ اللَّهُ[100]:

يَـا أَيُّهَـا الرَّجُـلُ الـمُعَلِّمُ غَيْـرَهُ
هَـلَّا لِنَفْسِـكَ كَانَ ذَا التَّعْلِيـمُ
تَصِفُ الدَّوَاءَ لِذِي السَّقَامِ وَذِي الضَّنَى
كَيْـمَا يَصِحُّ بِهِ وَأَنْتَ سَقِيـمُ
وَأَرَاكَ تُصْلِـحُ بِالـرَّشَـادِ عُقُـولَنَـا
أَبَدًا وَأَنْـتَ مِنَ الرَّشَـادِ عَقِيمُ
لَا تَنْـهَ عَنْ خُلُـقٍ وَتَـأْتِيَ مِثْـلَهُ
عَـارٌ عَلَيْـكَ إِذَا فَعَلْـتَ عَظِيـمُ
ابْـدَأْ بِنَفْسِـكَ فَانْهَهَـا عَنْ غَيِّهَـا
فَـإِذَا انْتَهَـتْ عَنْهُ فَأَنْتَ حَكِيمُ
فَهُنَـاكَ يُقْبَـلُ مَا وعَظـتَ وَيُقْتَـدَى
بِالعِـلْمِ مِنْكَ وَيَنْفَعُ التَّعْلِيـمُ

ومن أهمها: سلامة اللغة، وصحة العبارة، وفصاحة الكلمة، وسلاسة الأسلوب، ووحدة الموضوع، وبراعة الاستهلال، وحسن الربط والانتقال، وحسن الختام.

مع تأكيدنا أن لكل لون من ألوان الخطابة ثقافته ومقوماته وطبيعته وخصوصيته، وأبرزها خبرة الخطيب في المجال الذي يتناوله سياسيًّا كان، أو دينيًّا، أو قضائيًّا، أو برلمانيًّا، أو اجتماعيًّا.

* * *

الهوامش:

(١) هو: قس بن ساعدة الإيادي، خطيب العرب وشاعرها وحكيمها وحليمها في عصره، وهو أول من علا على شرف وخطب عليه، وأول من اتكأ في خطبته على سيف أو عصا، وأول من قال في كلامه: أما بعد، وأدركه رسول الله ﷺ قبل النبوة، ورآه بعكاظ، وكان يؤثر عنه كلامًا سمعه منه، توفي سنة ٢٣ قبل الهجرة. انظر: الوافي بالوفيات، لصلاح الدين الصفدي، ٢٤/ ١٨٠، تحقيق: أحمد الأرناؤوط، دار إحياء التراث، بيروت، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م.

(٢) المعجم الكبير للطبراني، ١٢/ ٨٨، حديث رقم: ١٢٥٦١.

(٣) انظر: الكامل في اللغة والأدب للمبرد، ٤/ ٤، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م.

(٤) هو: هانئ بن قبيصة بن هانئ بن مسعود الشيباني، أحد الشجعان الفصحاء في أواخر العصر الجاهلي، كان سيد بني شيبان. انظر: تاريخ الطبري، محمد بن جرير الطبري، ٢/ ٢٠٦- ٢٠٧، دار التراث، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٨٧هـ.

(٥) يوم ذي قار: يوم ينسب إلى منطقة ذي قار، وهي منطقة قريبة من الحيرة، وقعت فيها أعظم الأيام الحربية التي انتصر فيها العرب على العجم، وكان سبب هذا اليوم أن كسرى طلب تركة النعمان بن المنذر، وكان النعمان قد تركها عند هانئ بن قبيصة أمانة، فرفض أن يفرط فيها اؤتمن عليه؛ فأمر كسرى بإعداد جيش من الولايات الفارسية والعربية الحدودية، فهب هانئ بن قبيصة إلى قومه ليلًا، وحرضهم على القتال، واجتمع العرب على العجم فغلبوهم. انظر: العمدة في محاسن الشعر وآدابه، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي، ٢/ ٢١٨، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، الطبعة الخامسة، ١٤٠١هـ-١٩٨١م، وتاريخ شبه الجزيرة العربية في عصورها القديمة، عبد العزيز صالح، ص ١٥٦، مكتبة الأنجلو المصرية.

(٦) انظر: الأمالي لأبي عليّ القالي، ١/ ١٦٩، دار الكتب المصرية، الطبعة الثانية، ١٣٤٤هـ- ١٩٢٦م.

(٧) هو: نفيل بن عبد العزّى القرشي العدوي، جد الفاروق عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، من كبار خطباء مكة قبل الإسلام، وكان يحكم بين المتنافرين بالأسجاع. انظر: البيان والتبيين للجاحظ، ١/ ٢٥٠، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣هـ وتاريخ الأدب العربي، د/ شوقي ضيف، ص ٤١٣، دار المعارف، مصر، الطبعة الأولى، ١٩٦٠م.

(٨) الصفد: العطاء. وقد أَصْفَدَه: أي أعطاه. انظر: لسان العرب، مادة (صفد).

(٩) المذود: اللسان لأنه يذاد به عن العرض. انظر: لسان العرب، مادة (ذود).

(١٠) المريرة: الحبل الشديد الفتل، والعزيمة. انظر: لسان العرب، مادة (مدر).

(١١) انظر: المنمق في أخبار قريش، أبو جعفر البغدادي، ص٩١، تحقيق: خورشيد أحمد فاروق، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

(١٢) طمح: ذهب وارتفع وعلا.

(١٣) الأشر: الكبر والبطر.

(١٤) ران: غلب.

(١٥) طخطخ الجهل: انضم بعضه إلى بعض. يقال للرجل الضعيف النظر: متطخطخ، وقد طخطخ الليل بصره إذا حجبته الظلمة عن انفساح النظر. لسان العرب، مادة (طخخ).

(١٦) مثر: كثير الثروة.

(١٧) الحول: شديد الاحتيال.

(١٨) مكد: قليل الخير.

(١٩) شاب مختصر: مات في الشباب.

(٢٠) اليفن: الشيخ الكبير.

(٢١) غبر: المراد بها هنا: مكث.

(٢٢) الأير: الصلب، والبَرَرُ: مصدر قولهم: حجرٌ أيرّ؛ أي: صَلْد صُلب، يقال: صخرةٌ يَرّاءُ وحَجَرٌ أَيَرٌ. (لسان العرب، مادة (برر).

(٢٣) المدر: قطع الطين اليابس. (لسان العرب، مادة (مدر).

(٢٤) انظر: الأمالي لأبي علي القالي، ١/ ٢٧٣، وجمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة، أحمد زكي صفوت، ١/ ٣٩-٤٠، المكتبة العلمية، بيروت.

(٢٥) هو: أبو شهاب عمران بن حطان بن ظبيان، من بني سدوس بن شيبان، من بكر بن وائل، كان في أول أمره من أهل السنة والجماعة، فلما تقدمت به السن انتقل إلى مذهب الخوارج، فكان من خطبائهم وشعرائهم. انظر: تاريخ الأدب العربي، د/ عمر فروخ، ١/ ٤٩٩، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٨١م، وتاريخ الأدب العربي، د/ شوقي ضيف، ص٤١٣.

(٢٦) انظر: البيان والتبيين للجاحظ، ٢/ ٦، دار مكتبة الهلال، بيروت.

(٢٧) يدهن من دهنه: المراد به إزالة شعث الشعر به، وفيه إشارة إلى التزين يوم الجمعة.

(٢٨) صحيح البخاري، كتاب الجمعة، باب الدهن للجمعة، حديث رقم: ٨٨٣.

(٢٩) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الجمعة، باب الإنصات يوم الجمعة، حديث رقم: ٩٣٤، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب الجمعة، باب الإنصات يوم الجمعة في الخطبة، حديث رقم: ٨٥١.

(٣٠) مسند أحمد، ٢/ ١٢٥، حديث رقم: ٧١٩، واللفظ له، وسنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب فضل الجمعة، حديث رقم: ١٠٥٣، وانظر: نيل الأوطار للشوكاني، ٣/ ٢٧١، دار الحديث، مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ- ١٩٩٣م.

(٣١) انظر: فتح الباري لابن حجر، ٢/ ٤١٥، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.

(٣٢) راجع في ذلك: الأدب الإسلامي في عصره الأول، د/ صلاح الدين عبد التواب، ص٣٤، دار الطباعة المحمدية، ١٤٠١هـ- ١٩٨١م، ودراسات في الأدب العربي، أ.د/ طاهر عبد اللطيف عوض، ص١٣٠، مكتبة الكليات الأزهرية، جامعة الأزهر.

(٣٣) انظر: دراسات في الأدب العربي، أ.د/ طاهر عبد اللطيف عوض، ص ١٣٣.

(٣٤) العبية (بضم العين وتشديد الموحدة فالمثناة): الكبر والفخر، وعبية الجاهلية نخوتها.

(٣٥) الجعلان: جمع جُعَل (بضم ففتح)، وهو دابة سوداء كالخنفساء.

(٣٦) سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب التفاخر بالأحساب، حديث رقم: ٥١١٦.

(٣٧) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد، ٣/ ٣٩٦.

(٣٨) انظر: البيان والتبين، ٢/ ٦، دار ومكتبة الهلال، بيروت.

(٣٩) الإلحاف بالمسألة: الإلحاحُ فيها. انظر: العين، مادة (لحف).

(٤٠) انظر: عيون الأخبار، ٢/ ٢٥٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ.

(٤١) مسند أحمد، ١/ ٣١١، حديث رقم: ١٧٧.

(٤٢) انظر: دراسات في الأدب العربي، أ.د/ طاهر عبد اللطيف عوض، ص١٣٠.

(٤٣) انظر: المرجع السابق، ص١٣٠.

(٤٤) أَكْيَسُ، أي أَعْقَلُ. والكَيْسُ: العقل والفطنة والفقه. انظر: تاج العروس، مادة (كيس).

(٤٥) انظر: عيون الأخبار، ٢/ ٢٥٤.

(٤٦) الوَحى: العَجَلةُ، يَقُولُونَ: الوَحى الوَحى والوَحاء الوَحاء يعني: البِدارَ البِدارَ، والإسراع. انظر: لسان العرب، مادة (وحى).

(٤٧) انظر: عيون الأخبار لابن قتيبة، ٢/ ٢٥٢.

(٤٨) انظر: العقد الفريد لابن عبد ربه، ٤/ ١٥٦، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.

(٤٩) انظر: السابق، ٤/ ١٥٦- ١٥٧.

(٥٠) انظر: تاريخ الطبري، ٤/ ٤٢٢.

(٥١) المصدر السابق، ٤/ ٣٨٤.

(٥٢) ظعن: سار، وارتحل، والظعينة: الراحلة يرتحل عليها، والمعنى: أمرتم بالسير. انظر: القاموس المحيط، مادة (ظعن).

(٥٣) انظر: عيون الأخبار، ٢/ ٢٥٦.

(٥٤) العالج من الرمل: ما تراكم من الرمل ودخل بعضه في بعض. انظر: لسان العرب، مادة (علج).

(٥٥) انظر: العقد الفريد، ١/ ٤٩٢.

(٥٦) هو: الحسن بن يسار البصري، تابعي، كان أبوه يسار من سبي ميسان مولى لبعض الأنصار، ولد بالمدينة، وكانت أمه ترضع لأم سلمة، رأى بعض الصحابة وسمع من قليل منهم، كان ناسكًا، فصيحًا، عالمًا، شهد له الإمام أنس بن مالك وغيره، وكان إمام أهل البصرة، وولي القضاء بها أيام عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، توفي سنة ١١٠هـ. انظر: تهذيب التهذيب، ٢/ ٢٤٢ - ٢٧١.

(٥٧) انظر: البيان والتبين، ١/ ٣٥٤.

(٥٨) هو: عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم، قرشي من بني أمية، لُقِّب بالخليفة الصالح؛ لعدله وحزمه، معدود من كبار التابعين، ولد ونشأ بالمدينة، وولي إمارتها للوليد، ثم استوزره سليمان بن عبد الملك، وولي الخلافة بعهدٍ من سليمان سنة ٩٩هـ فبسط العدل، وسكّن الفتن، توفي سنة ١٠١ هـ. انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد، ٥/ ٢٥٣، دار الكتب العلمية.



(٥٩) سيرة عمر بن عبد العزيز على ما رواه الإمام مالك بن أنس وأصحابه، لأبي محمد المصري، ص٤٠، تحقيق: أحمد عبيد، عالم الكتب، بيروت، لبنان، الطبعة السادسة، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

(٦٠) الصدع (بفتح فسكون): الشق.

(٦١) اللحمة (بضم فسكون): القرابة.

(٦٢) الغضارة (بفتح العين): النعمة والسعة.

(٦٣) انظر: تاريخ الطبري، ٦/ ٥٧٠-٥٧١، وعيون الأخبار، ٢/ ٢٦٨.

(٦٤) الثواء (بالفتح والمد): الإقامة.

(٦٥) انظر: جمهرة خطب العرب، أحمد زكي صفوت، ٢/ ٤٨٥.

(٦٦) انظر: الخطابة أصولها وتاريخها وأزهر عصورها عند العرب، محمد أبو زهرة، ص ٣٢٨- ٣٢٩، دار الفكر العربي، الطبعة الثانية، ١٩٨٠م.

(٦٧) هو: أبو محمد الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفي، ولد سنة ٤٠هـ، وقيل: ٤١هـ، انتقل إلى الشام فلحق بروح بن زنباع نائب عبد الملك بن مروان؛ فكان في عديد شرطته، ثم ما زال يظهر حتى قلَّده عبد الملك أمر عسكره، ثم ولّاه عبد الملك مكة والمدينة والطائف والعراق وخراسان، فلما توفي عبد الملك وتولى الوليد أبقاه على ما بيده، وتوفي في رمضان، وقيل: في شوال، سنة ٩٥هـ. انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان، ٢/ ٥٣، دار صادر، بيروت.

(٦٨) الإدهان: اللين والمصانعة. قال الله تعالى: ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾. انظر: العين، ٤/ ٢٧، مادة (دهن).

(٦٩) انظر: العقد الفريد، ٢/ ١٩.

(٧٠) راجع في نكبتهم: تاريخ الطبري، ٨/ ٢٨٧ وما بعدها، والعصر العباسي الأول، د/ شوقي ضيف، ص ٢٤.

(٧١) راجع: تاريخ الأدب العربي لعمر فروخ، ٢/ ٣٦.

(٧٢) انظر: ديوان المتنبي: شرح البرقوقي، ٢/ ١٠، دار الكتاب العربي، بيروت، سنة ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.

(٧٣) انظر: الجامع الصغير للسيوطي، ص٣٩، حديث رقم: ٥٢٢.

(٧٤) ديوان المعاني لأبي هلال العسكري، ١/ ١٠-١٢، بتصرف.

(٧٥) انظر: العصر العباسي الأول، د/ شوقي ضيف، ص ٢٦.

(٧٦) انظر: عصر الدول والإمارات «مصر – الشام»، د/ شوقي ضيف، ص ٢٢-٢٣.

(٧٧) راجع: تاريخ الطبري، ٨/ ٥٥٦، ٩/ ١٣ - ٢٣، وتاريخ الأدب العربي، د/ شوقي ضيف، ص٤١.

(٧٨) انظر: تاريخ الأدب العربي، د/ شوقي ضيف، ص ٣٢- ٣٣.

(٧٩) هو: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم، المهدي، ابن المنصور، بويع بالخلافة عند موت أبيه بالحجاز سنة ١٥٩هـ وقدم إلى دمشق في خلافته، ومضى إلى بيت المقدس، وأخذ في رد المظالم وإخراج ما في الخزائن، وأمر ببناء مسجد الرصافة، وتزوّج ريطة ابنة عمّه، والخيزران ولدت له موسى الهادي وهارون الرشيد، وتزوّج أمّ

عبد الله بنت صالح أخت الفضل وعبد الله، وتوفي بالحمى سنة ١٦٩هـ وعمره ٤٣ سنة. انظر: تاريخ دمشق لابن عساكر، ٥٣/ ٤١١، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥م.

(٨٠) انظر: العقد الفريد، ٤/ ١٨٨- ١٩٠.

(٨١) هو: هارون بن محمد (المهدي) ابن أبي جعفر المنصور العباسي: خامس خلفاء الدولة العباسية في العراق، وأشهرهم، بويع له بالخلافة ليلة مات أخوه، وذلك سنة ١٧٠هـ وعمره يومئذ ثنتان وعشرون سنة، وبلغت الدولة في أيامه قمة أوجها وعظمتها واستقرارها، وكان شجاعًا، قاد الجيوش وهو في سن العشرين، وكان تقيًّا يخشى الله في أموره كلها، ومن فضائله: رعايته للعلم وتأسيسه «بيت الحكمة» الذي انبعثت منه الشعلة التي أضاءت الطريق للنهضة الأوروبية فيما بعد، وتُوفِّي سنة ١٩٣هـ وعمره خمس وأربعون سنة. انظر: تاريخ الرسل والملوك وصلة تاريخ الطبري لأبي جعفر الطبري، ٨/ ٢٣٠-٢٣٤.

(٨٢) مسند الإمام أحمد، ١٩/ ٣٧٥- ٣٧٦، حديث رقم: ١٢٣٨٣.

(٨٣) انظر: العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي، ٤/ ١٩٠- ١٩٢.

(٨٤) هو: عبد الله بن هارون الرشيد، ولد سنة ١٧٠هـ وكان يكنى: أبا العباس، ويُلقب بالمأمون، تلقى العلوم العربية، وأظهر نبوغًا خلال دراسته، وتدرَّب على فنون القتال والنزال وقيادة الجند، اتصف بالعفو والحلم حتى اشتهر بذلك، وكان للمأمون ولعٌ بالأمور العلمية والفلسفية، فكان يعقد مجالس المناظرة ويبعث في طلب العلماء والأعلام من بيزنطة لحضورها، وأقام مكتبة ضخمة في بيت الحكمة، وجهازًا كبيرًا للترجمة من مختلف اللغات إلى اللغة العربية، حشد له نحو سبعين مترجمًا، وتُوفِّي سنة ٢١٨هـ. انظر: التنبيه والإشراف، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، ص ٣٠٢ – ٣٠٥، تصحيح: عبد الله إسماعيل الصاوي، دار الصاوي، القاهرة، وتاريخ دمشق لابن عساكر، ٣٣/ ٣١٢.

(٨٥) انظر: العقد الفريد، ٢/ ١٢.

(٨٦) انظر: المصدر السابق، ٤/ ١٩٢- ١٩٣.

(٨٧) انظر: الوسيط في الأدب العربي وتاريخه، تأليف الشيخ: أحمد الإسكندري، والشيخ: مصطفى عناني، ص٣١٧، الطبعة السابعة عشرة، دار المعارف بمصر.

(٨٨) انظر: الميثاق، الرئيس/ جمال عبد الناصر، ص ٢١، قدمه الرئيس/ جمال عبد الناصر إلى المؤتمر الوطني للقوى الشعبية يوم ٢١ مايو ١٩٦٢م، الجمهورية العربية المتحدة، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٢م، وانظر: الوسيط في الأدب العربي وتاريخه، ص ٣١٧.

(٨٩) انظر: الأدب العربي المعاصر في مصر، د/ شوقي ضيف، ص١٣، ط٧، دار المعارف بمصر، سنة ١٩٧٩م.

(٩٠) راجع: في الأدب الحديث لعمر الدسوقي، ١/ ١٦ – ١٨، مطبعة الرسالة، نشر دار الفكر العربي، الطبعة الثامنة، سنة ١٩٧٠م.

(٩١) انظر: تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان، ٤/ ١٣، تعليق: د/ شوقي ضيف، دار الهلال.

(٩٢) انظر: الوسيط في الأدب العربي وتاريخه، ص ٣٣٦.



(٩٣) انظر: تاريخ الأدب العربي في العصر الحاضر، لأستاذنا الدكتور/ إبراهيم علي أبو الخشب، ص٩٨، الهيئة المصرية العامة للكتب، سنة ١٩٨٤م، عن كتاب «الأدب والنصوص» لمهدي علام وآخرين.

(٩٤) انظر: الشوقيات، أحمد شوقي، ٢/ ٤٠٩، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة.

(٩٥) راجع، ص٤٠٧.

(٩٦) انظر: الشوقيات، أحمد شوقي ١/ ٢٠٣.

(٩٧) خرز السماء: نجومها.

(٩٨) الزهر: جمع أزهر، وهو كل لون أبيض صافٍ مشرق مضيء.

(٩٩) الذُّرا: ما استتر به، يقال: أنا في ذرا فلان، أي في كنفه وحمايته.

(١٠٠) انظر: أحمد شوقي للدكتور/ زكي مبارك، ص٢٨٢، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٨م.

(١٠١) انظر: في الأدب الحديث لعمر الدسوقي، ١/ ١٩- ٢١، وعلى الرغم من هذه النهضة فإن محمد علي قد حكم المصريين بالقهر، وجعل من مصر مزرعة كبرى يجني وحده خيراتها، وينفق من تلك الخيرات على الجيش الذي يعده لتمكين ملكه، وتوطيد دعائم عرشه، وتوسيع نفوذه، وأخذ يسوق المصريين إلى الجندية سوق القطيع في معاركه مع السلطان أو الوهابيين، وكان يفضل الأجانب على المصريين، يقول الشيخ محمد عبده: «فصغرت نفوس الأهالي بين أيدي الأجانب بقوة الحاكم، وتمتع الأجنبي بحقوق الوطني التي حرمها، وانقلب الوطني غريبًا في داره غير مطمئن في قراره، فاجتمع على سكان البلاد المصرية ذلان: ذل ضريبة الحكومة الاستبدادية المطلقة، وذل سامهم الأجنبي إياه ليصل إلى ما يريد منهم غير واقف عند حدٍّ أو مردود إلى شريعة».

(١٠٢) كان محمد علي قد اشترى مطبعة نابليون التي تركها الفرنسيون عند خروجهم من القاهرة سنة ١٨٠١م، غير أنها لم تعمل إلا سنة ١٨٢١م بعد أن استقر الأمر لمحمد علي، وأحس بحاجته الشديدة إلى النهضة العلمية، وقد كانت الطباعة من أهم وسائلها.

(١٠٣) كان محمد علي قد أصدر سنة ١٨٢٢م «جرنال الخديوي» غير أنها كانت شبه خاصة، فكان يطبع منها مائة نسخة فقط، وكانت ترسل إلى رجال الدولة الذين يهم الحاكم أن يقفوا منه على أحوال البلاد؛ ولذا اعتبرنا «الوقائع المصرية» أول صحيفة عربية عامة.

(١٠٤) انظر: تاريخ آداب اللغة العربية، لجرجي زيدان ٤/ ٥٤.

(١٠٥) من الأدب الحديث في ضوء المذاهب الأدبية والنقدية، للأستاذ الدكتور/ علي علي صبح، ص١٥.

(١٠٦) انظر: من الأدب الحديث في ضوء المذاهب الأدبية والنقدية، ص١٥، ٢٢.

(١٠٧) انظر: تاريخ الأدب العربي في العصر الحاضر للأستاذ الدكتور/ إبراهيم علي أبو الخشب، ص٥٩.

(١٠٨) هو: مصطفى كامل بن علي محمد، نابغة مصر في عصره، وأحد مؤسسي نهضتها الوطنية، ولد في القاهرة سنة ١٨٧٤م، وكان أبوه ضابطًا مهندسًا، أحرز شهادة الحقوق من جامعة (تولوز) بفرنسا، وكان فصيحًا، ساحر البيان، انصرف إلى مقاومة الاحتلال بخطبه ومقالاته وكتبه. ونشر دعوته السياسية في صحف فرنسا ومجتمعاتها، وأنشأ في مصر جريدة (اللواء) اليومية سنة ١٩٠٠م، وأنشأ جريدتين إحداهما بالإنجليزية والثانية بالفرنسية، سمى كلًا منهما (اللواء) أيضًا، وتوفي شابًا سنة ١٩٠٨م،

فرثاه شعراء مصر وكتَّابها. انظر: الأعلام للزركلي، ٧/ ٨، الطبعة الخامسة عشرة، دار العلم للملايين، ٢٠٠٢م.

(١٠٩) انظر: تطور الأدب الحديث في مصر، أحمد عبد المقصود هيكل، ص ١٧٨ - ١٧٩، دار المعارف، الطبعة السادسة، ١٩٩٤م.

(١١٠) هو: سعد زغلول، ولد عام ١٨٥٨م في قرية إبيانة مركز فوه التابعة وقتذاك لمديرية الغربية، بدأ تعليمه في الكتَّاب؛ حيث تعلَّم القراءة والكتابة وحفظ القرآن، ومبادئ الحساب، وفي عام ١٨٧٠م التحق بالجامع الدسوقي لكي يتم تجويد القرآن، ثم التحق بالأزهر عام ١٨٧٣م ليتلقى علوم الدين. كذلك فقد تتلمذ على يد المصلح الديني الكبير الشيخ الإمام/ محمد عبده، فشب بين يديه كاتبًا خطيبًا، أديبًا سياسيًّا، وطنيًّا؛ إذ كان صديقًا له رغم العشر سنوات التي كانت تفصل بينهما في العمر، عمل في الوقائع المصرية، وعمل معاونًا بنظارة الداخلية، وشارك في الثورة العرابية، عمل بالمحاماة، وقاد سعد زغلول ثورة ١٩١٩م، وشكَّل أول وزارة يرأسها مصري من أصول ريفية، وسميت وزارة الشعب، وأسهم في تأسيس الجامعة المصرية، ونقابة المحامين، توفي في ٢٣ من أغسطس ١٩٢٧م. انظر: الأعلام للزركلي، ٣/ ٨٣.

(١١١) انظر: تطور الأدب الحديث في مصر، ص ٤٠٦ - ٤٠٧.

(١١٢) هو: وليم مكرم عبيد، ولد ٢٥ من أكتوبر ١٨٨٩م بمحافظة قنا لعائلة من أشهر العائلات المصرية، درس القانون في أكسفورد، عمل في مجال الترجمة والدعاية في الخارج ضد الاحتلال، عُيِّن وزيرًا للمواصلات عام ١٩٢٨م، بعد معاهدة ١٩٣٦م عُيِّن وزيرًا للمالية، ثم عمل بالمحاماة، ونذر وقته كله للدفاع عن قضايا الوطن، توفي ٥ من يونيو ١٩٦١م. انظر: موسوعة نساء ورجال من مصر، لمعي المطيعي، ص ٢٧٨، دار الشروق، القاهرة، ٢٠٠٢م، ومكرم عبيد كلمات ومواقف، منى مكرم عبيد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٠م.

(١١٣) انظر: مكرم عبيد كلمات ومواقف، ص٩١، ٩٢.

(١١٤) المرجع السابق، ص ٩٦.

(١١٥) انظر: مكرم عبيد كلمات ومواقف، ص ١٤٩، ١٥٠.

(١١٦) هو: طه حسين علي، ولد في إحدى قرى محافظة المنيا بصعيد مصر في عزبة «الكيلو»، وكان والده موظفًا صغيرًا في شركة السكر، فقد طه حسين بصره في السادسة من عمره نتيجة الفقر والجهل، وحفظ القرآن الكريم قبل أن يغادر قريته إلى الأزهر طلبًا للعلم، وفي الأزهر تتلمذ على يد الإمام محمد عبده والتحق بالجامعة المصرية التي حصل منها على درجة الدكتوراه الأولى في الآداب عام ١٩١٤م عن أبي العلاء المعري، ثم حصل على درجة الدكتوراه من فرنسا، وبعد عودته سنة ١٩١٩م عمل أستاذًا للتاريخ اليوناني والروماني إلى سنة ١٩٢٥م، حيث تم تعيينه أستاذًا في قسم اللغة العربية، ثم أصبح عميدًا لكلية الآداب عام ١٩٣٠م، وعين وزيرًا للمعارف، كما أنتج أعمالًا كثيرة قيمة، ولُقِّب بعميد الأدب العربي؛ نظرًا لتأثيره الواضح على الثقافة المصرية والعربية. وتوفي في ٢٨ من أكتوبر ١٩٧٣م عن عمر يناهز ٨٤ عامًا. انظر: الأعلام، للزركلي، ٧/ ٢٣١، ٢٣٢.

(١١٧) انظر: تطور الأدب الحديث في مصر، ص ٤٠٨ - ٤٠٩.

(١١٨) انظر: الشوقيات، أحمد شوقي، ٢/ ٤٥٥.

(١١٩) صحيح مسلم، كتاب اللقطة، باب استحباب المواساة بفضول المال، حديث رقم: ١٧٢٨.

(١٢٠) أخبار مكة للأرزقي، ٢/ ٦٩، تحقيق: رشدي الصالح ملحس، دار الأندلس للنشر، بيروت.

(١٢١) المرجع السابق، ٢/ ٦٩.

(١٢٢) سنن الترمذي، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة المسلمين، حديث رقم: ١٩٢٤، وقال: حسن صحيح.

(١٢٣) صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب السهولة والسماحة في البيع والشراء، حديث رقم: ٢٠٧٦.

(١٢٤) سنن الترمذي، أبواب البيوع، باب ما جاء في استقراض البعير أو الشيء من الحيوان أو السن، حديث رقم: ١٣٢٠، وقال: حسن صحيح غريب من هذا الوجه.

(١٢٥) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب من غشنا فليس منا، حديث رقم: ٢٩٥.

(١٢٦) سنن ابن ماجه، كتاب الأحكام، باب من بنى في حقه ما يضره بجاره، حديث رقم: ٢٣٤٠.

(١٢٧) مسند أحمد، ٨/ ٣٦٦، حديث رقم: ٨٦٠٢.

(١٢٨) مسند أحمد، ٤/ ٤٣٧، حديث رقم: ٤٨٨٠.

(١٢٩) سنن ابن ماجه، التجارات، باب الحكرة والجلب، حديث رقم: ٢١٥٣.

(١٣٠) سنن ابن ماجه، التجارات، باب الحكرة والجلب، حديث رقم: ٢١٥٥.

(١٣١) سنن الترمذي، أبواب البيوع، باب ما جاء في التجار وتسمية النبي إياهم، حديث رقم: ١٢٠٩، وقال: حديث حسن.

(١٣٢) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة والإسلام، حديث رقم: ٣٦٠٣، وصحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب الأمر بالوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول، حديث رقم: ١٨٤٣، واللفظ له.

(١٣٣) سنن الترمذي، كتاب الرضاع، باب ما جاء في حق المرأة، حديث رقم: ١١٦٣.

(١٣٤) صحيح مسلم، كتاب السلام، باب حق المسلم على المسلم، حديث رقم: ٢١٦٢.

(١٣٥) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله، حديث رقم: ٦٠١٨، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار، حديث رقم: ٤٨، واللفظ لمسلم.

(١٣٦) صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب إثم من باع حرًا، حديث رقم: ٢٢٢٧.

(١٣٧) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها، حديث رقم: ٢٥٥٨.

(١٣٨) المعجم الأوسط، للطبري، ١/ ٢٧٥، حديث رقم: ٨٩٧.

(١٣٩) سنن الترمذي، أبواب المناقب، باب في فضل مكة، حديث رقم: ٣٩٢٦، وقال: حسن صحيح.

(١٤٠) مسند أحمد، ٣١/ ١٠، حديث رقم: ١٨٧١٥.

(١٤١) صحيح ابن حبان، كتاب الحج، باب فضل مكة، ذكر البيان بأن مكة أحب الأرض إلى رسول الله ﷺ، حديث رقم: ٣٧٠٩.

(١٤٢) صحيح البخاري، كتاب الإجارة، باب أجرة السمسرة، ٣/ ٩٢ تعليقًا.

(١٤٣) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم آمين، حديث رقم: ٣٢٣١، وصحيح مسلم، كتاب الجهاد، باب ما لقي النبي من أذى المشركين، حديث رقم: ١٧٩٥ وهذا لفظ مسلم.

(١٤٤) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب الزكاة على الأقارب، حديث رقم: ١٤٦١، وصحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب فضل النفقة والصدقة، حديث رقم: ٩٩٨ وهذا لفظ البخاري.

(١٤٥) صحيح مسلم، كتاب المساقاة، باب تحريم الاحتكار، حديث رقم: ١٦٠٥.

(١٤٦) متفق عليه: صحيح البخاري، كتاب الأضاحي، باب ما يؤكل من لحوم الأضاحي، حديث رقم: ٥٥٦٩، واللفظ له، وصحيح مسلم، كتاب الأضاحي، باب بيان ما كان من النهي عن أكل لحوم الأضاحي بعد ثلاث في أول الإسلام وبيان نسخه وإباحته إلى متى شاء، حديث رقم: ١٩٧٤.

(١٤٧) صحيح البخاري، كتاب الوصايا، باب الوصايا، حديث رقم: ٢٧٣٨، وصحيح مسلم، أو ل كتاب الوصية، حديث رقم: ١٦٢٧.

(١٤٨) صحيح مسلم، كتاب الوصية، باب ما يحق للإنسان من الثواب بعد وفاته، حديث رقم: ١٦٣١.

(١٤٩) مسند البزار، ١٣/ ٤٨٣، حديث رقم: ٧٢٨٩.

(١٥٠) انظر: جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي، المتوفى سنة: ١٣٦٢هـ ٢/ ٤٢٥، مؤسسة المعارف، بيروت.



فهرس الموضوعات



رقم الإيداع (٣٨٥٠ / ٢٠٢٣م)
الترقيم الدولى: 3 - 559 - 205 - 977 - 978

